بر الوالدين وصلة الأرحام

جمع وتحقيق
الفقير إلى الله تعالى

عبد الله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

«بِرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرُّكُمْ أَبْنَاؤُكَمْ»

[حديث شريف]

صدر الإذن بطبع هذه الرسالة
من المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الإعلام
برقم ٢٤٦١ /م وتاريخ ١٤/٤/١٤١٠ هـ
ومن مراقبة المطبوعات برئاسة
إدارات البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد
برقم ٥/٤٧ وتاريخ ١٥/١/١٤١٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن سلك طريقهم في العلم والعمل والدعوة إلى الله إلى يوم الدين .

وبعد : فإن بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إليهم من أهم المهمات وأوجب الواجبات وأعظم القربات ومن أفضل الأعمال الصالحات لأن في ذلك طاعة لله ولرسوله وأداء لحق الوالدين والأقارب الذي هو من آكد الحقوق بعد حق الله تعالى وحق رسوله ﷺ .

ولأن الله أمر ببرهم وصلتهم والإحسان إليهم ووعد على ذلك جزيل الأجر والثواب. ونهى عن قطيعتهم والإساءة إليهم وتوعد على ذلك بأليم العذاب .

وبناء على وجوب التعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق فقد جمعت في هذه الرسالة ما تيسر مما يتعلق بهذا الموضوع من الأدلة على وجوب بر الوالدين وصلة الأرحام، وتحريم العقوق وقطيعة الرحم، وبيان أنواع البر وفضله وذكر حقوق الوالدين والأقارب والآثار المرتبة على ذلك مع ذكر فوائد ووصايا تتعلق بهذا الموضوع وهي مستفادة من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام المحققين من أهل العلم وسميتها (تذكير شباب الإسلام ببر الوالدين وصلة الأرحام) والذكرى تنفع المؤمنين .

أسأل الله تعالى أن ينفع بها من كتبها أو طبعها أو قرأها أو سمعها فعمل بها. كما أسأله تعالى أن يوفق الأولاد لبر والديهم وأن يعيذهم من عقوقهم، وأن يوفق المسلمين لصلة أقاربهم وأن يعيذهم من قطيعتهم .

وليعلم أن الجزاء من جنس العمل فمن بر والديه بره أولاده **(بروا آباءَكم تبركم أبناؤكم)**[1] .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والحاكم في المستدرك قال المنذري إسناده حسن .

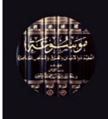
ومن وصل رحمه وصله الله ومن قطعها قطعه الله جزاءً وفاقا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1] .

اللهم وفقنا لبر والدينا وصلة ارحامنا. ياحي ياقيوم، رب اغفر لي ولوالدي إنك أنت الغفور الرحيم، رب ارحمهما كما ربياني صغيرا، ياذا الجلال والإكرام وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

المؤلف في ١٢/١٢/١٤٠٩هـ

---

(١) سورة فصلت آية ٤٦ .







قناة عامة

معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطّلة

بسم الله الرحمن الرحيم

بر الوالدين وصلة الأرحام في الكتاب والسنة(١)

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ الآية [الرعد: ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨] .

---

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ بتحقيق الأرنؤوط ص١٧٤ .

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ (١) وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ (٢) وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

١ ـ عن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها»(٣) قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» متفق عليه(٤).

---

(١) هي كلمة تضجر وكراهة، «ولا تنهرهما» أي: لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لايعجبك. «وقل لهما قولاً كريماً»: حسناً جميلاً. «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» أي: تواضع رحمة لهما وشفقة عليهما.

(٢) أي شدة على شدة. «وفصاله» أي: فطامه.

(٣) وفي رواية: «لوقتها» واللام بمعنى في، أي الصلاة في وقتها المحدد لها شرعاً.

(٤) البخاري ١٠/٣٣٦، ومسلم (٨٥).

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجزي**[١] **ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً، فيشتريه، فيعتقه**» رواه مسلم[٢].

٣ ـ وعنه أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت**» متفق عليه[٣].

٤ ـ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم**[٤] **قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لكِ، ثم قال رسول الله** ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ[٥] إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾

---

(١) «لا يجزي» بفتح أوله ولاهمزة في آخره: أي: لا يكافىء.

(٢) مسلم (١٥١٠) وأخرجه أبو داود (٥١٣٧) والترمذي (١٩٠٧).

(٣) البخاري ١٠/٣٧٣ و٤٤٢و ١١/٢٦٥، ومسلم (٤٧).

(٤) أي: كمل خلقهم. و«العائذ»: المستعيذ، وهو المعتصم بالشيء الملتجىء إليه.

(٥) أي: فهل يتوقع منكم «إن توليتم» أمور الناس «أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم».

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ[(١)] وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] متفق عليه[(٢)].

وفي رواية للبخاري: فقال الله تعالى: «من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته»[(٣)].

٥ ـ وعنه رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك» متفق عليه[(٤)].

---

(١) فأصمهم: أي: عن سماع الحق.

(٢) البخاري ١٠/٣٤٩ و ١٣/٣٩٢، ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) والرحم التي تجمل صلتها ويحرم قطعها هي قرابات الرجل من جهة طرفي آبائه وإن علوا، وأبنائه وإن نزلوا، وما يتصل بالطرفين من الإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وما يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة.

(٤) البخاري ١٠/٣٣٦، ومسلم (٢٥٤٨)، ومقتضى الحديث أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر، وكأن ذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الإرضاع. وقال القرطبي: إن الأم تستحق الحظ الأوفر من البر، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة.

وفي رواية: يارسول الله من أحق بحسن الصحبة؟ قال: **«أملك، ثم أملك، ثم أملك، ثم أباك، ثم أدناك أدناك»** .

«والصحابة» بمعنى: الصحبة. وقوله: «ثم أباك» هكذا هو منصوب بفعل محذوف، أي: ثم بر أباك وفي رواية: «ثم أبوك»[1] وهذا واضح .

٦ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: **«رغم أنف[2]، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة»**رواه مسلم[3] .

٧ ـ وعنه رضي الله عنه أن رجلاً قال: يارسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: **«لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهمَ المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم[4] ما دمت على ذلك»** رواه مسلم[5] .

---

(١) هي عند البخاري .

(٢) رغم أنف: هذا كناية عن الذل، كأنه لصق بالرغام وهو التراب هواناً .

(٣) مسلم (٢٥٥١) .

(٤) الظهير: المعين .

(٥) مسلم (٢٥٥٨) .

«وَتُسِفُّهُمْ» بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء «والمل» بفتح الميم، وتشديد اللام وهو الرماد الحار: أي كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه، والله أعلم.

٨ ـ وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليصل رحمه**» متفق عليه[١].

ومعنى «يُنسأ له في أثره»: أي: يؤخر له في أجله وعمره.

٩ ـ وعنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بيرَحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ لَن تَنَالُوا

---

(١) البخاري ١٠/٣٤٨، ومسلم (٢٥٥٧)، وأخرجه أبو داود (١٦٩٣).

﴿ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحبَّ مالي إلي **بيرحاء**، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يارسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «**بخ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح! وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقال أبو طلحة: أفعل يارسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. متفق عليه[1] .

١٠ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغي الأجر من الله تعالى. قال: «فهل لك من والديك أحد حي؟» قال: نعم بل كلاهما قال: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما» متفق عليه[2]. وهذا لفظ مسلم .

وفي رواية لهما: جاء رجل فاستأذنه في الجهاد فقال: «**أحي والداك؟**» **قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»**[3] .

---

(١) البخاري ٣/٢٥٧، ومسلم (٩٩٨) .

(٢) البخاري ٦/٩٧، ٩٨ و١٠/٣٣٨، ومسلم (٢٥٤٩)، وأخرجه أبو داود (٢٥٢٩)، والنسائي ٦/١٠ و٧/١٤٣ .

(٣) المراد بالجهاد فيهما جهاد النفس في وصول البر إليهما، والتلطف بهما، وحسن =

١١ ـ وعنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قَطَعَتْ رحمه وصلها**» رواه البخاري[١].

و«قطعت» بفتح القاف والطاء. و«رحمه» مرفوع.

١٢ ـ وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني، وصله الله، ومن قطعني، قطعه الله**» متفق عليه[٢].

١٣ ـ وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة[٣] ولم تستأذن النبي ﷺ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه، قالت: أشعِرتَ يارسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: «**أو فعلتِ؟**» قالت: نعم. قال: «**أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظمَ لأجرك**» متفق عليه[٤].

= الصحبة، والطاعة وغير ذلك، وفي الحديث دليل لعظم فضيلة بر الوالدين، وأنه آكد من الجهاد، إذا كان فرض كفاية، فيحرم عليه أن يجاهد إلا بإذنهما، أما إذا تعين فلا إذن.

(١) البخاري ١٠/٣٥٥، وأخرجه أبو داود (١٦٩٧) والترمذي (١٩٠٩).

(٢) البخاري ١٠/٣٥٠، ومسلم (٢٥٥٥).

(٣) الوليدة: الأمة.

(٤) البخاري ٥/١٦١، ومسلم (٩٩٩)، وأخرجه أبو داود (١٦٩٠).

١٤ ـ وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قَدِمَتْ علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ[١]، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: قدمت علي أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك» متفق عليه[٢].

وقولها: «راغبة»، أي: طامعة فيما عندي تسألني شيئاً، قيل كانت أمها من النسب، وقيل: من الرضاعة والصحيح الأول.

١٥ ـ وعن زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وعنها قالت: قال رسول الله ﷺ «**تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن**» قالت: فرجعت إلى عبدالله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد[٣] وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فأته، فاسأله، فإن كان ذلك يجزيء عني[٤] وإلا صرفتها إلى غيركم. فقال عبدالله: بل ائتيه أنت، فانطلقت،

---

(١) أي: معاهدته مع المشركين في الحديبية.

(٢) البخاري ٥/١٧٠، ١٧٢ و١٠/٣٤٦ و ٣٤٧، ومسلم (١٠٠٣)، وأخرجه أبو داود (١٦٦٨).

(٣) أي: قليل المال.

(٤) أي: دفعتها لكم.

فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما[1]؟ ولا تخبره من نحن، فدخل بلال على رسول الله ﷺ، فسأله، فقال له رسول الله ﷺ «من هما»؟ قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ «أي الزيانب هي؟» قال: امرأة عبدالله، فقال رسول الله ﷺ: «**لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة**» متفق عليه[2].

١٦ ـ وعن أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هِرَقل أن هِرَقل قال لأبي سفيان: فماذا يأمركم به؟ يعني النبي ﷺ قال: قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة**» متفق عليه[3].

---

(١) اي: في ولايتهما.
(٢) البخاري ٣/٢٥٩، ٢٦٠، ومسلم (١٠٠٠).
(٣) البخاري ١/٣٤، ومسلم (١٧٧٣).

١٧ ــ وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط**» .

وفي رواية: «ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً» .

وفي رواية : «**فإذا افتتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً**» أو قال: «**ذمة وصهراً**» رواه مسلم[1] .

قال العلماء: الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل ﷺ منهم «والصهر» كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم .

١٨ ــ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا فعَمَّ، وخص وقال: **يابني عبد شمس، يابني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يابني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يافاطمة**

---

(١) مسلم (٢٥٤٣) (٢٢٦)و (٢٢٧) .

أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رَحِماً سأبلها ببلالها» رواه مسلم[1] .

قوله ﷺ: «بِبِلاَلِهَا» هو بفتح الباء الثانية وكسرها «والبلال»: الماء. ومعنى الحديث: سأصلها، شَبَّه قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء وهذه تبرد بالصلة .

١٩ ـ وعن أبي عبدالله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «**إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رَحِمٌ أبلها ببلالها**»، متفق عليه[2]. واللفظ للبخاري .

٢٠ ـ وعن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يارسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار. فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**» متفق عليه[3] .

---

(١) مسلم (٢٠٤) .

(٢) البخاري ١٠/٣٥٠، ٣٥٤، ومسلم (٢١٥) .

(٣) البخاري ٣/٢٠٨، ٢٠٩، ومسلم (١٣) .

٢١ ـ وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أفطر أحدكم، فليفطر على تمر، فإنه بركة، فإن لم يجد تمراً، فالماء، فإنه طهور**» وقال: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة**».

رواه الترمذي[١] وقال: حديث حسن.

٢٢ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كانت تحتي امرأة، وكنت أحبها، وكان عمر يكرهها، فقال لي: طلقها، فأبيت، فأتى عمر رضي الله عنه النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «طلقها» رواه أبو داود، والترمذي[٢] وقال: حديث حسن صحيح.

٢٣ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت، فأضع**

---

(١) الترمذي (٦٥٨)، وأخرجه أبو داود (٢٣٥٥)، والنسائي ٥/٩٢، وابن ماجه (١٨٤٤) وهو كما قال الترمذي، وصححه ابن حبان (٨٩٢)، ويشهد له حديث زينب المتقدم برقم (٣٢٦).

(٢) أبو داود (٥١٣٨)، والترمذي (١١٨٩)، وأخرجه أحمد (٤٧١١) وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٠٢٤).

ذلك الباب، أو احفظه» رواه الترمذي[1] وقال: حديث حسن صحيح .

٢٤ ـ وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**الخالة بمنزلة الأم**» رواه الترمذي[2] وقال: حديث حسن صحيح .

قال النووي وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة؛ منها حديث أصحاب الغار، وحديث جريج وأمه، وأحاديث مشهورة في الصحيح حذفتها اختصاراً، ومن أهمها حديث عمرو بن عَبَسة[3] رضي الله عنه الطويل المشتمل على جمل كثيرة من قواعد الإسلام وآدابه قال فيه :

دخلت على النبي ﷺ بمكة، يعني في أول النبوة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله تعالى» فقلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام،

---

(١) الترمذي (١٩٠١) وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٠٢٣) .

(٢) الترمذي (١٩٠٥) وأخرجه البخاري ٧/٣٨٥، ٣٩١ ضمن حديث طويل، وأخرجه أبو داود (٢٢٨٠) من حديث علي .

(٣) هو في مسلم (٨٣٢) .

وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء» وذكر تمام الحديث. والله أعلم .

تحريم العقوق وقطيعة الرحم[1]

قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٣ والعقوق.. المعصية .

١ ـ عن أبي بكرة نُفَيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ـ ثلاثاً ـ **قلنا: بلى يارسول الله: قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»** وكان متكئاً فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. متفق عليه(١).

٢ ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**» رواه البخاري(٢).

«اليمين الغموس» التي يحلفها كاذباً عامداً، سميت غموساً، لأنها تغمس الحالف في الإثم.

٣ ـ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه!**» قالوا: يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم؛ يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**» متفق عليه(٣).

---

(١) البخاري ١٠/٣٤٢، ٣٤٥، ومسلم (٨٧).

(٢) البخاري ١١/٤٨٣.

(٣) البخاري ١٠/٣٣٨، ومسلم (٩٠)، وأخرجه أحمد ٢/١٦٤.

وفي رواية «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه!**» قيل: يارسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟! قال: «**يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**».

٤ ـ وعن أبي محمد جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان في روايته: يعني: قاطع رحم. متفق عليه[١].

٥ ـ وعن أبي عيسى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**» متفق عليه[٢].

قوله: «منعاً» معناه: منع ما وجب عليه و «هات»: طلب ما ليس له. و «وأد البنات» معناه: دفنهن في الحياة، و«قيل وقال» معناه: الحديث بكل ما يسمعه، فيقول: قيل كذا، وقال فلان كذا مما لا يعلم صحته، ولا يظنها، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع. و«إضاعة المال»: تبذيره وصرفه في غير الوجوه

---

(١) البخاري ١٠/٣٤٧، ومسلم (٢٥٥٦).

(٢) البخاري ٥/٥١، ومسلم ٣/١٣٤١.

المأذون فيها من مقاصد الآخرة والدنيا، وترك حفظه مع إمكان الحفظ. و«كثرة السؤال»: الإلحاح فيما لا حاجة إليه .

وفي الباب أحاديث سبقت في الباب قبله[1] كحديث «وأقطع من قطعك» وحديث «من قطعني قطعه الله» .

بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر من يندب إكرامه[2]

١ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إن أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه**»[3] رواه مسلم .

٢ ـ وعن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبدالله بن عمر، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، وقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير فقال عبدالله بن عمر: إن أبا هذا

---

(١) انظر رقم (٤) و(١٢) في الباب الأول .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ .

(٣) ود أبيه ـ بضم الواو وتشديد الدال المهملة ـ: أي: صديقه .

كان وداً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه**» .

وفي رواية عن ابن دينار عن ابن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يتروح عليه[1] إذا مل ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه، فبينا هو يوماً على ذلك الحمار إذ مر به أعرابي، فقال: ألست فلان بن فلان؟ قال: بلى. فأعطاه الحمار، فقال: اركب هذا، وأعطاه العمامة وقال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي**»[2] وإن أباه كان صديقاً لعمر رضي الله عنه، روى هذه الروايات كلها مسلم[3] .

٣ ـ وعن أبي أُسيد ـ بضم الهمزة وفتح السين ـ مالك ابن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينا نحن جلوس عند

---

(١) أي: يستريح عليه إذا مل، أي: سئم ركوب الراحلة من الإبل .

(٢) أي: بعد أن يموت .

(٣) مسلم(٢٥٥٢)و(١٢)و(١٣)،وأخرجه الترمذي(١٩٠٤)،وأبو داود(٥١٤٣).

رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلِمة فقال: يارسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «**نعم، الصلاة عليهما**[1]**، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**» رواه أبو داود[2] .

٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها، وما رأيتها قط، ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة! فيقول: «**إنها كانت وكانت**[3] **وكان لي منها ولد**» متفق عليه[4] .

---

(١) أي: الدعاء لهما .

(٢) أبو داود (٥١٤٢)، وأخرجه ابن ماجه (٣٦٦٤)، وابن حبان (٢٠٣٠)، وفي سنده علي بن عبيد الساعدي لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات .

(٣) أي: يثني عليها بأفعالها. «وكان لي منها ولد»: أي: أولاد وكان جميع أولاد النبي ﷺ من خديجة إلا إبراهيم فإنه كان من مارية .

(٤) البخاري ١٠٢/٧، ١٠٣، ومسلم (٢٤٣٥) و(٢٤٣٧) وفي الحديث دلالة لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حياً وميتاً وإكرام معارف ذلك الصاحب .

وفي رواية وإن كان ليذبح الشاء، فيهدي في خلائلها[1] منها ما يسعهن.

وفي رواية كان إذا ذبح الشاة يقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**».

وفي رواية قالت: استأذَنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة[2]، فارتاح لذلك فقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**».

قولها: «فارتاح» هو بالحاء، وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي: «فارتاع» بالعين ومعناه: اهتم به.

٥ ــ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرجت مع جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه في سفر، فكان يخدمني[3] فقلت له: لا تفعل، فقال: إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً آليت على نفسي أن لا أصحب أحداً منهم إلا خدمته. متفق عليه[4].

---

(١) جمع خليلة وهي الصديقة.

(٢) أي: تذكر خديجة، لأن نغمتها تشبه نغمة خديجة. «فارتاح لذلك» أي: هش لمجيئها، وسر به لتذكره بها خديجة وأيامها.

(٣) أي: وهو أسنُّ مني. وقوله: «شيئاً» أي: عظيماً لا تفي العبارة بتفصيله. وقوله: آليت... أي: أقسمت ألا أصحب أحداً منهم إلا خدمته إكراماً للنبي صلوات الله وسلامه عليه.

(٤) البخاري ٦/٦٢، ومسلم (٢٥١٣).

أهمية بر الوالدين[1]

يقوم الإسلام على الرحمة والتكافل بين أفراده ولذلك يهتم ببر الوالدين والإحسان إليهما والعناية بهما، وهو بذلك يسبق النظم المستحدثة في الغرب مثل «عيد الأم» و«رعاية الأمومة والمسنين». وقد جاء الإسلام بأوامر صريحة تلزم المؤمن ببر والديه وطاعتهما ما لم يأمرا بمعصية قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ وقرن برهما بالأمر بعبادته في كثير من الآيات. برهان ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] .

---

(١) أصول المنهج الإسلامي ص ٢٢٥-٢٢٨ .

وقوله : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**جاءِ رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟. قال أمك. قال ثم من؟ قال أبوك**» (رواه الشيخان). وما ذكر الله الإحسان إلى الوالدين بعد توحيده إلا لأن حقهما عظيم وبرهما واجب .

أنواع البر :

وأنواع البر كثيرة منها :

١ ـ أنْ لا يَتَضَجَّرَ منهما ولو بكلمة أف بل يجب الخضوع لأمرهما وخفض الجناح لهما ومعاملتهما باللطف .

٢ ـ شكرهما الذي جاء مقروناً بشكر الله والدعاء لهما لقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

٣ ـ اختصاص الأم بمزيد البر لحاجتها وعظم شأنها وتعبها في الولادة والحمل والرضاعة. والبر يكون بمعنى حسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة والصلة لقوله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

٤ ـ الإحسان إليهما في القول والعمل والأخذ والعطاء وتفضيلهما على النفس والزوجة وتقديم أمرهما وطلبهما ومجاهدة النفس برضاهما حتى وإن كانا غير مسلمين لقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

٥ ـ رعايتهما ولا سيما عند الكبر وملاطفتهما وإدخال السرور عليهما.

٦ ـ الإنفاق عليهما عند الحاجة قال تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

٧ ـ استئذانهما قبل السفر وأخذ موافقتهما إلا في حج فرض.

٨ ـ الدعاء لهما بعد الموت وبر صديقهما وإنفاذ وصيتهما.

فضل بر الوالدين:

وفي فضل بر الوالدين وكونه مقدماً على الجهاد ومكفراً للذنوب ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«**رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه** قيل من يارسول الله؟ **قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة**» (رواه مسلم والترمذي). وعن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟ «**قال الصلاة على وقتها**. قلت ثم أي؟ **قال بر الوالدين**. قلت ثم أي؟ **قال الجهاد في سبيل الله**» (متفق عليه) .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال أقبل رجل إلى النبي ﷺ فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى. **فقال: هل من والديك أحد حي**؟ قال نعم بل كلاهما. **قال: فتبتغي الأجر من الله تعالى**؟ قال: نعم. **قال: فارجع فاحسن صحبتهما**. (متفق عليه). وهذا لفظ مسلم وفي رواية لهما جاء رجل فاستأذنه في الجهاد. **فقال أحي والداك** قال: نعم. **قال: ففيهما فجاهد**. وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رضا الرب في رضا الوالد وسخط الرب في سخط الوالد**» (رواه الترمذي) .

وفي البر منجاة من مصائب الدنيا كما ورد في حديث أصحاب الغار وكان أحدهم باراً بوالديه يقدمهما على زوجته وأولاده. وعكس البر هو العقوق ونتيجته الحرمان من الجنة

لحديث أبي محمد جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع**» قال سفيان في روايته يعني قاطع رحم (رواه البخاري ومسلم) والعقوق هو العق والقطع وهو من الكبائر (بل كما وصفه الرسول ﷺ) من أكبر الكبائر - وفي الحديث المتفق عليه وجدتُ أن العقوق يأتي مباشرة بعد الإشراك بالله. والعق لغة هو المخالفة وضابطه عند العلماء أن يفعل مع والديه ما يتأذيان منه تأذيا ليس بالهين وتوسيعاً لدائرة البر اعتبر رسول الله ﷺ الخالة بمنزلة الأم لما ورد عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الخالة بمنزلة الأم**» (رواه الترمذي) وقال حديث صحيح. وهذا في طلب إرضائها وصلتها وليس في تقسيم الميراث وفي الترمذي بإسناد صحيح حديث الرجل الذي أصاب ذنباً عظيماً وجاء يسأل هل له من توبة؟ وجواب النبي ﷺ **هل لك من أم**؟ قال لا ثم قال: **هل لك من خالة**؟ قال نعم قال: **فبرها** .

البر بعد الموت :

وبر الوالدين لا يقتصر على فترة حياتهما بل يمتد إلى ما بعد مماتهما ويتسع ليشمل ذوي الأرحام وأصدقاء الوالدين .

فقد روى أبو داود والبيهقي «جاء رجل من بني سلمة فقال: يارسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما» .

واجبنا نحو الوالدين وبماذا يكون برهم؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : أيها المسلمون اتقوا الله تعالى وقوموا بما أوجب الله عليكم من حقه وحقوق عباده ألا وإن أعظم حقوق العباد عليكم حق الوالدين وحق الأقارب فقد جعل الله ذلك في المرتبة التي تلي حق الله المتضمن لحقه وحق رسوله فقال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾[1] وبين العلة في ذلك إغراء للأولاد وحثاً لهم على الاعتناء بهذه الوصية فقال: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾[2]. أي ضعفاً على ضعف ومشقة على مشقة في الحمل وعند الولادة ثم في حضنه في حجرها وإرضاعه قبل إنفصاله فقال تعالى:

﴿ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3] ولقد جعل النبي ﷺ بر الوالدين مقدماً على الجهاد في سبيل الله. ففي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال: بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله . وفي صحيح مسلم أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله قال فهل من والديك أحد حيّ قال نعم بل كلاهما قال فتبغي الأجر من الله قال نعم قال فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما. وفي حديث إسناده جيد أن رجلاً قال يارسول الله إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه قال هل بقي من

---

(١)، (٢)، (٣) سورة لقمان آية ١٤ .

والديك أحد قال نعم أمي قال قابل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد. وقد أوصى الله تعالى بصحبة المعروف للوالدين في الدنيا وإن كانا كافرين بل وإن كانا يأمران ولدهما المسلم أن يكفر بالله لكن لا يطيعهما في الكفر فقال تعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ ـ أي بذلا جهدهما ـ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾(١). وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت قَدِمتْ عليّ أمي وهي مشركة وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية فقدمت على ابنتها أسماء في المدينة بعد صلح الحديبية قالت أسماء فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله قَدِمتْ عليّ أمي وهي راغبة) أي راغبة في أن تصلها ابنتها أسماء بشيء أفأصل أمي يارسول الله قال: نعم صلي أمك.

أيها المسلمون إن بر الوالدين يكون ببذل المعروف والإحسان إليهما بالقول والفعل والمال أما الإحسان بالقول فأن تخاطبهما باللين واللطف مستصحباً كل لفظ طيب يدل على

---

(١) سورة لقمان آية ١٥.

اللين والتكريم، وأما الإحسان بالفعل فأن تخدمهما ببدنك ما استطعت من قضاء الحوائج والمساعدة على شؤونهما وتيسير أمورهما وطاعتهما في غير ما يضرك في دينك أو دنياك والله أعلم بما يضرك في ذلك فلا تُفتِ نفسك في شيء لا يضرك بأنه يضرك ثم تعصهما في ذلك. وأما الإحسان بالمال فأن تبذل لهما من مالك كل ما يحتاجان إليه طيبة به نفسك منشرحاً به صدرك غير متبع له بمنة ولا أذى بل تبذله وأنت ترى أن المنة لهما في ذلك في قبوله والانتفاع به .

وإن بر الوالدين كما يكون في حياتهما يكون أيضاً بعد مماتهما فقد أتى رجل من بني سلمة إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله هل بقي من بر أبويّ شيء أبرهما بعد موتهما قال نعم الصلاة عليهما يعني الدعاء لهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما-أي وصيتهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما (رواه أبو داود). الله أكبر ما أعظم بر الوالدين وأشمله حتى إكرام صديقهما وصلته من برهما. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه كان يسير في طريق مكة راكباً على حمار يتروح عليه إذا مل الركوب على

الراحلة فمر به أعرابي فقال أنت فلان بن فلان قال بلى فأعطاه الحمار وقال اركب هذا وأعطاه عمامة كانت عليه وقال اشدد بها رأسك فقالوا لابن عمر غفر الله لك أعطيته حماراً كنت تروح عليه وعمامة تشد بها رأسك فقال ابن عمر إن هذا كان صديقاً لعمر وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه .

آثار البر

أيها المسلمون هذا بيان منزلة البر وعظيم مرتبته أما آثاره فهي الثواب الجزيل في الآخرة والجزاء بمثله في الدنيا فإن من برّ بوالديه برّ به أولاده. وتفريج الكربات، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانطبقت عليهم صخرة فسدته عليهم فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم أن يفرج عنهم فقال أحدهم اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أُرح عليهما حتى ناما فحلبت غبوقهما فوجدتهما نائمين فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج

عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت قليلاً وتوسل صاحباه بصالح من أعمالهما فانفرجت كلها وخرجوا يمشون.

وإن في بر الوالدين سعة الرزق وطول العمر وحسن الخاتمة فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سره أن يُمَدَّ له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه**». (إسناده جيد) وبر الوالدين أعلى صلة الرحم لأنهما أقرب الناس إليك رحماً .

أيها المسلمون إنه لا يليق بعاقل مؤمن أن يعلم فضل بر الوالدين وآثاره الحميدة في الدنيا والآخرة ثم يعرض عنه ولا يقوم به أو يقوم بالعقوق والقطيعة فلقد نهى الله تعالى عن عقوق الوالدين في أعظم حال يشق على الولد برهما فيها فقال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1] .

ففي حال بلوغ الوالدين الكبر يكون الضعف البدني والعقلي منهما وربما وصلا إلى أرذل العمر الذي هو سبب للضجر والملل

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٣ـ٢٤ .

منهما وفي حال كهذه نهى الله الولد أن يتضجر أقل تضجر من والديه وأمره أن يقول لهما قولاً كريماً وأن يخفض لهما جناح الذل من الرحمة فيخاطبهما مخاطبة من يستصغر نفسه أمامهما ويعاملهما معاملة الخادم الذي ذل أمام سيده رحمة بهما وإحساناً إليهما ويدعو الله لهما بالرحمة كما رحماه في صغره ووقت حاجته فربياه صغيراً .

إن على المؤمن أن يقوم ببر والديه وأن لا ينسى إحسانهما إليه حين كان صغيراً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وأمه تسهر الليالي من أجل نومه وترهق بدنها من أجل راحته وأبوه يجوب الفيافي ويتعب فكره وعقله وجسمه من أجل حصوله على معاشه والانفاق عليه ولكل منهما بر بجزاء عمله. ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال يارسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي قال أمك. قال ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أبوك .

وفقنا الله جميعاً لبر أمهاتنا وآبائنا ورزقنا في ذلك الإخلاص وحسن القصد والسداد إنه جواد كريم[1] .

---

(١) خطب الشيخ محمد الصالح العثيمين ص ٥٠١ .

حقوق الوالدين

لا ينكر أحد فضل الوالدين على أولادهما فالوالدان سبب وجود الولد ولهما عليه حق كبير فقد ربياه صغيراً وتعِباً من أجل راحته وسهرا من أجل منامه. تحملك أمك في بطنها وتعيش على حساب غذائها وصحتها لمدة تسعة شهور غالباً، كما أشار الله إلى ذلك في قوله :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾[1] .

ثم بعد ذلك حضانة ورضاع لمدة سنتين مع التعب والعناء والصعوبة.. والأب كذلك يسعى لعيشك وقوتك من حين الصغر حتى تبلغ أن تقوم بنفسك ويسعى بتربيتك وتوجيهك وأنت لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً، ولذلك أمر الله الولد بالإحسان بوالديه إحساناً وشكراً .

فقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] .

---

(١) ، (٢) سورة لقمان آية ١٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[1] .

إن حق الوالدين عليك أن تبرهما وذلك بالإحسان إليهما قولاً وفعلاً بالمال والبدن، تمتثل أمرهما في غير معصية الله وفي غير ما فيه ضرر عليك، تليِّن لهما القول وتبسط لهما الوجه وتقوم بخدمتهما على الوجه اللائق بهما ولا تتضجر منهما عند الكبر والمرض والضعف ولا تستثقل ذلك منهما فإنك سوف تكون بمنزلتهما، سوف تكون أباً كما كانا أبوين، وسوف تبلغ الكبر عند أولادك إن قُدِّرَ لك البقاء كما بلغاه عندك وسوف تحتاج إلى بر أولادك كما احتاجا إلى برك، فإن كنت قد قمت ببرهما فأبشر بالأجر الجزيل والمجازاة بالمثل فمن برّ والديه برّه أولاده، ومن عق والديه عقه أولاده والجزاء من جنس العمل فكما تدين تدان. ولقد جعل الله مرتبة حق الوالدين مرتبة كبيرة عالية حيث جعل حقهما بعد حقه المتضمن لحقه وحق رسوله .

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٣-٢٤ .

فقال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[2] .

وقدَّم النبي ﷺ بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال قلت يارسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قلت ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. رواه البخاري ومسلم.. وهذا يدل على أهمية حق الوالدين الذي أضاعه كثير من الناس وصاروا إلى العقوق والقطيعة فترى الواحد منهم لا يرى لأبيه ولا لأمه حقاً وربما احتقرهما وازدراهما وترفع عليهما وسيلقى مثل هذا جزاءه العاجل أو الآجل[3] .

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان آية ١٤ .

(٣) حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة ص ١١–١٤ .

وصـــايـا

أيها المسلم الكريم إذا أردت النجاح في الدنيا والآخرة فاعمل بالوصايا الآتية :

١ ـ خاطب والديك بأدب «ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً» .

٢ ـ اطع والديك دائماً في غير معصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

٣ ـ تلطف بوالديك ولا تعبس في وجوههما ولا تحدق النظر إليهما غاضباً .

٤ ـ حافظ على سمعة والديك وشرفهما وما لهما ولا تأخذ شيئاً بدون اذنهما .

٥ ـ اعمل ما يسرهما ولو في غير أمرهما كالخدمة وشراء اللوازم والاجتهاد .

٦ ـ شاورهما في أعمالك كلها واعتذر لهما إذا اضطررت للمخالفة .

٧ ـ اجب نداءهما مسرعاً بوجه مبتسم قائلاً لبيك يا أبي لبيكِ يا أمي .

٨ ـ أكرم صديقهما وأقرباءهما ولا تصادق عدوهما في حياتهما وبعد موتهما .

٩ ـ لا تجادلهما ولا تخطئهما وحاول بأدب أن تبين لهما الصواب .

١٠ ـ لا تعاندهما ولا ترفع صوتك عليهما وأنصت لحديثهما وتأدب معهما ولا تزعج أحد اخوتك اكراماً لوالديك .

١١ ـ ساعد أمك في البيت ولاتتأخر عن مساعدة أبيك في عمله .

١٢ ـ لا تسافر إذا لم يأذنا لك ولو لأمر هام فإن اضطررت فاعتذر لهما ولا تقطع رسائلك عنهما .

١٣ ـ لا تدخل عليهما بدون اذنهما ولا سيما وقت نومهما وراحتهما .

١٤ ـ إذا كان عندهما ضيف فقم بالخدمة وراقب نظرهما لعلهما يريدان شيئاً .

١٥ ـ لا تتناول طعاماً قبلهما واكرمهما في الطعام والشراب واللباس .

١٦ ـ لا تكذب عليهما ولاتلمهما إذا عملا عملاً لا يعجبك .

١٧ ـ لا تفضل زوجتك وأولادك عليهما واطلب رضاهما قبل كل شيء ـ فرضا الله في رضا الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين .

١٨ ـ لا تجلس في مكان أعلى منهما ولا تمش امامهما .

١٩ ـ لا تتكبر من الانتساب إلى أبيك ولو كنت موظفاً كبيراً واحذر ان تنكر معروفهما أو تؤذيهما ولو بكلمة واحدة .

٢٠ ـ لا تبخل بالنفقة على والديك حتى يشكواك فهذا عار عليك وسترى ذلك من أولادك فكما تدين تدان والجزاء من جنس العمل .

٢١ ـ أكثر من زيارة والديك وتقديم الهدايا لهما واشكرهما على تربيتك وتعبهما عليك واعتبر بأولادك وما تقاسيه معهم .

٢٢ ـ احق الناس بالإكرام أمك ثم أبوك واعلم أن الجنة تحت أقدام الأمهات .

٢٣ ـ احذر عقوق الوالدين وغضبهما فتشقى في الدنيا والآخرة. وسيعاملك أولادك بمثل ما تعامل به والديك .

٢٤ ـ إذا طلبت شيئاً من والديك فتلطف بهما واشكرهما ان اعطياك واعذرهما ان منعاك ولا تكثر طلباتك لئلا تزعجهما .

٢٥ ـ إذا أصبحت قادراً على كسب الرزق فاعمل وساعد والديك فأنت ومالك لأبيك .

٢٦ ـ إن لوالديك عليك حقاً ولزوجتك عليك حقاً ولأولادك عليك حقاً ولإخوتك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه وحاول التوفيق بين هذه الحقوق إن اختلفت وقدم لهما الهدايا سراً وجهراً وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء .

٢٧ ـ إذا اختصم أبواك مع زوجتك فكن حكيماً وأفهم زوجتك أنك معها إن كان الحق لها وأنك مضطر لترضي والديك .

٢٨ ـ إذا اختلفت مع والديك في الزواج والطلاق فاحتكموا إلى الشرع فهو خير عون لكم .

٢٩ ـ دعاء الوالدين مستجاب فاحرص على ان يدعوا لك بالخير واحذر دعاءَهما عليك بالشر .

٣٠ ـ تأدب مع الناس فمن سب الناس سبوه قال ﷺ «**من الكبائر شتم الرجل والديه يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**» متفق عليه .

٣١ ـ زر والديك في حياتهما وبعد موتهما وتصدق عنهما واكثر من الدعاء لهما قائلاً: (رب اغفر لي ولوالدي) ـ (رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)[١] .

---

(١) بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا والدين للمؤلف ص ٢٤٠ .

فوائد تتعلق ببر الوالدين وعقوقهما بحسب ما ورد في الأدلة

١ ـ وجوب بر الوالدين .
٢ ـ وجوب برهما وإن كانا مشركين .
٣ ـ وجوب طاعتهما في غير معصية الله .
٤ ـ وجوب طاعتهما في طلاق المرأة .
٥ ـ وجوب الحنث في اليمين عند أمرهما .
٦ ـ الولد وما كسب لوالده .
٧ ـ عدم إمكان مجازاة الوالدين .
٨ ـ تحريم الجهاد بغير إذنهما .
٩ ـ تحريم السفر بغير إذنهما .
١٠ ـ تفضيل الأم على الأب في البر .
١١ ـ تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة .
١٢ ـ فضل بر الوالدين عظيم .
١٣ ـ بر الوالدين يعدل الجهاد .

١٤ ـ تفضيل برهما على الجهاد .
١٥ ـ برهما مغفرة للذنوب .
١٦ ـ برهما كفارة للكبائر .
١٧ ـ يغفر للبار وإن عمل ما شاء سوى الكبائر .
١٨ ـ من بر والديه دخل الجنة .
١٩ ـ تحويل الشقاء سعادة ببرهما .
٢٠ ـ رضى الله في رضاهما .
٢١ ـ استجابة دعاء من برهما .
٢٢ ـ برهما يزيد في العمر .
٢٣ ـ برهما يزيد في الرزق .
٢٤ ـ فضل النظر إليهما .
٢٥ ـ فضل الشفقة عليهما .
٢٦ ـ فضل من قبل بين عيني أمه .
٢٧ ـ وجوب الدعاء للوالدين .
٢٨ ـ ترك الدعاء لهما يورث الفقر .
٢٩ ـ دعاء الوالدين مستجاب .
٣٠ ـ من بر والديه بره أولاده .
٣١ ـ وجوب النفقة على الوالدين .

٣٢ ـ فضل النفقة عليهما .
٣٣ ـ من البر لين الجانب لهما .
٣٤ ـ من البر الخشوع لهما عند الغضب .
٣٥ ـ من البر ألا يرفع يديه عليهما إذا كلمهما .
٣٦ ـ من البر ألا يسميهما عند ندائهما .
٣٧ ـ من البر ألا يمشي أمامهما .
٣٨ ـ من البر ألا يوقظهما .
٣٩ ـ من البر الاستئذان عليهما .
٤٠ ـ من البر القيام لهما .
٤١ ـ من البر إمضاء وصيتهما .
٤٢ ـ من البر الحج عنهما .
٤٣ ـ من البر الدعاء لهما والاستغفار بعد موتهما .
٤٤ ـ من البر زيارة قبرهما وفضلها .
٤٥ ـ من بر الآباء صلاح الأبناء .
٤٦ ـ من البر صلة أصدقاء الوالدين .
٤٧ ـ تحريم عقوق الوالدين .
٤٨ ـ العقوق من الكبائر .
٤٩ ـ ملعون من عق والديه .

٥٠ ـ العاق لا يدخل الجنة إلا أن يتوب .
٥١ ـ العاق لا تقبل منه الأعمال .
٥٢ ـ العقوق يمنع النطق بالشهادتين عند الموت .
٥٣ ـ تعجيل عقوبة العقوق في الحياة .
٥٤ ـ تحريم عقوق الوالدين وإن ظلما .
٥٥ ـ تحريم عقوقهما وإن أمرا بالخروج من الأهل والمال .
٥٦ ـ من العقوق أن يحزن والديه .
٥٧ ـ من العقوق التسبب في بكائهما .
٥٨ ـ من العقوق التسبب في شتمهما .
٥٩ ـ من العقوق إحداد النظر إليهما .
٦٠ ـ إثم من رغب عن والديه .
٦١ ـ إثم من تبرأ من والديه .
٦٢ ـ إثم من تكبر عليهما .
٦٣ ـ إثم مَن ضربهما أو أحدهما .
٦٤ ـ إثم من قتل أحد والديه .
٦٥ ـ لا يقتل الوالد بالولد[١] .

---

(١) انظر كتاب بر الوالدين للشيخ أحمد الغماري الحسني .

(موعظة) أيها المضيع لآكد الحقوق، والمعتاض من بر الوالدين العقوق، الناسي لما يجب عليه، الغافل عما بين يديه، بر الوالدين عليك دين، وأنت تتعاطاه باتباع الشين، تطلب الجنة بزعمك، وهي تحت أقدام أمك، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع سنين، وكابدت عند الوضع ما يذيب المهج، وأرضعتك من ثديها لبناً، وأطارت لأجلك وسنا، وغسلت بيمينها عنك الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذاء، وصيرت حجرها لك مهداً، وأنالتك إحساناً ورفداً، فإن أصابك مرض أو شكاية، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت مالها للطبيب، ولو خيرت بين حياتك وموتها، لطلبت حياتك بأعلى صوتها، هذا وكم عاملتها بسوء الخُلُق مراراً، فدعت لك بالتوفيق سراً وجهاراً، فلما احتاجت عند الكبر إليك، جعلتها من أهون الأشياء عليك، فشبعت وهي جائعة، ورويت وهي قانعة، وقدمتَ عليها أهلك وأولادك بالإحسان، وقابلتَ أياديها بالنسيان، وصعُب لديك أمرها وهو يسير، وطال عليك عمرها وهو قصير، وهجرتها ومالها سواك نصير، هذا ومولاك قد نهاك عن التأفيف، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين، وفي أخراك

بالبعد من رب العالمين، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1] .

لأمسك حق لو علمت كثير ... كثيرك ياهذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها أنة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة ... فمن غصص منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها ... وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها ... ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها ... حناناً وإشفاقاً وأنت صغير
فآها لذي عقل ويتبع الهوى ... وآها لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها ... فأنت لما تدعو إليه فقير[2]

(١) سورة الحج آية ١٠ .
(٢) من كتاب الكبائر للإمام الذهبي ص ٤٨ .

صلة الأرحام(1)

يُرْكِّز الإسلام على توطيد الصلة وتقوية الأواصر بين أفراده ففي نطاق الأسرة نجد أن الإسلام يدعو إلى ترابطها بشكل يحقق الوئام والمودة ويمنع الإفساد ويقضي على القطيعة ولذلك نراه يدعو إلى حفظ حقوق الأقربين وإيتائهم حقهم من الصلة والبر والزيارة والتكريم وخاصة الأصول والفروع وما يلحق بهما من الحواشي قال تعالى:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٧] . ومن السنة قوله ﷺ في حديث أنس بن مالك في الصحيحين في جزاء صلة الأرحام التي هي سبب في توسعة الرزق وحصول البركة «**من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينْسأ له في أثره فليصل رحمه**» وحديث جبير بن مطعم فيهما أيضاً عن أبيه «**لا يدخل الجنة قاطع**» يعني قاطع رحم .

---

(١) أصول المنهج الإسلامي ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

والأرحام الذين تجب صلتهم هم جمع رحم وهم الأقارب ويقع على كل من يجمعك وإياه نسب من جهة الأبوة أو من جهة الأمومة وهي واجبة ويحرم قطعها. وتشمل الرحم الأصول والفروع والحواشي قريبة أو بعيدة وإن كان الوعيد على قطعها لا يتنزل إلا على قطع من وجبت له النفقة كالأصول والفروع. أما البر والإحسان إلى الأقارب فيكون بما يتيسر للإنسان على حسب حاله وحالهم من نفقة أو سلام أو زيارة أو تكريم وكلما دعت الحاجة إلى البر كانت المسئولية أكبر وأعظم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وآت ذا القربى حقه**﴾ فتبين أنه حق لازم وثابت واجب الأداء سواء كان حقاً مادياً أو معنوياً .

اشتقاق كلمة الرحم :

وفي تعلق الرحم بالعرش عند بدء الخلق ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله من وصلكِ وصلته ومن قطعكِ قطعته**» [رواه البخاري والترمذي] ومعنى شجنة من الرحمن أي مشتقة من اسم الرحمن تعالى فمن وصلها وصله الله بلطفه وإحسانه ولهما عن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من**

خلقه قالت الرحم. هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال نعم: أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى يارب قال فهو لك» قال رسول الله **«فاقرأوا إن شئتم فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى أبصارهم»** [رواه الشيخان]. وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»** [رواه مسلم]. وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى **«أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته»** [رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح].

الآثار المترتبة على صلة الرحم

مما لا شك فيه أن صلة الرحم توجب المحبة والمودة بين الأسر خلافاً للقاطع والعياذ بالله، كما أنها تحد من الفتن والضغائن التي تقوم بسبب إهمال الصلة والتعاون بين الناس ومن آثارها أيضاً محبة الأهل وسعة الرزق وطول العمر ففي

صحيح البخاري أجاب الرسول ﷺ الرجل الذي يسأل عن عمل يدخله الجنة وعَدَّله عبادة الله وتوحيده، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال وصلة الرحم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه**» [رواه البخاري ومسلم] والبسط هو الزيادة، والنسأ التأخير، والأثر هو الأجل، فمن أراد السعة في رزقه والزيادة في عمره فليحسن إلى أقاربه فإن صلة الرحم سبب في بسط الرزق وهذا وارد في عدة آيات مثل قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

والمراد بزيادة العمر البركة فيه فيوفق للأعمال الصالحة في سنين قليلة مثلاً، أكثر من سنوات طويلة. ويرشدنا الرسول ﷺ أيضاً في حديث أبي هريرة حيث يقول: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر**» وتقدم أن الأثر هو الأجل [رواه الترمذي وأحمد والحاكم] بسند صحيح وعكس ذلك والعياذ بالله القاطع حيث تتواتر الآيات القرآنية ترميه باللعن والصمم وعمى الأبصار وما يلقاه من سوء العاقبة جزاء قطعه

ما أمر الله به أن يوصل قال تعالى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾

(محمد: ٢٢-٢٣) .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

(الرعد: ٢٥) .

بماذا تكون صلة الأرحام؟

الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وأوجب صلة الأنساب وأعظم في ذلك أجراً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعدها ليوم القيامة ذخراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أعظم الناس قدراً وأرفعهم ذكراً. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بالحق وكانوا به أحرى، وعلى التابعين لهم بإحسان وسلم تسليماً .

أما بعد : أيها المسلمون اتقوا الله تعالى وصلوا ما أمر الله به أن يوصل من حقوقه وحقوق عباده صلوا أرحامكم، والأرحام والأنساب هم الأقارب وليسوا ـ كما يفهم بعض الناس ـ أقارب الزوج أو الزوجة، فإن أقارب الزوج أو الزوجة هم الأصهار، فأقارب زوج المرأة أصهار لها. وليسوا أنساباً لها ولا أرحاماً، وأقارب زوجة المرء أصهار له وليسوا أرحاماً له ولا أنساباً، إنما الأرحام والأنساب هم أقارب الإنسان نفسه كأمه وأبيه وابنه وبنته، وكل من كان بينه وبينه صلة من قِبَلِ أبيه أو من قِبَلِ أمه أو من قِبَلِ ابنه أو من قِبَلِ ابنته .

صلوا أرحامكم بالزيارات والهدايا والنفقات، صلوهم بالعطف والحنان ولين الجانب وبشاشة الوجه والإكرام والإحترام، وكل ما يتعارف الناس من صلة. إن صلة الرحم ذكرى حسنة وأجر كبير إنها سبب لدخول الجنة وصلة الله للعبد في الدنيا والآخرة اقرؤا إن شئتم قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[1].

وفي الصحيحين عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال يارسول الله أخبرني بما يدخلني الجنة ويباعدني من النار فقال النبي ﷺ لقد وُفِّق أو قال لقد هَدِي كيف قلت

(١) سورة الرعد: الآيات ١٩ـ٢٤.

فأعاد الرجل فقال النبي ﷺ «**تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك فلما أدبر قال النبي ﷺ إن تَمسَّك بما أمرتُه به دخل الجنة**» .

(صلة الرحم سبب لطول العمر وكثرة الرزق)

قال النبي ﷺ «**من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه**» (متفق عليه). وقال ﷺ: «**إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال الله نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك. قالت: بلى قال: فذلكِ لكِ**» .

وقال ﷺ: «**الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله**» (متفق عليه). ولقد بين رسول الله ﷺ أن صلة الرحم أعظم أجراً من العتق ففي الصحيحين عن ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: يارسول الله أشعرتَ أني اعتقتُ وليدتي قال: أوفعلتِ قالت: نعم. قال: أما أنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك .

أيها المسلمون إن بعض الناس لا يصل أقاربه إلا إذا وصلوه. وهذا في الحقيقة ليس بصلة فإنه مكافأة، إذ أن المروءة والفطرة السليمة تقتضي مكافأة من أحسن إليك قريباً كان أم بعيداً،

يقول النبي ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**» (متفق عليه) فصلوا أرحامكم وإن قطعوكم، وستكون العاقبة لكم عليهم، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إن لي قرابة أصلُهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليّ فقال: «**إن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم الملَّ ـ أي الرماد الحار ـ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ـ أي معين عليهم ـ ما دمت على ذلك**» (رواه مسلم) .

واحذروا أيها المؤمنون من قطيعة الرحم فإنها سبب للعنة الله وعقابه قال الله عز وجل: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾(٢) .

---

(١) سورة محمد آية: ٢٢ـ٢٣ .

(٢) سورة الرعد آية ٢٥ .

وقد تكفل الله سبحانه للرحم بأن يقطع من قطعها حتى رضيت بذلك وأعلنته، فهي متعلقة بالعرش تقول من قطعني قطعه الله. وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع يعني قاطع رحم**» (متفق عليه). وأعظم القطيعة قطيعة الوالدين ثم من كان أقرب فأقرب من القرابة ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاث مرات قلنا بلى يارسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين**» سبحان الله ما أعظم عقوق الوالدين ما أشد إثمه إنه يلي الإشراك بالله تعالى إن عقوق الوالدين قطع برهما والإحسان إليهما وأعظم من ذلك أن يتبع قطع البر والإحسان بالإساءة والعدوان سواء بطريق مباشر أم غير مباشر. ففي الصحيحين عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**». استبعد الصحابة رضي الله عنهم أن يشتم الرجل والديه مباشرة، ولعمر الله إنه لبعيد لأنه ينافي المروءة والذوق السليم فبين النبي ﷺ أن ذلك قد لا يكون مباشرة ولكن يكون عن طريق التسبب بأن يشتم الرجل والدي شخص

فيقابله بالمثل ويشتم والديه. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «**لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه لعن الله من آوى محدثاً لعن الله من غير منار الأرض**» (رواه مسلم) .

فيا عباد الله يامن آمنوا بالله ورسوله انظروا في حالكم انظروا في أقاربكم هل قمتم بما يجب لهم عليكم من صلة هل ألنتم لهم الجانب هل أطلقتم الوجوه لهم وهل شرحتم الصدور عند لقائهم هل قمتم بما يجب لهم من محبة وتكريم واحترام هل زرتموهم في صحتهم تودداً وهل عدتموهم في مرضهم احتفاء وسؤالا هل بذلتم ما يجب بذله لهم من نفقة وسداد حاجة فلننظر .

إن من الناس من لا ينظر إلى والديه اللذين أنجباه ورباه إلا نظرة إحتقار وسخرية وازدراء يكرم امرأته ويهين أمه ويقرب صديقه ويبعد أباه إذا جلس عند والديه فكأنه على جمر يستثقل الجلوس ويستطيل الزمن، اللحظة عندهما كالساعة أو أكثر لا يخاطبهما إلا ببطء وتثاقل ولا يفضي إليهما بسر ولا أمر مهم قد حرم نفسه لذة البر وعاقبته الحميدة. وإن من الناس من لا ينظر إلى أقاربه نظرة قريب لقريبه ولا يعاملهم معاملة

تليق بهم يخاصمهم في أقل الأمور ويعاديهم في أتفه الأشياء ولا يقوم بواجب الصلة لا في الكلام ولا في الفعال ولا في بذل المال تجده مثرياً وأقاربه محاويج فلا يقوم بصلتهم بل قد يكونون ممن تجب نفقتهم عليه لعجزهم عن التكسب وقدرته على الإنفاق عليهم فلا ينفق وقد قال أهل العلم كل من يرث شخصاً من أقاربه فإنه تجب عليه نفقته إذا كان محتاجاً عاجزاً عن التكسب وكان الوارث قادراً على الانفاق لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾[1] .

أي مثل ما على الوالد من الانفاق فمن بخل بما يجب عليه من هذا الانفاق فهو آثم محاسب عليه يوم القيامة سواء طلبه المستحق منه أم استحيا وسكت .

عباد الله اتقوا الله تعالى وصلوا أرحامكم واحذروا من قطيعتهم. واستحضروا دائماً ما أعد الله تعالى للواصلين من الثواب وللقاطعين من العقاب واستغفروا الله إنه هو الغفور الرحيم[2] .

---

(١) سورة البقرة من آية ٢٣٣ .

(٢) خطب الشيخ محمد الصالح العثيمين ص ٥٠٥ .

حقوق الأقارب

للقريب الذي يتصل بك في القرابة كالأخ والعم والخال وأولادهم وكل من ينتمي إليك بصلة فله حق هذه القرابة بحسب قربه قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[1] .

وقال: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[2] .

فيجب على كل قريب أن يصل قريبه بالمعروف ببذل الجاه والنفع البدني والنفع المالي بحسب ما تتطلبه قوة القرابة والحاجة وهذا ما يقتضيه الشرع والعقل والفطرة .

وقد كثرت النصوص في الحث على صلة الرحم وهو القريب والترغيب في ذلك ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت**

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٦ .

(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

الرحم فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال الله نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك. قالت: بلى. قال: فذلك لكِ» ثم قال رسول الله ﷺ: اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه»**[2].

وكثير من الناس مضيعون لهذا الحق مفرِّطون فيه تجد الواحد منهم لا يعرف قرابته بصلة لا بالمال ولا بالجاه ولا بالخُلق تمضي الأيام والشهور ما رآهم ولا قام بزيارتهم ولا تودد إليهم بهدية ولا دفع عنهم ضرورة أو حاجة بل ربما أساء إليهم بالقول أو بالفعل أو بالقول والفعل جميعاً يصل البعيد ويقطع القريب.

ومن الناس من يصل أقاربه إن وصلوه ويقطعهم إذا قطعوه وهذا ليس بواصل في الحقيقة وإنما هو مكافىء للمعروف بمثله

---

(١) سورة محمد آية ٢٢ــ٢٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

وهو حاصل للقريب وغيره فإن المكافأة لا تختص بالقريب. والواصل حقيقة هو الذي يصل قرابته لله ولا يبالي سواءاً وصلوه أم لا، كما في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**». وسأله رجل فقال يارسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ فقال النبي ﷺ: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهم المَلَّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**» رواه مسلم .

ولو لم يكن في صلة الرحم إلا أن الله يصل الواصل في الدنيا والآخرة فيمده بالرحمة وييسر له الأمور ويفرج عنه الكربات مع ما في صلة الرحم من تقارب الأسرة وتوادِّهم وحنوّ بعضهم على بعض ومعاونة بعضهم بعضاً في الشدائد والسرور والبهجة الحاصلة بذلك كما هو مجرب معلوم. وكل هذه الفوائد تنعكس حينما تحل القطيعة ويحصل التباعد[١] .

---

(١) حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة للشيخ محمد الصالح العثيمين ص ١٨ـ٢٠ .



تـــذكـــير الأنـــام

بشأن صلة الأرحام

بقـــلم الشيخ

عبدالله بن صالح القصيِّر

عضو الوعظ والإرشاد بمركز الدعوة

برئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمــة

الحمد لله الملك القدوس السلام أمر بصلة الأرحام وجعلها من خصال أهل الإسلام الذين وعدهم الجنة دار السلام واصلي وأسلم على نبينا محمد أتقى الناس لربه وأوصلهم لرحمه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون وسلم تسليما.

أما بعد : فإن صلة الأرحام حاجة فطرية وضرورة إجتماعية تقتضيها الفطرة الصحيحة وتميل إليها الطباع السليمة فإنه يتم بها الأنس وتنتشر بواسطتها المحبة وتسود المودة وهي دليل الكرم وعلامة المروءة تكسب الشخص والعشيرة عزة وهيبة وقوة ومنعة وفوق ذلك فإنها من أنفس القُرَب وأجل الطاعات وأعلاها منزلة وأعظمها بركة وأعمها نفعاً في الدنيا والآخرة ولذلك يتنافس فيها الكرام أولوا الأحلام ويتظاهر بقطيعتها اللئام سفهاء الأحلام مع أن قطيعتها من افظع أنواع المعاصي قبحاً وأخطرها شؤماً وأسرعها عقوبة وأسوئها عاقبة في العاجل والآجل. ومع

ذلك فإن كثيراً من الناس في هذا الزمن قد قصروا في صلتها وتظاهروا بقطيعتها جهلاً بحكمها وغفلة عن حكمتها أو نسياناً لحقها وتهاوناً بخطر قطيعتها ونسبة من الذين يقومون بشيء من الصلة إنما يفعلون ذلك من باب المجاملة أو على سبيل المكافأة ومع أنهم على شيء من الخير إلا أنه يفوتهم خير كثير وأجر كبير فقد قال صلى الله عليه وسلم:«**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى**» [متفق عليه]. لذا رأيت أنه من الضروري التذكير بهذا الواجب العظيم والتنبيه بخصوصه لتستقيم النيات وتصلح الأعمال وتتنوع الصلة وتعم وتتسع فكتبت هذه النبذة ـ المباركة إن شاء الله ـ عملاً بما كان يأخذه صلى الله عليه وسلم على أصحابه عند البيعة وهو «النصح لكل مسلم» وطمعاً في النفع بالتذكير فقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(الذاريات:٥٥) وأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفع بها من كتبها وقرأها وسمعها وسعى في نشرها لتعم فائدتها إنه سميع قريب مجيب كريم آمين .

. تعريف ذوي الأرحام :

الأرحام جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في

بطن أمه ثم استعير لقبا للقرابة مطلقاً لكونهم خارجين من رحم واحدة ولأنه من دواعي التراحم بين الأقرباء فصار إسماً لكافة أقارب الشخص كأبيه وأمه وأخيه وأخته وابنه وبنته وكل من بينه وبينهم صلة من هذه الجهات كالأجداد والجدات وإن علو والأبناء والبنات وإن نزلو والإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأبناء الجميع سواء كان الواحد منهم قريباً مباشراً أو غير مباشر محرماً أو غير محرم كل له من الصلة بحسب منزلته وحاله وحاجته. ولما كانت الرحم داعية للتراحم وأصل الناس من رحم واحدة قال تعالى مذكراً بذلك : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1] .

فذكر سبحانه أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة وذكَّر به ليعطف بعضهم على بعض ويحثهم على ضعفائهم وأخبر أنه سبحانه مراقب لجميع احوالهم وأعمالهم وفي ذلك

(١) سورة النساء آية ١ .

إرشاد بمراقبة الرقيب سبحانه وعدم الغفلة عن حقه وحقوق عباده ومن ذلك مراعاة حق صلة الأرحام لاسيما عند الحاجة ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يُذَكِّر بهذه الآية عند الحاجة ليحث الناس على مواساة أهلها بالصدقة عطفاً عليهم ورغبة في ثواب صلتهم كما ثبت في صحيح مسلم عن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف عامتهم من مُضَر بل كلهم من مُضَر. فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة....**﴾ إلى آخر الحديث في ذكر خطبته ﷺ وحثه الناس على الصدقة عليهم قال النووي رحمه الله وسبب قراءة هذه الآية أنها أبلغ في الحث على الصدقة عليهم ولما فيها من تأكد الحق لكونهم إخوة. فالتذكير بأصل النسب ورابطة القرابة بسببه مما يدعو إلى الصلة ويدفع إلى التعاطف والجود بالخير ولذلك قال ﷺ: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**»[1].

---

(١) رواه الترمذي وقال هذا حديث غريب .

معنى صلة الرحم :

يقال وصل رحمه يصلها وصلاً إذا أحسن إلى ذوي رحمه أي قرابته من جهة النسب أو الصهر، كأنه بالإحسان يصل ما بينهم وبينه من علاقة القرابة والصهر قال تعالى:
﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] الآية .

فتحصل صلة الرحم بالإحسان إليهم بما تيسر من أنواع الإحسان قال ابن أبي جمره: تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة وبدفع الضرر وبطلاقة الوجه وبالدعاء. وقال القرطبي: تجب مواصلتها يعني «الرحم» بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة والنفقة على القريب وتفقد أحوالهم والتغافل عن زلاتهم .

ومن صلة الرحم ابتداء زيارتهم وتتأكد عند المرض أو الحاجة، ومنها تقديمهم على غيرهم في إجابة دعوتهم والبداءة بهم في الدعوة والضيافة ـ عند قربهم أو كون ذلك لا يشق عليهم ولا يحرجهم ـ وكذلك إيثارهم بالإحسان والصدقة

---

(١) سورة النساء آية ٣٦ .

والهدية على من سواهم ودعوتهم وتوجيههم إلى الخير قبل جميع الناس تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] وإقتداء بالنبي ﷺ في تطبيق هذه الآية حين دعا قرابته وعشيرته فأنذرهم وحثهم على أن ينقذوا أنفسهم من النار وأخبرهم أنه لن يغني عنهم من الله شيئا فنصيحتهم أوجب من نصيحة غيرهم في الأولوية خصوصاً عند فعلهم للمنكر أو تقصيرهم في المعروف وذلك بحسب الاستطاعة .

ومن صلتهم التلطف بهم ولين الجانب معهم وإظهار محبتهم والإجتهاد في إيصال كفايتهم وخصوصاً ـ عند فقرهم وسد حاجتهم وبذل المعروف لهم بطيب نفس وانشراح صدر. وكذلك المبادرة إلى صلحهم عند إختلافهم والتأليف بينهم وإعانتهم على البر والتقوى وتحذيرهم من الإثم والبغي والعدوان وكل ما يؤدي إلى القطيعة وفساد الدين وإفساد ذات البين .

والمعنى الجامع للصلة: أنها إيصال ما أمكن من الخير إليهم ودفع ما أمكن من الشر عنهم بحسب الوسع والطاقة ولكل شخص منهم بحسب منزلته وحاله ومناسبة صلته وتيسر ذلك

---

(١) سورة الشعراء آية ٢١٤ .

فقد قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1] .

العناية بصلة الرحم في الكتاب والسنة :

لصلة الرحم عناية عظيمة وأهمية وأولوية في الذكر من بين سائر الأعمال الصالحة يقول تعالى:

﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[2] .

وجعل الله تعالى الوصية بصلة الأرحام قرينة الوصية بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[3] .

أي اتقوا الله تعالى بفعل طاعته وترك معصيته واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن صلوها وبرُّوها ـ كما قاله ابن عباس وغير واحد من السلف ـ فأمر سبحانه بصلة الأرحام بعد أمره بالتقوى منبهاً سبحانه على داعيها وهو ما بين الناس من صلة النسب، وليدل على أن صلة الرحم ابتغاء وجهه أثر من آثار التقوى المباركة، وعلامة من علامات تمكنها في القلوب، ودليل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٦ .

(٣) سورة النساء آية ١ .

على صدق الإيمان، فأوصل الناس لرحمه أكملهم إيماناً بربه واتقاهم له ولهذا كان ﷺ أوصل الناس لرحمه وأتقاهم له ولذلك ذكرته خديجة بذلك عند أول نزول الوحي حين قال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ إني قد خشيت على نفسي فقالت كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرىء الضيف وتعين على نوائب الحق.

ولقد كانت الدعوة لصلة الرحم من أوائل ما دعا إليه النبي ﷺ أول بعثته كما في الصحيح من حديث أبي سفيان مع هرقل حين سأله هرقل قائلاً: فماذا يأمركم يعني النبي ﷺ قال أبو سفيان قلت: يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه**». فقد جعل النبي ﷺ في هذا الحديث صلة الرحم من واجبات الإيمان وعلاماته وقد رغب النبي ﷺ في صلة الرحم وحذر من قطيعتها بغاية من البيان والوضوح مذكراً بسرعة ظهور آثار الصلة أو القطيعة على الإنسان وأن ذلك من عاجل الجزاء ففي سنن ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال رسول الله ﷺ: «**أسرع الخير ثواباً البر والصلة وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم**» وأخرج الإمام أحمد بإسناد رواته ثقات والبزار عن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أربى الربا الإستطالة في عرض المسلم بغير حق وإن هذه الرحم شحنة من الرحمن عز وجل فمن قطعها حرمه الله الجنة**» وأخرج أبو يعلى بسند جيد عن رجل من خثعم قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت: أنت الذي تزعم أنك نبي؛ قال: نعم قلت: يارسول الله أي الأعمال أحب إلى الله، قال: الإيمان بالله قلت: يارسول الله ثم مه قال: ثم صلة الرحم. قال: قلت: يارسول الله أي الأعمال أبغض إلى الله؛ قال: الإشراك بالله. قال: قلت: يارسول الله ثم مه؟ قال: قطيعة الأرحام. ففي هذا الحديث التنبيه على أن صلة الرحم من أحب الأعمال إلى الله لأنها من آثار التوحيد ولذلك قرنت به في الذكر وعلى أن قطيعة الرحم من علامات نقصه ولذلك ذكرت بعد الشرك الذي هو أكبر الكبائر وأعظم الفساد في الأرض ولذلك لما بين ﷺ ـ كما في الحديث الصحيح ـ أن صلة الرحم شجنة من الرحمن وأن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله قال: إقرؤا إن شئتم :

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١) .

وكفى بذلك بياناً لشأن صلة الرحم وتنبيهاً على منزلتها من الدين وحثاً على صلتها وتنفيراً من قطيعتها وتحذيراً من عدم الإكتراث بها والله المستعان .

مراتب ذوي الأرحام في الصلة :

قال الإمام النووي رحمه الله: يستحب أن تقدم الأم في البر ثم الأب ثم الأولاد ثم الأجداد والجدات ثم الاخوة والأخوات ثم سائر المحارم من ذوي الأرحام كالأعمام والعمات والأخوال والخالات ويقدم الأقرب فالأقرب ويقدم مَنْ ادلى بأبوين على من أدلى بأحدهما ثم بذي الرحم غير المحرم كابن العم وبنته وأولاد الأخوال والخالات وغيرهم ثم بالمصاهرة ثم الجار ويقدم القريب البعيد الدار على الجار غير القريب. اهـ .

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله. من

---

(١) سورة محمد الآيات ٢٢، ٢٣، ٢٤ .

أحق الناس بحسن صحابتي؛ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: أبوك. وأخرج البخاري في الأدب المفرد والإمام أحمد وغيرهما عن المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ قال: إن الله يوصيكم بأمهاتكم. ثم يوصيكم بأمهاتكم. ثم يوصيكم بأمهاتكم. ثم يوصيكم بآبائكم، ثم بالأقرب فالأقرب. وفي حديث آخر بنحو ذلك وفي آخره قال ﷺ اوصي امرءاً بمولاه الذي يليه وإن كان عليه أذى يؤذيه أخرجه ابن ماجه والحاكم وفي حديث أبي رمثه الذي رواه الحاكم وغيره. قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعته يقول: أمك وأباك ثم أختك وأخاك ثم أدناك أدناك .

صلة القريب المشرك :

لذي الرحم القريب ـ غير المسلم ـ حق في الصلة مراعاة لقرابته بحسب الحال وخصوصاً والدي الإنسان فإن حق الصلة لهما والإحسان إليهما حتى ولو كانا غير مسلمين فقد قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا

﴿مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾[1] الآية .

فقد أمر سبحانه بالشكر للوالدين بعد شكره ومصاحبتهما بالمعروف حتى ولو جاهدا الإنسان على الشرك غاية ما في الأمر أن الإنسان لا يتبع والديه فيما يدعوانه إليه من باطل بل يجب عليه إتباع داعي الحق وما ذلك إلا لعظيم حق الوالدين على ولدهما كما أوضح ذلك النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه**»[رواه مسلم] ولذلك لما إستفتت اسماء بنت أبي بكر رسول الله ﷺ فقالت قَدِمَتْ علي أمي وهي راغبة ـ أي محتاجة ـ وفي رواية مشركة أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك. وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه دعوة النبي ﷺ لقريش فأنذرهم وفي آخره قال: فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها. وفي حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول: إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي إنما ولي الله وصالح المؤمنين ولكن لهم رحم سأبلها ببلالها ـ

---

(١) سورة لقمان الآيات ١٤، ١٥ .

أي سأصلها بصلتها ـ وهذا إنما يكون عند الحاجة وفي غير حالة الحرب مع المسلمين .

صلة بعيد النسب :

ولذي الرحم بعيد النسب حقه من الصلة عندما تعرض مناسبة صلته كقدومك على بلده وقدومه بلدك محتاجاً إليك وما أشبه ذلك فقد تقدم حث النبي ﷺ لأصحابه على الصدقة على وفد مضر لما قدموا عليه ورأى بهم من الفاقة ما غيَّر وجهه وأقلقه فجمع أصحابه وخطبهم وذكَّرهم بما بينهم وبين هذا الوفد من صلة في النسب متقدمة حيث تلى عليهم قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1] .

الآية. وروى مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط** ـ وفي رواية أخرى ـ **ستفتحون مصر وهي أرض يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً**

---

(١) سورة النساء آية ١ .

ـ وفي أخرى ـ **فإن فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً أو قال، صهراً»** قال النووي رحمه الله : قال العلماء الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل ﷺ منهم. والصهر. كون مارية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ منهم .

صل ذا رحمك وإن قطعك :

من نعم الله على عبده أن يكون ذووا رحمه مواصلين له مقدرين لصلته شاكرين لإحسانه كافِّين لأذاهم عنه لأن ذلك مما يعين على الخير ويشجع على البر والصلة ولكن قد يجد بعض الناس جفاء من ذوي رحمه حيث قد يتعمدون قطيعته ويباشرون أذاه ولا يقبلون إحسانه ولا شك أن ذلك من البلاء العظيم ينبغي للحريص على صلة رحمه أن يصبر عليه ويصله رغم قطيعته طمعًا في حسن العاقبة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١) ورغبة في عظيم الأجر الذي لا حصر له ولا حساب «إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ»(٢) ومثل هذا البلاء ـ ونسأل الله العافية ـ يظهر الله

---

(١) سورة يوسف آية ٩٠ .

(٢) سورة الزمر آية ١٠ .

به قصد الإنسان من الصلة لذوي رحمه هل هو المجاملة والمكافأة أم الاحتساب والرغبة في الأجر ولذلك قال ﷺ في الحديث الصحيح : «**ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قَطَعْت رحمه وصلها**»[1]. وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال يارسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عنهم ويجهلون علي. قال: «**لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المَلَّ ـ أي كأنما تطعمهم الرماد الحار وذلك لما ينالهم من الإثم العظيم ـ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**». وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إن لي ذوي أرحام أصل ويقطعون واعفو ويظلمون وأحسن ويسيئون أفأكافئهم قال رسول الله ﷺ: «**لا إذا تتركون جميعاً ولكن جد بالفضل وصلهم فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك**» رواه الإمام أحمد. وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت: يارسول الله أخبرني بفواضل الأعمال؛ فقال:

---

(١) رواه البخاري .

«**ياعقبة صل من قطعك وأعط من حرمك واعرض عمن ظلمك**. وفي رواية **واعف عمن ظلمك**»(١). وقد ورد أن الصدقة على ذي الرحم المضمر للعداوة من أفضل الصدقات. فقد أخرج الطبراني والحاكم وغيرهما عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح**». وذلك والله أعلم لأن الصدقة عليه وهو في هذه الحالة دليل الإخلاص ومن أسباب تأليفه وإزالة السخيمة من قلبه ودعوته إلى معاودة صلة رحمه .

من فضائل صلة الرحم وعواقبها الحميدة :

صلة الرحم عمل صالح مبارك يجلب لصاحبه الخير في الدنيا والآخرة ويجعله الله به مباركاً أينما كان ويبارك الله له في كل أحواله وأعماله عاجلاً وآجلاً وقد دلت على ذلك جملة أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ فقد روى أبو داود والترمذي عن عبدالرحمن بن عوف قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسماً من إسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**».

---

(١) رواه أحمد والحاكم .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته**» وفي رواية قالت ـ أي الرحم ـ «**هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلكِ وأقطع من قطعكِ؟ قال: بلى. قال: فذلك لكِ**» فواصل الرحم موصول من الله تعالى بكل خير في حياته في دينه ودنياه وفي آخرته بكريم الجزاء وعظيم الأجر والرضوان من الله ومن هذه الصلة :

(أ) سعة الرزق وزيادة العمر :

وذلك أن الجزاء من جنس العمل فحيث قام الإنسان بصلة رحمه بالبر والإحسان وما يتيسر له من ألوان الصلة وأنواع الخير فإن الله ـ الكريم الرحمن ـ يصله من رحمته وإحسانه بكثرة في ماله وإمتداد في عمره مع البركة في ذلك كله ﴿وَمَاكَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[1] فإنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب فقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٠ .

أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**» وروى البخاري والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه**». وفي رواية الترمذي قال ﷺ: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر**». والأثر هو الأجل والنسأ معناه التأخير أي يؤخر أجله فيمتد عمره ويزداد ففي هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة البشارة لمن وصل رحمه بالبركة في العمر والرزق ومن ذلك طول العمر وسعة الرزق وكثرته. حيث يفتح له من أبواب الرزق مالم يخطر له على بال ويتهيأ له من أسباب الكسب ووسائله مالا يدخل تحت الحصر من الحفظ من أسباب الآفات وموجبات التلف والهلكة والعسر والمشقة فإن من حفظ الله بطاعته حفظه الله برعايته وعنايته ولعل من أهم أسباب ذلك ما يحصل للواصل لرحمه من الدعاء الصالح والثناء الجميل من الأقارب وصالح المؤمنين مع ما للطاعة من أثر محسوس في شرح الصدر وطمأنينة القلب وقوة البدن والعزم على فعل الخير وكل هذه من أسباب التوفيق وملامح السعادة

وذلك من عاجل بشرى المؤمن وإلا فما عند الله له من الخير أعظم وأكبر وأبقى .

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

وزيادة العمر زيادة حقيقية يدل عليها ما رواه الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن عائشة مرفوعاً صلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار. وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»[2] ويروى عن علي رضي الله عنه قال: من ضمن لي واحدة ضمنت له أربعاً: من وصل رحمه طال عمره وأحبه أهله ووسع عليه في رزقه ودخل جنة ربه. وروى أبو الشيخ في الثواب عن أنس رضي الله عنه قال: إن المرء ليصل رحمه وما بقي من عمره إلا ثلاثة أيام فينسؤه الله ـ أي يؤخره ـ ثلاثين

---

(١) سورة يونس الآيات ٦٢، ٦٣، ٦٤ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه السيوطي .

سنة. وإنه ليقطع الرحم وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيره الله إلى ثلاثة أيام .

ولا تعارض بين هذه الزيادة المذكورة في هذه الأحاديث وبين قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] .

وذلك أن هذه الزيادة تكون بالنسبة لعلم الملك الموكل بالعمر وأما الأجل الذي دلت عليه الآية فبالنسبة لعلم الله تعالى. كأن يقال للملك ـ مثلاً ـ إن عمر فلان مائة سنة إن وصل رحمه وستون إن قطعها. وقد سبق في علم الله أنه يصل رحمه أو يقطعها فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص. والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقصان وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[2] .

فالمحو بالنسبة لما في علم الملك وأما الذي في علم الله وهو

---

(١) سورة النحل آية ٦١ .

(٢) سورة الرعد آية ٣٩ .

الذي في أم الكتاب فلا محو فيه البتة. ومن أظهر وأنفع الزيادة في العمر التوفيق للطاعة والبعد عن المعصية وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة وينتفع به كل من له به صلة كتحصيل العلم النافع وتيسير الخير له ونفع الناس والإحسان إليهم وبذل المعروف لهم بحيث يبقى له الذكر الجميل فكأنه لم يمت مع ما يخلفه بعد موته من علم ينتفع به أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له .

عظم الأجر ومضاعفة الصدقة على ذي الرحم :

ذووا أرحام الإنسان أولى بخيره وبره وعطفه وإحسانه لقرابتهم منه وقد قال تعالى:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1]

كل على قدر قربه ومنزلته فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله عن أولى الناس ببره أو حسن صحبته فقال ﷺ: «أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك» فيعطى كلٌ بحسب ماله من الصلة شرعاً فيكون في ذلك عظيم الأجر ووافر الخير فقد روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٥ .

ـ أي جارية ـ لها ولم تستأذن النبي ﷺ فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أشعرت يارسول الله أني اعتقت وليدتي؛ قال أو فعلتِ ذلك؟ قالت: نعم. قال: أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك وفي حديث زينب الثقفية وقد سألت النبي ﷺ عن الصدقة على الزوج والأيتام في حجرها فقال: لها أجران. أجر القرابة وأجر الصدقة. متفق عليه وروى الترمذي وحسنه عن سلمان بن عامر أنه ﷺ قال: الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة .

الجنة جزاء صلة الرحم :

روى البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة. وفيه فقال رسول الله ﷺ تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم. وفي رواية قال: إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة. وروى البغوي في شرح السنة عن النبي ﷺ أن الرحم تبعث يوم القيامة بلسان فصيح ذلق تقول: اللهم فلان وصلني فأدخله الجنة وتقول إن فلاناً قطعني فأدخله النار ولقد

ذكر الله سبحانه أنه يكرم عباده:

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾(١) .

ومن ذلك صلة الرحم فيجمع شمل ذوي الأرحام المؤمنين المتواصلين في الدنيا وفي الجنة حيث تقر أعينهم وتطيب قلوبهم فيتلذذون بنعمة الإجتماع بالأحباب مع ما هم فيه من النعيم المقيم في جوار الرب الكريم كما قال تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٢) .

خطر قطيعة الأرحام :

قطيعة الأرحام كبيرة من كبائر الذنوب التي توعد الله القوي العزيز مرتكبها بألوان من الوعيد والعقوبات العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة كيف وقد قال الله تعالى للرحم حين عاذت به من القطيعة من قطعك قطعته فقاطع الرحم مقطوع من الله تعالى ومن قطعه الله عز وجل فأي خير يرجوه وأي

---

(١) سورة الرعد آية ٢١ .

(٢) سورة الرعد الآيات: ٢٢، ٢٣، ٢٤ .

شر وسوء يأمن منه في عاجل أمره وآجله ما دام متصفاً بقطيعة الرحم فعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»**(*) وروى ابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم»** .

إذا علم ذلك فقطيعة الرحم ـ والعياذ بالله ـ من أسباب طمس القلوب وعمى البصائر والحرمان من العلم النافع بل ومن كل خير لأنها من الفساد في الأرض الذي حكم الله على أهله باللعن وسوء العقاب في الحال والمآل قال تعالى :

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(1) .

وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ

---

(1) سورة محمد الآيات ٢٢، ٢٣، ٢٤ .

(*) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1] .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الألسن وتباغضت القلوب وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم**»[2] .

وقد ورد أن قاطع الرحم لا يقبل عمله فقد روى أحمد بإسناد رجاله ثقات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم**». وقاطع الرحم قد عرَّض نفسه لعدم استجابة دعائه روي أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يوماً جالساً بعد الصبح في حلقة فقال: أنشد الله قاطع رحم لما قام عنا فإنا نريد أن ندعو ربنا وإن أبواب السماء مرتجة ـ أي مغلقة ـ دون قاطع رحم .

وقطيعة الرحم تجعل صاحبها شؤماً على المجتمع الذي يوجد فيه روي عن عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: سمعت رسول

---

(١) سورة الرعد آية ٢٥ .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والكبير .

الله ﷺ يقول : «**لا تنزل الرحمة على قوم فيهم قاطع رحم**»[٢] .

وثبت في الصحيح أن قاطع الرحم مهدد بعدم دخول الجنة فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**» متفق عليه وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن خمر. وقاطع رحم. ومصدق بالسحر**» رواه ابن حبان وغيره تلك جملة من عقوبات قاطع الرحم أسأل الله تعالى أن يعافينا منها وإخواننا المسلمين وأن يجعلنا ممن يصلون أرحامهم ابتغاء وجهه وعلى طريقة نبيه محمد ﷺ إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

مراجع هذه الرسالة

(١) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم للإمام النووي رحمه الله .

(٢) أصول المنهج الإسلامي للشيخ عبدالرحمن بن عبدالكريم العبيِّد وفقه الله .

(٣) خطب الشيخ محمد الصالح العثيمين وفقه الله .

(٤) حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة له .

(٥) كتاب الكبائر للإمام الذهبي رحمه الله .

(٦) رسالة (بر الوالدين) للشيخ أحمد الغماري الحسيني رحمه الله .

(٧) بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا والدين للمؤلف رحمه الله ووفقه .

فهرس رسالة
(تذكير شباب الإسلام ببر الوالدين وصلة الأرحام)

الصفحة

الصفحة

فهرس رسالة
(تذكير الأنام بشأن صلة الأرحام)

الصفحة

ومن أراد إعادة طبعه أو شيء من مؤلفاتي فقد أذنت له على أن :

١ ـ لا يزاد فيها ولا ينقص منها شيء .

٢ ـ وأن لا تذكر حقوق الطبع وإن كان لابد منها فتكون للمؤلف .

٣ ـ وأن أعطى منها عشرة بالمائة .

٤ ـ وأن تصحح عن الأخطاء المطبعية إذا وجدت قبل الطبع .

٥ ـ وأن أخبر بالكمية التي تطبع منها .

٦ ـ وإذا كان الطبع للبيع فتباع بسعر مناسب يكتب على الكتاب رقمه .

والله ولي التوفيق .

الرياض ص.ب ٥٥٨٢

الرمز البريدي ١١٤٣٢

هاتف : ٤٢٥٥٤١٦

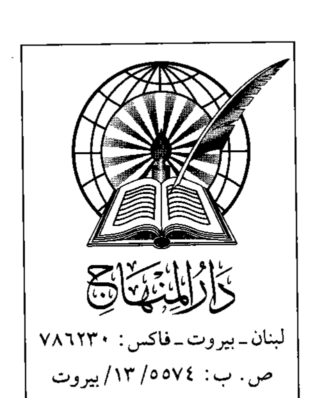
مُوجِبُ دَارِ السَّلَامِ

فِي بِرِّ الوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ

تأليف
الإمام القاضي العلّامة
أَبِي عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ ٱلنَّاشِرِيِّ
رَحِمَهُ اللهُ تعالى
(ت ٩٠٦ هـ)

عني به
أحمد جاسم المحمّد

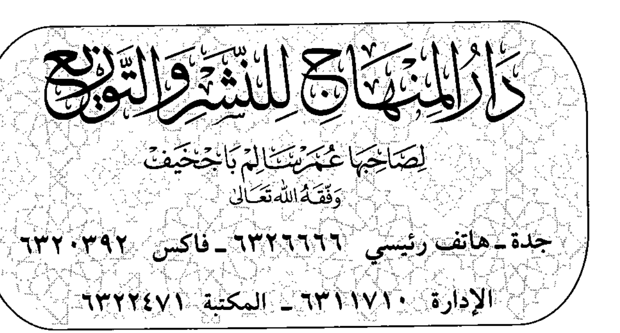
طبع على نفقة الشيخ
إسماعيل جمال الحريري
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠
ص. ب: ٥٥٧٤/ ١٣/ بيروت

الطبعة الأولىٰ

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م



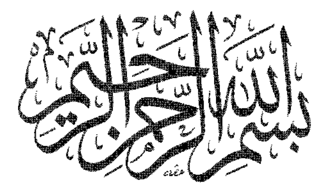
الموزعون المعتمدون

- السعودية : دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة
  هاتف: ٦٣١١٧١٠ـ فاكس: ٦٣٢٠٣٩٢
  مكتبة دار كنوز المعرفة ـ جدة
  هاتف: ٦٥١٠٤٢١ـ فاكس: ٦٥١٦٥٩٣
  مكتبة الشنقيطي ـ جدة ـ هاتف: ٦٨٩٣٦٣٨
  مكتبة المأمون ـ جدة ـ هاتف: ٦٤٤٦٦١٤
  مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة ـ هاتف: ٥٥٧٠٥٠٦
  مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة ـ هاتف: ٥٧٤٩٠٢٢
  مكتبة المصيف ـ الطائف ـ هاتف: ٧٣٦٨٨٤٠ـ٧٣٣٠٢٤٨
  مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة ـ هاتف: ٨٣٦٦٦٦٦
  مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ هاتف: ٤٦٥٠٠٧١ـ٤٦٥٤٤٢٤
  مكتبة الرشد ـ الرياض ـ هاتف: ٤٥٩٣٤٥١
  مكتبة جرير ـ الرياض ـ هاتف ٤٦٢٦٠٠٠
  وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها
  دار التدمرية ـ الرياض ـ هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦
  دار أطلس ـ الرياض ـ هاتف: ٤٢٦٦١٠٤
  مكتبة المتنبي ـ الدمام ـ هاتف: ٨٤١٣٠٠٠
- الإمارات العربية المتحدة: **مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي**
  هاتف: ٢٢١١٩٤٩ـ٢٢٢٤٠٠٥ ـ فاكس: ٢٢٢٥١٣٧
  دار الفقيه ـ أبو ظبي ـ هاتف ٦٦٧٨٩٢٠ ـ فاكس ٦٦٧٨٩٢١
  مكتبة الجامعة ـ أبو ظبي ـ هاتف: ٦٢٧٢٧٩٥ـ٦٢٧٢٧٢٦
- الكويت : دار البيان ـ الكويت
  هاتف: ٢٦١٦٤٩٠ ـ فاكس: ٢٦١٦٤٩٠
  دار الضياء للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ تلفاكس ٢٦٥٨١٨٠
- قطر: **مكتبة الأقصى** ـ الدوحة
  هاتف: ٤٤٣٧٤٠٩ـ٤٣١٦٨٩٥
- مصر: **دار السلام** ـ القاهرة
  هاتف: ٢٧٤١٥٧٨ ـ فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
- سوريا: **دار السنابل** ـ دمشق ـ هاتف: ٢٢٤٢٧٥٣
- جمهورية اليمن: **مكتبة تريم الحديثة** ـ تريم (اليمن)
  هاتف: ٤١٧١٣٠ ـ فاكس: ٤١٨١٣٠
  مكتبة الإرشاد ـ صنعاء ـ هاتف: ٢٧١٦٧٧
- لبنان: **الدار العربية للعلوم** ـ بيروت
  هاتف: ٧٨٥١٠٨ـ٧٨٥١٠٧ ـ فاكس: ٧٨٦٢٣٠

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

موجبات دار السلام

في بر الوالدين وصلة الأرحام



بين يدي الكتاب

حمداً لمن رفع منازل الأبرار ، وأجزل الصِّلات للأتقياء الأخيار ، فأنزلهم دار السَّلام ، وأسبغ عليهم حُلَل الإكرام والإنعام ، وصلاةً وسلاماً علىٰ مَن كان وصَّالاً للأرحام ، متهجداً في الليل والناس نيام ، فهو سيد ولد آدم ، الذي تركنا علىٰ المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاَّ هالك ، فما من خيرٍ إلاَّ ودلَّنا عليه ، ولا من شرٍّ إلاَّ وحذَّرنا منه ، فهو الحريص علىٰ هدايتنا ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ؛ لأنه ذو الخلق العظيم ، والخير العميم ، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وصحبه ، ما ترنَّم تالٍ بالقرآن ، وما تغنَّى الهزار علىٰ غصن بان ، وعلى التابعين لهم علىٰ ممرِّ الدهور والأزمان .

أما بعد :

فإن حقوق الوالدين وسائر الأرحام من أهم الواجبات في تشريع الإسلام ، كيف وقد قرن المولىٰ تقدَّست أسماؤه شكره بشكر الوالدين فقال : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ لأن المولىٰ سبحانه هو الموجد الحقيقي للأولاد ، والأبوين هما الموجدان بالسببية ؛ ولذا قضىٰ سبحانه وتعالىٰ بإفراده بالعبادة ، وقرن ذلك بالإحسان إليهما ؛ لا سيما في أُخريات حياتهما، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

وتقييد القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴾ بالظرف (عندك) فيه إشارة وتلميح إلى الحثِّ علىٰ إنزال الأبوين لدى الأولاد ؛ ليكونا قريبين يسهل الدخول عليهما عن كثبٍ ، ولا يشق تكراره عليهم ؛ فإن هـٰذا من البرِّ .

بيد أن طائفة من الناس في عصرنا الحاضر عملوا بضد هـٰذا التوجيه ، فأبعدوهما عن مكان إقامتهم ؛ تخلصاً من عبءِ القيام بشؤونهما .

وهـٰذا مسلكٌ خطيرٌ ، وجفاءٌ كبير ، يُخشىٰ علىٰ صاحبه من مغبّة ذلك ، بل إن فريقاً من الناس بلغ بهم العقوق والجفاء إلىٰ حد أنهم يدخلون آباءهم إلى المراكز المختصة بالمسنين ؛ ليواروهم بذلك عن أعينهم ، ثم يسدلوا عليهم ستار النسيان ، وهـٰذا من العقوق واللؤم المشينين ، وهو جحود لحقوق الأبوين ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟! .

كما قرن سبحانه وتعالى الإفساد في الأرض بقطيعة الأرحام ، فقال جلَّ وعزَّ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ .

إذاً فالأمر عظيم ، والخطب جسيم ، والقضية تخصُّ كل مكلفٍ بعينه ؛ لذلك طفحت السنة الغراء بالترغيب في البرِّ والصِّلة ، والترهيب من العقوق والقطيعة ، إضافة إلىٰ نصوص التنزيل الحكيم .

ولما كانت هـٰذه الحقوق متعددة متنوعة ـ وهي تختلف باختلاف الحالات ، وتتنوع بتنوع الأشخاص ، وفيها أمورٌ قد تخفىٰ على العاميِّ ، وقد لا يتفطن لها الطالب الذكي الألمعي ـ جرَّد الإمام المحدث الفقيه محمد عبد السلام الناشري لهـٰذه الحقوق العظيمة سفراً حافلاً ، فصَّل فيها الأحكام تفصيلاً ، وأبان هـٰذه الحقوق علىٰ وجهٍ ما عليه من مزيد ، كما أضاف إلىٰ ذلك حقوق الأخوة والجار والمملوكين ، وختم ببابٍ في التوبة ، وخاتمة في فضل الصلاة على المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم .

فجاء الكتاب متكاملاً في موضوعه ، بطيناً إذا قُورِن بأترابه ، بأسلوبٍ علمي متين ، وفقهٍ عزيزٍ واضح ، وأسلوبٍ ناشري رصين ، فهو لا يكاد يمرُّ بآيةٍ تحتاج إلىٰ بيانٍ إلاَّ وفسرها ، ولا بحديثٍ يتطلب شرحاً إلاَّ وأعطاه حظَّه من البيان ، ويشفع ذلك بأقوال الأئمة المفسرين والمحدثين ، ويوشِّح ذلك بحكايات الصالحين ، وحِكَم الموفَّقين من الرجال المشهورين .

وهو مع ذلك كله يكشف النِّقاب عن الإشكالات ، ويزيح الغشاوة عن وجه المستغرَب من الألفاظ ، إلىٰ غير ذلك من الفوائد .

ودار المنهاج إذ تبنَّت نشر هـٰذا الكتاب الذي تبرزه لأول مرة في حلل التحقيق. . فإنما تقدِّمه خدمةً للأمة ، ووفاء بالعهد الذي قطعته علىٰ نفسها ؛ من سعيها الحثيث لنشر كل ما هو مفيد لعالمنا الإسلامي ، لا سيما في مثل هـٰذا العصر الذي استهان أهله بالأرحام ،

وغمطوا حقوق الوالدين ، ونجم من العقوق ما لم يكن معروفاً قبل ، حتىٰ سمعنا من الحكايات في هـٰذا الميدان ما تَقشعرُّ له الأبدان ، ويدمي قلوب أهل الإيمان .

(ب)

وممَّا تجدر الإشارة إليه : أن الإمام الناشري لعله أن يكون هو من أول من أَلَّف ـ علىٰ ما يبدو ـ في هـٰذا الموضوع استقلالاً ، ثم كان مَنْ كَتب في الموضوع بعده عالة عليه ، ومستمداً ممَّا لديه ؛ كالفقيه المتبحر أحمد بن حجر الهيتمي رحمه الله تعالىٰ في كتابه المسمىٰ « أسنى المطالب في صلة الأقارب » .

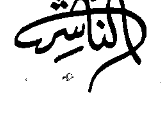
وكان آخرهم كتابة في الموضوع نفسه الفقيه محمد طاهر الكردي المكي المتأخر ؛ فإن له كتاباً بعنوان « تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالدين والأولاد » .

بيد أن فضل السبق للأول ، علىٰ حدِّ قول الشاعر :

ولكـن بكـت قبلـي فهيـج لـي البكـا ... بكـاء فقلـت : الفضـل للمتقـدم

هـٰذا وإن أهل العلم قد تناقلوا خلفاً عن سلف : أن العاق لوالديه يُخشىٰ عليه من سوء الخاتمة ، عياذاً بالله من ذلك ، وقد نظم بعض أهل العلم القبائح التي يُخشىٰ علىٰ صاحبها سوء الخاتمة فقال :

يُخشـىٰ علـىٰ ختـامِ مَـنْ تكلَّمـا ... حـالَ الأذان أو أسـاء مسلمـا
أو عـقَّ أصـلاً أو تعـاطـى الخمـرا ... أو فـي صـلاتـه استخـفَّ الأمـرا



ترجمة المؤلف
الإمام القاضي العلامة
أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناشري
رحمه الله تعالى[1]

اسمه ونسبه :

هو السيد الأديبُ ، العلامة اللبيب ، الإمام الفقيه ، شيخ الإسلام القاضي جمال الدين محمد بن عبد السلام بن أبي بكر الناشري ، العدناني ، الشافعي ، اليمني .

والناشرة التي ينتسب إليها هٰذا الإمام ، هي قرية عامرة في عُزلة بني جامع من (وادي مُور) في (تهامة) ، بنيت في أول المئة الخامسة للهجرة ، وقيل : إن أول من اختطها ناشر الأصغر بن عامر بن ناشر الأكبر بن تيم بن سملقة بطن من عَكّ بن عدنان ، وهو الذي ينسب إليه (حصن ناشر) بـ(اليمن) ، والله أعلم .

وينسب لهٰذه القرية جميع الفقهاء الناشريين ، وهم قضاة : (زبيد) و(الحُديدة) و(المَراوعة) و(سامر) و(صاعر) و(مَوزع) و(لَحْج) و(حيس) ، وغيرها .

نشأته :

نشأ وترعرع رحمه الله تعالىٰ في بيئة علمية صالحة ، لا سيما وأن الناشريين من أكبر البيوتات في (اليمن) علماً وفقهاً وصلاحاً ، وبهم كان يُنتفع في أكثر بلاد اليمن[2] ، فاشتغل وحصَّل وبرع في علوم الشريعة والحقيقة ، حتىٰ كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العاملين .

---

(١) انظر ترجمته في : « الضوء اللامع » (٨/ ٥٦) ، « الفضل المزيد في أخبار مدينة زبيد » (ص٢٥٨) ، « النور السافر » (ص٧٤) ، « شذرات الذهب » (١٠/ ٤٧) ، « كشف الظنون » (١٨٩٨) ، « إيضاح المكنون » (٢/ ٦٤٩) ، « هدية العارفين » (٢/ ٢٢٣) ، « معجم المؤلفين » (٣/ ٤١٢) ، « هِجَر العلم ومعاقله في اليمن » (٤/ ٢١٨٣) ، « الروض الأغن » (٣/ ٦٦) .

(٢) « تاج العروس » للزبيدي ، مادة (نشر) .

ومن حرصه على العلم : ما ذكره الإمام السخاوي رحمه الله في « تاريخه » : أن الإمام الناشري كتب إليه وهو بـ(مكة) يستدعيه إجازة له ولولديه ، فكتب له الإمام السخاوي كراسة .

وذكر الإمام ابن الديبع رحمه الله : أن الإمام الناشري نزل في سنة (٨٩٤ هـ) على السلطان الظافر بعد توليه السلطة ، فحملوا عليه ونهبوا بيته ، فكانت حصيلة ما نهبوه من الكتب النفيسة ألفاً وخمس مئة كتاب .

توليه منصب القضاء :

ولما كان الإمام الناشري رحمه الله عالي الكعب ، طويل الباع في شتى الفنون ، وخصوصاً في فن الفقه ، وكانت له المكانة المرموقة في اليمن عامة وعند أهل (زبيد) خاصة ، وكان قد نذر نفسه للعلم والتدريس . . كلفه السلطان الملك المنصور تاج الدين عبد الوهاب بن داوود بتولي منصب القضاء بـ(زبيد) خلفاً للقاضي تقي الدين عمر بن عبد المجيد الناشري ، وذلك يوم الخميس الثامن من رمضان سنة (٨٨٣ هـ) ، وظل في منصبه هٰذا طيلة حياته إلىٰ أن وافته المنية ، فكان خاتمة القضاة الناشريين ، وتولىٰ قضاء (زبيد) خلفاً له : الإمام القاضي صفي الدين أبو العباس أحمد بن عمر المزجَّد ، صاحب « العباب » ، المتوفىٰ سنة (٩٣٠ هـ) ، وذلك بأمر السلطان الملك الظافر صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب .

تلاميذه :

وممن أخذ عن الإمام الناشري رحمه الله واستفاد منه وحصّل عليه :

ـ ولده الإمام الفقيه الصالح تقي الدين عبد السلام بن محمد الناشري ، المتوفىٰ بـ(زبيد) ضحى الخميس ، العشرين من ذي القعدة ، سنة (٩١٠ هـ) ، ودفن قرب والده .

ـ ولده الإمام الفقيه موفق الدين علي بن محمد الناشري .

ـ الإمام الحافظ الحجة المتقن شيخ الإسلام الضياء وجيه الدين أبو محمد عبد الرحمٰن بن علي ابن الديبع الشيباني العبدري الشافعي ، صاحب المؤلفات النافعة ، المتوفىٰ سنة (٩٤٤ هـ) .

ـ الإمام الحبر شيخ الإسلام العارف بالله شهاب الدين أحمد بن الطيب بن شمس الدين الطنبداوي البكري الصديقي الشافعي ، المتوفىٰ سنة (٩٤٨ هـ) .

ـ الإمام الفقيه عبد الله بن عبد الكريم السبائي اللحجي العدوي اليماني الشافعي ، المعروف بابن عجيل .

ـ الإمام الفقيه عمر بن علي بن أبي بكر التقي الزبيدي الناشري الشافعي ، الذي لازم القاضي وحفظ عليه قطعة من « التنبيه » ، وقرأ « البخاري » ، و« الترمذي » ، و« سيرة ابن هشام » ، وبعض « مسلم » ، و« الرسالة القشيرية » ، « وتفسير البغوي » ، وغيرها .

ـ الإمام الفقيه الصالح عبد الفتاح بن عبد الله اللامي الناشري الشافعي .

مؤلفاته :

ـ « تحفة النافع في شرح منهاج الطالبين » للإمام النووي .

ـ « شرح الحاوي الصغير » للإمام القزويني .

ـ « موجب دار السلام في بر الوالدين وصلة الأرحام » وهو كتابنا هـٰذا .

ـ « النصائح الإيمانية لذوي الولايات السلطانية » .

وفاته :

وبعد أن قضى الإمام الناشري رحمه الله حياته في العلم والتحصيل ، والاستفادة والإفادة ، والاشتغال بالقضاء . . وافته المنية علىٰ حاله تلك ليلة الإثنين الثامن والعشرين من شهر الله المحرم الحرام ، سنة ست وتسع مئة للهجرة (٩٠٦ هـ) ، وكان له مشهد عظيم لم تر العيون مثله ، فصلي عليه بعد صلاة الصبح بجامع (زبيد) ، ثم دفن بها ، تغمده الله بواسع رحمته ، ورضي عنا وعنه ، آمين .

* * *

وَصفُ ٱلنُّسَخِ الخَطِّيَّةِ

اعتمدنا في إخراج هٰذا الكتاب علىٰ نسختين خطيتين :

- **الأولى** : نسخة مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة (مجموعة بشير آغا) تحت الرقم (٨٧/ ٥٣٦ عام) .

وهي نسخة جيدة ، عليها بعض التشكيلات ، يوجد فيها سقط بعض الكلمات في مواضع قليلة ، استدركت من النسخة الأخرىٰ دون إشارة إلىٰ ذلك .

عدد أوراقها (١٢٣) ورقة ، في كل ورقة (٣١) سطراً ، متوسط عدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة ، خطها نسخي مقروء ، لم يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

ورمزنا لها بـ(أ) .

- **الثانية** : نسخة المكتبة الأزهرية تحت الرقم (٥٧١١) .

وهي نسخة جيدة أيضاً ، إلا أن فيها بعض التصحيفات صحح بعضها على الهامش .

عدد أوراقها (١٧٩) ورقة ، في كل ورقة (٢٣) سطراً ، متوسط كلمات السطر الواحد (١١) كلمة ، خطها نسخي مقروء ، ولم يذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ .

ورمزنا لها بـ(ب) .

❊ ❊ ❊

مَنهجُ العَمَلِ في الكِتَابِ

سرنا في تحقيق الكتاب وفق الخطوات التالية :

ـ نسخنا النص ثم عارضناه على النسختين الخطيتين ، وأعرضنا عن إثبات فروق النسخ مع قلتها ، واجتهدنا أن يكون النص أقرب لما أراده المصنف رحمه الله تعالىٰ .

ـ رصَّعنا النص بعلامات الترقيم المناسبة وفق المنهج المتبع في الدار .

ـ وضعنا الآيات القرآنية الكريمة بخط المصحف ضمن قوسين مزهرين ﴿ ﴾ .

ـ عزونا الأحاديث النبوية الشريفة إلىٰ مظانها من كتب السنة المطهرة ، واقتصرنا على العزو إلىٰ « الصحيحين » إن وجد الحديث فيهما ، وإلا . . عزوناها إلىٰ غيرهما من كتب الصحاح والسنن وغيرها ، وعند تخريج المصنف للحديث نكتفي بذكر رقم الحديث أو الجزء والصحيفة من الكتب التي أحال إليها .

ـ وكذلك عزونا الآثار عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بحسب الوسع .

ـ عزونا النصوص المنقولة عن العلماء والمصنفين قدر الاستطاعة .

ـ ضبطنا الكلمات المشكلة ، وشرحنا الغامض منها في الحاشية .

ـ أضفنا بين معقوفين [ ] ما لا يستقيم المعنى إلا به .

ـ ترجمنا للمصنف ترجمة موجزة تعرف به وبنشأته وتعلمه ومصنفاته .

ـ صنعنا فهارس للكتاب على النحو التالي :

ـ فهارس للأحاديث والآثار .

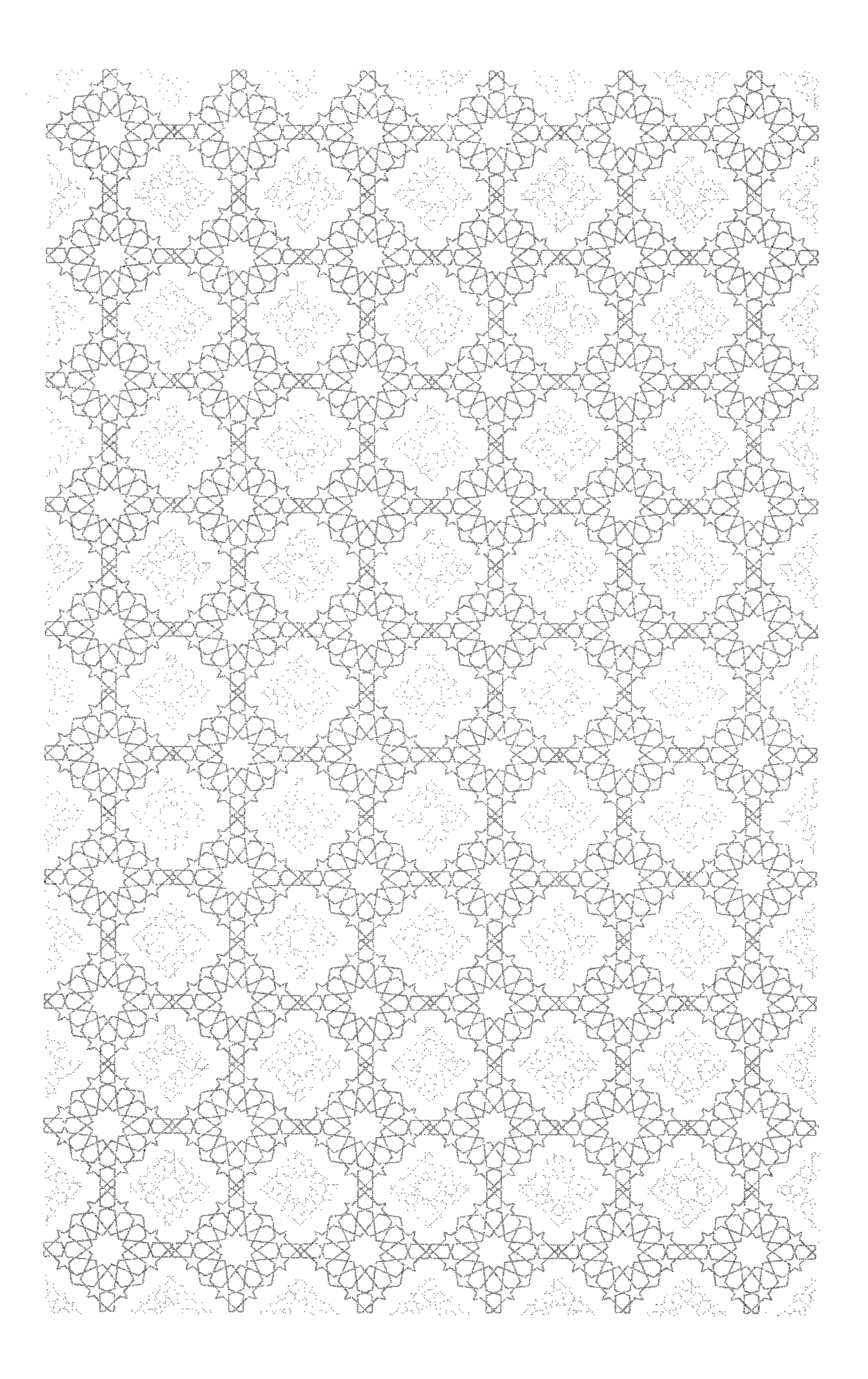
ـ فهرس تفصيلي لموضوعات الكتاب .

وأخيراً : فهـٰذا جهد المقل ، نسأل الله سبحانه وتعالى القبول والسداد إنه علىٰ كل شيء قدير ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

أحمد جاسم المحمّد



صُوَرُ المَخْطُوطَاتِ المُسْتَعَانِ بِهَا



راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة (أ)

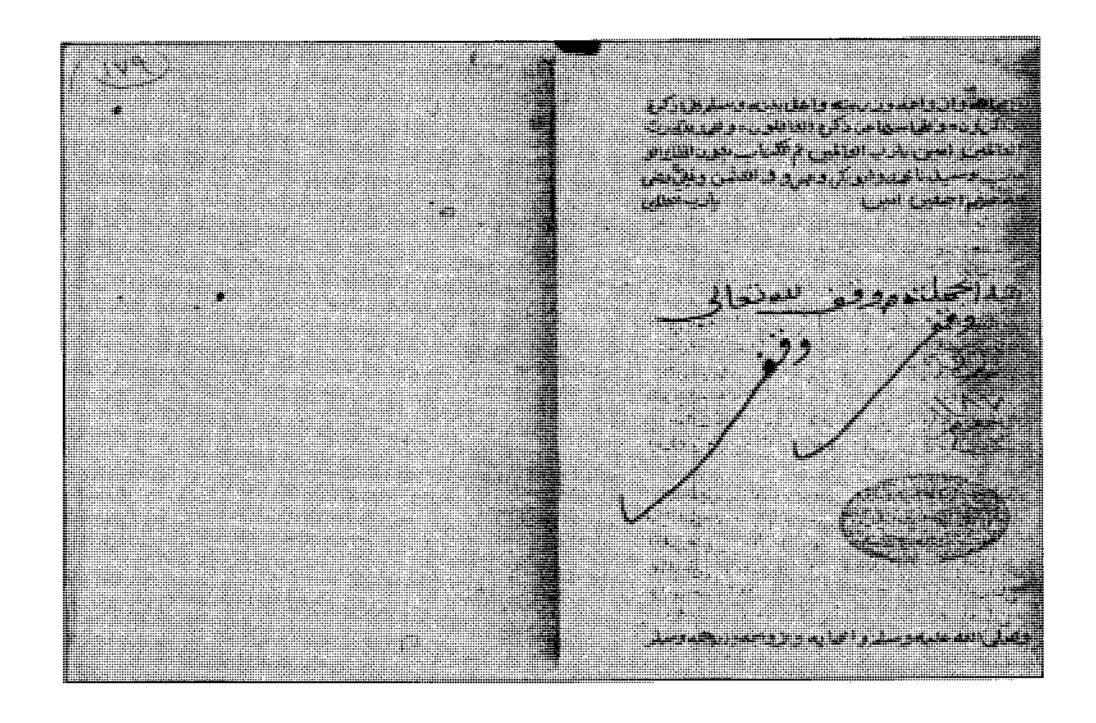
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

راموز غلاف النسخة (ب)

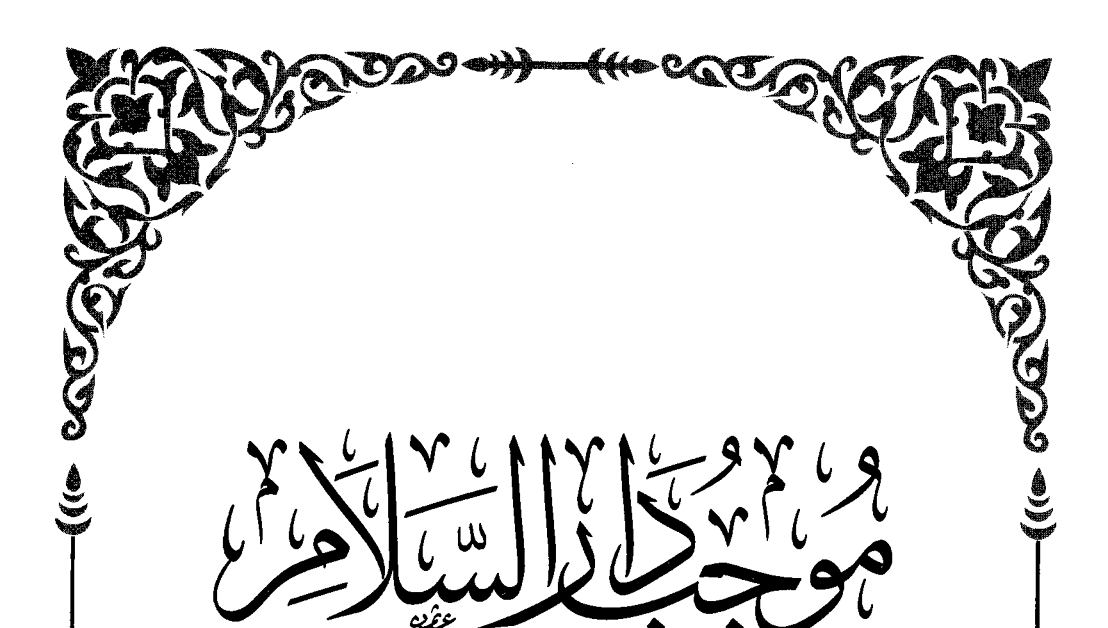
راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

راموز الورقة الأولىٰ للنسخة (ب)

راموز الورقة ما قبل الأخيرة للنسخة (ب)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)



في بر الوالدين وصلة الأرحام

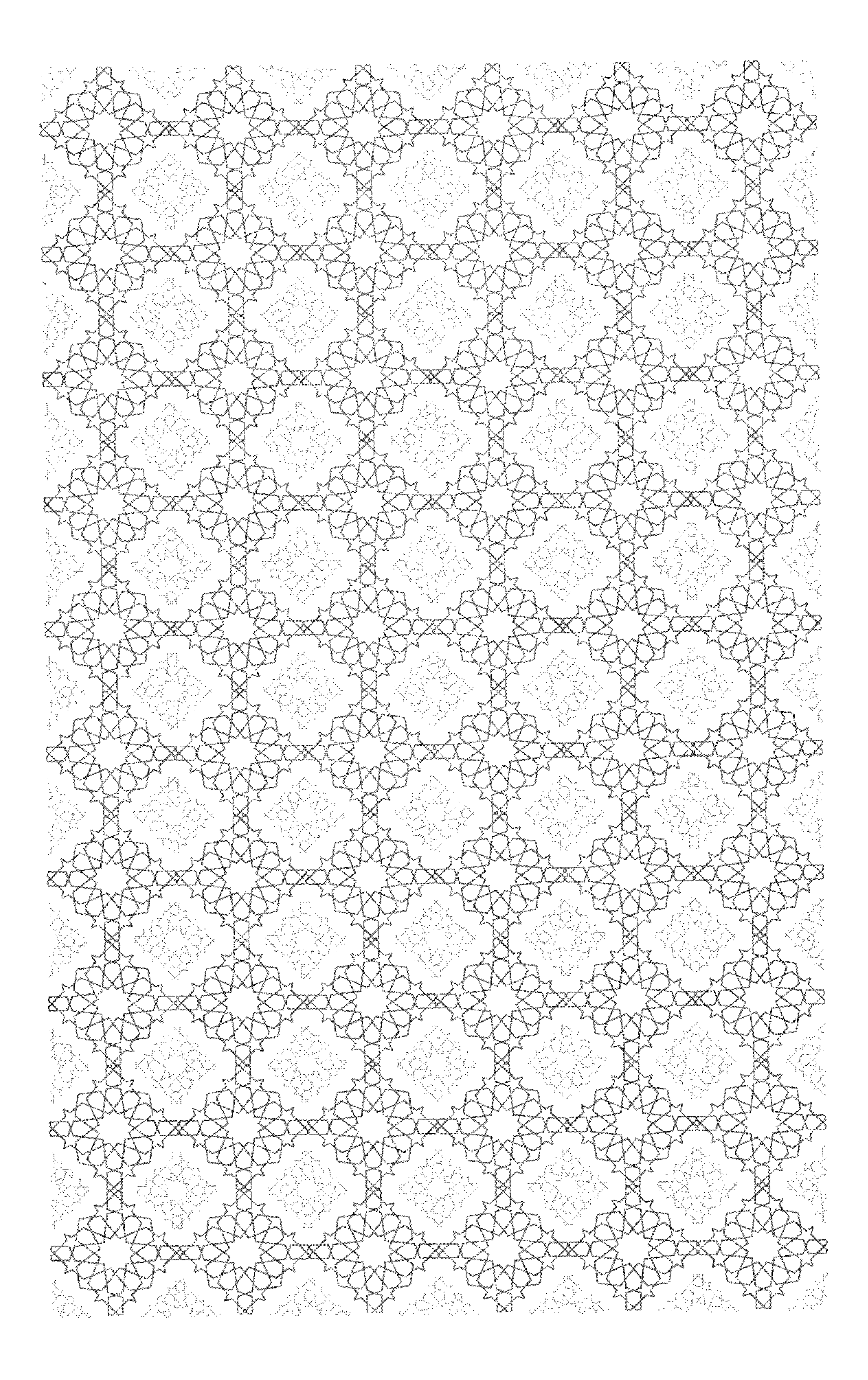
تأليف

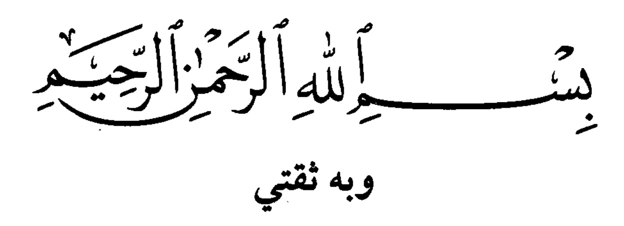
الإمام القاضي العلامة

أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناشري

رحمه الله تعالى

(ت ٩٠٦هـ)





وبه ثقتي

[مُقدّمة المؤلّف]

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ، ووفق من شاء لمرضاته وأسكنه الجنان ، وأضل من شاء فأوجب له النيران ، وذلك منه فضل وعدل وامتنان ، لا يسأل عما يفعل لأنه المالك الديان .

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له الحنان المنان ، شهادة تعتقدها الجوارح والجنان ، وينطق بها اللسان .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث من عدنان ، المفضل علىٰ جميع من في الأكوان ، المخصوص بالتكليم مع رؤية العيان ، المرسل إلىٰ جميع العالمين ملائكة وإنس وجان ، كما ورد ذلك في عموم أول الفرقان[1] ، ولم يرد تخصيصها بل أكدها قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، فيا لها نعمة طول الزمان!

صلى الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه الراسخين في العلم والإيمان ، وعلى التابعين لهم بإحسان ، صلاة وسلاماً دائمين ما دام الملوان[2] .

وبعد :

فإنه ورد عليَّ سؤال فيما يجب للوالدين على الولد ؟ وما ضابط العقوق المحرم المؤبد ؟ وما المستحب في حقهما المؤكد ؟

وورد عليَّ أيضاً في الحكومات جماعة من الأولاد يرتكبون المعاصي العظام ، مسلطون

---

(١) أراد بذلك قوله تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

(٢) **الملوان** : الليل والنهار .

علىٰ والديهم بالأيدي والكلام ، ويمتنعون من إطعام والديهم مع ما هم فيه من سعة الرزق من المَلِك العلام ، وإذا أمروا بالواجب . . رأوا ذلك من ظلم الحكام .

فأحببت أن أسطر في ذلك ما ورد فيه من سنن وآيات ، وآثار وحجج بينات ، وأقاويل العلماء والأدلة الواضحات ؛ فلعل الله تعالىٰ أن ينفع به من أراد توفيقه للطاعات ، ويكون سبباً لتوبة من سبقت له من الله العنايات ، وتزيد المطيع طاعةً فأكون من الدالين على الخيرات .

ورتبته علىٰ ثمانية أبواب وخاتمة .

الباب الأول : في الآيات الواردة في بر الوالدين وشرح .

الباب الثاني : في الأحاديث الواردة في بر الوالدين ، وشرح بعضها ، وفي آثار وحكايات .

الباب الثالث : في بر الأولاد ، وما يجب لهم على الوالدين ، وما ورد فيهم .

الباب الرابع : في حقوق المشايخ ، والمريدين ، والتلامذة .

الباب الخامس : في الأحاديث الواردة في العقوق ، وحكايات في ذلك .

الباب السادس : فيما ورد في صلة الأرحام .

الباب السابع : في حقوق الإخوان والصحبة ، والمسلم على المسلم ، والجار ، والمملوك ، وفيه فصول .

الباب الثامن : في التوبة ، وبها خاتمة الكتاب ؛ فلعل الله يختم لنا بها ، وفيه فصول .

وخاتمة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

وسميته :

« موجب دار السلام في بر الوالدين وصلة الأرحام »

توكلت على الله ، استعنت بالله ، فوضت أمري إلى الله ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

الباب الأول

فيما ورد في ذلك من الآيات

اعلم : أن الله سبحانه وتعالىٰ أمر ببر الوالدين والإحسان إليهما ، ووعد عليه ، ونهىٰ عن عقوقهما ، وأوعد عليه[1] .

وأن كل آية وردت في الأرحام . . فهي فيهما من طريق الأولىٰ ؛ لأنهما أقرب الأرحام .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلىٰ آخر الآية .

وهي جامعة للوالدين والأرحام واليتامىٰ والمساكين والجار والمملوك .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم ﴾ إلىٰ آخر الآية .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ إلىٰ آخر الآية .

وهـٰذه الآية أجمع لحقوق الوالدين .

وقال تعالىٰ في (سورة العنكبوت) [٨] : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ .

وقال تعالىٰ في (سورة لقمان) [١٤ـ١٥] : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۞ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ .

وقال تعالىٰ في (سورة الأحقاف) [١٥] : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ﴾ إلىٰ آخر الآية .

---

(١) (وَعَدَ) : للخير . و(أَوعَدَ) : للشر .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ .

ولا يقال : شرعُ من قبلنا ليس شرعاً لنا ؛ لأن شرعنا قد ورد بتقريره في آيات ستأتيك .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ .

قال الإمام الثعلبي : (يعني : الأرحام ، وقيل : هو الإيمان بجميع الرسل والكتب ، وهو نوع من الصلة ؛ لأنهم قالوا : ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ فقطعوا)[1] .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : (اختلفوا في المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ . . فذكروا وجوهاً :

أحدها : أراد به قطيعة الرحم وحقوق القرابات التي أمر الله بوصلها ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ ، وفيه إشارة إلىٰ أنهم قطعوا ما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من القرابة ، وعلىٰ هـٰذا : تكون الآية خاصة .

ثانيها : أن الله تعالىٰ أمرهم أن يصلوا حبلهم بحبل المؤمنين ؛ فهم انقطعوا عن المؤمنين ؛ واتصلوا بالكفار .

ثالثها : أنهم [نهوا] عن التنازع وإثارة الفتن ، وهم كانوا مشتغلين بذلك) اهـ[2]

وقال تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ إلىٰ آخر الآية .

(البر) : اسم جامع لأنواع الخير .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ . . قال الواحدي : (قال الزجاج : معناه لـٰكن ذا البر من آمن ، فحذف المضاف ؛ كقوله : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ أي : ذوو درجات ، قال قطربٌ والفراء : معناه : ولـٰكن البر بر من آمن بالله) اهـ[3]

---

(١) تفسير الثعلبي (١٧٣/١) .
(٢) تفسير الرازي (١٤٨/٢) .
(٣) الوسيط (٢٦١/١) .

وقال أبو حيان بعد ذلك : (إن جَعْل البرِّ نفس مَنْ آمن مبالغةٌ) اهـ[1]

وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ .

قال الواحدي : (قال ابن عباس : يريد وأَمَرَ ربك ، وهو قول مجاهد والحسن وقتادة وعامة المفسرين ، قال الفراء : العرب تقول : تركته يقضي أمور الناس ؛ أي : يأمر فيها فينفذ أمره) اهـ[2]

اعلم : أن لفظ (القضاء) في أصل اللغة يرجع إلىٰ إتمام الشيء والفراغ ، ويأتي علىٰ وجوه :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ أي : أمر .

ومنه الحكم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ ﴾ .

ومنه الخلق : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾ .

ومنه كتب : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي : كتب .

ومنه أدىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾ أي : أديتم .

ومنه الموت : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ .

ومنه الفصل : ﴿ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

---

(١) النهر الماد (٢/ ٣) .

(٢) الوسيط (٣/ ١٠٢) .

[ومنه المضي] : ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ .

ومنه الهلاك : ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ .

ومنه الإبرام : ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي : أبرمها .

ومنه الإعلام : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي : أعلمناهم .

ومنه الوحي : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي : أوحينا .

ومنه القتل : ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ .

وروىٰ ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هـٰذه الآية : كان الأصل : ووصىٰ ربك . . فالتصقت إحدى الواوين بالصاد فقرىء : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ .

ثم قال : ولو كان على القضاء . . ما عصى الله أحد ؛ لأن خلاف قضاء الله ممتنع ، وهـٰكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير ، وهي قراءة علي وعبد الله بن مسعود .

وكذا أيضاً ذكر النووي في « تهذيب الأسماء واللغات » [١/ ٩٥ ق٢] هـٰذه القراءة عن علي وابن مسعود وأُبي بن كعب .

قال : (وروي هـٰذا عن ابن عباس ، وأنه التصقت إحدى الواوين بالصاد)[١] .

وروى الثعلبي الالتصاق المذكور عن أبي إسحاق الكوفي عن الضحاك بن مزاحم[٢] .

قال الإمام الرازي : (وهـٰذا القول بعيد ؛ لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن ، ولو جوزنا ذلك . . لارتفع الأمان عن القرآن ، وذلك يخرجه عن كونه حجة ، ولا شك أنه طعن عظيم في الدين) اهـ[٣]

أقول : في صحة هـٰذه الرواية عن ابن عباس نظر ، وغالب ظني أنها لا تصح ؛ لأن الله تعالىٰ قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿بل هو قران مجيد في لوح محفوظٌ﴾ علىٰ قراءة نافع وهو أن محفوظاً مرفوع نعتاً لقوله : ﴿قُرْءَانٌ﴾ .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٩٥) .

(٢) انظر تفسير الثعلبي (٦/ ٩٢) فالذي فيه أنه عن شريك بن مزاحم .

(٣) تفسير الرازي (٢٠/ ١٨٤) .

ومعنىٰ حفظ القرآن : أن يؤمَن من تحريفه وتبديله وتغييره . . فلا يلحقه شيء من ذلك .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ . . قال الزجاج : (الوصية من الله تعالىٰ فرض ، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾) اهـ .

وهـٰذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمت . . قالت : يا سعد ؛ ما هـٰذا الدِّين الذي قد أحدثت ؟! لتدعن دينك هـٰذا أو لا آكل ولا أشرب حتىٰ أموت . . فتعيَّر بي ، فيقال : يا قاتل أمه . قلت : لا تفعلي يا أمه ؛ إني لا أدع ديني هـٰذا لشيء . قال : فمكثَتْ يوماً وليلةً لا تأكل ، فأصبَحَتْ وقد جهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل ، فلما رأيت ذلك . . قلت : تعلمين والله يا أمه ، لو كان لك مئة نفس ، فخرجت نفساً نفساً . . ما تركت ديني هـٰذا لشيء ، فكلي ، وإن شئت لا تأكلي ، فلما رأت ذلك . . أكلت ، فأُنزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ .

قال الزجاج : « ووصىٰ » أبلغ من « أوصىٰ » لأن أوصىٰ جائز أن يكون بمرة ، ووصىٰ لا يكون إلا مراراً) اهـ

واسم أم سعد بن أبي وقاص : حمنة ـ بفتح الحاء المهملة وسكون الميم بعدها نون ـ بنت سفيان بن أمية ، وهي ابنة عم أبي سفيان بن حرب بن أمية .

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (ولم أر في شيء من الأخبار أنها أسلمت)[١] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ : هو واحد الناس .

قال الواحدي : (و« الناس » لفظ وضع للجمع ؛ كالقوم والرهط ، وواحده : إنسان لا من لفظه) اهـ[٢]

وقال الجوهري : (الناس قد يكون من الإنس ومن الجن ، وأصله أناس ، فخفف ، ولم يجعلوا الألف واللام فيه عوضاً من الهمزة المحذوفة ؛ لأنه لو كان كذلك . . لما اجتمع مع

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٠٠) .
(٢) الوسيط (١/ ٨٦) .

المعوض منه في قول الشاعر : [من مجزوء الكامل]

إن المنـــــــايـــــــا يطلّعـ ـــن علـى الأنـاس الآمنينـا)[1]

وقال الإمام فخر الدين الرازي : (قيل : سمي الإنسان إنساناً ؛ لأنه عُهِد إليه فنسي . قاله ابن عباس)[2] .

وقيل : سمي إنساناً ؛ لاستئناسه بمثله .

وقيل : لظهوره ، وأنه يؤنس ؛ أي : يبصر ، من قوله : ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ ، كما سمي الجن جناً لاجتنانهم .

واعلم : أنه لا يجب في كل لفظ أن يكون مشتقاً من شيء آخر ، وإلا . . لزم التسلسل ، وعلىٰ هـٰذا لا حاجة إلىٰ جعل الإنسان مشتقاً من شيء آخر .

وقال بعضهم : الإنسان مأخوذ من النوس ـ وهو الحركة ـ ومن ذلك ذو نُوَاس[3] ؛ لأجل ضفيرتين كانتا تنوسان من ورائه .

والذي ناسَ ابتداءً : آدم عليه السلام ، فسمي إنساناً .

واختلف في حقيقة الإنسان ، فقيل : هو الجسم وما يحله من الأعراض كالحياة والقدرة وغيرهما .

وقيل : إنه النفس الناطقة ، والجسمُ له كالقميص .

وقيل : هو المجموع منهما .

قال الإمام محمد بن موسى الذؤالي : (هو الأظهر عند المحققين)[4] .

وقال الإمام تاج الدين السبكي : الصحيح عند أئمتنا وعليه أكثر المسلمين وجمهور المتكلمين : أنه البدن المتقوم بالروح .

وعبارة الشيخ أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه في « كتاب الأخبار » : الإنسان هو

---

(١) الصحاح مادة (نوس) .

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٦٠ـ٦١) .

(٣) وهو ملك من ملوك اليمن .

(٤) حديقة الأذهان (ص٩٩) .

هـٰذه الجملة المصورة ، ذات الأبعاض والصور ، وحكىٰ : أن عليه إجماع المسلمين وأهل اللغة .

وعزاه الأستاذ أبو منصور البغدادي إلىٰ أهل الحق ، وبدَّع من خالفه ، قال : وهـٰؤلاء إذا سئلوا عن تعريف الإنسان . . قالوا : هو الجسد المخصوص بهـٰذه الصورة المخصوصة ، فإن سئلوا عن جبريل عليه السلام حين جاء في صورة دحية الكلبي . . أجابوا بأن الظاهر منه أنه جاء علىٰ صورة الإنسان ، ولم يكن باطنه حينئذ كباطن الإنسان . . فلم يكن إنساناً .

قال الإمام تاج الدين : ويمكن الجواب بأنا لم نعن بالإنسان البدنَ بمجرده ، بل البدن المقوم بهـٰذه الروح البشرية . وبهـٰذا خرج جبريل في صورة دحية ؛ فإن الصورة لدحية ومقومها جبريل حال التشكل بها ، وهـٰذا شيء يقع لي ولم أجد في كلام أئمتنا ما يؤيده ، بل كلهم لا يزيدون علىٰ أن الإنسان الهيكل فقط ، وهـٰذا ظاهره أن أصحابنا لا يجعلون للروح مدخلاً في مسمى الإنسان ألبتة .

وذهب أبو حامد الغزالي إلىٰ تضعيف القول بأنه الهيكل المخصوص ، وتبعه الإمام فخر الدين ومتابعوه .

وقد يقول قائل : كلام أصحابنا في الفقه يدل علىٰ ما ذهب إليه الغزالي والحنفية من أن الإنسان المعنى القائم بهـٰذا البدن ، ولا مدخل للبدن في مسماه ؛ لأنهم ذكروا أن نقصان اليد ونحوها نقصان وصفٍ لا جزءٍ ؛ كما ذكروه في حكم المبيع قبل القبض .

والجواب : أن المعني بالوصف في كلامهم ما لا يتقسط الثمن عليه ، لا ما نحن فيه .

وظاهر كلام الرافعي : أن نقصان جزء ذلك الجزء وصفٌ ؛ لأنه قسم الجملة :

- إلىٰ وصف : وهو ما لا يفرد بالقيمة والمالية ؛ كيد العبد .

قال : وهو في معنى الأتباع والأوصاف .

- وإلىٰ ما يفرد ؛ كأحد العبدين وأحد الصاعين .

قال ـ أعني تاج الدين ـ : وقد اختلف الفقهاء في مسائل تتخرج علىٰ هـٰذا الأصل .

منها : الحل في النكاح يتناول هـٰذا الهيكل بأجزائه المتصلة به اتصال خلقة ، واستدلوا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ﴾ أضاف النكاح إلىٰ ذواتهن ، والمعني بالذات جميع الأجزاء والأعضاء الموجودة لدى العقد .

فإن قلت : قلتم : إن الحل والحرمة ليسا من صفات الأعيان .

قلت : المعني بذلك أن الحل ليس صفة قائمة بها ، وإنما المراد به الانتفاع .

والمعنىٰ هنا : أن الانتفاع مضاف إلى البدن ؛ لأنه مقوَّمُهُ .

وقالت الحنفية ـ علىٰ أصولهم ـ : مورد الحل في النكاح إنسانية المرأة ، دون الأجزاء والأعضاء ، واحتجوا بأن الأجزاء الموجودة عند العقد تنحل وتتجدد .

قالوا : ومن البعيد أن يقال : ورد النكاح علىٰ شعورها ، ثم إن كل شعرة نبتت بعد النكاح يتعلق بها نكاح جديدٌ ، حتىٰ تتجدد كل يوم منكوحةٌ لم تكن حالة العقد ، وهـٰذا من ترهات الكلم .

ولو اعتبرنا في قضايا الشرع هـٰذه الحالات . . لقلنا : كل يوم يتجدد نكاح جديد وإن كان المعقود عليه الإنسانية ؛ لأن النكاح عرض وهو لا يبقىٰ زمانين .

ومنها : للزوج غسل زوجته إذا ماتت ؛ لأنه عقد علىٰ بدنها ، وبدنها باق . . فمُكِّن منه .

وقالت الحنفية : ليس له ذلك ؛ لأن مورد العقد المعنى الزائل بالموت ، المفارق للبدن ، ووافقوا علىٰ أن لها غسله إذا مات ، مع قولهم : إن الزوج غير معقود عليه ألبتة ، فما أكثر مناقضاتهم لأصولهم ؟!

ومنها : إضافة الطلاق إلىٰ جزء من المرأة صحيح من حيث إنه محل الطلاق ، كما أنه محل النكاح ، ثم الأصح : أنه يقع عليه ويسري .

وقالت الحنفية ـ فيما نقل عنهم بعض الخلافيين ـ : لا تصح إضافة الطلاق إلىٰ جزء المرأة ؛ لأن المعقود عليه إنسانيتها . والخلاف جارٍ في العتق .

ومنها : أن مستحق القصاص في النفس إذا قطع اليد وعفا عن النفس لم يلزمه أرش اليد ، سواء وقف القطع أم سرىٰ ؛ لأنه استحق جملة البدن . . فصارت الأطراف مهدرة بالنسبة إليه .

ولا يقال علىٰ هـٰذا : فأبيحوا له قطع أطرافه ؛ لأن القصاص لما كان مقابلة . . لم يجز له أن يفعل إلا مثل ما فعل ، وليس له التعذيب بغير سبب .

وقال أبو حنيفة : مورد القصاص الروح لا الهيكل المخصوص ، غير أنه يقع علىٰ بعض

البدن توصلاً إلىٰ إزهاقها ؛ إذ لا يمكن إزهاقها إلا كذلك ، فإن وقف هـٰذا الجرح . . ضمن ؛ لأنه لما عفا . . كان ظالماً بقطع اليد . وإن سرىٰ . . تبين أن العفو وقع بعد الاستيفاء فلا أثر له .

ومنها : إذا قال : (إن رأيت زيداً . . فأنت طالق) فرأته حياً أو ميتاً . . طلقت ؛ لأن موته لم يخرجه عن كونه زيداً ؛ لأنه هـٰذا الهيكل .

ومنها : لو قال : (روحك طالق) . . طلقت على المذهب .

وحكىٰ أبو الفرج الزاز فيه خلافاً مبنياً علىٰ أن الروح جسم أو عرض .

ومنها : إذا وُجد بعض الميت . . صُلِّي عليه ، وهل يُنوَى الصلاة علىٰ جملة الميت أو علىٰ ما وُجد منه ؟ فيه وجهان حكاهما الماوردي ، والأول هو المجزوم به في « الروضة »[1] ، والثاني قضية كلام القاضي أبي الطيب .

وجوز الجيلي شارح « التنبيه » بناء الخلاف علىٰ أصل حكىٰ هو فيه اختلافاً بين المتكلمين ، وهو : أن العضو المبان هل يحشر معه ويدخل الجنة إن كان من أهلها ؟ اهـ كلام الإمام تاج الدين السبكي .

والصحيح : أن العضو المبان يحشر مع صاحبه ويدخل معه الجنة وإن كان صاحبه كافراً حال إبانته ، ويعذب معه إذا مات كافراً وإن كان مسلماً حال إبانته ؛ لأن الحكم للجملة ، وهو تابعٌ ، والتابع له حكم المتبوع ، وذلك عدل منه سبحانه وتعالىٰ ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

وإذا قلنا : الإنسان هو الجسم المتقوم بالروح ، فهل وجدا معاً ، أو سبق أحدهما الآخر ؟

قال عضد الدين في كتابه « المواقف » : (قال بعضهم : تحدث معه ؛ لقوله تعالىٰ بعد تعداد أطوار البدن : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ ، والمراد إفاضة النفس ، وقال بعضهم : بل قبله ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام » ، وغاية هـٰذه الأدلة الظن ، أما الآية : فلجواز أن يريد بقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ ﴾ جعل النفس متعلقة به ، وإنما يلزم حدوث تعلقها ، لا حدوث ذاتها ، وأما الحديث : فلأنه خبر واحد . .

---

(١) روضة الطالبين (٢/١١٦ـ١١٧) .

فتعارضه الآية ، وهي مقطوعة المتن ، مظنونة الدلالة ، والحديث بالعكس) اهـ[١]

وقال الذؤالي في « حديقة الأذهان » : (الصواب من الأقوال : أنه لا يجوز سبقها له بحال ؛ لكونه شرطاً في وجودها لا في بقائها والكمال ، وما تراه من تقدمه عليها بالزمان . . فإنها متقدمة بالطبع والإمكان ؛ لأنه آلة لها ومخلوق لأجلها ، فكان مقدماً بهـٰذه الطريقة ، وإن كان اقترانهما في الوجود هو الحقيقة ؛ لأن حدوثهما عند استعداد النطفة للقبول ، والاعتدال يضاهي حدوث الصورة في المرآة عند حدوث الصقال ، وإن كان ذو الصورة سابق الوجود ، فالجود الذي هو ينبوع الوجود يخلق الأرواح البشرية عند استعداد النطفة والمحل للقابلية ، والخبر الوارد عنه عليه الصلاة والسلام أن الأرواح خلقت قبل الأجساد بألفي عام . . فإنه أراد أرواح الملائكة على الجملة ، وأجساد العالم والكون) اهـ[٢]

وما أشار إليه الذؤالي بقوله : (يضاهي حدوث الصورة في المرآة) يشير بذلك إلىٰ أن الروح ليست حالة في الجسم ، بل هي خارجة منه ، فهي كالشمس إذا وقع ضوؤها علىٰ شيء صقيل . . انطبعت فيه ، ولهـٰذا ترى الشمس في كل الماء ، كذلك الجسم إذا تهيأ لقبول الروح . . انطبعت فيه الروح . وهـٰذا ما قاله الإمام الغزالي .

وقال أبو زرعة ـ وقال به أيضاً كثير من الصوفية ، وهو رأي الفلاسفة ـ : (والذي قاله جمهور المتكلمين : إن الروح جسم لطيف ، قال إمام الحرمين : مشتبك بالأجسام اشتباك الماء بالعود الأخضر ، وقال النووي في « شرح مسلم » : « إنه الأصح عند أصحابنا »[٣]) اهـ كلام أبي زرعة .

قوله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ واحدهما : (والد) لأن المذكر والمؤنث إذا اقترنا . . غُلِّب المذكر لخفته وقوته ، كذا في « تفسير الثعلبي »[٤] .

وقال أبو حيان : (قوله : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ أي : بالأب والأم ، ويقال للأم : والد ووالدة) اهـ[٥]

---

(١) المواقف في علم الكلام (ص٢٦٠) .
(٢) حديقة الأذهان (ص٩٩) .
(٣) شرح مسلم (١٣/ ٣٣) .
(٤) تفسير الثعلبي (١/ ٢٢٨) .
(٥) النهر الماد (١/ ٢٨٣) .

وهو مأخوذ من التوالد ، يقال : (تولَّد الشيء من الشيء) فالولد مخلوق من بعض أجزاء الوالدين معاً ، إلا : من كان من أم بلا أب ، وهو عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ؛ إذ كان نفخ جبريل في جيبها مغنياً عن جزء الأب ؛ خرقاً للعادة .

وإلا من خلق من غير لا أب ولا أم ، وهو : آدم عليه الصلاة والسلام . . فلا يسمىٰ ولداً .

قال الإمام ناصر الدين بن الميلق : ولكون الولد جزءاً من أجزاء الوالد . . لا بد أن يظهر عليه الشبه ، ويختلف شبه الأب والأم باعتبار اختلاف غلبة أجزائهما .

قال : ويلزم أن يكون الولد متصفاً بصفات الأب ، وإلا . . لكان عُدُوُّهُ عن ذلك نقصاً في حقه وفي حق من ينسب إليه .

ولهـٰذا قيل : إن من حكمة موت ذكور أولاد النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وقبل بلوغ أربعين سنة إنما كان هـٰذا المعنىٰ ؛ إذ لو بلغوا الأربعين أو كانوا بعده . . لكانوا أنبياء ؛ لكمال رتبتهم ورتبة أبيهم صلى الله عليه وسلم ، ولـٰكنه كان خاتم النبيين . . فاستحال أن يكون بعده نبي ، ولو تركوا بعده صلى الله عليه وسلم بغير نبوة . . لكان ذلك دون رتبة الكمال ، فجعل الله تعالىٰ نقلهم إلىٰ عالم البرزخ صيانة لهم من نقص عدم النبوة ، وصيانة لمنصب النبوة أن يكون بعد هـٰذا النبي صلى الله عليه وسلم نبي ، ولهـٰذا التزمت النصارىٰ إلـٰهية عيسىٰ عليه الصلاة والسلام لما زعموا أنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك . اهـ

وقول الإمام ناصر الدين : (يلزم أن يكون الولد متصفاً بصفات الأب) لعله يريد الغالب ، وإلا . . فقد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ * قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ .

فأخبر الله تعالىٰ أنه ليس بمؤمن ، وهـٰذا علىٰ قول عكرمة عن ابن عباس والكلبي ومحمد بن إسحاق : إنه ابنه لصلبه .

وأما علىٰ قول علي وأبي جعفر الباقر ومجاهد والحسن : إنه ربيبه . . فالجواب ظاهر .

ويؤيد هـٰذا أيضاً قراءة علي رضي الله عنه : (ونادىٰ نوح ابنها) .

ثم اعلم أن الكمال الحقيقي هو لله تعالىٰ ، فلا يتصور أن يكون له ولد ؛ لأنه يلزم أن يكون إلـٰهاً ، ولا إلـٰه مَعَهُ ، ولأن الولد جزء من الوالد والله سبحانه واحد لا جزء له ، إنما الأجزاء للمركَّب ، والمركب مُحْدَث ، وتعالى الله سبحانه عن ذلك .

ثم لما استوت أحوال النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أكمل المخلوقين ذاتاً وصفة ، وكان خاتم النبيين ، واستلزم أن يكون ولد الكامل كأبيه علىٰ قول ناصر الدين . . نقل الله سبحانه وتعالىٰ أولاده الذكور إلى البرزخ .

وأما غيره من الأنبياء . . فلم يكن له كمال ككماله . . فكان له الولد الناقص .

هـٰذا ما ظهر لي من الجواب عن كلام الإمام ناصر الدين ، وإلا . . لكانت النبوة موجودة من أب إلى ابن من آدم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ولِمَا روى ابن عبد البر : (عن أنس رضي الله عنه : أن إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم لو بقي . . لكان نبياً ، ولـٰكن لم يكن ليبقىٰ ؛ لأن نبيكم صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء)[1] .

وعن ابن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما مثل ذلك .

قال : (وهـٰذا لا أدري ما هو ، وقد ولد نوح من ليس بنبي . . فكما يلد غيرُ النبي نبياً . . كذلك يجوز أن يلد النبيُّ غيرَ نبي ، ولو لم يلد النبي إلا نبياً . . لكان كل أحد نبياً ؛ لأنه من ولد نوح عليه السلام ، وآدم نبي وما أعلم في ولده لصلبه نبياً غير شيث)[2] .

قوله تعالىٰ : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ ، وفي آية أخرىٰ : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ .

أما (الإحسان) : فهو مصدر أحسن يحسن إحساناً ، يتعدىٰ بنفسه وبحرف الجر . يقال : أحسنه ، وأحسن إليه ، وأحسن به . قال تعالىٰ [حكاية عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام] : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

---

(١) الإستيعاب (١/ ٢٦) .

(٢) انظر « الإستيعاب » (١/ ٢٧) .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : (اتفقوا على أن هـٰهنا محذوفاً ، والتقدير : وأحسنوا بالوالدين إحساناً ، كقوله تعالىٰ : ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أي : فاضربوها) اهـ[١]

وكذلك قال الواحدي : (تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً)[٢] .

وقال أبو حيّان : (قوله : ﴿ إِحْسَٰنًا ﴾ : مصدر في معنى الأمر ؛ أي : وأحسنوا برَّ الوالدين إحساناً ، وتقديم معمول المصدر علىٰ سبيل الاعتناء والاهتمام بأمرهما) اهـ[٣]

وأمّا قوله تعالىٰ : ﴿ حُسْنًا ﴾ . . فقال أبو حيان : (انتصب ﴿ حُسْنًا ﴾ علىٰ أنه مصدر وصف به مصدر (وصينا) أي : إيصاءً حُسناً ، أو ذا حسن ، أو علىٰ سبيل المبالغة ؛ أي : هو في ذاته حسن) اهـ[٤]

وقال غيره : هو منصوب بـ(وصينا) .

وقيل : هو محمول على المعنىٰ ، والتقدير : ألزمناه حسناً .

وقيل : معنىٰ ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ : قلنا له : أحسن حُسناً ، فيكون واقعاً موقع المصدر . اهـ

و(الإحسان) : هو الإحكام والكمال .

والتحسين في الأعمال المشروعة مطلوب ، فحق علىٰ من شرع في شيء منها أن يأتي به علىٰ غاية كماله ، ويحافظ علىٰ آدابه المصححة له والمكملة له ، وهو واجب علىٰ كل أحد في الأفعال والأقوال المشروعة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ولقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء ، فإذا قتلتم . . فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم . . فأحسنوا الذِّبحة »[٥] .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « كتب » أي : أوجب وأمر وحَضَّ ، وإنما ذكر القتل

---

(١) تفسير الرازي (١٠/ ٩٥) .
(٢) الوسيط (١/ ١٦٦) .
(٣) النهر الماد (١/ ٢٨٣) .
(٤) البحر المحيط (٧/ ١٤٢) .
(٥) أخرجه مسلم (١٩٥٥) ، وأبو داوود (٢٨١٥) ، والترمذي (١٤٠٩) ، والنسائي (٧/ ٢٢٧) ، وابن ماجه (٣١٧٠) .

والذبح ؛ لأنه غاية الأذىٰ في الحيوان ، ولا يبقىٰ بعدهما للإحسان وجه ، فإذا وجب فيه . . فغيره من طريق الأولىٰ .

وتفصيل الإحسان إلىٰ كل شيء لا ينحصر .

ـ **فمن الإحسان** : الأدب مع الملائكة ، لا سيما الكاتبان ؛ فإن الملائكة تتأذىٰ ممَّا يتأذىٰ به بنو آدم .

ـ **ومنه** : الإحسان إلى الجنّ ، مؤمنهم وكافرهم بدعائهم إلى الخير . كذا قاله ابن النحوي ، وهـٰذا عند تصور ذلك .

قال : وقد أكرمهم الشارع وأقراهم بأن جعل العظم زادهم ، والروث لدوابهم .

ـ **ومنه** : الإحسان إلىٰ جميع المخلوقات التي يتأتى الإحسان إليها ، الأحياء والأموات .

ـ **ومن الإحسان إلى الأموات** : الدعاء للمؤمنين منهم بالمغفرة والرحمة ، وإهداء ثواب القراءة .

ـ **ومنه** : الإحسان في قتل الوزغ أول مرة . كذا قاله ابن النحوي .

وأشار إلىٰ ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل وزغاً في أول ضربة . . كتبت له مئة حسنة ، وفي الثانية دون ذلك ، وفي الثالثة دون ذلك »(١) .

وقال الإمام النووي في « شرح مسلم » : (أما سبب تكثير الثواب في قتله أول ضربة ، ثم ما يليها . . فالمقصود به الحث على المبادرة بقتله ، وتحريض قاتله علىٰ أن يقتله بأول ضربة ؛ فإنه إذا أراد أن يضربه ضربات . . ربما انفلت وفات قتله) اهـ(٢)

وقد ورد في تفسير الإحسان من النبي صلى الله عليه وسلم في سؤال جبريل عليه السلام عنه فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك »(٣) .

قال أبو عبد الله الزركشي في « شرح جمع الجوامع » : (فالإيمان مبدأ ، والإسلام

---

(١) مسلم (٢٢٤٠/١٤٧) .
(٢) شرح صحيح مسلم (١٤/ ٢٣٦) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٨) .

وسط ، والإحسان كمال ، والدين الخالص شامل للثلاثة ، ومن تحقق بمقام الإحسان . . لم يقع منه عصيان ، ولا خلل في الطاعة ؛ فإنه إذا هم بمعصية الله تعالىٰ . . علم أن الله يراه ، فكف ورجع ؛ لحصول البرهان الأجلىٰ عنده ، وإنما العبد يذهل عن نظر الله إليه ، أو يكون جاهلاً فيظن أن الله تعالىٰ بعيد منه . . فيقع في المعصية .

وإذا علم أن سره موضع نظر الله منه . . وجب عليه تصفية سره لمولاه ، ونفسه عما يكره الله أن يراه ، حتىٰ يكون كالمرآة المجلوة لتجلي النظر من الله فيه ، وهناك يشرف علىٰ مقام القرب ، فيصير سمعَه وبصرَه ، وجاءته السعادة من كل جانب) اهـ

وتابعه علىٰ ذلك الشيخ ولي الدين أبو زرعة ، ثم قال : (وفسر بعضهم الإحسان بالإخلاص ، وقال : هو شرط الإيمان والإسلام ، والحديث يدل علىٰ تفسيره بزيادة علىٰ ذلك) اهـ

وقال الإمام عبد الجليل القرطبيُّ القصريُّ في كتابه « شعب الإيمان » : (الإسلام أصل وبداية ، والإحسان فرع ونهاية ، والإيمان واسطة رابطة لهما .

فالإسلام ظاهر على الجسد ؛ لأنه أعمال باللسان والأركان الظاهرة التي هي الجوارح الظاهرة .

والإيمان باطن الإسلام ، مخاطب به النفس ؛ لأنه تصديق بالغيب ، والنفس غائبة في الجسد ، مقبلة على الهوىٰ والشهوات بكليتها ، إلا أن يغلبها الإيمان بالغيب فتزهد في الحاضر ، وتقبل على الغائب .

والإحسان باطن الإيمان ، مخاطب به الروح الكائن عن أمر ربي ، وفي هٰذا المقام معادن أسرار المعرفة ؛ لأنه حال من المشاهدة)[1] .

ثم قال : (فمن الناس من غلب عليه مقام الإسلام وجمد علىٰ ظاهر الشرع ، وخفي عليه المقامان الآخران .

ومن الناس من غلب عليه الإيمان وأنار الله تعالىٰ قلبه به ، فكان الغالب عليه أمور الآخرة ، والبحث عنها ، والتسبب بأسباب النجاة فيها ، وطلب العلم بها ، قال تعالىٰ :

---

(١) شعب الإيمان (١/ ١٣٤ـ١٣٥) .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ .

ومن الناس من غلب عليه أمور الإحسان الروحانية ، وكان شغله كله بالله ، وعلومه كلها متعلقة بالله ، ومراده كله الله ، وهـٰؤلاء خصوص جميع عباد الله ، وهم المقربون من الله ، وأهل محبة الله ، والشوق إليه ، والأنس به ، والرضا به وعنه .

وقد ذكر الله تعالىٰ هـٰذه المقامات الثلاثة في آية من كتابه فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، هـٰذا هو المقام الأول ، ذكر فيه الأعمال التي في الجسد .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ﴾ ، وهـٰذا هو المقام الثاني ، لم يذكر فيه الأعمال .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ ، هـٰذا هو المقام الثالث ، ذكر فيه الإحسان ، ثم قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فهـٰؤلاء هم المحبوبون ، وأولياؤه المقربون) اهـ[1]

وحقيقة الإحسان في الحديث المذكور أنه حال المراقبة ، وهي حال شريفة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

والمراقبة هي أن يتيقن العبد أن الله تعالىٰ مطلع علىٰ ما في قلبه ، عالم بذلك ، فهو يراقب الخواطر المذمومة الشاغلة عن ذكر سيده .

قال أبو سليمان الداراني : كيف يخفىٰ عليه ما في القلوب ، ولا يكون في القلوب إلا ما يُلقي فيها ، أفيخفىٰ عليه ما هو منه ؟!

وقال بعضهم : من راقب الله تعالىٰ في خواطره . . عصمه الله في جوارحه .

وقال الجنيد : من تحقق في المراقبة . . خاف علىٰ فوت حظه من ربه لا غير .

وقال ذو النون : المراقبة إيثار ما أمر الله ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير ما صغّر الله .

وقال بعضهم : إذا جلست للناس . . فكن واعظاً لقلبك ونفسك ، ولا يغرك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك .

---

(١) انظر « شعب الإيمان » (١/ ١٣٥ـ١٣٦) .

فإذا تقرر ذلك . . فيجب على الولد مراقبة والديه بظاهره وباطنه ، في حال رضاهما وغضبهما ، وصحّتهما وسقمهما ، وأمرهما ونهيهما ، وغناهما وفقرهما ، وحياتهما وموتهما ، فيأتمر بما أمراه ما لم يكن معصية ، وينتهي عما نهياه عنه ، ويحفظ قلوبهما عن أن يتطرق إليها شيء من التغيرات .

قال ابن عباس : يريد الله سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ : البر بهما مع اللطف ولين الجانب ، ولا يغلظ لهما الجواب ، ولا يحدَّ إليهما النظر ، ولا يرفع صوته عليهما ، بل يكون بين أيديهما مثل العبد بين يدي سيده تذللاً . اهـ

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله في تفسير (سورة النساء) : (اعلم أن الله قرن إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده في مواضع ؛ منها هٰذه الآية .

ـ ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ .

ـ ومنها : قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، وكفىٰ بهٰذا دلالة علىٰ تعظيم حقهما ، ووجوب برّهما ، والإحسان إليهما .

ومما يدل علىٰ وجوب برهما قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ، وقال في الوالدين الكافرين : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ .

واعلم أن الإحسان إلى الوالدين هو أن يقوم بخدمتهما ، ولا يرفع صوته عليهما ، ولا يخشن في الكلام معهما ، ويسعىٰ في تحصيل مطالبهما ، والإنفاق عليهما بقدر القدرة من البر ، وألاَّ يشهر عليهما سلاحاً ، ولا يقتلهما) .

قال : (إلا أن يضطر إلىٰ ذلك ، بأن يخاف أن يقتله إن ترك قتله ، فحينئذ يجوز له قتله ؛ لأنه إذا لم يفعل ذلك . . كان قد قتل نفسه بتمكين غيره منه ، وذلك منهي عنه ، روي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ حنظلة بن أبي عامر الراهب عن قتل أبيه ، وكان مشركاً) اهـ[1]

وظاهر كلامه أنه إذا صال عليه أبوه المسلم ولم يندفع عنه إلا بالقتل . . أنه يجوز له قتله ، وهو ظاهر إطلاقات العلماء نفعنا الله بهم ، حيث قالوا : يجوز دفع كل صائل ، من مسلم أو

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (١٠/ ٩٥) .

كافر ، وعاقل ومجنون ، وصغير وكبير ، وسيد ووالد ، وبهيمة . . علىٰ نفس ، أو طرف ، أو بضع ، أو مال ، والدفع قد يؤدي إلى القتل .

وقد نصوا علىٰ أن المستحب الاستسلام إذا كان الصائل مسلماً مكلفاً ، وإذا كان الصائل والداً مسلماً . . فبالأولىٰ أن يستسلم له .

ثم نرجع إلىٰ ما نحن بصدده :

قال الإمام فخر الدين في تفسيره (سورة سبحان) : (اعلم أن الله تعالىٰ أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين ، وبيان المناسبة بينهما من وجوه :

الأول : أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو خلق الله وإيجاده ، والسبب الظاهري هو الأبوان ، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي ، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري .

الوجه الثاني : أن الموجود إمَّا قديم وإمَّا محدث ، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإلـٰه القديم بالتعظيم والعبودية ، ومع المحدث بإظهار الشفقة ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام : « التعظيم لأمر الله ، والشفقة علىٰ خلق الله » ، وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان ؛ لكثرة إنعامهما على الإنسان ؛ فقوله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ إشارة إلى الشفقة علىٰ خلق الله .

الوجه الثالث : أن الاشتغال بشكر المنعم واجبٌ ، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه ، وقد يكون أحد من المخلوقين منعماً عليك ، وشكره واجب أيضاً ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « من لم يشكر الناس . . لم يشكر الله »[1] ، وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين ، وتقريره من وجوه :

أحدها : أن الولد قطعة من الوالدين ، قال عليه الصلاة والسلام : « فاطمة بضعة مني »[2] .

وثانيها : أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة ، وجِدُّهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي ، واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي ، ومتىٰ كانت الدواعي إلىٰ إيصال الخير إليه متوفرة والصوارف عنه زائلة . . لا جرم كثر إيصال الخير ، فوجب أن تكون

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٤) .

نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلىٰ إنسان .

وثالثها : أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز . . يكون في إنعام الأبوين ، فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة إليه ، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعاً علىٰ هـٰذا الوجه . . كان موقعه عظيماً .

رابعها : أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه ، وقد يمتزج بهـٰذا الغرض سائر الأغراض ، وإيصال الخير إلى الولد ليس إلا لهـٰذا الغرض فقط ، فكان الإنعام فيه أتم وأكمل .

فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة علىٰ غيره مثل ما للوالدين على الولد ، فبدأ الله بشكر نعمة الخالق وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ، ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ .

فإن قيل : الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لأنفسهما ، فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات والمخافات ، فأي إنعام للوالدين على الولد ؟!

وقد قيل للإسكندر : أستاذك أعظم منةً عليك أم والدك ؟ فقال : الأستاذ أعظم منة ؛ لأنه تحمَّل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي ، فأرتعني في نور العلم ، وأما الوالد . . فإنه طلب لذة الجماع لنفسه ، فأخرجني إلىٰ آفات عالم الكون والفساد ، ومن الكلمات المشهورة المأثورة : خيرُ الآباء من علَّمك .

والجواب : هب أنهما في أول الأمر طلبا لذة الوقاع ، إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات ودفع الآفات من أول دخوله في الوجود إلىٰ وقت بلوغه الكبر ، أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات ، وسقطت هـٰذه الشبهات)[1] .

ثم قال الرازي : (أقول : ولفظ الآية مشتمل علىٰ قيود كثيرة ، كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين :

أحدها : أنه تعالىٰ قال في الآية المتقدمة : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ ، ثم إنه تعالىٰ أردفه بهـٰذه الآية المشتملة على الأعمال التي

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (٢٠/ ١٨٤ـ١٨٦) .

بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة ، فذكر من جملتها البر بالوالدين ، وذلك يدل على أن هـٰذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة .

وثانيها : أنه تعالىٰ بدأ بذكر الأمر بالتوحيد ، وثنىٰ بطاعة الله تعالىٰ ، وثلث بالبر للوالدين ، وهـٰذه درجة عالية ، ومبالغة عظيمة في تعظيم هـٰذه الطاعة .

وثالثها : أنه لم يقل : « وإحساناً بالوالدين » بل قال : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ فتقديم ذكرهما يدل علىٰ شدة الاهتمام .

ورابعها : أنه قال : ﴿ إِحْسَـٰنًا ﴾ بلفظ التنكير ، والتنكير يدل على التعظيم ، والمعنىٰ : وقضىٰ ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً ، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة . . وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك ، وعلىٰ جميع التقديرات ، فلا تحصل المكافأة ؛ لأن إنعامهما عليك كان علىٰ سبيل الابتداء ، وفي الأمثال المشهورة : أن البادىء بالبر لا يكافأ .

قوله تعالىٰ : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ . . . إلىٰ آخر الآية .

لفظة « إمّا » مركبة من لفظتين : « إن » و« ما » ، أمَّا كلمة « إن » . . فهي للشرط ، وأما كلمة « ما » . . فهي أيضاً للشرط ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ، فلمّا جمع بين هاتين الكلمتين . . أفاد التأكيد في معنى الاشتراط)[1] .

أقول : لا يتوهم أن الإمام الرازي أراد بقوله : إن (ما) شرطية أنها هـٰهنا شرطية ، بل إنما أراد أنها في ذاتها شرطية ، وأمّا هـٰهنا . . فإنها مؤكدة ، ولهـٰذا قال : فلما جمع بين هاتين الكلمتين . . أفاد التأكيد ؛ أي : أفاد الجمع التأكيد . والله أعلم .

وقوله : ﴿ يَبْلُغَنَّ ﴾ : فعل ، وفاعله : ﴿ أَحَدُهُمَآ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ : عطف عليه .

والمعنىٰ : أنهما قد يبلغان إلىٰ حالة الضعف والعجز ، فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أوّل العمر .

واعلم أنه تعالىٰ لما ذكر هـٰذه الجملة ، فعند هـٰذا الذكر كلف الإنسان في حق الوالدين بخمسة أشياء :

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (٢٠/ ١٨٦ـ١٨٧) .

النوع الأول : قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ .

اعلم أن في (أف) لغات ، كسر (الفاء) وضمها وفتحها ، بتنوين وبغير تنوين ، وبالتشديد والتخفيف ، وأفّي بالياء ، قال الأخفش : كأنه أضاف هـٰذا القول إلىٰ نفسه .

قال في « القاموس » : ولغاتها أربعون ، ثم ذكرها ، فمن أراد معرفتها . . فلينظر فيه .

ـ وذكروا في تفسيرها وجوهاً :

الأول : قال الفراء : تقول العرب : (جعل فلان يتأفف) معناه : يقول : أف أف .

الثاني : قال الأصمعي : الأف وسخ الأذن ، والتف وسخ الأظفار ، يقال ذلك عند استقذار الشيء ، ثم كثر حتى استعملوه عند كل ما يتأذون به .

الثالث : قال بعضهم : أف معناه قلّة ، وهو مأخوذ من الأفيف ، وهو الشيء القليل ، وتف إتباع له ؛ كقولهم : شيطان ليطان .

الرابع : قال ثعلب عن ابن الأعرابي : الأفف الضجر .

الخامس : قال القتبي : أصل هـٰذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد . . نفخت فيه لتزيله ، والصوت الحاصل عند تلك النفخة : هو قولك : أف ، ثم إنهم توسعوا فذكروا هـٰذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم .

السادس : قال الزجاج : معناه النتن ، وهـٰذا قول مجاهد ؛ لأن معنىٰ قوله : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي : لا تتقذرهما كما أنهما لم يتقذراك حين كنت تخرأ وتبول ، وفي رواية أخرىٰ عن مجاهد : إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك . . فلا تقل لهما : أف .

وقول القائل : (لا تقل لفلان أف) مَثَلٌ يضرب للمنع من كل مكروه وأذية ، وإن خف أو قلّ .

واختلف الأصوليون في أن دلالة هـٰذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الأذىٰ دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس .

قال بعضهم : إنها دلالة لفظية ؛ لأن أهل العرف إذا قالوا : لا تقل لفلان أف . . عنوا به : لا تتعرض له بنوع من أنواع الأذىٰ والإيحاش ، وجرىٰ هـٰذا مجرىٰ قولهم : فلان لا يملك نقيراً ولا قطميراً ، في أنه بحسب العرف لا يملك شيئاً .

والقول الثاني : أن هٰذا اللفظ إنما يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء بحسب القياس الجلي ، وتقريره : أن الشرع إذا نص علىٰ حكم صورةٍ وسكت عن حكم صورة أخرىٰ . . فإذا أردنا إلحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها . . فهٰذا علىٰ ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يكون ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت أولىٰ من ثبوته في محل الذكر ، مثل هٰذه الصورة ؛ فإن اللفظ لما دل على المنع من التأفيف . . كان الضرب أولىٰ منه .

والثاني : أن يكون الحكم في محل السكوت مساوياً للحكم في محل الذكر ، وهٰذا هو الذي يسميه الأصوليون : القياس في معنى الأصل ، وضربوا له مثلاً قوله صلى الله عليه وسلم : « من أعتق نصيباً له في عبد . . قُوِّم عليه الباقي »[1] ؛ فإن الحكم في الأَمَةِ والعبد متساويان .

والثالث : أن يكون الحكم في محل السكوت أخفىٰ من الحكم في محل الذكر ، وهو أكثر القياسات .

إذا عرفت ذلك . . فالمنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي ، الذي يكون من باب الاستدلال بالأدنىٰ على الأعلىٰ .

والدليل عليه : أن التأفيف غير الضرب ، فالمنع من التأفيف لا يكون منعاً من الضرب ، وأيضاً المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلاً ؛ لأن المَلِك الكبير إذا أخذ مَلِكاً عظيماً كان عدواً له . . فقد يقول للجلاد : إياك أن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة ، ولٰكن اضرب رقبته .

وإذا كان هٰذا معقولاً في الجملة . . علمنا أن المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب ، وغير مستلزم للمنع من الضرب عقلاً في الجملة ، إلا أنَّا علمنا أن المقصود من هٰذا الكلام المبالغة في تعظيم الوالدين ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنىٰ على الأعلىٰ[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٧) .

(٢) انظر « تفسير الرازي » (٢٠/١٨٨ـ١٩٠) .

أقول : قول الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ : دليل ضمني علىٰ أن المنع من الضرب فما دونه وما فوقه .

وإنما المراد من قوله تعالىٰ : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ : منع التضجر والتسخط منهما ؛ لأن هـٰذه الحالة التي هما فيها حالة رذالة العمر ، وعدم ضبط العقل ، فأمر الله تعالى الولد بالصبر عليهما ، وألاَّ يسمعا منه أدنىٰ أذىً ، وحث علىٰ ذلك وأكده هنا في الآية ؛ تعظيماً لأمرهما ، وتفخيماً لشأنهما .

وقول المفسرين في قوله تعالىٰ : ﴿إِمَّا﴾ إنها شرطية . . ليس المراد منها أنه ينتفي جوابها بانتفاء شرطها ، بمعنىٰ : أنهما إذا لم يبلغا الكبر أنه يجوز له التأفيف ؛ لأن المعلق بكلمة (إن) على الشيء لا يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ، والشكر واجب سواء عبد الله أم لم يعبده .

ولقوله تعالىٰ : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ ، وأداء الأمانة واجب سواء ائتمنه أم لا .

ولقوله تعالىٰ : ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ ، والاستشهاد بالرجل والمرأتين جائز ، سواء حصل الرجلان أو لا .

ولقوله تعالىٰ : ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ ، والرهن مشروع ، سواء وجد الكاتب أو لا .

ولقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ، والإكراه على البغاء محرم ، سواء أردن التحصن أو لم يردن .

ولقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، والنكاح جائز ، سواء حصل ذلك الخوف أو لا .

ولقوله تعالىٰ : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ، والقصر جائز ، سواء حصل الخوف أو لا .

ولقوله تعالىٰ : ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ، والثلثان كما أنه حق الثلاث . . فهو أيضاً حق الثنتين .

ولقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ، والبعث جائز ، سواء حصل الخوف أو لا .

ولقوله تعالىٰ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ ، وقد يحصل التوفيق بدون إرادتهما .

ولقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ، وقد يحصل إغناؤهما بدون ذلك .

وهـٰذا الجنس من الآيات فيه كثرة ، فثبت أن المعلق بكلمة (إن) على الشيء . . لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ذكر ذلك الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله . ثم قال : (**النوع الثاني من الأشياء التي كلف الله العباد بها في حَقِّ الوالدين** : قوله : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ، يقال : نهره وانتهره ؛ إذا استقبله بكلام يزجره ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ .

فإن قيل : المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الأولىٰ ، فلما قُدِّم المنع من التأفيف . . كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثاً ، فلو قدم المنع من الانتهار ثم أتبعه بالمنع من التأفيف . . كان مفيداً حسناً ؛ لأنه لا يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف ، فما السبب في رعاية هـٰذا الترتيب ؟

قلنا : المراد من قوله : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ : المنع من إظهار الضجر بالقليل والكثير ، والمراد من قوله : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ : المنع من إظهار المخالفة في القول علىٰ سبيل الرد عليه والتكذيب له)[1] .

أقول : الكبير قد يرجع إلىٰ عدم العقل من شدة الكبر والهرم والضعف . . فقد يفعل فعلاً يوقع به نفسه في مكروه ؛ كإلقاء نفسه في نار ، أو في بالوعةٍ ، أو غائط ، والصبي إذا فعل ذلك في حال عدم شعوره . . نهره أحد والديه وصاح عليه فينتهي ، فقال الله تعالىٰ : إذا بلغ عندك أبواك إلىٰ هـٰذه الحالة . . لا تنهرهما عما يؤذيهما ، بل امنعهما من ذلك برفق ولطف وشفقة ورحمة وتودد ، ولا تَقِس حالتهما هـٰذه إلىٰ حالتك التي كنت عليها في حال صغرك .

---

(١) تفسير الرازي (٢٠/ ١٩٠) .

فإذن : لا يلزم من المنع من التأفيف المنع من الانتهار . هـٰذا ما ظهر لي ، والله تعالىٰ أعلم بما يريد .

النوع الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ .

اعلم أنه لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن القول المؤذي الموحش ، والنهي عن القول المؤذي لا يكون أمراً بالقول الطيب.. لا جرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ .

والمراد منه : أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هو أن يقول له : يا أبتاه ، يا أماه .

وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال : هو قول العبد المذنب لسيده الفظ .

وعن عطاء : أنه قال : هو أن تتكلم معهما بشرط ألاّ ترفع عليهما صوتك ، ولا تشد إليهما نظرك ، وذلك لأن هـٰذين الفعلين ينافيان القول الكريم[1] .

وقال الواحدي : (قوله : ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي : ليناً لطيفاً ، أحسن ما تجد من القول)[2] . وهو قول قتادة .

فإن قيل : إن إبراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلماً وكرماً وأدباً.. فكيف قال لأبيه : (يا آزر) علىٰ قراءة من قرأ : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ بالضم[3] ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ [الأنعام : ٧٤] ، فخاطبه بالاسم وهو إيذاء ، ثم نسبه ونسب قومه إلى الضلال وهو أعظم أنواع الإيذاء .

قلنا : إن قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ يدلُّ علىٰ أن حق الله تعالىٰ مقدم علىٰ حق الآدميين .

النوع الرابع : قوله : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ، والمقصود : المبالغة في التواضع .

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (٢٠/ ١٩٠) .
(٢) الوسيط (٣/ ١٠٤) .
(٣) وهي قراءة يعقوب الحضرمي رحمه الله تعالىٰ ، وهو من القراء العشرة .

وقال الواحدي : (أَلِن لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياهما ، وشفقتك عليهما ، وخفض الجناح عبارة عن السكون وترك التعصب والإباء عليهما)[1] .

وقال صاحب « عين المعاني » : يعني : اترك الترفع لتذل لهما ؛ كخفض الطير مع إمكان العلو .

وقال عروة : لا تمتنع عنهما امتناع الطير بالجناح .

وقال عطاء : لا تنفض يدك عليهما ، والجناح يعبر به عن اليد .

قوله : ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أي : شفقة القلب لا خضوع البدن فقط .

قال الإمام الرازي : (ذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين :

الأول : أن الطائر إذا أراد ضمَّ فرخه إليه للتربية . . خفض له جناحه ، فلهـٰذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلىٰ نفسك كما فعلا ذلك بك في حال صغرك .

والثاني : أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع . . نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع . . خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هـٰذا الوجه .

فإن قيل : كيف أضاف الجناح إلى الذل ، والذل لا جناح له ؟!

قلنا : فيه وجهان :

الأول : أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال : حاتم الجود ، فكما أن المراد هناك : حاتم الجواد . . فكذلك هـٰهنا ، المراد : واخفض لهما جناحك الذليل ؛ أي : المذلول .

والثاني : أن مدار الاستعارة على الخيالات ، فهـٰهنا تخيل للذل جناحاً ، وأثبت لذلك الجناح خفضاً ؛ تكميلاً لأمر هـٰذه الاستعارة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ : معناه : ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما .

---

(١) الوسيط (٣/ ١٠٤) .

والنوع الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

قال القفال رحمه الله تعالىٰ : إنه تعالىٰ لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين علىٰ تعليم الأفعال . . بل أضاف إليه تعليم الأقوال ، وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول : ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ ، ولفظ الرحمة جامعٌ لكل الخيرات في الدين والدنيا ، ثم يقول : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ يعني : ربِّ افعل بهما هٰذا النوع من الإحسان كما أحسنا إليَّ في تربيتهما إياي .

والتربية هي التنمية ، من قولهم : ربا الشيء إذا ارتفع ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾)[1] .

يقال : ربَّ فلانٌ ولده يَرُبُّهُ رَبّاً ورَبَّبَهُ ورَبَّاهُ : كله بمعنىً واحد . قاله ابن الأثير .

وقال الجوهري : ربّ فلان ولده يَربُّه ربّاً ، ورَبَّبَهُ وتَرَبَّبَهُ بمعنىً ؛ أي : رَبَّاهُ .

ـ واختلف المفسرون في هٰذه الآية علىٰ ثلاثة أقوال :

فالقول الأول : أنها منسوخة بقوله تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فلا ينبغي للمسلم أن يستغفر لوالديه إذا كانا مشركين ، ولا يقول : ربِّ ارحمهما .

والقول الثاني : أنها غير منسوخة ، ولٰكنها مخصوصة بغير المشركين ، وهٰذا أولىٰ من القول الأول ؛ لأن التخصيص أولىٰ من النسخ .

والقول الثالث : أنه لا نسخ ولا تخصيص ؛ لأن الوالدين إذا كانا كافرين . . فله أن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد ، وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الإيمان .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ : أمرٌ ، وهو للوجوب ، والأمر لا يقتضي التكرار ، فيكفي في العمل بمقتضىٰ هٰذه الآية ذكر هٰذا القول مرة واحدة .

سئل سفيان بن عيينة : كم يدعو الإنسان لوالديه ، أفي اليوم مرة ، أو في الشهر مرة ، أو في السنة ؟ فقال : نرجو أن يجزئه إذا دعا لهما في أواخر الصلوات)[2] .

---

(١) تفسير الرازي (٢٠/ ١٩١) .

(٢) انظر « تفسير الرازي » (٢٠/ ١٩١-١٩٢) فكل ما نقل عن الإمام الرازي رحمه الله قبل هٰذا الموضع فهو بتصرف وزيادة واختصار . فليتنبه .

أقول : قال الإمام البغوي وصاحب « عين المعاني » : (إن الدعاء بالرحمة للوالدين المسلمين)[1] كما قاله الرازي .

وذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ قال في كتابه الكريم : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

فإذا ورد النهي عن الاستغفار . . فالنهي عن الترحم من طريق أولىٰ ؛ لأن الغفر هو الستر للذنب كي يصان عن عذاب التخجيل ، والعفو : هو الصفح عن الذنب ، والرحمة : هي طلب الثواب ، وإفاضة الإحسان .

وقال الإمام النووي : (اعلم أنه لا يجوز الدعاء للكافر بالمغفرة وما أشبهها ممَّا لا يكون للكفار ، لٰكن يجوز أن يدعو له بالهداية وصحة البدن والعافية وما أشبه ذلك) اهـ[2]

وما ذكروه ـ نفعنا الله تعالىٰ بهم من عدم جواز الدعاء بالمغفرة ـ هو الصحيح ، لٰكن لقائل أن يقول : إنما نهى الله عن الدعاء بالمغفرة بعد أن ظهر أنهم من أصحاب الجحيم ، وذلك إنما يظهر بموتهم على الكفر . . فلا يفهم من الآية التحريم مطلقاً . وقد قال بهٰذا بعض العلماء .

وأيضاً : فالله سبحانه وتعالىٰ يقول : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

فإذا دعا الداعي لهم بالمغفرة بمعنى التوفيق للإسلام حتىٰ يغفر لهم ما قد سلف . . فلا مانع من ذلك .

ثم إن الله تعالىٰ أمر الولد بمصاحبة الوالدين بالمعروف وإن كانا كافرين ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ .

قال الجوهري : المعروف ضد المنكر .

وقال الواحدي : (هو المستحسن)[3] .

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ١١١) .

(٢) الأذكار (ص٥١١) .

(٣) الوسيط : (٣/ ٤٤٣) .

وقال أبو حيان : (انتصب ﴿ مَعْرُوفًا ﴾ علىٰ أنه صفة لمصدر محذوف ؛ أي : صحاباً أو مصاحباً معروفاً وعشرة جميلةً ، وهو إطعامهما وكسوتهما ، وعدم جفائهما وانتهارهما ، وعيادتهما إذا مرضا ، ومواراتهما إذا ماتا) اهـ[1]

وقال ابن الأثير : (المعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع ونهىٰ عنه من المحسنات والمقبحات ، وهو من الصفات الغالبة ؛ أي : أمرٌ معروفٌ بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه ، والمعروف : النَّصَفَةُ وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس ، والمنكر : ضد ذلك) اهـ[2]

فائدة عارضة :

ورد في الحديث : « أهل المعروف في الدنيا . . هم أهل المعروف في الآخرة »[3] .

قال ابن الأثير : (أي : من بذل معروفه للناس في الدنيا . . آتاه الله جزاء معروفه في الآخرة .

وقيل : أراد من بذل جاهه لأصحاب الجرائم التي لا تبلغ الحدود فشفع فيهم . . شفعه الله تعالىٰ في أهل التوحيد في الآخرة .

وروي عن ابن عباس في معناه قال : يأتي أصحاب المعروف في الدنيا يوم القيامة فيغفر لهم بمعروفهم ، وتبقىٰ حسناتهم جامَّة فيعطونها لمن زادت سيئاته علىٰ حسناته ، فيغفر له ، ويدخل الجنة ، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة)[4]

ثم نرجع إلى الكلام على الإحسان إلى القريب الكافر فنقول :

فإن قلت : قد نهى الله سبحانه وتعالىٰ عن موالاة الكفار في آي كثيرة ، ولو كانوا آباء أو أبناء أو إخواناً ؛ مثل قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي : ليس من دين الله في شيء .

---

(١) البحر المحيط (٧/ ١٨٧) .
(٢) النهاية (٣/ ٢١٦) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٥٦) .
(٤) انظر « النهاية » (٣/ ٢١٦ـ٢١٧) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ الآية .

وقد قالت العلماء : لا يجوز ابتداء أهل الذمة بالسلام ، ويجوز أن يُحيَّا الذمي بغير السلام ؛ بأن يقول : هداك الله ، أو أنعم الله صباحك .

قال الإمام النووي : (هٰذا إذا احتاج إليه لعذر ، فأما من غير حاجة . . فالاختيار ألاّ يبتدئه بشيء من الإكرام أصلاً ؛ فإن ذلك بسط له وإيناس وملاطفة وإظهار ود ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾) اهـ [1]

ونصوا علىٰ أنه يكره مشاركة الذمي ، فما الموافقة بين هٰذه الآيات وبين آية الوالدين الكافرين ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ﴾ ؛ فإن سبب نزولها ـ علىٰ ما رواه سعيد بن جبير ـ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تصدقوا علىٰ غير أهل دينكم » فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا علىٰ أهل الأديان »[2] .

وقال الواحدي : (قال المفسرون : جاءت أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إليها تسألها ، وكذلك جدَّتها وهما مشركتان ، فقالت : لا أعطيكما حتىٰ أستأمر رسول الله

---

(١) روضة الطالبين (١٠/ ٢٣٠) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣/ ٦٧) .

صلى الله عليه وسلم ؛ فإنكما لستما علىٰ ديني . . فاستأمرته في ذلك ، فأنزل الله تعالىٰ هـٰذه الآية ، وأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتصدق عليهما .

وهـٰذا في صدقة التطوع ، وأما صدقة الفرض . . فلا يجوز أن يتصدق بها إلا على المسلمين) اهـ[1]

قلت[2] : اعلم أن (الوليّ) هو : الناصر والمؤازر والمعاون والموادد ، فنهى الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك ، وأمر بصلة الرحم وإن كان كافراً من غير مناصرة ولا موادة ولا معاونة ؛ إذ هم في الحقيقة أعداء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي ، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين ، ولـٰكن لهم رحم أبلها ببلالها »[3] فنفىٰ صلى الله عليه وسلم الولاية مع صلة الرحم .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ إلىٰ أن قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

فأباح سبحانه وتعالىٰ في هـٰذه الآية إبرارهم ، ونهىٰ عن موالاتهم ، والموالاة تختلف مراتبها باختلاف المؤمنين والمطيعين ، وسائر من يوالىٰ في الله تعالىٰ ، ويترتب عليها أحكام ؛ كالزيارة في الله ، والسلام ، والمصافحة ، والهدية ، وحسن المجالسة ، وآداب المصاحبة ، وبذل الخدمة ، وتحصيل المصالح ، ودرء المفاسد ، وعيادة المرضىٰ ، وتشييع الجنائز ، والشفاعات ، وغير ذلك .

والمعاداة في الله تعالىٰ تختلف مراتبها أيضاً بحسب اختلاف المعادىٰ من الكفار ، والمنافقين ، والفاسقين ، والمفرطين ، ويترتب عليها أحكام ؛ كالمجاهدة ، والهجران ،

---

(١) الوسيط (١/ ٣٨٧) .
(٢) قوله : (قلت . . .) هو جواب الشرط في قوله قبل نحو صحيفة : (فإن قلت : قد نهى الله سبحانه وتعالىٰ عن موالاة الكفار . . .) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٠) .

والمباعدة ، والإنكار ، والإغلاظ ، والإعراض ، وغير ذلك .

ويستعمل كل شيء من ذلك فيما يليق به ، فيعادي الكافر ظاهراً وباطناً ، والعصاة بالظاهر دون الباطن ، فيكره عصيانهم وقبائح أفعالهم دون ذواتهم ؛ لأن لهم شيئاً من الموالاة بسبب الإيمان ، من الحنو عليهم ، وطلب الصلاح لهم ، والدعاء لهم بالهداية .

فعلىٰ هـٰذا : يؤدي إلىٰ والده الكافر ما يجب له من نفقة ، وكسوة ، ومؤنة ، وغير ذلك من غير إظهار تضجر ولا مماطلةٍ .

ولا يواليه موالاة المسلم للمسلم ، فيتقرر بجميع ما ذكر : أنه لا يلزم من صلة الرحم الموالاة والموادة .

قوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

الشكر : هو الثناء على المشكور بإنعامه على الشاكر ، ويقال : شكرته وشكرت له .

قال الجوهري وغيره : (وباللام أفصح) وبه جاء القرآن .

قال الإمام الرازي : (اعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة :

اعتقاد كونه محسناً في تلك الأعمال ، والثناءُ عليه بالقول ، والإتيان بأفعالٍ تدل علىٰ كونه معظَّماً عند ذلك الشاكر) اهـ

قال الإمام القشيري : (حقيقةُ الشكر عند أهل التحقيق : الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع .

وعلىٰ هـٰذا القول : يوصف الله سبحانه بأنَّه شكور ؛ توسعاً ، ومعناه : أنه يجازي العبد على الشكر ، فسمي جزاء الشكر شكراً ، كما قال : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ اهـ[1]

وما أحسن كلام الإمام الرازي لما ذكر أركان الشكر التي ذكرناها عنه ، قال : (والله تعالىٰ عالم بكون المطيعين محسنين ، ويثني عليهم بكلامه ، ويعاملهم بمعاملات دالة علىٰ كونهم معظمين[2] عنده ، وإذا كان مجموعُ هـٰذه الثلاثة حاصلاً . كانوا مشكورين علىٰ طاعتهم من قبل الله تعالىٰ) اهـ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص١٣٧) .

(٢) في (أ) : (مطيعين) .

أي : فسمىٰ نفسه سبحانه وتعالىٰ : شكوراً .

وقال القاضي أبو بكر بن عثمان الناشري في كتاب : « المناظرة في علم المحاورة » : (الشكور : اسم من أسماء الله تعالىٰ ، معناه : الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة .

والشكور في حق العبد : هو الذي إذا أُعطي . . أثنىٰ علىٰ معطيه ، ويكون أيضاً شكوراً إذا جازاه بأكثر مما صنعه إليه) اهـ

وقال الإمام اليافعي : (الشكور صفة مبالغة من الشكر ، ومعناه : المجازي عباده علىٰ شكرهم .

وقيل : معناه : المعطي الجزيل على العمل القليل .

وقيل : المثني على المطيعين فيكون علىٰ هـٰذا راجعاً إلىٰ قوله القديم ، وهو من أسماء الصفات ، وعلى القولين الأولين من أسماء الأفعال .

وقيل : قد يكون الشكور في وصفه بمعنى المشكور ، و« فعول » بمعنىٰ « مفعول » موجود في لسان العرب ، فيكون وصفاً ذاتياً له تعالىٰ) اهـ

ثم اعلم أن شكر الله تعالىٰ واجب علىٰ كل أحد ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ أي : ووصيناه بشكرنا وبشكر والديه .

ولقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق بعدمه [كما حكاه الله سبحانه عنه] فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

فالشكر من التوحيد ولهـٰذا جعل الله تعالىٰ ضده الكفر فقال : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ أي : جعلوا مكان الشكر كفراً .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ .

قال الإمام الغزالي : (قد قطع الله تعالىٰ بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ ، فقال تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

واستثنىٰ في خمسة : في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة ، فقال تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ .

وقال : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾) اهـ[1]

قال الإمام عبد الجليل القصري : (الشكر باب من التوحيد ، ولذلك عظم مقدار الشكر ، وذلك أنك إذا حددت الشكر فقلت : إنه الثناء على المنعم ، والإقرار بالنعمة للمنعم بها ، أو رؤية النعمة من المنعم . . فقد أضفت الأفعال إليه ، ولم تشرك فيها معه أحداً ، وهٰذا هو التوحيد بعينه .

وإذا حددناه بأنه الثناء على المنعم بنعمه وأياديه . . فهو مأخوذ من قولهم : شكر نابُ البعير إذا ظهر[2] ؛ لأنه إذا كتم الذي أعطى النعمة فلم يظهرها بالثناء علىٰ معطيها . . فقد غطىٰ عليها ، وإذا ذكر معطيها . . فقد أظهرها ، والتغطية في اللغة كفر ، ومنه : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أي : الزراع الذين يغطون البذر ، والإظهار شكر .

وإذا حددناه بأنه الإقرار بالنعمة لواهبها . . فهو من قولهم : أقر بالحق ، وضده الجحود .

وأكثر ما ذم الله سبحانه في كتابه من لم يشكر ، فقال : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ حين لم يعترفوا له بها .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٨٠) .

(٢) كذا في النسخ و« شعب الإيمان » ، ولعل الصواب : « شكأ ناب البعير » كما في « اللسان » و« التاج » ، والله أعلم .

ومثله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يحذر من نسيان الاعتراف بالنعمة .

وإن حددناه بأنه رؤية النعم من المنعم . . فذلك من صفات القلب ، وهو أجل الشكر ، وتنتظم فيه حدود الشكر كلها ؛ لأنه إضافة الشيء إلىٰ واهبه ومعطيه ، وإذا أضافه إليه . . فقد اعترف له وأثنىٰ به عليه ؛ لأنه جعله فاعلاً ومعطياً وكريماً ، فهو ثناء واعتراف وإن لم يذكره باللسان ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه حين سأله ما يتخذ من الأموال ذخيرةً فقال : « اتخذ لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً »[1] .

فأمره أن يكون قلبه مبصراً لما صنع الله معه ومع جميع الخلق من الفضل والأيادي .

ومن هـٰذا المعنىٰ قوله تعالىٰ لبعض أنبيائه : « إذا عرفت أن ذلك مني . . فقد شكرتني » .

والمعرفة : هي رؤية القلب أن النعم كلها من الرب تعالىٰ .

فعلىٰ هـٰذا لا بد للشاكرين من النظر في المخلوقات والفكر فيها ؛ فإنها كلها نعم من الله تعالىٰ علىٰ عباده ، وما يشم روائح الشكر من لم يخض بحار الفكر ، ولا وجد لذة النعم من لم يعرفها ويشكر عليها) اهـ[2]

فإذا تقرر أن الشكر من التوحيد . . فلا بد من معرفة حد الشكر وحقيقته .

قال الإمام حجة الإسلام في « الإحياء » : (اعلم أن الشكر من مقامات السالكين ، وهو ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال ، والحال يورث العمل .

أما العلم : فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح واللسان .

فالأصل الأول : العلم ، وهو علم بثلاثة أمور : بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام .

هـٰذا في حق غير الله ، أما في حق الله . . فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله تعالىٰ وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٣٩١) .
(٢) شعب الإيمان (٢/ ٨٧ـ٨٩) .

وهٰذا وراء التقديس والتوحيد ، فإذا عرف ذاتاً مقدسةً ، وعرف أنه لا مقدس إلا واحد ، وما عداه غير مقدس . . فهو التوحيد ، ثم يعلم أنّ كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد . . فالكل نعمة منه .

واعلم أن تمام هٰذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال ، فإذا عرفت ذلك . . فقد عرفت الله تعالىٰ ، وعرفت فعله ، وكنت موحداً ، وقدرت علىٰ شكره ، بل كنت بهٰذه المعرفة بمجردها شاكراً .

ولذلك قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام في مناجاته : إلٰهي ؛ خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال : (علم أن ذلك مني . . فكانت معرفته شكراً)[1] .

الأصل الثاني : الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، وهو أيضاً في نفسه شكر علىٰ تجرده ، كما أن المعرفة شكر ، وهٰذا إذا كان جامعاً شروطه ، وشروطه :

أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام ، ولعلك لا تفهم ذلك ، فنضرب لك مثلاً ، فنقول : إذا أنعم الملك الذي يريد السفر علىٰ إنسان بفرس ، فيكون فرح المنعَم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يفرح بالفرس من حيث كونه فرساً ، فهٰذا غرضه الفرس فقط ، ولو وجده في صحراء فأخذه . . لكان فرحه مثل ذلك .

الثاني : أن يفرح به من حيث إنه استدل به علىٰ عناية الملك به وشفقته عليه ، بحيث إنه لو وجده في صحراء أو أعطاه غير الملك . . لكان لا يفرح به ؛ لاستغنائه عنه .

الثالث : أن يفرح به ليركبه فيخرج في خدمة الملك ، ويحتمل مشقة السفر ؛ لينال بخدمته رتبة القرب منه ، فربما يرتقي إلى الوزارة ، ومع ذلك هو طالب ألاَّ ينعم الملك علىٰ أحد إلا بواسطته ، وليس يريد من الوزارةِ الوزارةَ ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتىٰ لو خير بين الوزارة دون القرب وبين القرب دون الوزارة . . لاختار القرب . فهٰذه ثلاث درجات .

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤١١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٤٥٢) .

فالأولىٰ : لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً ؛ لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، ففرحه بالفرس لا بالمعطي .

والثانية : داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ، لا من حيث ذاته ، وهـٰذا حال الصالحين الذين يعبدون الله خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه .

وإنما الشكر التام في الفرح بالقرب الثالث ، وهو : أن يكون فرح العبد بنعم الله من حيث إنه يقدر على التوصل بها إلى القرب منه تعالىٰ ، والنزول في جواره ، والنظر إلىٰ وجهه على الدوام ، فهـٰذا هو الرتبة العليا .

وأمارته : ألاَّ يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالىٰ ، ولذلك قال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . فهـٰذا شرط الفرح بنعمة الله ، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه ، وبين من يريد نعمة الله ليصل بها إليه .

الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، وهـٰذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح .

أما بالقلب : فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق .

وأما باللسان : فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه .

وأما بالجوارح : فاستعمال نِعَم الله تعالىٰ عليه في طاعته ، والتوقي من الاستعانة بها علىٰ معصيته ، حتىٰ أن شكر العين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، فهـٰذا يدخل في جملة من يشكر نعمة هـٰذه الأعضاء ، والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله ، وهو مأمور به .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل : « كيف أصبحت ؟ » فقال : بخير ، فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال ، فأعاد ، حتىٰ قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا الذي أردت منك »[1] .

---

(١) عزاه العراقي للطبراني في « الدعاء » ثم قال : (ورواه مالك في « الموطأ » موقوفاً علىٰ عمر بإسناد صحيح) ، انظر « المغني عن حمل الأسفار في الأسفار » بهامش « الإحياء » (٤/ ٨٤) .

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالىٰ ؛ ليكون الشاكر مطيعاً ، والمستنطق له به مطيعاً)[1] .

قال الإمام الغزالي : (هٰذه أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته ، فأما قول من قال : إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم علىٰ وجه الخضوع . . فهو نظر إلىٰ فعل اللسان مع بعض أحوال القلب ، وقول من قال : الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه . . نظر إلىٰ مجرد عمل اللسان ، وقول القائل : إن الشكر عبارة عن اعتكاف علىٰ بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة . . جامعٌ لأكثر المعاني ، لا يشذ منه إلا عمل اللسان .

وقول حمدون : شكر النعمة أن ترىٰ نفسك فيها طفيلياً ، إشارة إلىٰ معنى المعرفة من معاني الشكر فقط .

وهٰؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم ، ولذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق) اهـ كلام الإمام الغزالي ، نفعنا الله به آمين[2] .

فإذا عرفت شكر الله تعالى الذي أمرك الله تعالىٰ به شريعة وحقيقة ، وحاصله : أن جميع أعضائك وحواسك نعمة منه عليك ، وشكر ذلك ألاَّ تستعين بها في معاصيه ، بل تستعين بها علىٰ طاعته ، فتطهر باطنك عن النظر إلىٰ من سواه ، وتعلم أن كل نعمة وصلت إليك وكل نقمة دفعت عنك فهي منه وحده سبحانه وتعالىٰ ، وأنه سبب السبب الذي وصلت به تلك النعمة إليك ؛ لأنه خالق كل شيء ، فإذا عرفت ذلك . . صرت شاكراً ، وكان ذلك نعمة منه عليك ، فتحتاج إلىٰ شكرها ، وكذا كل شكر يحتاج إلىٰ شكر ، إلىٰ ما لا نهاية له ، فتعجز الجوارح والقلب عن القيام ببعض واجب حق الله تعالىٰ ، فيكون عجزها ذلك شكراً له حين تعجز ، فيرد ذلك إليه سبحانه وتعالىٰ ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك »[3] .

وقد قيل : الاعتراف بالتقصير إدراك .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٨١ـ٨٤) .

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٨٤ـ٨٥) بتصرف واختصار .

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦) ، وأبو داوود (٨٧٩) ، والترمذي (٣٤٩٣) ، والنسائي (١/ ١٠٢) ، وابن ماجه (٣٨٤١) .

ثم نرجع إلىٰ شكر الوالدين فنقول : أن تكون مطيعاً لهما بجميع جوارحك الظاهرة والباطنة ، قولاً وفعلاً ونيةً ، وبما لك دائماً علىٰ ذلك .

قال الإمام القشيري : (أوجب الله تعالىٰ شكر نفسه وشكر الوالدين ، وحصل الإجماع علىٰ أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما ، ولا يكفي القول ما لم يكن فيه موافقة الفعل) اهـ[1]

وقوله تعالىٰ : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ .

قال الجوهري : (رب كل شيء : مالكه ، والربّ : اسم من أسماء الله تعالىٰ ، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة ، والرباني : المتأله العارف بالله تعالىٰ) اهـ

وقال ابن الأثير : (الرب : يطلق على المالك والسيد والمدبر والمربي والمنعم والقيِّم) اهـ[2]

والصالح : من صلحت أحواله ، وحسنت أعماله .

وقال الإمام النووي : (قال الإمام أبو إسحاق الزجاج : الصالح هو الذي يؤدي إلى الله تعالىٰ ما افترض عليه ، ويؤدي إلى الناس حقوقهم ، وكذا قال صاحب « مطالع الأنوار ») اهـ[3]

وقال الإمام فخر الدين الرازي : (المعنىٰ : أنا قد أمرناكم في هـٰذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالىٰ وبالإحسان بالوالدين ، فلا يخفىٰ على الله ما تضمرون في نفوسكم من الإخلاص في الطاعة وعدمه ، وهو سبحانه وتعالىٰ مطلع علىٰ ما في نفوسكم ، بل هو أعلم بذلك منكم ؛ لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الإحاطة ، وعلم الله تعالىٰ منزه عن جميع هـٰذه الأحوال .

وإذا كان الأمر كذلك . . كان عالماً بكل ما في قلوبكم ، والمقصود : التحذير عن ترك الإخلاص .

---

(١) لطائف الإشارات (٣/ ١٣١) .
(٢) النهاية (٢/ ١٧٩) .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٧٩/ ق١) .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي : برآء عن جهة الفساد في أحوال قلوبكم . . كنتم أوابين ؛ أي : رجَّاعين إلى الله تعالىٰ ، منقطعين إليه في كل الأعمال ، وحكمه في الأوابين : أنه غفور لهم .

والأواب : هو الذي من عادته وديدنه الرجوع إلىٰ أمر الله تعالىٰ ، والالتجاء إلىٰ فضله ، ولا يلتجىء إلىٰ شفاعة شفيع ، كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جماداً يزعمون أنه يشفع لهم ، وأواب علىٰ وزن « فعَّال » ، وهو يفيد المداومة والكثرة ، كقولهم : قتَّال وضرَّاب .

والمقصود من هٰذه الآية : أن الآية الأولىٰ لما دلت علىٰ وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ، ثم إن الولد قد يظهر منه بادرة مخلة بتعظيمهما . . فقال : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ يعني : أنه تعالىٰ عالم بأحوال قلوبكم إن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق ، بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية . . كانت في محل الغفران) اهـ[1]

وقال الواحدي : (﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي : بما تضمرون من البر والعقوق ، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يضمر عقوقاً . . غفر الله له ذلك ، وهو قوله : ﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي : مطيعين . . ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ : الراجعين عن المعاصي النادمين على الزلات ﴿ غَفُورًا﴾ يغفر لهم ما بدر منهم) اهـ[2]

وقال الإمام القشيري : (إذا علم الله الصدق من قلب عبده . . أمده بحسن الأمجاد ، وأكرمه بجميل الإمداد ، ويسر عليه العسير من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور) اهـ[3]

وقال الإمام أبو حيان : (قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي : ذوي صلاح ، ثم فرط منكم تقصير في عبادة أو برّ ، وأنبتم إلى الخير . . فإنه غفور لما فرط من هناتكم ، والظاهر : أن هٰذا عام في كل من فرطت منه جناية ثم تاب منها) اهـ[4]

---

(١) تفسير الرازي (٢٠/ ١٩٢) .
(٢) الوسيط (٣/ ١٠٣) .
(٣) لطائف الإشارات (٢/ ٣٤٤) .
(٤) البحر المحيط (٦/ ٢٩) .

قال الإمام البغوي : (قال سعيد بن جبير : الأواب في هـٰذه الآية : هو الرجل تكون منه البادرة إلىٰ أبويه لا يريد بذلك إلا الخير ، فإنه لا يؤخذ به .

وقال سعيد بن المسيب : الأوّاب : الذي يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب .

وقال سعيد بن جبير : هو الرَّجَّاع إلى الخير .

وعن ابن عباس : هو الراجع إلى الله تعالىٰ فيما يحزنه وينوبه .

وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس : هم المسبحون .

وعن قتادة : المصلون .

وقال عون العقيلي : هم الذين يصلون صلاة الضحىٰ .

وقال محمد بن المنكدر : الأواب : الذي يصلي بين المغرب والعشاء ، وهي صلاة الأوَّابين) اهـ[1]

وقال صاحب « عين المعاني » : (﴿ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ ﴾ : بارين أوابين من العقوق ، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه وصفُ الغفور ؛ أي : يغفر لكم .

﴿ لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ : المحسنين بهما ، المطيعين لهما . قاله قتادة) اهـ

قوله تعالىٰ : ﴿ غَفُورًا ﴾ : هو اسم من أسماء الله تعالىٰ ، وهو بمعنى الغفَّار ، ولـٰكنه ينبيء عن نوع من المبالغة لا ينبيء عنها الغفار ؛ فإن الغفَّار للمبالغة في المغفرة ، والإضافة إلىٰ مغفرة مكررة .

والغفور : بمعنىٰ أنه تام الغفران كامله ، بالغ إلىٰ أقصىٰ درجات المغفرة . كذا قاله بعض العلماء .

وقال الإمام اليافعي : (الغفر هو الستر . قال : والغفور قيل : معناه : ينقسم إلى الإنعام وإلىٰ ترك الانتقام ، والغافر : من له أصل المغفرة ، والغفَّار : من يكرر مغفرته للمذنبين كلما رجعوا إليه ، والغفور : من يغفر للمقصرين الموحدين في الآخرة ، وإن كانت نفوسهم ملوثة بالمعاصي غير طاهرة) اهـ

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ١١١ـ١١٢) .

إلـهي ؛ جد علينا برضاك ، واجعلنا ممن أخلص عمله لك ووالاك ، ونور قلوبنا بنور معرفتك ، واستعمل أبداننا في طاعتك ، واجعلنا من أهلك وخاصتك ، وعمّنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك ، فنخيب ونهلك ، واجعل ما علمتنا حجة لنا ، ولا تجعله حجة علينا .

* * *

الباب الثاني

فيما ورد في بر الوالدين من الأحاديث وتفسير بعض ألفاظها وهي نيف وأربعون حديثاً

الحديث الأول : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة علىٰ وقتها » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » .

قال : حدثني بهن ، ولو استزدته . . لزادني . أخرجه البخاري ومسلم[1] .

فيه الحث علىٰ أداء الصلاة في أول وقتها ، وبدأ بها صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها أحد أركان الإسلام ، وأول ما يحاسب العبد على الصلاة ، ثم قال : « بر الوالدين » وقد علمت مما تقدم أن البر : اسم جامع لكل خير ، فهو شامل للإحسان إليهما ، وفعل الجميل معهما ، وفعل ما يسرهما من الإحسان إلىٰ صديقهما .

أقول : لما قال : أي العمل أحب ؟ . . كان سؤاله عاماً في جميع الأعمال .

ومنها : ما أوجبه الله تعالىٰ له .

ومنها : ما أوجبه للعبد على العبد ، وحقيقته ترجع إليه تعالىٰ ؛ لأنه إذا فعل ذلك . . كان مأموراً بأمر الله تعالىٰ .

ومنها : ما أوجبه لا على الأعيان .

ولما كانت الصلاة أفضل الأعمال الخالصة لله تعالىٰ ؛ لكونها مشتملة علىٰ أكثر العبادات من القيام والركوع والسجود ، والقراءة والذكر ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ كف النفس من جميع الأفعال والأقوال ، وترك ما سوى الله تعالىٰ . . قال له :

---

(١) البخاري (٥٢٧) ، ومسلم (٨٥) .

« الصلاة لوقتها » فدل بقوله : « لوقتها » علىٰ أن المراد المفروضة ، ثم قال له : ثم أي ؟ قال : « ثم بر الوالدين » لأنه أيضاً من فروض الأعيان التي أوجبها الله تعالىٰ للعبد على العبد ، ثم قال : ثم أي ؟ قال : « ثم الجهاد » لأنه من فروض الكفاية ، فكان دون مرتبة فرض العين ، وذلك يدل علىٰ أن فرض العين أفضل من فرض الكفاية .

نعم ؛ في « الروضة » أن القائم بفرض الكفاية له مزية على القائم بفرض العين . ونقله عن إمام الحرمين[1] .

قال الإسنائي : وسبقه إليه والده الشيخ أبو محمد ، والأستاذ أبو إسحاق ، وسبقهما إليه أبو علي السنجي ، ونقله عن أهل التحقيق .

وقال الإمام الزركشي : هـٰذا لا ينبغي ؛ لأنه إن كان المراد إذا ازدحما والوقت لا يسع إلا أحدهما . . فلا شك في تقديم فرض العين ، إلا أن يكون له بدل كما في سقوط الجمعة عمَّن له قريب مريض .

وإن كان الوقت متسعاً . . فتقديم فرض الكفاية لا يقتضي أفضليته ، ألا ترىٰ أنا قدمنا الكسوف علىٰ صلاة الفرض عند اتساع الوقت مع أنه سنة ، فلم يكن تقديمه حكماً بأفضليته ؟!

ويدل أيضاً لما ذكرناه : أن فرض العين يلزم بالشروع ، حتىٰ لا يجوز له الخروج منه ، بخلاف الشروع في فرض الكفاية ، وأن من ترك فرض عين . . أجبر عليه قطعاً ، وفي فروض الكفاية خلاف .

والقائل بتفضيل فرض الكفاية منازع ؛ لقوله تعالىٰ : (لن يتقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم) اهـ[2]

أقول : وهـٰذه المسألة علمية لا عملية ؛ إذ لا يمكن أن يوجد قائم بفرض الكفاية وحده دون فرض العين وهو غير عاصٍ حتىٰ يقال : إنه أفضل من القائم بفرض العين .

وأما إذا كان قائماً بفرض الكفاية والعين ، والآخر قائماً بفرض العين فقط . . فلا شك في أفضليته . والله أعلم .

---

(١) روضة الطالبين (١٠/٢٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٦٥٠٢) .

قال الإمام النووي : (وقد يستشكل الجمع بين هـٰذا الحديث وما جاء في معناه من حيث إنه جعل في حديث أبي هريرة الأفضل الإيمان ، ثم الجهاد ، ثم الحج[١] .

وفي حديث أبي ذر الإيمان والجهاد[٢] .

وفي حديث ابن مسعود الصلاة ثم بر الوالدين ثم الجهاد[٣] .

وفي حديث عبد الله بن عمرو : أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف »[٤] .

وفي حديث أبي موسىٰ وعبد الله بن عمرو : أي المسلمين خير ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده »[٥] .

وصح في حديث عثمان : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[٦] .

وأمثال هـٰذه في الصحيح كثيرة ، واختلف العلماء في الجمع بينها ، فذكر الإمام الجليل أبو عبد الله الحليمي عن شيخه أبي بكر القفال الشاشي ـ وهو غير القفال الصغير المروزي المذكور في كتب متأخري أصحابنا الخراسانيين ـ أنه جمع بينها بوجهين :

أحدهما : أن ذلك اختلاف جواب جرىٰ علىٰ حسب اختلاف الأحوال والأشخاص ؛ فإنه قد يقال : خير الأشياء كذا ، ولا يراد أنه خير جميع الأشياء من جميع الوجوه ، بل في حال دون حال ، واستشهد في ذلك بأخبار ؛ منها : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة ، وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة »[٧] .

الوجه الثاني : أنه يجوز أن يكون المراد : من أفضل الأعمال كذا ، أو من خيرها ، أو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦) ، ومسلم (٨٣) .
(٢) أخرجه البخاري (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧) ، ومسلم (٨٥) .
(٤) أخرجه البخاري (١٢) ، ومسلم (٣٩) .
(٥) أخرجه البخاري (١١) ، ومسلم (٤٠) .
(٦) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) ، وأبو داوود (١٤٥٢) ، والترمذي (٢٩٠٧) ، وابن ماجه (٢١١) .
(٧) ذكره الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » بنحوه (٢/ ٢٥٧) ، وعزاه للبزار .

من خيركم من فعل كذا ، فحذفت « من » وهي مرادة ، كما يقال : فلان أعقل الناس وأفضلهم ، ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله »[1] ، ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير الناس مطلقاً . هـٰذا كلام القفال رحمه الله ، وعلىٰ هـٰذا الوجه الثاني : يكون الإيمان أفضلها مطلقاً ، والباقياتُ متساوية في كونها من أفضل الأعمال ، ثم يعرف فضل بعضها علىٰ بعض بدلائل تدل عليها ، وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص .

فإن قيل : لقد جاء في بعض الروايات : « أفضلها كذا ، ثم كذا » بحرف « ثم » ، وهي موضوعة للترتيب .

فالجواب : أن « ثم » هنا للترتيب في الذكر ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ إلىٰ أن قال الله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ومعلوم أنه ليس المراد هنا الترتيب في الفعل .

وكما قال سبحانه : ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ ﴾ إلىٰ أن قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ ونظائر ذلك كثيرة .

وأنشدوا في ذلك : [من الخفيف]

قــل لمــن ســاد ثــم ســاد أبــوه ... ثــم قــد ســاد قبــل ذلــك جــده)

اهـ كلام الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ[2] .

الحديث الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أبوك » أخرجاه ، واللفظ للبخاري[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٧٥) .
(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٧٧ـ ٧٨) .
(٣) البخاري (٥٩٧١) ، ومسلم (٢٥٤٨) .

وفي لفظ مسلم : « ثم أدناك أدناك »[1] .

وزاد مسلم في رواية : قال : فقال : « نعم [وأبيك] لَتُنَبَّأَنَّ »[2] .

وفي « الترمذي » عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله ؛ من أبر ؟ قال : « أمك » ، قال : قلت : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : قلت : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : قلت : ثم من ؟ قال : « ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب »[3] .

وفي رواية أبي داوود قال : قلت : يا رسول الله ؛ من أبر ؟ فقال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب »[4] .

الحديث الثالث : عن كليب بن منفعة عن جده رضي الله عنه أنه أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ من أبر ؟ قال : « أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ومولاك الذي يلي ذاك ، حقٌّ واجب ورحم موصولة » أخرجه أبو داوود[5] .

قال ابن الأثير : (قوله : « رحم موصولة » كناية عن الإحسان إلى الأقربين ، والتعطف عليهم ، والرفق بهم ، والرعاية لأحوالهم ، وقطعها : ضد ذلك) اهـ[6]

الحديث الرابع : عن خداش بن سلامة أبي سلامة ـ ويقال : ابن أبي سلامة ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصي آمرأً بأمه ـ ثلاث مرات ـ أوصي آمرأً بأبيه ـ مرتين ـ أوصي آمرأً بمولاه الذي يليه ، وإن كان عليه منهُ أذىً يؤذيه » أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وابن ماجه ، والحاكم[7] .

قال ابن عبد البر : خداش هـٰذا لم يروَ له إلا هـٰذا الحديث[8] .

الحديث الخامس : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه

---

(١) مسلم (٢٥٤٨/٢) .
(٢) مسلم (٢٥٤٨/٣) .
(٣) الترمذي (١٨٩٧) .
(٤) أبو داوود (٥١٣٩) .
(٥) أبو داوود (٥١٤٠) ، وجد كليب هو بكر بن الحارث رضي الله عنه .
(٦) النهاية (٥/ ١٩١) .
(٧) شعب الإيمان (٧٤٥٧) ، وابن ماجه (٣٦٥٧) ، والحاكم (٤/ ١٥٠) .
(٨) الإستيعاب (١/ ٤٢٥) .

وسلم أعرابي فقال : يا رسول الله ؛ إني رجل من أهل البادية ، وإني موسر ، وإن لي أماً وأباً ، وأخاً وأختاً ، وعماً وعمة ، وخالاً وخالة . . فأيهم أولىٰ بصلتي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، وأدناك أدناك » أخرجه البيهقي أيضاً[1] .

الحديث السادس : عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله عز وجل يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بآبائكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب » أخرجه البيهقي أيضاً[2] .

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (وأخرجه البخاري في « الأدب المفرد » ، وأحمد ، وابن ماجه ، وصححه الحاكم) اهـ[3]

قال الإمام النووي في « شرح مسلم » : (« الصحابة » هنا ـ بفتح الصاد ـ بمعنى الصحبة ، وفيه ـ يعني الحديث ، وكذا في الأحاديث المذكورة ـ الحث علىٰ بر الأقارب ، وأن الأم أحقهم بذلك ، ثم بعدها الأب ، ثم الأقرب فالأقرب .

قال العلماء : وسبب تقديم الأم : كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاق في حمله ، ثم وضعه ، ثم إرضاعه ، ثم تربيته ، ثم خدمته ، ومعالجة أوساخه ، وتمريضه ، وغير ذلك ، ونقل الحارث المحاسبي رحمه الله تعالىٰ إجماع العلماء علىٰ أن الأم تفضل في البر على الأب .

وحكى القاضي عياض خلافاً في ذلك . . فقال الجمهور بتفضيلها ، وقال بعضهم : يكون برهما سواء .

قال : ونسب بعضهم هـٰذا إلىٰ مالك ، والصواب : الأول ؛ لصريح الأحاديث في المعنى المذكور) اهـ كلام النووي[4] .

---

(١) شعب الإيمان (٧٤٥٨) .
(٢) شعب الإيمان (٧٤٦١) ، وليس فيه قوله : « ثم يوصيكم بأمهاتكم » .
(٣) الأدب المفرد (٦٠) ، ومسند أحمد (٤/ ١٣٢) ، وابن ماجه (٣٦٦١) ، وانظر « فتح الباري » (١٠/ ٤٠٢) .
(٤) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠٢) .

وقال ابن النحوي : في هـٰذا الحديث دلالة علىٰ أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كررها ثلاثاً ، وذكر الأب في الرابعة فقط .

وإذا تؤمل هـٰذا المعنىٰ . . شهد له العيان ، وذلك أن صعوبة الحمل والوضع والرضاع والتربية تتفرد بها الأم وتشقىٰ بها دون الأب لخلوه عنها .

وقد جرىٰ لأبي الأسود الدؤلي قصة أبان فيها هـٰذا المعنىٰ ، ذكر أبو حاتم عن أبي عبيدة أن أبا الأسود جرىٰ بينه وبين امرأته كلام ، وأراد أخذ ولده منها ، فسارا إلىٰ زياد وهو والي البصرة ، فقالت المرأة له : أصلح الله الأمير ، إن ابني هـٰذا كان بطني وعاءه ، وحِجري فناءه ، وثديي سقاءه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، حتىٰ إذا استوفىٰ فصاله ، وكملت خصاله ، وأملت نفعه ، ورجوت رفعه . . أراد أن يأخذه مني كرهاً .

فقال أبو الأسود : أصلحك الله ، هـٰذا ابني ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم في أدبه وأنظر في أوده .

فقالت المرأة : صدق أصلحك الله ، حمله خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ، ووضعته كرهاً .

فقال له زياد : اردد على المرأة ولدها ؛ فهي أحق به منك ، ودعني من سجعك .

وروىٰ أبو داوود عن عبد الله بن عمرو أن امرأة قالت : يا رسول الله ؛ إن ابني هـٰذا كان بطني له وعاء ، وثديي له سقاء ، وحجري له حواء ، وإن أباه طلقني ، وأراد أن ينزعه مني!! فقال لها عليه الصلاة والسلام : « أنت أحق به ما لم تنكحي » اهـ[1]

قال الإمام النووي : (قال القاضي : وأجمعوا علىٰ أن الأم والأب آكد حرمة في البر ممن سواهما ، قال : وتردد بعضهم بين الأجداد والإخوة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « ثم أدناك أدناك » .

قال أصحابنا : يستحب أن يقدم في البر الأم ، ثم الأب ، ثم الأولاد ، ثم الأجداد

---

(١) أبو داوود (٢٢٧٦) .

والجدات ، ثم الإخوة والأخوات ، ثم سائر المحارم من ذوي الأرحام ؛ كالأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، ويقدم الأقرب فالأقرب ، ويقدم من أدلىٰ بأبوين علىٰ من أدلىٰ بأحدهما ، ثم بذي الرحم غير المحرم ؛ كابن العم وبنت العم ، وأولاد الأخوال والخالات ، وغيرهم ، ثم بالمصاهرة ، ثم بالمولىٰ من أعلىٰ وأسفل ، ثم الجار ، ويقدم القريب البعيد الدار على الجار ، وكذا لو كان القريب في بلد آخر قدم على الجار الأجنبي .

وألحقوا الزوج والزوجة بالمحارم ، والله أعلم) اهـ[١]

قال الأذرعي : ينبغي أن يقال : ثم المولىٰ من أعلىٰ ، ثم المولىٰ من أسفل ، قال : وما ذكره النووي من أن القريب البعيد مقدم على الجار القريب . . اتبع فيه الرافعي .

والذي قاله الماوردي والقاضي أبو الطيب والأزهري : أنه لو كان له جيران أجانب وأقاربه أباعد . . فجيرانه أولىٰ . اهـ

أقول : يشهد للشيخين إطلاق الكتاب العزيز والسنة[٢] .

أمَّا السنة : فإطلاق الأحاديث المتقدمة ، وأما الكتاب فقوله تعالىٰ : ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الآية .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ .

ولأن صلة الرحم واجبة .

وأطلق صلى الله عليه وسلم قوله : « الصدقة على المسكين صدقة ، وإنها علىٰ ذي الرحم اثنتان : صدقة وصلة »[٣] .

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠٢-١٠٣) .
(٢) الشيخان هما الرافعي والنووي ، رحمهما الله تعالىٰ .
(٣) أخرجه الترمذي (٦٥٨) ، والنسائي (٥/ ٩٢) ، وابن ماجه (١٨٤٤) .

فدل جميع ما ذكرناه علىٰ أنَّ الرحم وإن بَعُدَ أقدم من الجار وإن قرب[١] . والله سبحانه أعلم .

الحديث السابع : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رغم أنفه ، رغم أنفه ، رغم أنفه » ، قيل : من يا رسول الله ؟! قال : « من أدرك أبويه عند الكبر ، أحدهما أو كلاهما ولم يدخلاه الجنة » رواه مسلم[٢] .

قال الإمام النووي رضي الله عنه : (رغم بفتح الغين وكسرها ، وهو الرغم بضم الراء وفتحها وكسرها ، وأصله : لصق أنفه بالرغام ، وهو : تراب مختلط برمل .

وقيل : الرغم كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه .

قال أهل اللغة : ومعناه : ذلّ .

وفي الحديث الحث علىٰ بر الوالدين وعظم ثوابه ، ومعناه : أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك . . سبب لدخول الجنة ، فمن قصر في ذلك . . فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه) اهـ[٣]

قال الحكيم الترمذي : (كان النبي صلى الله عليه وسلم أرحم بأمته من آبائهم ، وأرأف بهم من أمهاتهم ، وبذلك وصفه الله تعالىٰ فقال : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وبلغ من شفقته علىٰ أمته : أنه كان يأخذ دمه بيده وثوبه حين أدموا وجهه مخافة أن يقع من دمه على الأرض فينزل بهم العذاب وهم بالله مشركون يقاتلونه ، وشجوا وجهه ، وكسروا رباعيته ، فدعاؤه علىٰ قوم آمنوا وصدقوا بما جاء به وصلوا وصاموا رمضان برغم الأنف والبعد عن الرحمة . . لا يكون إلا لحكمة ، فيجوز أن يكون ذلك في المستخف بحق الوالدين تكذيباً لما أنزل الله تعالىٰ في قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ، فيكون دعاؤه على الجاحدين المنافقين الذين قد أخبر الله عز وجل أنهم في الدرك الأسفل من النار .

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل الأوفق من حيث اللغة أن يقال : (. . . وإن بعد يقدم على الجار وإن قرب) ، والله أعلم .

(٢) مسلم (٢٥٥١) .

(٣) شرح صحيح مسلم (١٦/١٠٨ـ١٠٩) .

ويجوز أن يكون ذلك في المؤمنين بالله ، المصدقين رسوله ، المؤمنين بما أنزل الله من الوصاة بالوالدين ، غير أنهم اتبعوا شهوات نفوسهم فاشتغلوا بها عن مرضاة الله تعالىٰ ، ورفضوا ما أمرهم الله تعالىٰ به من شكره وشكر والديهم ، وجعل برهما سبب غفران السيئات ، وعقوقهما أكبر الكبيرات ، والمؤنة في إرضائهما يسيرة ، والمثوبة علىٰ ذلك جليلة كبيرة ، فلم يجب لهم من الله المغفرة ، فحكم الله تعالىٰ علىٰ هـٰؤلاء بأن يعذبهم بالنار ويطهرهم بها ؛ إذ لم يتطهروا بما أعطاهم من الطهارات ، ولا تحققوا من أثقالهم بما بين لهم من الكفارات ، فأبعدهم من زمرة السابقين في دخولهم جنة رب العالمين ، وأخّر غفرانهم إلىٰ مدة ، وأرغم أنفهم بذلك ، فأخبر نبيه حكمه فيهم ، فشاء لهم ما شاء الله ، وأراد فيهم ما أراد الله .

فإذا دخل علىٰ ربه وحل محل الوسيلة من قربه . . شفع لهم فشفع فيهم ، واستغفر لهم فغفر الله لهم ، فكانت دعوته تلك منه عليه الصلاة والسلام موافقة لله في مشيئته ، ولم تكن غلظة علىٰ أمته ؛ إذ هو لله حبيب ومنه قريب ، وله صفي وبأمته حفي ، ولم يكن يتقدم بين يدي الله تعالىٰ ولا يتألىٰ على الله ، بل وافقه في كل الأحوال ، وآثر محبته في كل الأعمال ، صلى الله عليه الكبير المتعال) اهـ

الحديث الثامن : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : أقبل رجل إلىٰ نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالىٰ ، قال : « فهل من والديك أحد حي ؟ » قال : نعم ، بل كلاهما ، قال : « فتبتغي الأجر من الله ؟ » قال : نعم ، قال : « فارجع إلىٰ والديك فأحسن صحبتهما » رواه مسلم[١] .

وفي رواية : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد ، فقال : « أحي والداك ؟ » قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد » وهـٰذا لفظ البخاري[٢] .

قال الإمام النووي رحمه الله : (هـٰذا كله دليل لعظم فضيلة برهما ، وأنه آكد من الجهاد ، وفيه حجة لما قاله العلماء : إنه لا يجوز الجهاد إلا بإذنهما إذا كانا مسلمَين .

---

(١) مسلم (٢٥٤٩) .

(٢) البخاري (٣٠٠٤) .

فأجمع العلماء على الأمر ببر الوالدين ، وأن عقوقهما حرام من الكبائر) اهـ[1]

الحديث التاسع : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يجزي ولد والده . . إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » رواه مسلم[2] .

قوله صلى الله عليه وسلم : « فيعتقه » ليس معناه استئناف العتق فيه بعد الملك ؛ لأن الإجماع منعقد علىٰ أن الأب يعتق على الابن إذا ملكه في الحال ، وإنما معناه : إذا اشتراه فدخل في ملكه عتق عليه ، فلما كان الشراء سبباً لعتقه . . أضيف العتق إلىٰ عقد الشراء .

وإنما كان ذلك جزاء له ؛ لأن العتق أفضل ما ينعم به أحد علىٰ أحدٍ ؛ إذ خلصه بذلك من الرق ، وجبر به النقص الذي فيه ، وكمل له أحكام الأحرار في جميع التصرفات . قال ذلك ابن الأثير[3] .

الحديث العاشر : عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أنه كان في سفر ، فمر به أعرابي فقال : ألست فلان بن فلان ؟ قال : بلىٰ ، قال : فأعطاه حماراً كان إذا مل راحلته تروَّح بركوبه ، وعمامته ، وكان يشد بها رأسه ، فلما أدبر الأعرابي . . قال له بعض أصحابه : إن هـٰذا كان يرضىٰ بدرهم أو درهمين ، فأعطيته حمارك الذي كنت تروح عليه إذا مللت راحلتك ، وعمامتك التي كنت تشد بها رأسك ! ! فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من أبر البر : أن يصل الرجل أهل ود أبيه » رواه مسلم[4] .

وفي رواية : « إن من أبر البر : صلة الرجل أهل ود أبيه . بعد أن يولي » .

وقال في آخر : إن أباه كان صديقاً لعمر .

وفي رواية عن ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « احفظ [ودَّ أبيك] »[5]
(الود) هنا : مضمومة الواو .

(وفي هـٰذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم ، وهو متضمن لبر الأب

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠٤) .
(٢) مسلم (١٥١٠) .
(٣) النهاية (٣/ ١٧٩) .
(٤) مسلم (٢٥٥٢) .
(٥) عند الطبراني في « الأوسط » (٨٦٢٨) .

وإكرامه ؛ لكونه بسببه ، ويلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة .

وقد وردت أحاديث في إكرامه عليه الصلاة والسلام خلائل خديجة رضي الله عنها) .
هـٰذا كلام الإمام النووي في « شرحه » لـ« مسلم »[1] .

الحديث الحادي عشر : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ جئت أبايعك وتركت أبوي يبكيان ، فقال : « ارجع أضحكهما كما أبكيتهما » رواه البيهقي[2] .

الحديث الثاني عشر : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتىٰ رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أشتهي الجهاد وإني لا أقدر عليه ، فقال : « هل بقي أحد من والديك ؟ » قال : أمي ، قال : « فاتق الله فيها ، فإذا فعلت ذلك . . فأنت حاجٌ ومعتمر ومجاهد ، وإذا دعتك أمك . . فاتق الله وبرها » رواه البيهقي[3] .

الحديث الثالث عشر : عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نومك على السرير براً بوالديك تضحكهما ويضحكانك . . أفضل من جهادك بالسيف في سبيل الله عز وجل » رواه البيهقي[4] . ثم قال : في سنده عبد العزيز بن أبي رواد ، وهو غير قوي ، ولمتنه شواهد قد مضت ، والله أعلم .

الحديث الرابع عشر : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : مر رجل علىٰ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له جسم ـ يعني خَلقاً ـ فقالوا : لو كان هـٰذا في سبيل الله ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لو كان هـٰذا في سبيل الله . . فقال : « لعله يكد علىٰ أبوين شيخين كبيرين . . فهو في سبيل الله ، لعله يكد علىٰ صبيةٍ صغار . . فهو في سبيل الله ، لعله يكد علىٰ نفسه ليغنيها عن الناس . . فهو في سبيل الله » رواه البيهقي[5] .

الحديث الخامس عشر : عن سهل بن معاذ عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/١٠٩ـ١١٠) .
(٢) شعب الإيمان (٧٤٤٤) .
(٣) شعب الإيمان (٧٤٥١) .
(٤) شعب الإيمان (٧٤٥٢) .
(٥) شعب الإيمان (٧٤٦٩) .

« من بر والديه . . زاد الله في عمره » رواه البيهقي[1] .

الحديث السادس عشر : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يمد الله في عمره ، ويزيد في رزقه . . فليبر والديه ، وليصل رحمه » رواه البيهقي[2] .

الحديث السابع عشر : عن معاذ بن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من بر والديه . . طوبىٰ له ، زاد الله في عمره » رواه أبو يعلىٰ والطبراني . كذا قاله الهيثمي[3] .

الحديث الثامن عشر : عن رافع بن مكيث ـ وكان ممن شهد الحديبية ـ : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « البر زيادة في العمر ، والصدقة تمنع ميتة السوء » رواه أحمد ، كذا أخرجه الهيثمي[4] .

قال الإمام النووي : (فإن قيل : الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

فالجواب : أن العلماء أجابوا بأجوبة :

الصحيح منها : أن هٰذه الزيادة بالبركة في عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع في غير ذلك .

والثاني : أنه بالنسبة إلىٰ ما يظهر للملائكة ، وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك ، فيظهر أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون ، وقد علم الله تعالىٰ ما سيقع له من ذلك ، وهو من معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ .

فبالنسبة إلىٰ علم الله تعالىٰ وما سبق به قدره لا زيادة ، بل هي مستحيلة ، وبالنسبة إلىٰ ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة ، وهو مراد الحديث .

---

(١) شعب الإيمان (٧٤٧٠) .
(٢) شعب الإيمان (٧٤٧١) .
(٣) مسند أبي يعلىٰ (١٤٩٤) ، والمعجم الكبير (٢٠/١٩٨) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٤٠) .
(٤) مسند أحمد (٣/٣٠٢) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٤٠) .

والثالث : أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده فكأنه لم يمت ، حكاه القاضي ، وهو ضعيف أو باطل ، والله أعلم) اهـ[1]

قال الإمام الواحدي : (قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يعني : أجل الحياة إلى الموت ، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ يعني أجل الموت إلى البعث وقيام الساعة ، وهـٰذا قول ابن عباس والحسن وسعيد بن المسيب وقتادة والضحاك ومقاتل .

قال ابن عباس : إن الله قضىٰ لكل نفس أجلين : من مولده إلىٰ موته ، ومن موته إلىٰ مبعثه ، فإذا كان الرجل صالحاً واصلاً لرحمه . . زاد الله في أجل الحياة من أجل الممات إلى المبعث ، وإذا كان غير صالح ولا واصل . . نقص الله من أجل الحياة وزاد في أجل المبعث ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾) اهـ[2]

فأثبت زيادة ونقصاً .

وقال بعضهم : الأجل الأول : أجل الحياة الدنيا من وقت الخلق إلى الموت . والثاني : أجل الآخرة ؛ لأن الحياة في الآخرة لا انقضاء لها ، ولا يعلم كيفية الحال في هـٰذا الأجل إلا الله تعالىٰ ، وإلىٰ هـٰذا التفسير أشار القشيري بقوله : (جعل للامتحان أجلاً ، ثم جعل للامتنان أجلاً ، فأجل الامتحان في الدنيا ، وأجل الامتنان في العقبىٰ .

ويقال : ضرب للطلب أجلاً وهو وقت المهلة ، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة ؛ فالمهلة لها مدىً ومنتهىً ، والوصلة بلا مدىً ولا منتهىً ، فوقت الوجود له ابتداء ، وهو حين تطلع شموس التوحيد ، ثم تتسرمد فلا غروب لها بعد الطلوع) اهـ[3]

وما أحسن قوله : (ويقال : ضرب للطلب أجلاً . . . إلىٰ آخره) وهو يشير إلىٰ أن الأجلين معاً في الدنيا ، وذلك أن العاصي المعرض عن الله تعالىٰ ضرب الله تعالىٰ له أجلاً في المهلة ، فإن تاب وأناب وأقلع عما هو عليه . . دخل في أجل الوصلة فوصله الله تعالىٰ ، ونور قلبه بنور معرفته ، فحينئذ يحيا قلبه بعد أن كان ميتاً ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ .

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١١٤ـ١١٥) .
(٢) الوسيط (٢/ ٢٥٢) .
(٣) لطائف الإشارات (١/ ٤٦٠) .

وقوله : (وهو حين تطلع شموس التوحيد ، ثم تتسرمد فلا غروب لها بعد الطلوع) أشار بذلك إلىٰ أن الله تعالىٰ إذا قرب عبده . . أدناه لا يسأله ما أعطاه ؛ لأنه حفظه وتولاه ، فهو وليه في دنياه وأخراه ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

الحديث التاسع عشر : عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الوالد باب من أبواب الجنة ـ أو : أوسط أبواب الجنة ـ احفظ ذلك أو ضيعه »[1] .

وفي رواية عن عبد الرحمـٰن السلمي : أن رجلاً أمرته أمه أن يتزوج ثم أمرته بطلاقها ، فسأل أبا الدرداء ، فقال : لا آمرك بطلاق امرأتك ، ولا آمرك أن تعق أمك ، وقال : سأحدثك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الوالد أوسط أبواب الجنة » فإن شئت . . احفظ ، وإن شئت . . فضيع ، قال : لا ، بل أحفظ ، فطلقها[2] .

قوله : « أوسط » أي : خير الأبواب وأعلاها ، والمعنىٰ : أن أحسن ما يتوسل به إلىٰ دخول الجنة ويتوصل به إلى الوصول إليها مطاوعة الوالد ، ومراعاة جانبه . كذا قاله الطيبي[3] .

الحديث العشرون : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت الجنة فسمعت صوت رجل بالقرآن ، فقلت : من هـٰذا ؟ قالوا : حارثة بن النعمان ، كذلكم البر كذلكم البر » .

وروته عائشة رضي الله عنها ثم قالت : وكان أبر الناس بأمه . رواه البيهقي[4] .

وفي رواية قالت : نمت فرأيتني في الجنة بدل دخلت الجنة .

قال الطيبي : قوله : « كذلكم البر » المشار إليه ما سبق ، والمخاطبون الصحابة ، فإنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ هـٰذه الرؤيا وقصها علىٰ أصحابه ، ثم نبههم علىٰ نيل تلك المرتبة ؛ أي : مثل تلك الدرجة تنال بسبب البر .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٦٣) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٦٤) .
(٣) في « فيض القدير » (٦/ ٣٧١) : أنه من كلام البيضاوي رحمه الله .
(٤) شعب الإيمان (٧٤٦٦) و(٧٤٦٧) .

قال ابن الجوزي : (اسم أم حارثة بن النعمان جعدة بنت عبيد ، أسلمت وبايعت ، وليس في الصحابيات ولا في التابعيات من يشاركها في اسمها ، غير أنها لم ترو شيئاً)اهـ

وقال ابن عبد البر : (أمه فيما يقولون : جعدة بنت عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار ، قال : قيل : إنه توفي في خلافة معاوية) اهـ[١]

وهٰذا حارثة بن النعمان ، والذي سألت أمه النبي صلى الله عليه وسلم عن منزلته هو حارثة بن سراقة ، وكلاهما من بني النجار ، وكذا الأمَّان أيضاً .

الحديث الحادي والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من ولد بار ينظر إلىٰ والدته نظر رحمة . . إلا كتب له بكل نظرة حجة مبرورة » قالوا : وإن نظر كل يوم مئة مرة ، قال : « نعم ، الله أكبر وأطيب » هٰذه رواية عكرمة عن ابن عباس .

وفي رواية الضحاك عن ابن عباس قالوا : وإن نظر إليها في كل يوم مئة مرة ؟ قال : « نعم . . . » الحديث . رواه البيهقي[٢] .

وإنما أردت بإيراد الروايتين معرفة أن الرواية والدته التي هي الأم ، لا والديه مثنىٰ .

الحديث الثاني والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قبل بين عيني أمه . . كان له ستراً من النار » رواه البيهقي ثم قال : إسناده غير قوي ، والله سبحانه أعلم[٣] .

الحديث الثالث والعشرون : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إني أذنبت ذنباً عظيماً ، فهل لي من توبة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألك والدة ؟ » وفي رواية : « أما لك والدان ؟ » قال : لا ، قال : « ألك خالة ؟ » قال : نعم ، قال : « فبرها » . وفي رواية : « فبرها إذاً » رواه البيهقي وأخرجه الترمذي وقال : حديث صحيح[٤] .

---

(١) الإستيعاب (١/ ٢٨٣) .

(٢) شعب الإيمان (٧٤٧٢) و(٧٤٧٥) .

(٣) شعب الإيمان (٧٤٧٧) .

(٤) شعب الإيمان (٧٤٨٠) والترمذي (٢٠٢٧) بترقيم نسخة جمعية المكنز الإسلامي .

قال الطيبي : (يجوز أن يريد عظيماً عندي ؛ لأن عصيان الله تعالىٰ عظيم وإن كان الذنب صغيراً .

ويجوز أن يكون ذنبه من الكبائر ، وأن هـٰذا النوع من البر مكفر له ، وكان مخصوصاً بذلك الرجل علمه النبي صلى الله عليه وسلم من طريق الوحي) اهـ

الحديث الرابع والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح مطيعاً لله في والديه . . أصبح له بابان مفتوحان من الجنة ، وإن كان واحداً . . فواحداً ، ومن أمسىٰ عاصياً لله في والديه . . أمسىٰ له بابان مفتوحان من النار ، وإن كان واحداً . . فواحداً » .

قال الرجل : وإن ظلماه ، قال : « وإن ظلماه ، وإن ظلماه ، وإن ظلماه »[1] .

الحديث الخامس والعشرون : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب في رضا الوالد ، وسخط الرب في سخط الوالد » رواه الترمذي[2] .

ورواه البيهقي : « في رضا الوالدين ، وسخط الله في سخط الوالدين »[3] .

الحديث السادس والعشرون : عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ ما حق الوالدين علىٰ ولدهما ؟ قال : « هما جنتك ونارك » رواه ابن ماجه[4] .

قال الطيبي : هـٰذا الجواب من الأسلوب الحكيم ؛ أي : حقهما البر والإحسان وترك العقوق الموجبات لدخول الجنة ، وترك الإحسان والعقوق الموجبان لدخول النار .

فقوله : « جنتك ونارك » على الخطاب العام ؛ لأن سؤاله عام .

الحديث السابع العشرون : عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نظر الوالد إلىٰ ولده ـ يعني : فسرَّ به ـ كان للوالد عتق نسمة » قال : قيل :

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٣٨) .
(٢) الترمذي (١٨٩٩) .
(٣) شعب الإيمان (٧٤٤٥) .
(٤) ابن ماجه (٣٦٦٢) .

يا رسول الله ؛ وإن نظر ثلاث مئة مرة ؟ قال : « الله أكبر من ذلك » رواه البيهقي[1] .

الحديث الثامن والعشرون : عن أم أيمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصىٰ بعض أهل بيته فقال : « لا تشرك بالله عز وجل وإن عذبت وإن خوفت[2] ، وأطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج من كل شيء لك . . فاخرج ، ولا تترك الصلاة متعمداً ؛ فإنه من ترك الصلاة متعمداً . . برئت منه ذمة الله ، وإياك والخمر ؛ فإنها مفتاح كل شر ، وإياك والمعصية ؛ فإنها تسخط الله ، ولا تنازع الأمر أهله ، وإن رأيت أن لك ، ولا تفر من الزحف ، وإن أصاب الناس موت وأنت فيهم . . فاثبت ، وأنفق علىٰ أهل بيتك من طَوْلك ، ولا ترفع عصاك عنهم ، وأخفهم في الله عز وجل » رواه البيهقي[3] .

قال : ورواه معمر عن إسماعيل بن أمية مرسلاً .

قال : ورواه أبو محمد راشدٌ عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، قال : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسع فذكرهن .

الحديث التاسع والعشرون : عن معاوية بن جاهمة عن أبيه رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستشيره في الجهاد ، فقال : « هل لك من أم ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « فالزمها ؛ فإنَّ الجنة عند رجلها » . رواه أحمد والنسائي والبيهقي في « شعب الإيمان »[4] كذا في « مشكاة المصابيح »[5] .

وفي « مجمع الزوائد » للهيثمي : قال : « ألك والدان ؟ » قال : نعم ، قال : « الزمهما ؛ فإن الجنة تحت أرجلهما » رواه الطبراني ورجاله ثقات[6] .

قال الطيبي : (قوله : « عند رجلها » كناية عن غاية الخضوع ونهاية التذلل ، ولعله صلى الله عليه وسلم عرف من حاله وحال أمه ـ حيث ألزمه خدمتها ولزومها ـ أن ذلك أولىٰ به) اهـ

---

(١) شعب الإيمان (٧٤٧٣) .
(٢) في « الشعب » : (حُرِّقت) .
(٣) شعب الإيمان (٧٤٨١) .
(٤) مسند أحمد (٣/ ٤٢٩) ، والنسائي (٦/ ١١) ، وشعب الإيمان (٧٤٤٨) .
(٥) مشكاة المصابيح (٤٩٣٩) .
(٦) مجمع الزوائد (٨/ ١٤١) .

أقول : في الحديث الحض علىٰ خدمة الوالدين والتذلل لهما ، كأنه أرض يطأان عليه ، وأن ذلك سبب موصل إلى الجنة ، وليس ذلك خاصاً بجاهمة رضي الله عنه كما أفهمه كلام الطيبي .

قال الإمام أبو محمد عبد الجليل بن موسى القصري : (قوله صلى الله عليه وسلم : « الجنة تحت أقدام الأمهات »[1] له ظاهر وباطن وحق وحقيقة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم ، فظاهره : أن الأمهات يلتمس رضاهن المبلغ إلى الجنة بالتواضع لهن ، وإلقاء النفس تحت أقدامهن بالتذلل لهن ، والحقيقة : أن أمهات المؤمنين هن معه عليه الصلاة والسلام في أعلىٰ درجة في الجنة ، والخلق كلهم تحت تلك الدرجة ، فانتهاء رؤوس الخلق في رفعة درجاتهم في الجنة ، وآخر مقام لهم في الرفعة أول مقام أقدام أمهات المؤمنين ، فالجنة كلها تحت أقدامهن رضوان الله عليهن .

فإذا فهمت هـٰذا المعنىٰ . . فهمت الحقيقة في معنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف تعود الصلاة عليك إذا صليت عليه وعلىٰ أزواجه ، صلى الله عليه وعليهن صلاة جامعةً لمعاني الإحسان دائمة بدوام ذي الجلال والإكرام) اهـ[2]

الحديث الثلاثون : عن عائشة رضي الله عنها قالت : أتىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ ومعه شيخ ، فقال له : « يا فلان ؛ من هـٰذا معك ؟ » قال : أبي ، قال : « فلا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تَدْعه باسمه ، ولا تستسب له » رواه الطبراني في « الأوسط » كذا قال الهيثمي[3] .

الحديث الحادي والثلاثون : عن بريدة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إني حملت أمي علىٰ عنقي فرسخين في رمضاء شديدة ، لو ألقيت فيها قطعة لحم . . لنضجت ، فهل أديت شكرها ؟ فقال : « لعله أن يكون بطلقة واحدة » . رواه الطبراني في « الصغير »[4] .

وعنه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم : هل أديت

---

(١) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٩) .
(٢) شعب الإيمان (١/ ٣٢٤ـ٣٢٥) .
(٣) المعجم الأوسط (٤١٧١) ، ومجمع الزوائد : (٨/ ١٤٠) .
(٤) المعجم الصغير (١/ ٩٢) .

حقها ؟ قال : « لا ، ولا بركة واحدة » أو كما قال رواه البزار ، كذا في « مجمع الزوائد » للهيثمي[1] .

الحديث الثاني والثلاثون : عن مالك بن عمرو القشيري رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مسلمة . . فهي فداؤه من النار ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له . . فأبعده الله ، وفي رواية : « وأسحقه » رواه أحمد[2] .

وفي بعض طرقه : « أيما مسلم ضم يتيماً بين أبوين مسلمين إلىٰ طعامه وشرابه حتىٰ يستغني [عنه] . . وجبت له الجنة ألبتة » . وذكر نحوه ، وإسناده حسن .

الحديث الثالث والثلاثون : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج عن والديه ، أو قضىٰ عنهما مغرماً . . بعثه الله يوم القيامة مع الأبرار » رواه الطبراني في « الأوسط »[3] .

الحديث الرابع والثلاثون : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم . . تبركم أبناؤكم ، وعفوا . . تعف نساؤكم » رواه الطبراني في « الأوسط » ، كذا في « مجمع الزوائد »[4] .

الحديث الخامس والثلاثون : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال : يا رسول الله ؛ إن لي مالاً وولداً ، وإن أبي يجتاح مالي ، فقال : « أنت ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم » أخرجه أبو داوود[5] .

الحديث السادس والثلاثون : عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قلت : قدمت علي أمي وهي راغبة ، أفأصل أمي ؟ قال : « نعم صلي أمك » .

وفي رواية : قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٤٠) .
(٢) مسند أحمد (٤/ ٣٤٤) .
(٣) المعجم الأوسط (٧٧٩٦) .
(٤) مجمع الزوائد (٨/ ١٤١) .
(٥) أبو داوود (٣٥٣٠) .

عليه وسلم ومدتهم . . . هـٰذه رواية مسلم والبخاري[1] .

وأخرجه أبو داوود قال : قالت : قدمتْ عليَّ أمي راغبة في عهد قريش وهي راغمة مشركة ، فقلت : يا رسول الله ؛ إن أمي قدمت علي وهي راغمة مشركة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم صلي أمك »[2] .

قال ابن الأثير : قوله : « راغبة » الرغبة : الطلب ، والمراد : أنها جاءت طامعة تسألني شيئاً[3] .

وقوله : « أفأصل أمي » الصلة : العطية والإنعام[4] .

وقولها : « راغمة » أي : كارهة للإسلام ، ساخطة علي . اهـ[5]

الحديث السابع والثلاثون : عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما ثلاثة نفر يتماشون . . أخذهم المطر ، فمالوا إلىٰ غار ، فانحطت علىٰ فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها ، فقال أحدهم : اللهم ؛ إنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، ولي صبية صغار كنت أرعىٰ عليهم ، فإذا رحت عليهم فحلبت . . بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه نأىٰ بي الشجر يوماً ، فما أتيت حتىٰ أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمت عند رؤوسهما ، أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتىٰ طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك . . فافرج لنا فرجة نرىٰ منها السماء ، ففرج الله لهم حتىٰ يرون منها السماء » رواه البخاري ، وترجم له : (باب إجابة دعاء من بر والديه)[6] .

قوله : (نأىٰ بي الشجر) النأي : هو البعد ؛ أي : بَعُد بي طلب الشجر التي ترعاها

---

(1) البخاري (٢٦٢٠) ، ومسلم (١٠٠٣/٥٠) .
(2) أبو داوود (١٦٦٨) .
(3) النهاية (٢/ ٢٣٧) .
(4) انظر « النهاية » (٥/ ١٩٣) .
(5) انظر « النهاية » (٢/ ٢٣٩) .
(6) البخاري (٥٩٧٤) .

الإبل ، والشجر بمعجمة وجيم للأكثر ، وفي رواية الكشميهني بالمهملتين ، والأول أولىٰ . قاله ابن حجر[1] .

وقوله : (لم أرح) هو من الرواح ، وهو : ما بعد الزوال .

وقوله : (فجئت بالحلاب) بكسر الحاء ، يعني الإناء الذي يحلب فيه اللبن .

وقوله : (يتضاغون) أي : يضجون من الجوع ويبكون .

وقوله : (فافرج) قال ابن التين : هو بضم الراء في أكثر الأمهات .

وذكر الجوهري أنه بكسرها ، وفرجة : بضم الفاء وفتحها .

وقوله : (دأبي ودأبهم) يعني شأني وشأنهم ، والمراد : الوالدان والصبية .

قال في « شرح مسلم » : (استدل أصحابنا بهٰذا علىٰ أنه يستحب للإنسان أن يدعو ويتوسل في حال كربه وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله ، ويتوسل إلى الله تعالىٰ به ؛ لأن هٰؤلاء فعلوه فاستجيب لهم ، وذكره النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم .

وفي هٰذا الحديث فضل بر الوالدين وفضل خدمتهما وإيثارهما علىٰ من سواهما من الأولاد والزوجة وغيرهم) اهـ[2]

وفيه ما أشار إليه البخاري من أن دعاء البار بوالديه مستجاب .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « عشرة تستجاب لهم الدعوة : العالم ، والمتعلم ، وصاحب الخلق الحسن ، والمريض ، واليتيم ، والغازي ، والحاج ، والناصح للمسلمين ، والولد المطيع لأبويه ، والمرأة المطيعة لزوجها » .

الحديث الثامن والثلاثون : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خمسة وجبت لهم الجنة ؛ المرأة الصالحة المطيعة لزوجها ، والولد المطيع لوالديه ، والمتوفي في طريق مكة ، وصاحب الخلق الحسن ، ومن أذن في مسجد من المساجد إيماناً واحتساباً . كذا ذكره الإمام محمد بن موسى الذؤالي في « حديقة الأذهان »

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٠٥) .
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٧/ ٥٦) .

ثم قال : (البار بوالديه حقيق بسعة ما لديه ، وإذا كان العقوق كبيرة . . كان البر من أعلى الطاعات ضرورة ، وبر الوالدين واجب وإن كانا كافرين ، ولفضله الأكيد جعله الله تلو التوحيد ، وحسن الخلق هو الأساس ، والإيمان بمنزلة الراس)(١) .

قال : (وأما طاعة الزوج . . ففيها طاعة الله ، وفي رضاه عنها رضاه ، فدعاؤها إن شاء الله [تعالىٰ] مستجاب ، وثوابها من أعظم الثواب ، لا سيما إن كان الدعاء له ، حيث حتم عليها أن تفعله ، ومتىٰ أخلت به . . لم تكن صلاتها متقبلة) .

ثم قال : (روينا بإسنادنا عن الإمام أبي بكر ابن أبي الدنيا بإسناده إلىٰ ثابت البناني : أن امرأة من بني إسرائيل كانت حسنة التبعل لزوجها ، فتردى ابنان لها في بئر فماتا ، فأمرت بهما فأخرجا وطهّرا ونظفا ووضعا علىٰ فراش وسجي عليهما بثوب ، ثم تقدمت إلىٰ خدمها وأهل دارها ألاَّ يعلموا أباهما بشيء من أمرهما حتىٰ أكون أنا أحدثه ، فلما جاء أبوهما ووضع الطعام بين يديه . . قال : أين ابناي ؟ قالت : قد رقدا واستراحا ، قال : لا لعمر الله ، يا فلان ، يا فلان ، فأجاباه ورد الله عليهما أرواحهما شكراً لما صنعت) اهـ(٢)

الحديث التاسع والثلاثون : عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أعظمُ حقاً على المرأة ؟ قال : « زوجها » قلتُ : فعلى الرجل ؟ قال : « أمه » . أخرجه أحمد ، والنسائي ، وصححه الحاكم ، كذا قاله الشيخ شهاب الدين ابن حجر(٣) .

الحديث الأربعون : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان تحتي امرأة وكنت أحبها ، وكان عمر يكرهها ، فقال لي : طلقها ، فأبيت ، فأتىٰ عمر رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « طلقها » رواه أبو داوود والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح(٤) .

أقول : أمره صلى الله عليه وسلم بطلاق امرأته طاعة لوالده ؛ لأن طاعة الوالد في غير المعصية واجبة ، والنكاح مباح ، فأمرهُ بترك مباح لأجل الواجب .

---

(١) انظر « حديقة الأذهان » (ص٣٨١ـ٣٨٢) .

(٢) انظر « حديقة الأذهان » (ص٣٨٤) .

(٣) السنن الكبرىٰ (٩١٠٣) ، والمستدرك (٤/ ١٥٠) ، وانظر « فتح الباري » (١٠/ ٤٠٢) .

(٤) أبو داوود (٥١٣٨) ، والترمذي (١١٨٩) .

فإن قلت : قد نص العلماء أن الطلاق لغير سبب مكروه .

قلت : أمر والده سببٌ يزيل الكراهة .

وسنبسط الكلام فيما يجب على الولد من طاعة الوالد في (**باب العقوق**) إن شاء الله تعالىٰ .

الحديث الحادي والأربعون : عن بريدة رضي الله عنه قال : بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إذ أتته امرأة فقالت : إني تصدقت علىٰ أمي بجارية ، وإنها ماتت ، فقال : « وجب أجرك ، وردها عليك الميراث » قالت : يا رسول الله ؛ إنه كان عليها صوم شهر ، أفأصوم عنها ؟ قال : « صومي » قالت : إنها لم تحج قط ، أفأحج عنها ؟ قال : « حجي عنها » وفي رواية : « صوم شهرين » أخرجه مسلم والترمذي وأبو داوود[١] .

الحديث الثاني والأربعون : عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج عن أحد أبويه . . أجزأ ذلك عنه ، وبشر روحه بذلك في السماء ، وكتب عند الله باراً ولو كان عاقاً »[٢] .

وفي رواية قال : « من حج عن أحد أبويه . . كتب لأبيه بحج وله بسبع » .

قال ابن الأثير : (هـٰذا الحديث لرزين ، ولم أجده في الأصول)[٣] .

الحديث الثالث والأربعون : عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لحماً بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور ، إذ أقبلت امرأة حتىٰ دنت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : من هي ؟ فقالوا : هـٰذه أمه التي أرضعته . أخرجه أبو داوود[٤] .

الحديث الرابع والأربعون : عن أنس رضي الله عنه قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أم أيمن ، فانطلقت معه ، فناولته إناء فيه شراب ، قال : فلا أدري أصادفته

---

(١) مسلم (١١٤٩) ، والترمذي (٦٦٧) ، وأبو داوود (٢٨٧٧) . ورواية : « صوم شهرين » عند مسلم (١١٤٩/١٥٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥٠/ ٢٠٠) بنحوه ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٣/ ٢٨٥) : (. . . وفيه راو لم يسم) .

(٣) جامع الأصول (١/ ٤١١) .

(٤) أبو داوود (٥١٤٤) .

صائماً ، أو لم يرده ، فجعلت تصخب عليه وتذمَّر عليه . أخرجه مسلم[1] .

وعن عمرو بن السائب أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع أمه التي أرضعته فيما استشفعت إليه فيه من وفد هوازن ، وأكرمها وأباه من الرضاعة ؛ بأن بسط لهما رداءه فأجلسهما عليه .

قال ابن الأثير : (هٰذا من أحاديث رزين التي لم أجدها في الأصول)[2] .

ولنختم الأحاديث بحديث عظيم القدر ؛ لما حوىٰ من العبادات الموجبة للأجر ، فمنها الصلاة علىٰ سيدنا محمد سيد البشر ، المبعوث من مضر ، وبها ينشرح الصدر ، ونردفه بحديث في الصلاة عليه ؛ ليحسن هٰذا الكتاب ، وليحصل العامل بما فيه جزيل الثواب ، **فأقول :**

أخبرنا شيخنا الإمام ، شيخ الإسلام ، رحلة الطالبين ، وعمدة المفتين ، آخر المجتهدين ، جمال الدين محمد بن الطيب بن أحمد الناشري ، رحمه الله تعالىٰ ، وأعاد علينا من بركاته ، قال : أنا شيخي ووالدي الإمام ناصر السنة ، صفي الدين أحمد بن أبي بكر الناشري ، قال : أنا شيخي ووالدي الإمام العالم العلامة رضي الدين أبو بكر بن علي الناشري ، قال : أنا الفقيه المحدث شهاب الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور الشماخي ، قال : أنا الشيخ الإمام الفاضل أبو عبد الله محمد بن موسىٰ بن نعمان ، قال : أنا الشيخ الإمام الحافظ ناصر السنة رشيد الدين أبو الحسين يحيىٰ بن أبي الحسن علي بن عبد الله القرشي ، قال : أنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الصوفي ، قال : أنا أحمد بن محمد الحافظ ، قال : أنا أبو الفوارس عمر بن المبارك ، وأبو البركات محمد بن المنذر ، قالا : أنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله ، أنا أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الآجري ، أنا أبو شعيب عبد الله بن الحسن الحراني ، ثنا أبو الربيع الزهراني ، ثنا سلام بن سلم الطويل ، أنا مخلد بن عبد الواحد ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيت البارحة عجباً ؛ رأيت رجلاً من أمتي أتاهُ ملك الموت ليقبض روحه ،

---

(١) مسلم (٢٤٥٣) .
(٢) جامع الأصول (١/ ٤١٠) .

فجاء بره بوالديه فأداره عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاء وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً ، كلما أتىٰ حوضاً . . منع ، فجاءه صيام شهر رمضان فأخذ بيده فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون حلقاً حلقاً ، كلما أتىٰ حلقةً . . طرد ، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلىٰ جانبي ، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحير في الظلمات ، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمه المؤمنون ، فجاءته صلته الرحم فقالت : يا معشر المؤمنين ؛ إن هـٰذا وَصول لرحِمه ، فكلمه المؤمنون وصافحوه ، وكان معهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته فصارت ظلاً علىٰ رأسه وستراً علىٰ وجهه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستخرجاه إلىٰ ملائكة الرحمة ، فكان معهم ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً علىٰ ركبتيه ، بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته تلقاء شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي قرب إلى الميزان فخف ميزانه ، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً علىٰ شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوىٰ في النار ، فجاءه بكاؤه ودموعه فاستخرجاه من النار ومضىٰ على الصراط ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط ، يرتعد كما ترتعد السَّعَفة في يوم ريح عاصفٍ[1] ، فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رِعْدته وجاوز الصراط ، ورأيت رجلاً من أمتي على الصراط ، يزحف أحياناً ويحبو أحياناً ، جاءته صلاته عليَّ فأقامته علىٰ قدميه ومضىٰ على الصراط ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهىٰ إلىٰ أبواب الجنة وقد غُلقَت كلها دونه ، فجاءته شهادته أن لا إله إلا الله ففتحت له أبواب الجنة فدخل » .

---

(١) السَّعَفة : غصن النخل .

قال الشيخ أبو الحسين يحيى القرشي : روىٰ هـٰذا الحديث عن علي بن زيد بن جدعان جماعةٌ ، ورواه عن سعيد بن المسيب أيضاً غير واحد .

وأخرجه الحافظ أبو القاسم الطبراني في « معجمه الكبير » .

وقال الحافظ أبو موسى المديني : هـٰذا حديث حسن جداً . اهـ

وقال ابن النحوي في « شرح البخاري » : هـٰذا حديث حسن جداً .

ورواه عن سعيد أيضاً عمر بن أبي ذر ، ورواه أبو زكريا في « تاريخ الموصل » من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب مختصراً .

ورواه الترمذي في « نوادره » من حديث عبد الرحمـٰن بن عبد الله عن ابن المسيب[١] .

ورواه أبو نعيم في « تاريخ بلده » من حديث يحيىٰ بن سعيد عنه بنحوه[٢] .

وقال أبو عبد الله الترمذي الحكيم : قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت . . . » إلخ بر الوالدين شكر ؛ لأنه تعالىٰ قال : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فإذا برهما . . فقد شكرهما ، وقد قال في تنزيله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، فإنما وجد العبد العمر من ربه في وقت انفصاله من أمه ، وقد كان في البطن حياً ولم يكن عمر ، فلما خرج . . أعطي العمر بمقدار ، فإذا وصل والديه . . كان قد وصل الرحم الذي منه خرج ، والصلب الذي منه جرىٰ ، فكان في فعله شاكراً ، فشكر الله له ووفاه ما وعد في تنزيله فقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فزاد في عمره .

عن ثوبان قال : قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »[٣] .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : عذاب القبر من البول والنجاسات ، كذلك روي عن رسول الله

---

(١) انظر « نوادر الأصول » (ص٥٦٠) .

(٢) تاريخ أصبهان (١٨١٥) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٨٧٢) ، وابن ماجه (٩٠) .

صلى الله عليه وسلم أن عامة عذاب القبر من البول والنميمة ، وإنما صار كذلك ؛ لأن البول من معدن إبليس من جوف الآدمي ، فإذا لم يتنزه العبد من ذلك. . دخل قبره بنجاسات العدو ، فعذب في القبر ، وعذاب المؤمنين في البرزخ ، وعذاب الكفار في القيامة ، جعل الله هٰذا الماء طهوراً من نجاسات الدنيا وأدناس الذنوب ، فإذا كان العبد مداوماً على الوضوء. . فهو أبداً في إزالة الأدناس ، فإذا كان يوم البرزخ وجاء عذاب الأدناس التي اكتسبها بالسيئات. . جاءه وضوؤه فاستنقذه .

وقوله : « ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله فخلصه منهم » .

قال أبو عبد الله : الشيطان وجنوده قد أعطوا السبيل إلىٰ فتنة الآدمي ، وتزيين ما في الأرض له ؛ طمعاً في غوايته ، ولا يعتصم الآدمي بشيء أوثق ولا أحصن من الذكر ؛ لأنه إذا هاج الذكر من القلب. . هاجت الأنوار فاشتغل الصدر بنار الأنوار ، وهيج العدوُّ من نفسه نار الشهوات بنفثه ونفخه ، ونار الأنوار تحرق نار الشهوات ، وتحرق العدو ، فإذا رأى العدو وهيج الذكر من القلب. . ولىٰ هارباً وترك النفخ والنفث وخمدت نار الشهوة وامتلأ الصدر نوراً فبطل كيده . وذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ .

فالعبد إذا قاتل الشيطان بنوع من أنواع البر. . جاءه من نوع آخر ، وإذا جاءه الذكر. . هرب وتركه ؛ لأن للذِّكْر نوراً يحرق ، وليس لأعمال البر تلك القوة التي يحترق منها العدو .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب. . . » .

قال : العذاب إنما يقصد العبيد الأُبَّاق الذين هربوا وذهبوا برقابهم من الله ، وأهل الصلاة كلما أبقوا. . عادوا إلى الله تعالىٰ في وقت كل صلاة ، فوقفوا بين يديه تائبين نادمين معتذرين ، مسلمين نفوسهم ، مجددين لإسلامهم ، يقرضونه بالتكبير والتسبيح والتحميد والتهليل والركوع والسجود والرغبة والتضرع إلى الله في التشهد ، فسقطت عنهم عيوب إباقهم وهربهم ، وزالت عنهم العقوبات التي استوجبوها .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً. . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : هٰذا عبد اتبع هواه ، وأمعن في شهواته حتىٰ بعد من الرحمة ، وإذا بعد القلب من الرحمة. . عطش ، وإذا عطش. . يبس ، وإذا يبس. . قسا . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فبالرحمة يرطب القلب ويروىٰ ، وببعده من

الرحمة يعطش ، فأورثه عطش القلب عطش القيامة ، حتىٰ رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه في القيامة في تلك الحالة ، فإذا ترك العبد اتباع الهوىٰ ، وامتنع من الشهوات . . عادت الرحمة إليه فروي ؛ لأن برد الرحمة يسكن حرارة الشهوة التي تؤدي إلى العطش ، فالصيام هو ترك الشهوات والمنىٰ ، ورفض الهوىٰ .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون قعود حلقاً حلقاً . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : الجنابة إنما سميت جنابة ؛ لأن الماء الذي جرىٰ من صلبه قد كان جاور في الأصل مياه الأعداء في ظهر آدم ، فأصابته زهومة تلك المياه بجواره وممره من الصلب إلىٰ مستقر العدو في الجوف ، ومستقره من المعدة إلىٰ موضع الحدث ، هٰذا كله معدنه .

فإذا خرج من العبد في يقظته أو منامه . . أوجب غسلاً ، وإذا خرج منه عند الموت . . لا يصلىٰ عليه حتىٰ يغسل ، كما كان الحي لا تجزئه الصلاة إلا بعد الغسل ، فالغسل يطهره من أثر العدو ، والجنب ممنوع من قراءة القرآن ، ومن أن يمسه ، ومن أن يتخذ المساجد مجلساً ؛ لأن الطهارة مفقودة ، وآثار العدو موجودة ، فإذا كان هٰكذا . . فهو ممنوع من حلق النبيين ومجالسهم في الموقف ، فلما اغتسل في الدنيا . . صارت منزلته بطهارته بحيث صلح أن يقعد إلىٰ سيد الرسل صلى الله عليه وسلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة . . . » إلخ .

قال : قد وعد الله في تنزيله في شأن الحج حط الآثام ، فقال : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي : يرجع مغفوراً له ، فتلك الظلمات كانت آثام العبد ، فإذا قضىٰ حجه . . وفى الله له ما وعد .

وأما العمرة : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العمرة الحج الأصغر »[1] .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي يكلم الناس ولا يكلمونه . . . » إلخ .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٥٥٩) ، والحاكم (١/ ٣٩٥) ، والبيهقي (٤/ ٨٩) .

قال : الرحم أصل المؤمنين كلهم ، فمن تمسك بصلته . . فقد أرضى المؤمنين ما بينه وبين آدم ، ومن تهيأ له صلة الرحم . . تهيأ له إرضاء المؤمنين كلهم ، ومن كان قاطعاً للرحم . . أيس المؤمنون من خيره ، ولذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الرحمة لا تنزل علىٰ قوم فيهم قاطع رحم »[1] .

وإنما صار هٰكذا ؛ لأن الرحمة منقطعة عنه ، فهو في سخط الله .

فهٰذا الواصل للرحم كان رجلاً قد عمل السيئات الكثيرة ، وضيع الحقوق ، وحسنت سيرته في هٰذه الخصلة الواحدة ، فلما وصل الرحم . . نال الرحمة ، فجاءته الصلة ، فأخبرت المؤمنين في القيامة أن كلموه ، معناه : أنه دخل في رحمة الله تعالى التي يرحم بها المؤمنين ، فصاروا كلهم له بعد أن كانوا عليه .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : الصدقة إنما صارت ستراً للمؤمنين من النار ؛ لأنه إذا تصدق . . فإنما يفدي نفسه ، ويفك غرامة جنايته ، والنار إنما تطلب وجوه الجفاة في الموقف لتلفحها ، فإذا أدى الجاني غرمه . . صار الأداء ستراً على الوجه ، وظلاً على الرأس ، وهٰكذا شأن الفدية ؛ تأخذ بالحذاء ، ومن فوق ، وتقيك بنفسها من كل ناحية .

قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : الزبانية شُرَطُ الملائكة ، والشُّرَطُ لمن جاهر بالمعصية من أهل الريب ، يلتمسونهم في الطرق والمسالك ليأخذوهم ، فمن استتر بستر الله ، وأمر بالمعروف ، ونهىٰ عن المنكر . . فهو وإن استعمل أعمال الريب بعد أن تكون مستوراً لا ينتهك . . فالشُّرَطُ في الدنيا منتهون عن أخذه غير ملتمسين أشباه هٰؤلاء ؛ لحرمة ذلك الستر ، فكذلك في الآخرة ، إذا طلبت الزبانية في عرصة القيامة أهل المجاهرة بالمعاصي ، فوقع هٰذا المستور في أيديهم . . نفعه ذلك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

وكل من عمل المعاصي في الدنيا سراً لا يجاهر به . . فكائن منه أن ينهىٰ عن المنكر إذا

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩٠) .

لقيه ، وإذا فعل ذلك . . كانت ملائكة الرحمة أحق به من ملائكة العذاب ، ومن استحقته ملائكة الرحمة في الموقف . . فقد نجا .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً علىٰ ركبتيه ، بينه وبين الله حجاب . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : ينبئك هٰذا القول أن العبد تحجبه ذنوبه عن الله في الدنيا قلباً ، وفي الموقف غداً بدناً ، وأن حسن الخلق منحة من الله لعبده ؛ لأن الأخلاق في الخزائن ، فإذا أحب الله عبداً . . منحه خلقاً منها ؛ ليدُرَّ عليه ذلك الخلق كرائم الأفعال ومحاسن الأمور ، فيظهر ذلك علىٰ جوارحه ، فيزداد العبد بذلك محبة توصله إليه في الدنيا قلباً ، وفي الآخرة بدناً .

وحب الله تعالىٰ عبده يمحق الذنوب محقاً ، ويتركه من آثامه عطلاً ، وإذا أحبَّ الله عبداً . . أهدىٰ إليه خلقاً من أخلاقه ، وإذا رحم الله عبداً . . أذن له في عمل من أعمال البر ، فهٰذه ثمرة الرحمة ، وتلك ثمرة المحبة .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : أعظم الأهوال في القيامة في ثلاثة مواطن : عند تطاير الصحف ، وعند الميزان ، وعند الصراط .

وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روي أنه قال : « لا يذكر أحد أحداً في هٰذه المواطن »[1] . فمن وقعت صحيفته بيمينه . . أمن وبانت سعادته .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال ربكم تبارك وتعالىٰ : لن أجمع علىٰ عبدي خوفين ، ولن أجمع أمنين ، من أخفته في الدنيا . . أمنته في الآخرة »[2] فمن قاسىٰ خوفه في الدنيا . . أوجب له الأمن يوم القيامة ، فإذا جاءه الهول عند تطاير الصحف . . جاءه ذلك الخوف فنفعه بأن جعل صحيفته في يمينه حتىٰ يأمن .

قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه . . . » إلخ .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٧٥٥) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩) بنحوه .

وقال أبو عبد الله : الأفراط : أولاده الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، وإنما ثقل ميزانه ؛ لأنهم أطفالُ موحِّد ، قدموا علىٰ ربهم بلا شرك ولا ذنب ، قد برأ الله خلقهم من صلبِ موحِّد ، فهم من أهل رحمة الله ، وإنما تثقل الموازين بالرحمة .

وروي : « من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث . . أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم »[1] .

والموازين تثقل بالحسنات ، ومن أحسن الحسنات ذرية يخرجها الله من صلبِ موحِّد ، ثم يقبضهم لم يتدنسوا بمعصيته . اهـ

أقول : كلام الإمام الترمذي يفهم أن الأفراط توزن ، وليس كذلك ، إنما هـٰذا كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان ، أو طير صواف تحاجان عن صاحبهما »[2] .

قال العلماء : المراد أن الله تعالىٰ يخلق من أجرهما صورة تخاطب وتجادل عنه ، وهـٰذا كذلك .

وهو أن الله تعالىٰ يجعل له حسنات بصبره علىٰ بلائه بفراق أولاده ، واسترجاعه ورضاه بما قدر الله تعالىٰ له ، فتوضع تلك الحسنات في كفة الميزان فيرجح ، فذكر صلى الله عليه وسلم السبب بدلاً عن المسبب ، وهـٰذا ظاهر ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي قائماً علىٰ شفير جهنم . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : الوجل هو وقت انكشاف الغطاء لقلب المؤمن ، وهو خشية العبد ، وإن جهنم حائلة بين العباد وبين الجنة حتىٰ تضرب الجسور وتهيأ القناطر ، فعندها يستبين الصراط ، وهو الطريق لأهله ، فالخلق كلهم علىٰ شفير النار هائبون لها ، فوجل العباد يجعل لهم السبيل ليقطعوها ؛ لأن الخشية ثوابها المغفرة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾ .

والمغفرة نورها ساطع ، وهو نور الرأفة ، فإذا جاءت الرأفة . . وجد العبد قلباً ، وذهبت الحيرة ، وتشجعت النفس فمضت . اهـ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٨) ، وابن حبان (٢٩٤٠) ، والنسائي (٤/ ٢٤) ، وابن ماجه (١٦٠٥) .
(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤) ، وابن حبان (١١٦) .

أقول : الوجل هو شدة الخوف ، وهو مقام العارفين بالله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ .

أي : يخلصون في الطاعات ثم يخافون ، كأنهم ألموا بالفواحش ، ويلاحظون أحوالهم بعين الاستصغار والاستحقار ، ويخافون بغتات التقدير ، وقضايا السخط ، وقلوبهم أيضاً خائفة ألاَّ يتقبل منهم ؛ لعلمهم أنهم إلىٰ ربهم راجعون ، وهٰذا إنما هو صفتهم في الدنيا ؛ لأنها محل العمل .

وأما الوجل في الآخرة . . فليس له ثواب ، بل كل الخلق يخافون في ذلك اليوم ؛ لما يشاهدون من الأهوال .

فهٰذا الذي هو قائم علىٰ شفير جهنم صدرت منه معاص وذنوب ، ثم تاب منها ، وأصلح وعمل عملاً صالحاً ، وكان مع ذلك خائفاً وجلاً ألاَّ يتقبل الله منه مستحياً من مولاه فجاءه وجله في الدنيا ونجاه هٰذا ما يظهر لي ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي قد هوىٰ في النار ، فجاءته دموعه . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : هٰذا عبد استوجب النار بعمله ، فأدركته رحمة الله ببكائه من الخشية فأنقذته ؛ لأن دمعة الخشية تطفيء بحوراً من النيران .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط ، يرتعد كما ترتعد السعفة . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : حسن الظن من المعرفة بالله ، وعظم رجاء العبد وأمله لربه من المعرفة ، فلم يضيع الله تعالىٰ معرفة العبد ؛ لأنه هو الذي منَّ عليه بها ، فلم يرجع في منِّه ، ووفىٰ له بأن أعطاه حسن الظن في الدنيا ، وحقق له ذلك في الموقف .

أي : كما عرفتني ثم ظننت من معرفتك بي أن أنجيك . . فلك النجاة والأمان ، فسكَّن رِعْدته .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي يزحف أحياناً . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : الصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم [من العبد] بنوة لأبيه ،

يريد أن يرىٰ أباه مقام الولد للأب ، ولذلك أمر الله العباد أن يصلوا عليه فذلك حقه يقضونه ، بمنزلة الأولاد يقضون حقوق آبائهم .

وإذا كان الولد هٰكذا . . فمن شأن الوالد أن يأخذ بيد الولد في وقت عثرته فيقيمه ، فصارت صلاة العباد عليه صلى الله عليه وسلم بمنزلة ذلك . اهـ

وقد أوضح هٰذا المعنى الذي أشار إليه الحكيم الترمذي الإمام عبد الجليل القصري فقال : (اعلم أن البر علىٰ ضربين ؛ لأن ذوات الخلق علىٰ ضربين : أجساد وأرواح ، والآباء هم سبب نشوء الأجساد إلىٰ مرتبة من الخلقة والزمان ، يستغني الإنسان بنفسه في أمور دنياه فوجب برهما .

والضرب الثاني من البر لآباء الدين ، وهم : الأنبياء وأمهات المؤمنين والعلماء ، وهم : الذين تولوا مهمَّ الدينِ ، وصلحت بهم بواطن الخلق وظواهرهم ، وهم الذين يحرسون الخلق من مكروهات الآخرة ، ويوصلون إليهم خيرها ، كما أن آباء الخلقة يحرسون الأبناء من مكروهات الدنيا ، ويوصلون إليهم نفعها ، فإن الله تعالىٰ قال في قصة لوط عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يعني بنات قومه .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ وقرأ عبد الله وأبي بن كعب : « النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم وهو لهم أبٌ لهم » .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنما أنا لكم كالوالد أعلمكم » .

فالنبي صلى الله عليه وسلم لجميع الأمة كالأب ، وأزواجه أمهاتهم ؛ لأن منه ومن أزواجه تعلم الذكور والإناث معانيَ الدين ، ولم يتولد خير إلا منه ومنهن ، فبره وبرهن أوجب من كل واجب ، وعقوقه وعقوقهن أهلك من كل مُهلِك .

فبر النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه نظر القلب إليه الآن ، وفي كل وقت بعين الوقار والإجلال ، والصلاة عليه وعليهن إلىٰ منتهى الأعمار والآجال ، والانتساب إليه وإلىٰ أزواجه انتساباً دينياً محبة بالقلب ، ونطقاً باللسان ، ولعناً وبغضاً لمن آذاه أو آذىٰ واحدة منهن ، لا يُبرىء العبدَ في دينه سوىٰ ذلك) اهـ[1]

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٣٢٢_٣٢٤) .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ورأيت رجلاً من أمتي انتهىٰ إلىٰ باب الجنة ، فغلقت الأبواب دونه . . . » إلخ .

قال أبو عبد الله : هٰذه كلمة جعلت مفتاحاً لأبواب الجنة ، وإنما غلقت دون هٰذا العبد ؛ لأنه جاء بمفتاح ليس له أسنان ، وقد نجد في الدنيا أن يجيء الرجل بمفتاح الباب وقد ضاع بعض أسنانه ، فلا يزال يردده ويحركه حتىٰ يفتحه ، وإذا لم يكن بيده مفتاح . . لم يفتح ، فهٰذا عبدٌ قد ضيع الأسنان ، فأغاثه الله بما جاء به .

ـ أري النبي صلى الله عليه وسلم في منامه هٰذه الرؤية ؛ ليعلم العباد قوة هٰذه الأفعال التي ذكرها من العبيد أيام الدنيا ، ماذا لكل نوع من هٰذه الأعمال من القوة هناك في الموقف ، وفي أي موقف يغيثه ؛ ليعلم العبد أجناس هٰذه الأفعال ؛ ليكثر منها ؛ كي إذا استقبلته أهوال القيامة . . ناله عونها وقوتها . اهـ[1]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : إن لآدم عليه السلام من الله عز وجل موقفاً في فسح من العرش ، عليه ثوبان أخضران ، كأنه نخلةٌ سَحوقٌ[2] ، ينظر إلىٰ من يُنْطَلَقُ به من ولده إلى الجنة ، وينظر إلىٰ مَن يُنْطَلَقُ به من ولده إلى النار ، قال : فبينا آدم علىٰ ذلك . . إذ نظر إلىٰ رجل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ينطلق به إلى النار ، فينادي يا أحمد ، يا أحمد ، فيقول : « لبيك يا أبا البشر » فيقول : هٰذا رجل من أمتك ينطلق به إلى النار . قال صلى الله عليه وسلم : « فأشد المئزر ، وأهرع في أثر الملائكة وأقول : يا رسل ربي ؛ قفوا ، فيقولون : نحن الغلاظ الشداد الذين لا نعصي الله ما أمرنا ونفعل ما نؤمر » فإذا أيس النبي صلى الله عليه وسلم . . قبض علىٰ لحيته بيده اليسرىٰ ، واستقبل العرش بوجهه صلى الله عليه وسلم يقول : « رب ؛ قد وعدتني ألاَّ تخزيني في أمتي ، فيأتي النداء من عند العرش : أطيعوا محمداً ، وردوا هٰذا العبد إلى المقام ، فأخرج من حجزتي بطاقة بيضاء كالأنملة[3] ، فألقيها في كفة الميزان اليمنىٰ ، وأنا أقول : باسم الله ، فترجح الحسنات على السيئات ، فينادىٰ : سعدَ وسعدَ جدُّه ، وثقلت موازينه ، انطلقوا به إلى الجنة ، فيقول :

---

(١) انظر « نوادر الأصول » (ص٥٦٠ـ٥٦٨) . وكل ما مر عزاه المؤلف رحمه الله إلىٰ « النوادر » فهو منقول بتصرف واختصار .

(٢) السَّحوق : الطويلة .

(٣) الحجزة : معقد الإزار .

يا رسل ربي ؛ قفوا حتىٰ أسأل هـٰذا العبد الكريم علىٰ ربه ، فيقول : بأبي أنت وأمي ، ما أحسن وجهك ، وما أحسن خلقك ، فقد أقلت عثرتي ، ورحمت عبرتي » فيقول : « أنا نبيك محمد ، وهـٰذه صلاتك على النبي صلى الله عليه وسلم التي كنت تصلي ، وافتك أحوج ما تكون إليها »[1] .

وحكي عن عبد الله بن يزيد أنه قال : كان لنا خادم يخدم السلطان ، وهو مرموق بالفساد والغفلة عن الله تعالىٰ ، فرأيته ليلة في المنام ويده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ؛ إن هـٰذا لعبد سوء من المفرطين والمعرضين عن الله تعالىٰ ، فكيف وضعت يدك في يده ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد عرفت ذلك ، وها أنا أمضي به لأشفع له عند الله تعالىٰ ، قلت : يا رسول الله ؛ فبأي وسيلة بلغ ذلك منك ؟ قال : بكثرة صلاته عليَّ ، إنه في كل ليلة يأوي إلىٰ فراشه فيصلي علي ألف مرة ، وإني لأرجو أن يقبل الله شفاعتي فيه .

فلما أصبحت إذا أنا بذلك الخادم قد دخل المسجد باكياً ، وكنت في ذكر ما رأيت له أقصه علىٰ بعض أصحابي ، فلما دخل . . سلم وجلس بين يدي وقال : يا عبد الله ؛ مد يدك ، فقد أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتوب علىٰ يدك ، وذكر لي ما جرىٰ بينك وبينه الليلة في شأني ، فلما تاب . . سألته عن رؤياه فقال : أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدي وقال : لأشفعن لك إلىٰ ربي لأجل صلاتك عليَّ ، فلما انطلقت معه . . شفع لي وقال عليه الصلاة السلام : إذا أصبحت ائت عبد الله وتب علىٰ يده واستقم .

بمدحك ترتاح القلوب وتطرب	ويبدع قول المادحين ويعذب
وذكرك بين الناس في الأرض شائع	وذكرك عند الله أزكىٰ وأطيب[2]

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٠) .
(٢) البيتان من الطويل .

فَصْلٌ

فيما ورد في حفظ حق الوالدين بعد موتهما وفي الآثار الواردة في بر الوالدين وحكايات

عن أبي أسيد رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ؛ هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما بعدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، فهٰذا الذي بقي عليك »[(١)] .

ومن هٰذا الفصل حديث ابن عمر الذي أوردناه أولاً ، وهو : « من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » .

وعن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أن أبا بكر قال لرجل من العرب كان يصحبه : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الود ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الود يتوارث ، والعداوة كذلك »[(٢)] .

وعن محمد بن النعمان يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة . . غفر له ، وكتب براً »[(٣)] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليموت والده أو أحدهما وإنه لهما لعاق ، ولا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتىٰ يكتبه الله باراً »[(٤)] .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما الميت في القبر إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أب وأم وأخ وصديق ، فإذا لحقته . . كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن الله عز وجل ليدخل علىٰ أهل القبور من

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٥) ، وابن حبان (٤١٨) ، وأبو داوود (٥١٤٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥١٤) .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ١٧٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٢) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٤) .

دعاء أهل الأرض أمثال الجبال ، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم »[1] .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي : « إذا أردت أن تصدق صدقة . . فاجعلها عن أبويك ؛ فإنه يلحقهما ولا ينقص من أجرك شيء »[2] .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « من حج عن والديه بعد وفاتهما . . كتب الله له عتقاً من النار ، وكان للمحجوج عنهما أجر حجة تامة من غير أن ينقص من أجورهما شيئاً » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما وصل ذو رحم رحمه بأفضل من حجة يدخلها عليه بعد موته في قبره »[3] .

روى الأحاديث المذكورة من أول الفصل الإمام البيهقي في « شعب الإيمان » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أمي توفيت ، أفينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » ، قال : فإن لي مِخْرافاً ، فإني أشهدك أني قد تصدقت به عنها . رواه البخاري[4] .

قال الإمام الغزالي في « الإحياء » : (يروىٰ أن الله تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام : إن مَن برَّ والديه وعقني . . كتبته براً ، ومن برني وعق والديه . . كتبته عاقاً .

وقيل : لما دخل يعقوب علىٰ يوسف عليهما السلام . . لم يقم له ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : أتتعاظم أن تقوم لأبيك ؟! وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبياً) اهـ[5]

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : (النظر إلى الوالد عبادة ، والنظر إلى الكعبة عبادة ، والنظر في المصحف عبادة ، والنظر إلىٰ أخيك حباً له في الله عبادة)[6] .

وسئل بشر بن الحارث عن رجل له أب بالثغر ، وأمه ببغداد ، وأمه تنهاه أن يأتي أباه ، وأبوه يريد أن يأتيه ويكون عنده ، قال بشر : سألت عبد الله بن داوود عن هـٰذا فقال : يقيم

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٧) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٣٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٣٤) .
(٤) البخاري (٢٧٥٦) .
(٥) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٦) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٧٦) .

عند أمه ولا يأتي أباه إلا أن تأذن له أمه ، قيل لبشر : فإن هشاماً حدث عن الحسن قال : للأم ثلثا البر ، وللأب الثلث ، قال بشر : نعم ، روينا هٰذا الحديث عن الحسن ، قيل لبشر : فحديث بهز بن حكيم ؟ قال : هٰذا في العطية ، قال بشر : أرى الأب يأخذ من مال ابنه إذا كان يحتاج ما يكفيه ، والأم تأخذ منه أيضاً بقدر ما تحتاج ، وقال : الأب والأم في هٰذا سواء ، وأما في الإقامة . . فأنا إلى الأم أمْيَل[1] .

قال ذو النون : ثلاثة من أعلام البر :

بر الوالدين بحسن الطاعة لهما ، ولين الجناح ، وبذل المال .

وبر الولد بحسن التأديب له ، والدلالة على الخير .

وبر جميع الناس بطلاقة الوجه ، وحسن العشرة[2] .

وقال الأوزاعي عن مكحول : إذا دعتك والدتك وأنت في الصلاة . . فأجبها ، وإذا دعاك أبوك . . فلا تجبه حتىٰ تفرغ من صلاتك[3] .

وعن طاووس عن أبيه قال : من السنة أن توقر أربعة : العالم ، وذو الشيبة ، والسلطان ، والوالد[4] .

وعن جعفر أنه سمع عروة بن الزبير يقول في سجوده : اللهم ؛ اغفر للزبير بن العوام ، ولأسماء بنت أبي بكر[5] .

وعن علقمة عن عبد الله قال : من سره أن ينظر إلىٰ وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه . . فليقرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات الثلاث[6] .

وعن المعتمر بن سليمان قال : قال أبي : كان مورق يفلي أمه[7] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٧٨) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٧٩) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٩٩) .
(٤) أخرجه معمر بن راشد في « الجامع » (٢٠١٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٠٩) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢١) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٤٠) .
(٧) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٤١) .

وعن هشام قال : كان محمد بن سيرين لا يكون فطر ولا أضحىٰ . . إلا صبغ لأمه بيده المعصفرات[1] .

وعن مغيرة قال : كان طلق بن حبيب يُدِبُّ أمه ؛ يعني : يعينها في عملها[2] .

وعن محمد بن المنكدر قال : بات عمر أخوه يصلي ، وبت أغمز رجل أمي وما أحب أن ليلتي ليلته[3] .

وعن الأشجعي قال : طلبت أم مسعر ليلة من مسعر ماء ، قال : فجاءها بالكوز ، فصادفها قد نامت ، فقام علىٰ رجليه بيده الكوز إلىٰ أن أصبحت فسقاها[4] .

وعن أبي غسان الضبي قال : خرجت أمشي مع أبي بظهر الحرة ، فلقيني أبو هريرة فقال لي : من هـٰذا ؟ قلت : أبي ، قال : (لا تمش بين يدي أبيك ، ولـٰكن امش خلفه أو إلىٰ جانبه ، ولا تدع أحداً يحول بينك وبينه ، ولا تمش فوق إِجَّارٍ أبوك تحته ، ولا تأكل عرقاً قد نظر إليه أبوك ؛ لعله قد اشتهاه)[5] .

وذكر في الخبر أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عزير عليه السلام : (إياك أن تحلف بي كاذباً ؛ فإنه من حلف بي كاذباً . . لا أزكيه ، ولا أنظر إليه ، ولا أثني عليه ، وإياك أن تعق والديك ؛ فإن من عق والديه . . غضبت عليه ، ومن غضبت عليه . . لعنته ، فإذا لعنته . . يضره ذلك إلىٰ رابع بنيه ، واطلب رضا والديك ، فمن أرضىٰ والديه . . فأنا أبارك فيه ، ومن أبارك فيه . . ينفعه ذلك إلىٰ رابع بنيه)[6] .

قال الإمام أبو محمد عيسىٰ بن علي الأندلسي في كتابه « عيون الأخبار » : (واعلم أن للوالدين علىٰ ولدهما عشرة حقوق واجبات ، وذلك أن يطعمهما إذا جاعا ، ويكسوهما إذا عريا ، وإذا احتاجا إلىٰ خدمة أنفسهما . . خدمهما ، وإذا دعياه . . أجابهما بالتلبية ، وإذا

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٤٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٤٣) ، وقوله : (يُدِبُّ) كذا هو في النسخ ، وفي « الشعب » : (يُدوِّب) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٤٥) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٤٦) .
(٥) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٨٥٣) . والإِجَّار : السطح .
(٦) أخرجه ابن ابي شيبة في « المصنف » (٨/ ٢٥٢) .

أمراه بأمر . . أطاعهما ما لم يكن معصية لله تعالىٰ ، وعليه أن يكلمهما باللين والقول الحسن والتلطف ، وأن يرضىٰ لهما بما يرضىٰ لنفسه ، وعليه أن يؤثرهما علىٰ نفسه ، وأن يدعو الله تعالىٰ لهما كلما دعا لنفسه ، فمن ترك الدعاء لوالديه . . ضيق الله عليه المعيشة في الدنيا) اهـ

وقال مالك : من لم يدرك أبويه أو أحدهما . . فلا بأس أن يقول : ﴿ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

قال ابن عباس : لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدين[١] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانا أبر من في هٰذه الأمة بأمهما : عثمان بن عفان ، وحارثة بن النعمان .

أما عثمان : فإنه قال : ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت ؛ يعني : أرفع عيني إلىٰ وجهها من شدة الحياء منها قال ابن الجوزي : (اسم أم عثمان أروىٰ بنت كريز أسلمت وبايعت) اهـ[٢] .

وأما حارثة : فإنه كان يطعم أمه بيده ، ولا يستفهمها كلاماً قط حتىٰ يسأل من عندها بعد أن تخرج : ماذا قالت أمي ؟[٣]

وكان ابن سيرين إذا دخل علىٰ أمه . . يكلمها بضعف ، فرآه رجل فقال : أيشتكي شيئاً ؟ فقالوا : لا ، ولٰكنه هٰكذا يكون عند أمه[٤] .

وكان ظبيان بن علي من أبر الناس بأمه ، فباتت في صدرها عليه شيء ، فقام علىٰ قدميه يكره أن يوقظها ، وكره أن يقعد ، حتىٰ إذا ضعف . . جاء غلامان من غلمانه ، فما زال معتمداً عليهما حتى استيقظت من قبل نفسها[٥] .

وقال سفيان بن عيينة : قدم رجل من سفر ، فصادف أمه قائمة تصلي ، فكره أن يقعد وهي قائمة ، فعلمت ما أراد ، فطولت ليؤجر[٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٤) بلفظ : (. . . من بر الوالدة) .
(٢) انظر « صفوة الصفوة » (١/ ١٢٣) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٢٣) .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٧٣) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٢٧) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٣٢) .

وكان الفضل بن يحيى البرمكي كثير البر بأبيه ، وكان أبوه يتأذىٰ باستعمال الماء البارد في زمن الشتاء ، فيحكىٰ أنهما كانا في السجن ولم يقدرا علىٰ تسخين الماء ، وكان الفضل يأخذ الإبريق النحاس وفيه الماء ، فيلسقه إلىٰ بطنه عساه تنكسر برودته بحرارة بطنه حتىٰ يستعمله أبوه بعد ذلك .

وما أحسن قول السراج الوراق في ولده البار به : [من المتقارب]

بنـي اقتـدىٰ بـالكتـاب العـزيـز فصـار بِبـرِّي مطيعـاً فَـرَاجَـا

ومـا قـال لـي أُفٍّ مـن بِـرِّه لكـونـي أبـاً ولكـونـي سـراجـا

قال الإمام القشيري رحمه الله تعالىٰ : (سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت بلالاً الخواص يقول : كنت في تيه بني إسرائيل ، فإذا رجل يماشيني ، فتعجبت ، ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام ، فقلت له : بحق الحق من أنت ؟ فقال : أخوك الخضر ، فقلت له : أريد أن أسألك ، فقال : سل ، قلت : ما تقول في الشافعي رحمه الله ؟ قال : هو من الأوتاد ، فقلت : ما تقول في أحمد ابن حنبل ؟ قال : رجل صديق ، فقلت : ما تقول في بشر بن الحارث ؟ فقال : لم يخلق بعده مثله ، فقلت : بأي وسيلة رأيتك ؟ قال : ببرك بأمك)[1] .

ونقل البيهقي في « شعب الإيمان » عن ابن طاووس عن أبيه أنه قال : كان رجل له أربعة بنين ، فمرض ، فقال أحدهم : إما أن تُمرِّضوه وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أُمرِّضه وليس لي من ميراثه شيء ، قالوا : بل مرِّضْه وليس لك من ميراثه شيء ، فمرَّضه حتىٰ مات ولم يأخذ من ماله شيئاً .

قال : فأتي في النوم فقيل له : ائت مكان كذا وكذا وخذ منه مئة دينار ، فقال في نومه : أفيها بركة ؟ قالوا : لا ، فأصبح فذكر ذلك لامرأته ، فقالت له : خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش فيها ، فأبىٰ ، فلما أمسىٰ . . أتي في النوم فقيل له : ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشر دنانير ، فقال : أفيها بركة ؟ فقيل : لا ، فلما أصبح . . ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل مقالتها الأولىٰ ، فأبىٰ أن يأخذها ، فأتي في النوم في الليلة الثالثة ؛ أن ائت

(١) الرسالة القشيرية (ص١٨ـ١٩) .

مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : أفيه بركة ؟ قالوا : نعم ، فأخذ الدينار ثم خرج به إلى السوق ، فإذا هو برجل يحمل حُوتين ، فقال : بكم هٰذان ؟ فقال : بدينار ، فأخذهما منه بالدينار ، ثم انطلق بهما ، فلما دخل بيته . . شق الحوتين فوجد في بطن كل واحد منهم درَّةً لم تر الناس مثلها .

قال : فبعث الملك لدرة يشتريها فلم توجد إلا عنده ، فباعها بوقر ثلاثين بغلاً ذهباً ، فلما رآها الملك . . قال : ما تصلح هٰذه إلا بأخت ، اطلبوا مثلها وإن أضعفتم ، فجاؤوه فقالوا : أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : أوتفعلون ؟ قالوا : نعم ، فأعطاهم أختها بضعف الثمن الأول[1] .

ومثل هٰذه الحكاية ما ذكره المفسرون في قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها لأجل القتيل ، قال الإمام البغوي : (كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل ، وله عجلة أتىٰ بها إلىٰ غيضة وقال : اللهم ؛ إني أستودعك هٰذه العجلة لابني حتىٰ يكبر ، ومات الرجل ، فصارت العجلة في الغيضة عَواناً ، وكانت تهرب من كل من رآها ، فلما كبر الابن . . كان باراً بوالدته ، وكان يقسم الليلة أثلاثاً : يصلي ثلثاً ، وينام ثلثاً ، ويجلس عند رأس أمه ثلثاً ، فإذا أصبح . . انطلق فاحتطب علىٰ ظهره ، فيأتي به السوق ، فيبيعه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل ثلثه ، ويعطي والدته ثلثه .

فقالت له أمه يوماً : إن أباك ورثك عجلةً استودعها الله في غيضة كذا ، فانطلق فادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك ، وعلامتها : أنك إذا نظرت إليها . . يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ، وكانت تلك البقرة تسمى المذهبة ؛ لحسنها وصفرتها .

فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعىٰ ، فصاح بها وقال : أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، فأقبلت تسعىٰ حتىٰ قامت بين يديه ، فقبض علىٰ عنقها يقودها ، فتكلمت البقرة بإذن الله وقالت : أيها الفتى البار بوالدته ؛ اركبني ؛ فإن ذلك أهون عليك ، فقال الفتىٰ : إن أمي لم تأمرني بذلك ، ولٰكن قالت : خذ بعنقها ، فقالت البقرة : بإله بني إسرائيل لو ركبتني . . ما كنت تقدر علي أبداً ، فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من

---

(١) شعب الإيمان (٧٥٤٧) .

أصله وينطلق معك . . لفعل ؛ لبرك بأمك ، فصار الفتىٰ بها إلىٰ أمه .

فقالت له : إنك فقير لا مال لك ، ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق وبع هـٰذه البقرة ، قال : بكم أبيعها ؟ قالت : بثلاثة دنانير ، ولا تبع بغير مشورتي ، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير .

فانطلق بها إلى السوق ، فبعث الله ملَكاً ليُري خلقَه قدرتَه ، وليختبر الفتىٰ كيف بره بوالدته ، وكان الله به خبيراً ، فقال له الملك : بكم تبيع هـٰذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير ، وأشترط عليك رضا والدتي ، فقال الملك : لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك ؟! فقال الفتىٰ : لو أعطيتني وزنها ذهباً . . لم آخذه إلا برضا والدتي ، فردها إلىٰ أمه وأخبرها بالثمن ، فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير علىٰ رضا مني .

فانطلق بها إلى السوق ، فأتاه الملك فقال : أستأمرت أمك ؟ فقال الفتىٰ : إنها أمرتني ألاَّ أنقصها عن ستة دنانير علىٰ أن أستأمرها ، فقال الملك : فإني أعطيتك اثني عشر علىٰ ألاَّ تستأمرها ، فأبى الفتىٰ ، ورجع إلىٰ أمه فأخبرها بذلك ، فقالت : إن الذي يأتيك ملك ، يأتيك في صورة آدمي ليجربك ، فإذا أتاك . . فقل له : أتأمرنا أن نبيع هـٰذه البقرة أم لا ؟ ففعل ، فقال له الملك : اذهب إلىٰ أمك وقل لها : أمسكي هـٰذه البقرة ؛ فإن موسىٰ بن عمران يشتريها منك لأجل قتيل يقتل في بني إسرائيل ، فلا تبيعوها إلا بملء مَسْكها دنانير[1] ، فأمسكوها .

وقدر الله علىٰ بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها ، فما زالوا يستوصفون حتىٰ وصفت لهم تلك البقرة مكافأة له علىٰ برِّ والدته فضلاً منه ورحمة)[2] .

فطلبوها فلم يجدوها بكمال وصفها إلا مع الفتىٰ ، فاشتروها بملء مَسْكها ذهباً .

وعن عطاء بن يسار قال : كنت جالساً عند ابن عباس إذ أتاه أعرابي فقال : إني خطبت امرأة، فخطبها غيري فتزوجته وتركتني ، فغدوت عليه فقتلته ، فهل من توبة ؟ فقال : ألك والدان حيان أو أحدهما ؟ قال : لا ، قال : تقرب إلى الله تعالىٰ بما قدرت عليه ، فقلنا له

---

(١) المَسْك : الجلد .

(٢) تفسير البغوي (١/ ٨٢ـ٨٣) .

بعد ما خرج ، فقال : لو كان أبواه حيين أو أحدهما . . رجوت له أنه ليس شيء أحط للذنوب من بر الوالدين[1] .

وعن شهر بن حوشب أن أعرابياً أتىٰ أبا ذر فقال : يا أبا ذر ؛ إنه قتل حاج بيت الله ظالماً ، فهل من مخرج ؟ فقال أبو ذر : ويحك ، أحي والداك ؟ قال : لا ، قال : فأحدهما ؟ قال : لا ، قال : لو كانا حيين أو أحدهما . . لرجوت لك ، وما أجد لك مخرجاً إلا في إحدىٰ ثلاث ، فقال : لله الحمد ، وما هن ؟ قال : هل تستطيع أن تحييه كما قتلته ؟ قال : لا والله ما أستطيع ، فقال : فهل تستطيع ألاَّ تموت ؟ قال : لا والله ما من الموت بُدٌّ ، فما الثالثة ؟ قال : هل تستطيع أن تبتغي نفقاً في الأرض ، أو سلماً في السماء ؟ فقام الرجل له صراخ ، فلقيه أبو هريرة فحسب أنه رجل مات له حميم ، فقال : يا عبد الله ؛ عليك بالصبر ، قال : ومن أنت ؟ قال : أبو هريرة ، قال : إنه قتل حاج بيت الله ظالماً ، فهل له من توبة ؟ قال : ويحك أحيٌّ والداك ؟ قال : لا ، قال : لو كانا حيين أو أحدهما . . رجوت لك ، ولـٰكن اغز في سبيل الله ، وتعرض للشهادة ، فعسىٰ[2] .

وعن سعيد الجريري أن رجلاً جاء إلى ابن عمر فقال : إني أصبت ذنوباً ، وأحب أن تعد علي الكبائر ، فقال : فعد عليه سبعاً أو ثمانياً : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، واليمين الفاجرة ، ثم قال له ابن عمر : هل لك والدة ؟ قال : نعم ، قال : فأطعمها من الطعام ، وألن لها من الكلام ، فوالله لتدخلن الجنة[3] .

وعن يحيىٰ بن أبي كثير قال : لما قدم أبو موسىٰ وأبو عامر علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه وأسلموا قال : « ما فعلت امرأة منكم تدعىٰ كذا وكذا ؟ » قالوا : تركناها في أهلها ، قال : « فإنه قد غفر لها » قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : « ببرها والدتها » قال : « كانت لها والدة عجوز كبيرة ، فجاءهم النذير : أنّ العدو يريد أن يغير عليكم الليلة ، فارتحلوا ليلحقوا بعظيم قومهم ، ولم يكن معها ما تحمل عليه أمها ، فعمدت إلىٰ أمها فجعلت تحملها علىٰ ظهرها ، فإذا أعيت . . وضعتها ، ثم ألصقت بطنها ببطن أمها ،

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٣٥) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٣٦) .
(٣) أخرجه معمر بن راشد في « الجامع » (١٩٧٠٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٣٩) .

وجعلت رجليها تحت رجلي أمها في الرمضاء حتىٰ نجت » قال الإمام البيهقي : هٰذا مرسل[1] .

وعن عمرو بن حماد قال : ثنا رجل . قال : خرج علي وعمر من الطواف فإذا هما بأعرابي معه أم له يحملها علىٰ ظهره وهو يرتجز يقول :

أنا مطيتها لا أنفر — إذا الركاب ذعرت لا أذعر

ما حملتني وأرضعتني أكثر

لبيك اللهم لبيك .

فقال علي : يا أبا حفص ادخل بنا الطواف لعل الرحمة تنزل فتعمنا .

قال : فدخل يطوف بها وهو يقول :

أنا مطيتها لا أنفر — إذا الركاب ذعرت لا أذعر

ما حملتني وأرضعتني أكثر

لبيك اللهم لبيك .

وعلي يجيبه :

إِنْ تَبَرَّهَا فَاللهَ أَشْكَرْ — يجزيك بالقليل الأكثرْ[2]

وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه أن رجلاً من أهل البادية حمل أمه علىٰ عنقه فجعل يطوف بها حول البيت وهو يقول :

إني لها بعيرها المذلل — إن ذعرت ركابها لا أذعر

أحملها ما حملتني أكثر — الله ربي ذو الجلال الأكبر

ثم قال : تظنني جزيتها يا ابن عمر ؟

فقال ابن عمر : لا ولا بزفرة[3] .

---

(١) شعب الإيمان (٧٥٤٨) ، والحديث أيضاً عند معمر بن راشد في « الجامع » (٢٠١٢٤) .

(٢) كذا في النسخ ، حيث يوجد في الأبيات خلل واضح في الوزن ، وكذلك هي عند البيهقي في « الشعب » (٧٥٤٩) فليتنبه .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٥٠) دون قوله : (الله ربي ذو الجلال الأكبر) .

وعن سفيان بن عيينة قال : لما مات أبي . . جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتي إلىٰ قبره كل يوم ، ثم إني قصرت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إني أتيته يوماً ، فبينا أنا جالس عند القبر . . غلبتني عيناي فنمت ، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج ، وكأنه قاعد في قبره ، متوشحاً أكفانه ، عليه سجية الموتىٰ ، فقال : يا بني ؛ ما بطأك عني ؟ قال : قلت : وإنك لتعلم بمجيئي ؟ قال : ما جئت من مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتيني فأسر بك ، ويسر من حولي بدعائك ، قال : فكنت بعده آتيه كثيراً[1] .

وعن أبي الدرداء هاشم بن محمد قال : سمعت رجلاً من أهل العلم يقول : إنه كان يزور قبر أبيه ، فطال ذلك عليه ، قال : فقلت : أزور التراب ؟! فتركت ، فرأيت أبي في منامي فقال : يا بني ؛ ما لك لا تفعل بي كما كنت تفعل ؟ فقلت : أزور التراب ؟! فقال : لا تعجل يا بني ، فوالله لقد كنت تقف عليَّ فيسر بك جيراني ، ولقد كنت تنصرف فلم أزل أنظر في قفاك حتىٰ تدخل الكوفة[2] .

قال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالىٰ : (سمعت أبا بكر الرشيدي الفقيه يقول : رأيت محمداً الطوسي المعلم في المنام ، فقال لي : قل لأبي سعيد الصفار المؤدب :

وكنّـا علـىٰ ألاَّ نحـول عـن الهـوىٰ　　　فقد ـ وحياة الحب ـ حُلْتم وما مِلْنا

قال : فانتبهت ، وقلت ذلك لأبي سعيد ، فقال : كنت أزور قبره كل ليلة جمعة ، فلم أزره هـٰذه الجمعة)[3] .

هـٰذه الحكاية وإن لم تكن في الأبوين . . ففيها حث علىٰ زيارة الصديق فالأبوان من طريق أولىٰ .

وعن عثمان بن سودة ـ وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ـ قال : لما احتضرَتْ . . رفعَتْ رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخري وذخيرتي ، ويا من عليه عمادي في حياتي وبعد مماتي ؛ لا تخذلني عند الموت ، ولا توحشني في قبري ، قال : فماتت ،

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٦) .

(٣) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٣١٠) .

فكنت آتيها كل جمعة فأدعو لها ، وأستغفر لها ولأهل القبور ، قال : فرأيتها ليلة في منامي ، فقلت : يا أمه ؛ كيف أنت ؟ فقالت : يا بني ؛ إن الموت لشديد كربه ، وأنا بحمد الله في برزخ محمود ، أفترش فيه الريحان ، وأتوسد فيه السندس والإستبرق إلىٰ يوم النشور .

فقلت : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : ما هي ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا ؛ فإني آنس لمجيئك يوم الجمعة ، وإذا أقبلتَ من أهلك . . يقال : يا راهبة ؛ قد أقبل من أهلك زائر ، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات[(١)] .

وكان والدي رحمه الله تعالىٰ كثير الزيارة لقبور أهله ، فماتت أخته ، فكان يزورها كل يوم ، فتأخر في بعض الأيام لعذرٍ ، فرآها في النوم ، وقالت له : يا عبد السلام ؛ مالك تركت زيارتنا ؟ فقال لها : وتعلمون ذلك ؟ قالت : نعم ، إذا أقبلت . . يكون كل أهل القبور ينظرون إليك حتىٰ تدخل المقبرة ، فإذا قمت عند واحد . . كان الآخر ينتظر وصولك إليه ، فلم يترك الزيارة كل يوم حتىٰ مرض ، رحمه الله رحمة الأبرار ، آمين .

وقال ابن الجوزي بعد أن أورد حكاية الراهبة كما أوردها البيهقي : [من الكامل]

زر والـدَيْـك وقـف علـىٰ قبـريهمـا ... فكـأنَّـنـي بـك قـد نقلـت إليهمـا
لو كنت حيث هما وكانا في البقا ... زاراك حبـواً لا علـىٰ قـدميهمـا
مـا كـان ذنبهمـا إليـك وطـالمـا ... منحـاك صفـوَ الـودِّ مـن نفسيهمـا
كـانـا إذا مـا أبصـرا بـك علـةً ... جَـزِعـا عليـك وشـقَّ ذاك عليهمـا
كـانـا إذا سمعـا أنينَـك أسبـلا ... دمعيهمـا أسفـاً علـىٰ خـدَّيهمـا
فلَتَلْحقنَّهمـا غـداً أو بعـده ... حتمـاً كمـا لحقـا همـا أبـويهمـا
ولتقـدَمـنَّ علـىٰ فعـالـك مثلمـا ... قـدِمـا همـا أيضـاً علـىٰ فعليهمـا
بشـراك لـو قـدَّمـت فعـلاً صـالحـاً ... وقضيـت بعـض الحـقِّ مـن حقَّيهمـا
وقـرأت مـن آي الكتـاب بقـدر مـا ... تسطيعـه وبعثـت ذاك إليهمـا
فاحفظ ـ حُفِظْتَ ـ وصيَّتي واعمل بها ... فعسـىٰ تنـال الفـوز مـن بـرَّيهمـا[(٢)]

* * *

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٨) ، وابن الجوزي في « البر والصلة » (١٩٩) .
(٢) انظر « البر والصلة » (ص١٤١) .

الباب الثالث

في بر الآباء بالأولاد ، وما يجب لهم على الوالدين ، وفيما ورد فيهم

قال الإمام البيهقي في « شعب الإيمان » : (الأصل في الولد أنه نعمة من الله وموهبة وكرامة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ .

فامتنَّ علينا أن أخرج من أصلابنا أمثالنا ، وأخبرنا أن الأنثىٰ موهبة وعطية كالذكر ، وذم قوماً تسوؤهم البنات ، فيتوارون من القوم ؛ لئلا يذكروهن لهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ .

فكل من ولد له من المسلمين ولدٌ ذكرٌ أو أنثىٰ . . فعليه أن يحمد الله جل ثناؤه علىٰ أن أخرج من صلبه نسمة مثله ، تدعىٰ وتنسب إليه ، فتعبد الله كعبادته ، وتكثِّر به في الأرض أهل طاعته) اهـ[١]

قال الإمام الغزالي في « الإحياء » : (من الأدب ألاَّ يكثر الفرح بالذكر ، ولا يحزن بالأنثىٰ ؛ فإنه لا يدري أن الخيرة له في أيهما ، فكم من صاحب ابن يتمنىٰ ألاَّ يكون له ، أو تكون له بنتاً ، بل السلامة منهن أكثر ، والثواب فيهن أجزل) اهـ[٢]

وقال الفقيه إسماعيل الحضرمي : (المحققون وأهل التقوىٰ لا يطلبون الأولاد إلا لله تعالىٰ ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فيربونهم علىٰ طاعة الله تعالىٰ .

---

(١) شعب الإيمان (١١/ ١٠٤) .

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٥٣) .

وأما من طلب الولد للهوىٰ . . فقد عصىٰ فيه أمر المولىٰ ، ودخل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾) اهـ

فإذا تقرر ذلك . . فلنورد ما تحصل لنا من الأحاديث :

الحديث الأول : عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت علي امرأة ومعها بنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين بنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من ابتلي من هٰذه البنات بشيء ، فأحسن إليهن . . كن له ستراً من النار » .

قال ابن الأثير : (هٰذه رواية البخاري ومسلم)[١] ، ولمسلم أيضاً : قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة تمرة ، ورفعت إلىٰ فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذي صنعت للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة ، أو أعتقها بها من النار »[٢] ، وأخرجه الترمذي بمثل رواية البخاري ومسلم)[٣] .

الحديث الثاني : عن عمر بن عبد العزيز قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أنه صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول : « إنكم لَتُبَخِّلون وتُجَبِّنون وتُجَهِّلون ، وإنكم لمن ريحان الله » أخرجه الترمذي[٤] .

قال ابن الأثير : (قوله : « لتبخلون وتجبنون . . . » إلخ ؛ أي : تحملون الناس على البخل وعلى الجبن وعلى الجهل ؛ فإن من ولد له ولد . . بخل بماله ليخلفه لولده ، وجبن عن القتال ليعيش لتربيته ، وجهل حفظاً لقلبه ورعايةً له .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم لمن ريحان الله » الريحان : الرزق ، وسمي الولد ريحاناً ؛ لأنه من رزق الله تعالىٰ)[٥] .

---

(١) البخاري (١٤١٨) ، ومسلم (٢٦٢٩) .
(٢) مسلم (٢٦٣٠) .
(٣) جامع الأصول (١ / ٤١٢) ، وهو عند الترمذي (١٩١٣) .
(٤) الترمذي (١٩١٠) .
(٥) انظر « جامع الأصول » (١ / ٤١٥) .

الحديث الثالث : عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : دخلتُ مع أبي بكر رضي الله عنه أول ما قدم المدينة علىٰ أهله ، فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حُمَّىٰ ، فأتاها أبو بكر وقال : (كيف أنت يا بنية ؟ وقبل خدها) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داوود[1] .

الحديث الرابع : عن سعيد بن العاصي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » أخرجه الترمذي[2] .

الحديث الخامس : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نحل والدٌ ولداً من نَحْل أفضل من أدب حسنٍ » أخرجه الترمذي[3] .

الحديث السادس : عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وامرأة سفْعاء الخدين كهاتين يوم القيامة ـ يريد : الوسطىٰ والسبابة ـ امرأة آمت من زوجها ، ذات منصب وجمال ، حبست نفسها علىٰ يتاماها حتىٰ بانوا أو ماتوا » أخرجه أبو داوود[4] .

قال ابن الأثير : (السُّفْعة : السواد ، يريد : أنها بذلت وجهها حتى اسود إقامة علىٰ ولدها بعد وفاة زوجها ؛ لئلا يضيعوا .

وآمت المرأة ؛ أي : صارت أيماً ، وهي : من لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيباً ، تزوجت أو لم تتزوج .

وقوله : « بانوا » البين : البعد والانفصال ، أراد : حتىٰ تفرقوا أو ماتوا)[5] .

الحديث السابع : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أنثىٰ فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده ـ يعني : الذكور ـ عليها . . أدخله الله الجنة » أخرجه أبو داوود[6] .

---

(١) البخاري (٣٩١٨) ، وأبو داوود (٥٢٢٢) ، وأصله عند مسلم (٢٠٠٩/ ٧٥) في (الزهد والرقائق) ، باب في حديث الهجرة ، وليس فيه الموضع الذي ساقه المؤلف رحمه الله هنا .

(٢) الترمذي (١٩٥١) ، وهو عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما . فليتنبه .

(٣) الترمذي (١٩٥٢) ، وهو عن أيوب بن موسى عن جده سعيد بن العاصي رضي الله عنه . فليتنبه .

(٤) أبو داوود (٥١٤٩) .

(٥) جامع الأصول (١/ ٤١٤) .

(٦) أبو داوود (٥١٤٦) .

الحديث الثامن : عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عال جاريتين حتىٰ تبلغا . . جاء يوم القيامة أنا وهو » ، وضم أصابعه . هـٰذه رواية مسلم[1] .

ورواية الترمذي : « دخلت أنا وهو الجنة كهاتين » ، وأشار بإصبعيه[2] .

الحديث التاسع : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان له ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات ، أو بنتان ، أو أختان ، فأحسن صحبتهن ، واتقى الله فيهن . . فله الجنة » أخرجه الترمذي[3] .

ورواية أبي داوود : « من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو أختين ، أو بنتين ، فأدبهن ، وأحسن إليهن ، وزوجهن . . فله الجنة »[4] .

الحديث العاشر : عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لكل شجرة ثمرة ، وثمرة القلب الولد ، إن الله لا يرحم من لا يرحم ولده ، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا رحيم » قلت : يا رسول الله ؛ كلنا يرحم ، قال : « ليس برحمة أن يرحم أحدكم صاحبه ، إنما الرحمة أن يرحم الناس » رواه البزار . كذا أخرجه الهيثمي في « مجمع الزوائد »[5] .

الحديث الحادي عشر : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ولد في أهل بيت غلام . . إلا أصبح فيهم عز لم يكن » رواه الطبراني[6] .

الحديث الثاني عشر : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ولدت الجارية . . بعث الله عز وجل إليها ملكاً يزف البركة زفاً ، يقول : ضعيفة خرجت من ضعيف ، القيِّم عليها مُعَانٌ إلىٰ يوم القيامة ، وإذا ولد الغلام . . بعث الله إليه ملكاً من السماء ، فقبل بين عينيه ، وقال : الله يقرئك السلام » رواه الطبراني في « الأوسط »[7] .

---

(١) مسلم (٢٦٣١) .
(٢) الترمذي (١٩١٤) .
(٣) الترمذي (١٩١٦) .
(٤) أبو داوود (٥١٤٧) ، ولفظه عنده : « من عال ثلاث بنات ، فأدبهن ، وزوجهن . . . » إلخ .
(٥) انظر « المجمع » (٨/١٥٨) .
(٦) المعجم الأوسط (٧٣٩١) .
(٧) المعجم الأوسط (٣١٢٥) . والقيِّم : هو الذي ينفق عليها ويرعاها .

الحديث الثالث عشر : عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكرهوا البنات ؛ فإنهن المؤنسات الغاليات » رواه أحمد والطبراني[1] .

الحديث الرابع عشر : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ريح الولد من ريح الجنة » رواه الطبراني في « الصغير » و« الأوسط »[2] .

الحديث الخامس عشر : عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء ابن له فقبله وأجلسه علىٰ فخذه ، وجاءته بنية له فأجلسها بين يديه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا سويت بينهما » رواه البزار[3] .

الحديث السادس عشر : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سماهم الله الأبرار ؛ لأنهم بروا الآباء والأمهات والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقاً . . كذلك لولدك » رواه الطبراني[4] .

الحديث السابع عشر : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعينوا أولادكم على البر ، من شاء . . استخرج العقوق لولده » رواه الطبراني في « الأوسط »[5] .

الحديث الثامن عشر : عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في السجود . . إذ جاءه الحسن رضي الله عنه ، فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس ، حتىٰ ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضىٰ صلاته . . قالوا : قد أطلت السجود حتىٰ ظننا أنه قد حدث أمر ، فقال : « إن ابني قد ارتحلني ، فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته »[6] .

الحديث التاسع عشر : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) مسند أحمد (٤/ ١٥١) ، والمعجم الكبير (١٧/ ٣١٠) .
(٢) المعجم الصغير (١/ ٢١) ، والأوسط (٥٨٥٦) .
(٣) عزاه الهيثمي في « المجمع » (٨/ ١٥٩) للبزار .
(٤) عزاه الهيثمي في « المجمع » (٨/ ١٤٩) للطبراني .
(٥) المعجم الأوسط (٤٠٨٨) .
(٦) أخرجه الحاكم (٣/ ١٦٥) ، والنسائي (٢/ ٢٢٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٦٣) ، وأحمد (٣/ ٤٩٣) ، وغيرهم .

وسلم : « من حمل طرفةً من السوق إلىٰ عياله . . فكأنه حمل إليهم صدقة حتىٰ يضعها فيهم ، وليبدأ بالإناث قبل الذكور ؛ فإن من فرح أنثىٰ . . فكأنما بكىٰ من خشية الله ، ومن بكىٰ من خشية الله . . حرم الله بدنه على النار »[1] .

الحديث العشرون : قال صلى الله عليه وسلم : « من كانت له ابنة ، فأدبها وأحسن أدبها ، وغذاها وأحسن غذاءها ، وأسبغ عليها من النعمة التي أوسع الله تعالىٰ عليه . . كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة » كذا ذكره الإمام الغزالي في « الإحياء »[2] .

الحديث الحادي والعشرون : عن حفصة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدع أحدكم طلب الولد ؛ فإن الرجل إذا مات وليس له ولد . . انقطع اسمه » رواه الطبراني ، وإسناده حسن . كذا في « المجمع » للهيثمي[3] .

الحديث الثاني والعشرون : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حرم الله تعالىٰ علىٰ كل آدمي دخول الجنة قبلي ، غير أني أنظر عن يميني ، فإذا امرأة تبادر إلىٰ باب الجنة ، فأقول : ما لهـٰذه تبادرني إلىٰ باب الجنة ؟ فيقال لي : يا محمد ؛ هـٰذه امرأة كانت حسناء جميلة ، وكان عندها يتامىٰ لها ، فصبرت عليهن حتىٰ بلغ أمرهن الذي بلغ ، فشكر الله لها ذلك » ذكره في « الإحياء »[4] .

الحديث الثالث والعشرون : قال صلى الله عليه وسلم : « رحم الله والداً أعان ولده علىٰ بره » أي : لم يحمله على العقوق بسوء عمله . كذا في « الإحياء »[5] .

وفيه أيضاً : (قال صلى الله عليه وسلم : « من حسنت صلاته ، وكثرت عياله ، وقل ماله ، ولم يغتب المسلمين . . كان معي كهاتين في الجنة »[6] .

---

(١) انظر « المجروحين » لابن حبان (١/ ٣٠٧) ، و« الكامل في الضعفاء » لابن عدي (٤/ ٢٤٠) .

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٥٣) ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٧) ، بلفظ « . . . كانت له منعة وسترة من النار » .

(٣) مجمع الزوائد (٤/ ٢٦١) ، والمعجم الكبير (٢٣/ ٢١٠) .

(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ٥٩) ، وقال الحافظ العراقي رحمه الله : (أخرجه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » من حديث أبي هريرة بسند ضعيف) .

(٥) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٧) ، وقال الحافظ العراقي رحمه الله : (أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في « كتاب الثواب » من حديث علي بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف ، ورواه النَّوْقاني من رواية الشعبي مرسلاً) .

(٦) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٩٠) .

وفي خبر آخر : « إن الله تعالىٰ يحب الفقير المتعفف أبا العيال »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا كثرت ذنوب العبد . . ابتلاه الله تعالىٰ بِهَمِّ العيالِ ؛ ليكفرها عنه »[2] .

وقال بعض السلف : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغَمُّ بالعيال) اهـ[3]

الحديث الرابع والعشرون : عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ربىٰ صغيراً حتىٰ يقول : لا إله إلا الله . . لم يحاسبه الله » أخرجه الهيثمي عن الطبراني[4] .

الحديث الخامس والعشرون : عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : جاءت امرأة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابناها ، فسألت ، فأعطاها ثلاث تمرات ، لكل واحد منهم تمرة ، فأعطت كل واحد تمرة فأكلها ، ثم نظرا إلىٰ أمهما ، فشقت التمرة نصفين ، وأعطت كل واحدٍ منهما نصف تمرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد رحمها الله برحمتها ابنيها » أخرجه الهيثمي عن الطبراني[5] .

الحديث السادس والعشرون : عن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال : قدمت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد كِنْدَةَ ، فقال لي : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لي في مخرجي إليك ، ولوددت أن مكانه شبع القوم ، قال : « لا تقل ذاك ؛ فإن فيهم قرة عين وأجراً إذا قبضوا » رواه الهيثمي عن أحمد والطبراني[6] .

الحديث السابع والعشرون : عن مسلم بن يسار رفعه أن رجلاً كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل في أهلك من كاهل ؟ » قال : لا ، ما هم إلا صبية صغار ، قال : « ففيهم فجاهد » .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢١) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٧) ، ولفظه عنده : « . . . ابتلاه الله عز وجل بالحزن . . . » .

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٢) .

(٤) انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٦٢) ، و« المعجم الأوسط » (٤٨٦٢) .

(٥) انظر « مجمع الزوائد » : (٨/ ١٦١) ، و« المعجم الكبير » (٣/ ٧٨) .

(٦) انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٥٨) ، و« مسند أحمد » (٥/ ٢١١) ، و« المعجم الكبير » (١/ ٢٣٦) .

قال أبو عبيد الله : قوله : « من كاهل » يعني : من أَسَنَّ ، وهو من الكهل . رواه البيهقي[1] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (اطلبوا الولد والتمسوه ؛ فإنه قرة العين ، وريحانة القلب ، وإياكم والعجز والعقر)[2] .

وقال رضي الله عنه : (أكثروا من قُبَل أولادكم ؛ فإن لكم بكل قُبْلة درجة في الجنة ، حتىٰ إن الملائكة لتحضر فتكتب لكم من الدرجات عدد ما قَبَّلتم ، ما بين الدرجتين مسيرة خمس مئة عام)[3] .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس ، فلما صار إليه . . قال له : يا أبا الحسن : ما تقول في الولد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول علىٰ كل جليلة ، فإن طلبوا . . فأعطهم ، وإن غضبوا . . فأرضهم ، يمنحوك ودَّهم ، ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيمَلُّوا حياتك ، ويحبوا وفاتك ويكرهوا قربك .

فقال معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد دخلت علي وأنا مملوء غيظاً وغضباً علىٰ يزيد .

فلما خرج الأحنف من عنده . . رضي عن يزيد ، وبعث إليه بمئتي ألف درهم ، ومئتي ثوب ، فأَرسل يزيد إلى الأحنف مئة ألف درهم ، ومئة ثوب ، قاسمه إياها على الشطر[4] .

ورئي بشر في المنام بعد وفاته ، فقيل له : ما فعل الله بأبي نصر التمار ؟ فقال : رفع فوقي بسبعين درجة ، قلنا : بماذا وقد كنا نراك فوقه ؟ قال : بصبره علىٰ فقره وبناته والعيال[5] .

وقال بعضهم لعالم : مِنْ كلِّ عمل قد أعطاني الله تعالىٰ نصيباً ، حتىٰ ذكر الجهاد والحج

---

(١) شعب الإيمان (٨٣٣٩) .

(٢) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٢٤٢) ، وعزاه الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٩/٣٤١) لأبي عمرو النَّوْقاني في « كتاب معاشرة الأهلين » عن محارب رحمه الله مرفوعاً ، ثم قال : (وهو مرسل قوي الإسناد) .

(٣) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٢٥٣) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢/٢١٦) .

(٤) القصة بنحوها عند ابن كثير في « البداية والنهاية » (٢/٦٢٦) .

(٥) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٤٢٠-٤٢١) ، وذكره الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٠/٥٧٣) بنحوه .

وغيرهما ، فقال له : أين أنت من عمل الأبدال ؟ قال : ما هو ؟ قال : كسب الحلال ، والنفقة على العيال .

وقال ابن المبارك رحمه الله وهو مع أخوانه في الغزو : تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك ، قال : أنا أعلم ، رجل ضعيف ذو عيلة ، قام من الليل فنظر إلىٰ عياله متكشفين ، فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه .

وروي نحو هـٰذا عن إبراهيم بن أدهم(١) .

ثم اعلم أنه ينبغي للوالد أن يحرص لأجل حق ولده علىٰ أمور :

الأول : أن يضعه في بيت الدين والصلاح ؛ لأن المرأة الصالحة تؤدب بنيها وبناتها ، فإذا لم تكن أديبة . . لم تحسن التأديب والتربية ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدمن » فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : « المرأة الحسناء في منبت السوء »(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم ؛ فإن العرق دساسٌ » وقيل : «نزاع»(٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (اطلبوا مواضع الأكفاء لنطفكم ؛ فإن الولد ربما يشبه أخواله) .

وقال صاحب « عيون الأخبار » : (صلاح الأولاد وفسادهم من قبل الأم ؛ لأن الرضاع يغير الطباع .

ومن أقوال العرب : إن الجياد علىٰ أعراقها تجري) اهـ

وقال أبو الأسود الدؤلي لبنيه : أحسنت إليكم كباراً وصغاراً وقبل أن تكونوا ، قالوا : أحسنت إلينا كباراً وصغاراً ، فكيف أحسنت إلينا قبل أن نكون ؟ قال : لم أضعكم موضعاً تستحيون منه(٤) .

---

(١) انظر « حلية الأولياء » (٨/ ٢١) .

(٢) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٩٥٧) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (ص١٢٠) ، وانظر « تلخيص الحبير » (٣/ ١٤٥) .

(٣) هـٰذا الحديث مركب من حديثين ؛ أولهما : « تخيروا لنطفكم ، فأنكحوا الأكفاء ، وانكحوا إليهم » ، وهو عند الحاكم (٢/ ١٦٣) ، وابن ماجه (١٩٦٨) ، والثاني: « . . . وانظر في أي نصاب تضع ولدك ؛ فإن العرق دساس»، وهو في « مسند الشهاب » (٦٣٨).

(٤) ذكره البخاري في « التاريخ الكبير » (٤/ ٢٧٣) ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٣٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ١٩٨) .

الثاني من الأمور التي ينبغي للوالد الحرص عليها لأجل حق الولد : ما ندب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا أتىٰ أحدكم أهله . . فليقل : باسم الله ، اللهم ؛ جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإن قدر بينهما ولد . . لم يضره الشيطان »[1] .

واختلف في الضرر المرفوع ، فقيل : إنه الطعن الذي عصم منه عيسىٰ عليه السلام ، وطعن الحجاب لما عوذت منه أمه .

وقيل : هو ألاّ يصرع ذلك المولود الذي يذكر الله سبحانه ، ويستعاذ من الشيطان عند جماع أمه ، وكلا الوجهين جائز ، والله أعلم بالأولىٰ منهما . قاله ابن النحوي .

وقال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (وقيل : المعنىٰ لم يسلط عليه من أجل بركة التسمية ، بل يكون من جملة العباد الذين قيل فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ .

وقيل : لم يضره في بدنه .

وقال ابن دقيق العيد : يحتمل ألاّ يضره في دينه ، ولـٰكن يبعد انتفاء العصمة .

وتعقب بأن اختصاص من خص بالعصمة بطريق الوجوب ، لا بطريق الجواز ، فلا مانع أن يوجد من لا يصدر عنه معصية عمداً وإن لم يكن ذلك واجباً له .

وقيل : لم يضره بمشاركة أبيه في جماع أمه ، كما جاء عن مجاهد : أن الذي يجامع ولا يسمي يلتف الشيطان علىٰ إحليله فيجامع معه . ولعلّ هـٰذا أقرب الأجوبة .

وقال الداوودي : معنىٰ « لم يضره » أي : لم يفتنه عن دينه إلى الكفر ، وليس المراد عصمته منه عن المعصية) اهـ[2]

وهـٰذا الأخير هو الذي يظهر لي ؛ لأن مقصود الشيطان اللعين إخراج المؤمن من الإيمان إلى الكفر ، وهو الضرر الحقيقي ، فيكون ذكر الله سبحانه وتعالىٰ عند الجماع سبباً للعصمة من الكفر . اهـ

الثالث : إذا تحقق الحمل . . فينبغي له أن يتجنب إطعام أمه الحرام ؛ لأنه خبيث ، فإذا انعقد جسمه من الخبيث . . خبثت أعماله ، فيتحرى الحلال جهده .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٨) ، ومسلم (١٤٣٤) .
(٢) انظر « فتح الباري » (٩/ ٢٢٩) .

الرابع : إذا وضعته . . أذن في أذنه ، روي عن [ابن] أبي رافع عن أبيه رضي الله عنه قال : (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسن والحسين حين ولدتهما فاطمة)(١) رضي الله عنهم ، آمين .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنىٰ ، وأقام في أذنه اليسرىٰ . . رفعت عنه أم الصبيان »(٢) .

الخامس : أن يحنكه بتمرة ، فإن لم يحضر . . فبحلو يشبهه ، وينبغي أن يتولىٰ ذلك من يرجىٰ خيره وبركته .

روي عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : (ولد لي غلام ، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم ، فسماه إبراهيم ، وحنكه بتمرة ، ودعا له بالبركة)(٣) .

السادس والسابع : أن يعق عنه ويسميه .

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل غلام رهينة بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ، ويحلق رأسه ، ويسمىٰ »(٤) .

قال البيهقي : (ولو سماه يوم تحنيكه . . كان أولىٰ ، وقد ورد في حديث أنس قال : ولد لأبي طلحة غلام ، فذهبت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فحنكه وسماه عبد الله .

وعن أسماء بنت أبي بكر في تحنيك النبي صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن الزبير حين ولدته وتسميته عبد الله ، قال : وفي ذلك دلالة علىٰ أن التأريخ في حديث سمرة ليس راجعاً إلى التسمية ، والله أعلم)(٥) .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥١٠٥) ، والترمذي (١٥١٤) .

(٢) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٢٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٥٤) ، وانظر « ميزان الاعتدال » (٤/ ٣٩٧) . **وأم الصبيان** : هي التابعة من الجن ، وقيل : مرض يلحق الأولاد في الصغر . انظر « الفتوحات الربانية على الأذكار النووية » لابن علان رحمه الله (٦/ ٩٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٦٧) ، ومسلم (٢١٤٥) ، واللفظ للبخاري .

(٤) أخرجه أبو داوود (٢٨٣٨) ، والنسائي (٧/ ١٦٦) ، وأحمد (٥/ ١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٦٣) .

(٥) شعب الإيمان (١١/ ١١٥ـ١١٦) .

الثامن : أن يحسن اسمه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسمائكم »[1] .

التاسع : أن يختنه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس ، أو خمس من الفطرة : الختان ، والاستحداد ، ونتف الإبط ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار »[2] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : (عق رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام) .

العاشر : أن يسترضع له امرأةً صالحة تأكل الحلال ، قال الفقيه شهاب الدين [محمد بن] أحمد الرملي في منظومته « رياضة الصبيان » : [من الرجز]

وينبغــــي إرضـــاعُ كـــل طفـــل ... صـــالحـــةً بقـــولهـــا والفعـــل

تـــأكـــلْ حـــلالاً لا مـــن الحـــرام ... فـــالطبـــعُ قـــالـــوا تـــابـــعُ الطعـــام

إذا خَبُـــثْ رَضـــاعُـــه مـــال إلـــى ... فعـــل الخبيـــث آخـــراً وأوّلا[3]

الحادي عشر : يعلمه الأكل بيمينه بعد الفطام إذا صار يأكل بنفسه ، فإذا نطق.. علمه البسملة عند الأكل ؛ حتىٰ يتمرن عليها .

الثاني عشر : يعلمه : لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله ؛ حتىٰ يميِّز مستمراً عليها ؛ لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « افتحوا علىٰ صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله ، ولقنوهم عند الموت لا إله إلا الله ؛ فإنه من كان أول كلامه لا إله إلا الله ، وآخر كلامه لا إله إلا الله ، ثم عاش ألف سنة.. ما يسأل عن ذنب واحدٍ » كذا رواه البيهقي ، ثم قال : متن غريب[4] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٨١٨) ، وأبو داوود (٤٩٤٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٣٠٦) ، وأحمد (٥/ ١٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٧) ، ومسلم (٢٥٧) .

(٣) انظر الأبيات في « سمط العقيان شرح منظومة رياضة الصبيان » (ص٨١ـ٨٣) .

(٤) شعب الإيمان (٨٢٨٢) .

قال الإمام أحمد : (فأما التعليم والتأديب . . فوقتهما أن يبلغ المولود من السن والعقل مبلغاً يحتملهما .

فمن ذلك : أن ينشئه علىٰ أخلاق صلحاء المسلمين ، ويصونه عن مخالطة المفسدين .

ومنها : أن يعلمه القرآن ولسان العرب ، ويسمعه السنن وأقاويل السلف ، ويعلمه من أحكام الدين ما لا غنىٰ به عنه .

ومنها : أن يرشده من المكاسب إلىٰ ما يحمد ويرجىٰ أن يرد عليه كفايته ، فإذا بلغ أحدهم حد العقل . . عُرِّف الباري جل جلاله بالدلائل التي توصله إلىٰ معرفته من غير أن يسمعه مقالات الملحدين ، ويذكرهم له في الجملة ، ويحذره إياهم ، وينفره عنهم ، ويبغضهم إليه ما استطاع ، وكذلك يعرفه نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم)[1] .

قال الفقيه الرملي : (ويعلمه الأكل باليمين ، والبسملة ، وألاَّ يبادر قبل أكل صاحبه ، وأن يأكل مما يليه ، ويأكل اليابس بلا إدام أحياناً ؛ لئلا يرىٰ تحتم الإدام ، ويجنبه الزينة ، ويلبسه البياض ، ويمنعه المنقوش والملون ، ولا ينعم جسمه بملبس ولا بفراش أملس ، ويمنعه النوم بالنهار ؛ خوف الكسل وأن يتخذه طبعاً .

ويندب لمعلم الصبيان القرآنَ أن يخليهم آخر النهار زمناً تحصل فيه استراحتهم .

ويندب للولي أن يترك الصبي يلعب ؛ لأن ملازمته والتضييق عليه يكدر عيشه ، ويبطل ذكاءه ، ويحصل من الصبي الحيلة في التخلص من التعلم ، والرفق في كل الأمور أولىٰ وأحب) اهـ

ويجب على الولي أن يأمر الصبي بالصلاة لسبع سنين ، ويضربه عليها لعشر سنين ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « مروا الصبيان بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »[2] .

وتقدم الحديث الدال علىٰ تأديبه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نحل والدٌ ولدهُ نحلاً أفضل من أدبٍ حسنٍ » .

---

(١) نقل كلام الإمام أحمد رحمه الله البيهقي في « الشعب » (١١/١٢٦ـ١٢٧) .
(٢) أخرجه أبو داوود (٤٩٥) ، وأحمد (٢/ ١٨٧) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : قالوا : يا رسول الله ؛ قد علمنا ما حق الوالد على الولد ، فما حق الولد على الوالد ؟ قال : « أن يحسن اسمه ويحسن أدبه »[1] .

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخير عادة والشر لجاجة »[2] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما لرجل : (أدب ابنك ؛ فإنك مسؤول عن ولدك ؛ ماذا أدبته ؟ وماذا علمته ؟ وهو مسؤول عن برك وطواعيتك)[3] .

وقال الإمام الغزالي في « الإحياء » : (يقال : إن أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده ، فيوقفونه بين يدي الله عز وجل ، ويقولون : ربنا ؛ خذ لنا بحقنا منه ؛ فإنه ما علمنا ما نجهل ، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتص منه لهم) اهـ[4]

وذكر الرملي في « منظومته » صفة الأدب فقال ما معناه : يحتفظ به من الجهلة والفسقة ، ومن عرف بالكذب والخيانة ، ويمنعه من صحبة الأشرار ؛ فقد روي : « المرء علىٰ دين خليله »[5] .

ويمنعه من كثرة الكلام ، وألاّ يبتدىء بالكلام ، بل يكون كلامه جواباً ، ويمنعه اليمين ، والأشعار ، والأغاني ، والبصق ، والنخام ، والمخاط عند الجليس ، واللعن ، والسب ، والشتم ، والاختلاط بالأدناس ، ويلزمه كثرة التواضع ، وترك الطمع ، وترك حب الذهب والفضة ، وإكرام الإخوان والأصحاب بالتأديب ، ويوسع للذي يأتيه ، وإذا وصل إلىٰ مجلس . . استقر حيث ينتهي به المجلس ، ولا يتخطىٰ رقاب الناس .

وإكرام الواصل بالقيام ، ويسمع كلام كل عاقل ، ولا يذكر الطعام والشراب ، ويعظم الوالدين والمؤدب له والأقارب ، وإذا ظهر منه فعل جميل . . أثنىٰ عليه ومدحه ، وإذا بدا منه خلاف ذلك . . عاتبه سراً ونهاه عنه ، وإذا بلغ . . عرفه أن المقصود من هـٰذه الدنيا هو الآخرة ، وأن المقصود من الأكل التقوي للعبادة ، وأن الموت قريب ، وهـٰذه الدنيا فانية ،

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩١) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٣١٠) ، وابن ماجه (٢٢١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٩٤) .
(٣) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٨٤) .
(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٣) .
(٥) أخرجه أبو داوود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٣٧٨) .

والآخرة هي دار القرار ، ويحثه على الإكثار من العبادات والطاعات التي يعود عليه نفعها في الآخرة . اهـ[١]

ومن الآداب : ألاَّ يدعو عليه ؛ فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك .

ففي « سنن أبي داوود » بإسناد صحيح عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تدعوا علىٰ أنفسكم ، ولا تدعوا علىٰ أولادكم ، ولا تدعوا علىٰ خدمكم ، ولا تدعوا علىٰ أموالكم ، ولا توافقوا من الله ساعة نيل فيها عطاء فيستجاب لكم »[٢] .

قال الإمام النووي : (قوله : « نيل » بكسر النون وإسكان الياء ، ومعناه : ساعة إجابة ينال الطالب فيها ويعطىٰ مطلوبه) .

قال : (وروىٰ مسلم هٰذا الحديث في آخر « صحيحه ») اهـ[٣]

وجاء رجل إلىٰ عبد الله بن المبارك فشكىٰ عليه بعض ولده فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم . قال : أنت أفسدته . اهـ

وقد رأيت جماعةً دعوا علىٰ أولادهم ، فأثر ذلك فيهم تأثيراً عظيماً ، وابتلى الله سبحانه وتعالى الأولاد ببلاء من الأوجاع ، حتىٰ أشفق آباؤهم عليهم من ذلك ، ورجعوا يدعون لهم ، فلم تحصل لهم الإقالة .

قال صاحب « عيون الأخبار » : (كان الصالحون لا يأمرون أولادهم بأمر ؛ فإن احتاجوا إلىٰ أمر يفعلونه . . أمروا غيرهم من الناس يفعله فسئلوا عن ذلك ، فقالوا : إنا نخاف إن أمرناهم بشيء . . عصونا فيه فيستوجبوا النار لأجل ذلك ، ونحن لا نقدر علىٰ حرق أولادنا بالنار) اهـ

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : ومن حق البنت على الوالدين : تعليمها حسن المعيشة وآداب العشرة مع الزوج ، كما روي أن أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزويج : إنك خرجت من العش الذي فيه درجت ، وصرت إلىٰ فراش لم تعرفيه ، وقرين لم

---

(١) انظر « رياضة الصبيان » مع شرحها « سمط العقيان » (ص١١٢ وما بعدها) .
(٢) سنن أبي داوود (١٥٣٢) .
(٣) مسلم (٣٠٠٦) ، وانظر كلام الإمام النووي رحمه الله في « الأذكار » (ص٦٤٤) .

تألفيه ، فكوني له أرضاً يكن لك سماء ، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً ، وكوني له أمة يكن لك عبداً ، ولا تلحقي به فيقلاك ، ولا تباعدي عنه فينساك ، وإن دنا . . فاقربي منه ، وإن نأىٰ . . فأبعدي عنه ، واحفظي أنفه وسمعه وعينه ، لا يشم منك إلا طيباً ، ولا يسمع إلا حسناً ، ولا يبصر إلا جميلاً .

وقال رجل لزوجته : [من الطويل]

خذي العفو مني تستديمي مودَّتي ... ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضب

ولا تنقريني نقرَكَ الدُّفَّ بالأذىٰ ... فإنك لا تدرين كيف المُغيَّب

فإني رأيت الحبَّ في القلب والأذىٰ ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يذهبُ[1]

وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي : لا ينبغي أن يفتر الوالدان عن تأديب الصغير وتعليمه ؛ فإن التعليم في الصغر كالنقش في الحجر .

قال علي كرم الله وجهه في قوله تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾ أي : علموهم وأدبوهم[2] .

فيعلمانه الطهارة والصلاة ، ويحفِّظانِه القرآن ، ويسمعانه الحديث وما يحصل من العلم ، ويقبِّحان عنده القبيح ، ويحثانه على المكارم ؛ فإنه موسم الزرع .

قال الشاعر : [من مجزوء الكامل]

لا تسأمنْ أدبَ الصَّغيـ ... ـرِ وإنْ شكا ألمَ التَّعبْ

ودعِ الكبيرَ لشأنهِ ... كبِرَ الكبيرُ عنِ الأدبْ[3]

وقال آخر : [من البسيط]

إن الغصونَ إذا قوَّمتَها اعتدلتْ ... ولا تلينُ إذا قوَّمتَها الخُشُبُ

قد يَنْفع الأدبُ الأحداثَ في مَهَل ... وليس ينفع في ذي شيبةٍ أدبُ

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/٥٨ـ٥٩) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٨١) .

(٣) البيتان مما ينسب للشاعر العباسي محمود الوراق ولغيره ، ورواية البيت الأول :

لا تشْـعُـهُ عـن أدب الصغيـ ... ـرِ وإن بكـىٰ ألـم التعـب

انظر « ديوانه » (ص٢١١) جمع وتحقيق الدكتور وليد قصاب .

كان عبد الملك بن مروان يحب ابنه الوليد ولا يحثه على الأدب ، فخرج لحَّانةً ، فقال : أضر حبنا بالوليد[1] .

وقد يرزق الصبي ذهناً من صغره فيختار لنفسه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ .

فذكر في التفسير أنه كان ابن ثلاث سنين .

وقال للكوكب والقمر والشمس ما قال ، إلىٰ أن قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ .

جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه علىٰ صبيان يلعبون ، فتفرقوا من هيبته ولم يبرح ابن الزبير ، فقال : ما لك لا تبرح ؟ فقال : ما الطريق ضيقة فأوسعها لك ، ولا لي ذنب فأخافه .

وقال الرشيد لابن وزيره وهو في داره : أيما أحسن ، دارنا أو داركم ؟ فقال : دارنا ، فقال : لم ؟ قال : لأنك فيها .

ويتبين فهم الصبي وعلو همته وتقصيره باختباراته .

وقد يجتمع الصبيان لِلعبٍ ، فيقول العالي الهمة : من يكون معي ؟ ويقول قاصر الهمة : من أكون معه ؟ ومن علت همته . . تراءى العلم . اهـ

وقال أبو العلاء المعري : [من البسيط]

لا يستوي ابناك في خَلْق ولا خُلُقٍ ... إن الحديدةَ أُمُّ السيفِ والحلمِ
فاضرب وليدَك وادْلُلْه علىٰ رَشَدٍ ... ولا تقل هو طفلٌ غيرُ مُحْتلمِ
فربَّ شقٍّ برأسٍ جرَّ منفعةً ... وقِسْ بذلك شقَّ الرأس بالقلمِ[2]

وقال الثوري : ينبغي للرجل أن يكره ولده علىٰ طلب الحديث[3] .

---

(١) انظر « المنتظم » لابن الجوزي (٤/ ٤٠٤) .
(٢) انظر « لزوم ما لا يلزم » (٢/ ٤٥٤) ، وليس فيه البيت الأول .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٥) .

وقال : إن هـٰذا الحديث عزيز ، من أراد به الدنيا . . وجدها ، ومن أراد به الآخرة . . وجدها[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموا أبناءكم السباحة والرماية ، والمرأةَ المغزلَ » رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ثم قال : في سنده عُبيد العطار ، وهو منكر الحديث[2] .

وعن أبي رافع رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ أللولد علينا حق كحقنا عليهم ؟ قال : « نعم ، حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والرمي وأن يورِّثه طيباً » رواه البيهقي .

ثم قال : (في سنده عيسىٰ بن إبراهيم وهو يروي ما لا يتابع عليه)[3] اهـ[4]

قال الإمام الغزالي في كتاب « نصيحة الملوك » : (قال ابن عباس رضي الله عنهما : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلىٰ بيت أم سلمة ، فرآها قد صلت الصبح وهي تسبح ، فقال : « يا أم سلمة ؛ لم لا تصلين في جماعة ؟ ولم لا تصلين الجمعة ؟ ولم لا تحجين وتجاهدين وتختمين القرآن ؟ » فقالت : يا رسول الله ؛ هـٰذه من أعمال الرجال ، فقال : « وللنساء أيضاً ما يعادل هـٰذه الأعمال » قالت : وما تلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا أدت المرأة فريضة ربها ، وأطاعت بعلها ، وحركت المغزل . . كانت تُسبِّح ما دام المغزل في يدها ، وكانت كأنها تصلي في جماعة ، وإذا طحنت لأجل أطفالها . . غفرت ذنوبها ، وغَزْل المرأة بمغزلها مثلُ عمارة القناطر والربط ، ومن صوت مغزلها تقتحم حيطان بيتها ، وثلاثة أصوات تبلغ إلىٰ تحت العرش : قسي الغزاة المجاهدين ، وصرير أقلام العلماء ، وأصوات مغازل المصونات من النساء) .

ثم نرجع إلىٰ حقوق الولد على الوالد .

فإذا بلغ الولد . . فينبغي للوالد أن يزوجه ؛ لما روي عن أبي سعيد وابن عباس رضي الله

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٦٥ـ٣٦٦) .
(٢) شعب الإيمان (٨٢٩٧) .
(٣) شعب الإيمان (٨٢٩٨) .
(٤) في (أ) : (انتهىٰ عارضة) ، وفي (ب) : (انتهىٰ وعارضه) ، ولم يظهر المعنىٰ ، فليُحرَّر .

عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولد له ولد . . فليحسن اسمه وأدبه ، فإذا بلغ . . فليزوجه ، فإن بلغ ولم يزوجه وأصاب إثماً . . فإنما إثمه علىٰ أبيه »[1] .

وعن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « في التوراة مكتوب : من بلغت ابنته اثنتي عشرة سنة ولم يزوجها ، فأصابت إثماً . . فإثم ذلك عليه » روى الحديثين البيهقي في « شعب الإيمان »[2] .

وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي : (إذا راهق الصبي . . فينبغي لأبيه أن يزوجه ؛ فقد جاء في الحديث : « من بلغ له ولد ، فأمكنه أن يزوجه ، فلم يفعل ، فأحدث الولد . . كان الإثم بينهما » .

والعجب كيف ينسى الوالد ما جرىٰ له عند البلوغ ؟! وإن كان قد وقع في زلة . . فليقس حال ولده عليه) اهـ

فإذا تقرر ذلك . . فليزوج ابنه ديِّنةً حسناء ، حسنة الخلق ، خفيفة المهر ، بكراً ولوداً ، نسيبة غير ذات قرابة قريبة .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : (فهٰذه الخصال الثمانية هي المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ؛ ليدوم العقد ، وتتوفر مقاصده)[3] .

ثم قال : (ويجب على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزوج ، وينظر لكريمته ، فلا يزوجها ممن ساء خُلُقه وخَلْقه ، أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقها ، أو كان لا يكافئها في نسبها ، قال صلى الله عليه وسلم : « النكاح رق ، فلينظر أحدكم أين يضع كريمته »[4] .

والاحتياط في حقها أهم ؛ لأنها رقيقة بالنكاح لا مخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال ، ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر . . فقد جنىٰ علىٰ دينه ، وتعرض لسخط الله بما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩٩) .
(٢) شعب الإيمان (٨٣٠٢ـ٨٣٠٣) .
(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٧) .
(٤) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٨٢) موقوفاً علىٰ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، ثم قال : (وروي ذلك مرفوعاً ، والموقوف أصح) .

قال رجل للحسن رحمه الله تعالىٰ : قد خطب ابنتي جماعة ، فمن أزوجها ؟ قال : ممن يتقي الله ؛ فإنه إذا أحبها . . أكرمها ، وإن أبغضها . . لم يظلمها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من زوج كريمته من فاسق . . فقد قطع رحمها »)[1] اهـ[2]

وهـٰذا آخر ما تجب مراعاته في حق الولد .

ثم بعد ذلك يجب له ما يجب للرحم ، بل حقه آكد من حق الرحم البعيد .

قال الإمام الغزالي : (وقد قيل : ولدك ريحانتك [تشمها] سبعاً ، ثم خادمك سبعاً ، ثم هو عدوك أو شريكك .

وقال أنس رضي الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الغلام يعق عنه يوم السابع ، ويسمىٰ ويماط عنه الأذىٰ ، فإذا بلغ ست سنين . . أدب ، فإذا بلغ سبع سنين[3] . . عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة . . ضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة . . زوجه أبوه ، ثم أخذ بيده وقال : قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك ، وأعوذ بالله من فتنتك في الدنيا ، وعذابك في الآخرة) اهـ[4]

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الولد سيد سبع سنين ، وعبد سبع سنين ، ووزير سبع سنين ، فإن رضيت مكاتفته لإحدىٰ وعشرين . . وإلا فاضرب علىٰ جنبه ؛ فقد أعذرت إلى الله عز وجل » رواه الطبراني في « الأوسط » ، كذا أخرجه الهيثمي في « مجمع الزوائد »[5] .

وفقنا الله تعالىٰ للعمل بعلومنا ، ولا يسلبنا فوائد فهومنا ، وجنبنا الرياء في العلم والعمل ، والخطأ والزلل ؛ فإنه ولي ذلك والقادر عليه ، آمين .

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٣٣٤) من قول الشعبي رحمه الله ، وابن حبان في « المجروحين » (١/ ٢٨٨) مرفوعاً .

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٤١) .

(٣) في « الإحياء » : (تسع سنين) .

(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٧) .

(٥) المعجم الأوسط (٦١٠٠) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٦٢) .

الباب الرابع

في حقوق المشايخ والمريدين والتلامذة وآدابهم

اعلم ـ علمك الله تعالى الخير ، ووفقك له ، وجنبك الشر وعمله ـ أن السبب قائم مقام المسبب ، وأن للوسائل حكم المقاصد .

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة »[1] .

وأن المرء يشرف بشرف عمله ، وينقص بنقصه ، والعلم هو أشرف ما اكتسبه العبد ، وشيخك هو المخرج لك من ظلمة الجهل إلىٰ نور العلم ، والموصل لك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلولا الشيخ . . لما اتصلت به .

ثم إنه لا بد من معرفة فضل العلم والعلماء ، وآداب العالم والمتعلم ، وقد صنف العلماء ـ نفعنا الله تعالىٰ بهم ـ في فضيلة العلم والعلماء وآدابهم كتباً منتشرة ، وقرروها بالآيات والأحاديث والآثار ، وأنا أشير إلىٰ طرف من ذلك ؛ لئلا يخلو هٰذا الكتاب من فائدته ، ورتبته علىٰ ستة فصول :

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧) ، ومسلم (٦٤٩/ ٢٧٣) ، واللفظ للبخاري .

الفصل الأول

في فضل العلم والعلماء وما ورد في ذلك من كتاب الله تعالىٰ والأحاديث والآثار

أما الكتاب العزيز . . فقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ .

فأظهر سبحانه وتعالىٰ كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام ؛ بأن أظهر علمه ، فلو كان في الإمكان شيء أشرف من العلم . . لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ .

(والمراد من أولي الأمر : العلماء في أصح الأقوال ؛ لأن الملوك تجب عليهم طاعة العلماء ، ولا ينعكس) قاله الإمام الرازي[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فبدأ بنفسه ، ثم ثنىٰ بملائكته وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهـٰذا شرفاً وفضلاً وجلالةً ونبلاً . قاله الإمام الغزالي[٢] .

ثم جعلهم في المرتبة الثانية في آيتين فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ .

قال ابن عباس : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبع مئة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمس مئة عام . رواه الإمام الغزالي في « الإحياء »[٣] .

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٧٩) .

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٥) .

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٥) . وقوله : (رواه) يوهم أن الإمام الغزالي رحمه الله رواه بالسند ، وليس الأمر =

وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ فيه تنبيه علىٰ أنه اقتدر عليه بقوة العلم .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فيه تنبيه علىٰ أن عظم قدر ثواب الآخرة يعلم بالعلم .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ رد حكمه في الوقائع إلى استنباط العلماء ، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكمه تعالىٰ .

وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ يعني العلم ﴿ وَرِيشًا ﴾ يعني اليقين ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي الحياء .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ .

وقال تعالىٰ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ هٰذا أدل الدليل علىٰ نفاسته ، وعلو مرتبته ، وشدة محبة الله إياه ؛ حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالدعاء بالازدياد منه خاصة دون غيره .

قال قتادة : لو اكتفىٰ أحد من العلم . . لاكتفىٰ موسىٰ ولم يقل : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ فسمى العلم عظيماً .

ووصف الله سبحانه وتعالى العلماء في كتابه بخمس مناقب :

إحداها : الإيمان ، ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ .

= كذلك ، ومثله أيضاً قوله : (أخرجه الهيثمي في « المجمع ») فكان ينبغي أن يقول : (ذكره) أو (أورده) ، وقد حصل للمؤلف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ مثلُ هٰذا في غير موضع ، فيقال فيه ما قيل هنا ، والله أعلم .

ثانيها : التوحيد والشهادة ، ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

ثالثها : البكاء ، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ .

رابعها : الخشوع ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ .

خامسها : الخشية ، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وهـٰذه الآية أيضاً دالة علىٰ أنهم من أهل الجنة ، لقوله تعالىٰ : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ ولقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ .

وقرىء : ﴿إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ﴾ برفع الأول ، ونصب الثاني ، ومعنىٰ هـٰذه القراءة : أنه لو جازت عليه الخشية . . لما خشي إلا العلماء ؛ لأنهم الذين يميزون بين ما يجوز وبين ما لا يجوز ، ففي هـٰذه القراءة نهاية المنصب والتعظيم للعلماء[1] .

(واعلم أن هـٰذه الآية فيها تخويف شديد ، وذلك أنه ثبت أن الخشية من الله تعالىٰ من لوازم العلم بالله ، فعند عدم الخشية يلزم عدم العلم بالله .

وهـٰذه الدقيقة تنبهك علىٰ أن العلم الذي هو سبب القرب من الله هو الذي يورث الخشية ، فإن أنواع المجادلات وإن رقت وعظمت . . إذا خلت عن إفادة الخشية . . كانت من العلم المذموم) قاله الإمام الرازي[2] .

والآيات في ذلك كثيرة ، وفي بعض ما أوردناه كفاية .

وأما الأحاديث . . فكثيرة أيضاً ، فمن ذلك :

قوله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين ؛ رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىٰ هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »[4] .

---

(١) انظر « الدر المصون » للسمين الحلبي (٩/ ٢٣١) ، و« الكشاف » للزمخشري (٣/ ٢٦٠) .
(٢) تفسير الرازي (٢/ ١٨٧) .
(٣) أخرجه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .
(٤) أخرجه البخاري (١٤٠٩) ، ومسلم (٨١٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً ، خير لك من حمر النعم »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلىٰ هدىً . . كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلىٰ ضلالة . . كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم . . انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من خرج في طلب العلم . . فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي علىٰ أدناكم »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله وملائكته ، وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر . . ليصلون علىٰ معلمي الناس الخير »[6] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لن يشبع مؤمن من خير حتىٰ يكون منتهاه الجنة »[7] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، وعماد هـٰذا الدين الفقه ، وما عبد الله بأفضل من فقه في الدين »[8] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقاً يبتغي فيها علماً . . سهل الله له طريقاً إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) ، وابن حبان (١١٢) ، وأبو داوود (٤٦٠٩) ، والترمذي (٢٦٧٤) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) ، وابن حبان (٣٠١٦) ، وأبو داوود (٣٨٨٠) ، والترمذي (١٣٧٦) ، وغيرهم .

(٤) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢١٢٠) ، والترمذي (٢٦٤٧) .

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) موصولاً ، والدارمي (٢٩٧) عن مكحول رحمه الله مرسلاً .

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٧) أخرجه الترمذي (٢٦٨٦) .

(٨) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٢٠٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٦١٦٢) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١/١٢٦) : (. . . وفيه يزيد بن عياض ، وهو كذاب) . وأخرج الترمذي (٢٦٨١) ، وابن ماجه (٢٢٢) المقطع الأول منه .

الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ؛ رضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه . . أخذ بحظٍ وافر »[1] .

وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر إلىٰ عتقاء الله من النار . . فلينظر إلى المتعلمين ، فوالذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلىٰ باب العالم . . إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة ، وبنىٰ له بكل قدم مدينة في الجنة ، ويمشي على الأرض والأرض تستغفر له ، ويمسي ويصبح مغفوراً له ، وشهدت الملائكة لهم بأنهم عتقاء الله من النار » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من طلب العلم لغير الله . . لم يخرج من الدنيا حتىٰ يأبىٰ عليه العلم فيكون لله ، ومن طلب العلم لله . . فهو كالصائم نهارَه ، وكالقائم ليلَه ، وإن باباً من العلم يتعلمه خير له من أن يكون له أبو قبيس ذهباً فأنفقه في سبيل الله تعالىٰ » .

قال صلى الله عليه وسلم : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ؛ ليحيي به الإسلام . . فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ خلف عالم . . من العلماء . . فكأنما صلىٰ خلف نبي من الأنبياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من اتكأ علىٰ يديه عالم . . كتب الله له بكل خطوة عتق رقبة ، ومن قبل رأس عالم . . كتب الله له بكل شعرة حسنة »[3] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد سبعون درجة ، بين كل درجتين حُضْر الفرس سبعين عاماً ، وذلك أن الشيطان

---

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .
(٢) أخرجه الدارمي (٣٦٦) عن الحسن رحمه الله مرسلاً .
(٣) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٥٩١٧) .

يضع البدعة للناس ، فيبصرها العالم فيزيلها ، والعابد يقبل علىٰ عبادته لا يتوجه لها ، ولا يتعرض لها »[1] .

(الحُضْر) بالحاء المهملة والضاد المعجمة : العَدو .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رحمة الله علىٰ خلفائي » فقيل : يا رسول الله ؛ ومن خلفاؤك ؟ قال : « الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله »[2] .

وعن عامر الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتىٰ بمداد طالب العلم ودم الشهداء يوم القيامة لا يفضل أحدهما على الآخر »[3] .

وفي رواية : « فيرجح مداد العلماء » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالىٰ للعلماء : إني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم ، ادخلوا الجنة علىٰ ما كان منكم »[4] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من اغبرت قدماه في طلب العلم . . حرم الله جسده على النار ، واستغفر له ملكاه ، وإن مات في طلبه . . مات شهيداً ، وكان قبره روضة من رياض الجنة ، ويوسع له في قبره مدَّ بصره ، وينور علىٰ جيرانه أربعين قبراً عن يمينه ، وأربعين عن يساره ، وأربعين من خلفه ، وأربعين أمامه ، ونوم العالم عبادة ، ومذاكراته تسبيح ، ونَفَسه صدقة ، وكل قطرة نزلت من عينيه تطفىء بحراً من جهنم ، فمن أهان العالم . . أهان العلم ، ومن أهان العلم . . فقد أهان النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أهان النبي صلى الله عليه وسلم . . فقد أهان جبريل ، ومن أهان جبريل . . فقد أهان الله ، ومن أهان الله . . أهانه يوم القيامة » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء والعلماء والشهداء »[5] .

---

(١) ذكره الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/ ١٣٢) ثم قال : (رواه الأصبهاني ، وعَجُر الحديث يشبه المدرج) ، وأخرج ابن عدي في « الكامل » (٤/ ١٣٤) المقطع الأول منه .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٦١) .

(٣) أخرجه القزويني في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ٤٨١) ، وانظر « لسان الميزان » (٧/ ٢٤٥) .

(٤) أخرجه ابن كثير في « تفسيره » (٣/ ١٤١) .

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣) .

قال الراوي : فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم ؛ فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه وتعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه من معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل الجنة ، والأنيس من الوحشة ، والصاحب في الوحدة ، والمُحَدِّث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادةً هداةً يهدي بهم ، وأئمة في الخير ، تقتفىٰ آثارهم ، ويقتدىٰ بأفعالهم ، وينتهىٰ إلىٰ آرائهم ، ترغب الملائكة في خُلَّتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وفي صلاتها تستغفر لهم ، حتىٰ كل رطب ويابس ، وحتىٰ حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ؛ لأن العلم حياة القلوب من العمىٰ ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأحرار ، ومجالس الملوك ، والدرجات العلىٰ في الدنيا والآخرة ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله ويعبد ، وبه يمجد ويوحد ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام » رواه الإمام الرازي في « تفسيره »[1] . وروى الإمام النووي من أوله إلىٰ قوله : « قربة » عن معاذ ولم يرفعه[2] .

وكذا ذكره جميعه الإمام الغزالي في « الإحياء » عن معاذ موقوفاً ، قال : (ورأيته أيضاً مرفوعاً)[3] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مررتم برياض الجنة . . فارتعوا » قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر »[4] .

وعن عطاء قال : مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام ، كيف تشتري وتبيع ، وتصلي وتصوم ، وتنكح وتطلق ، وتحج وأشباه هٰذا[5] .

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٩٠) .
(٢) المجموع (١/ ٣٦) .
(٣) إحياء علوم الدين (١/ ١١) ، والحديث أخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٨) و(٢٦٩) مرفوعاً وموقوفاً .
(٤) أخرجه الترمذي (٣٥١٠) ، وأحمد (٣/ ١٥٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٣٢) .
(٥) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٤٣٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مجلس فقه خير من عبادة سنة » .

وعن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يسير الفقه خير من كثير العبادة »[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل العبادة الفقه »[2] .

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : أن أمة محمد علماء حكماء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضىٰ منهم باليسير من العمل ، ويدخلون الجنة بلا إله إلا الله[3] .

الآثار : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرَّ بسوق المدينة ، فوقف عليها فقال : يا أهل السوق ما أعجزكم! قالوا : وما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم ههنا! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه . قالوا : وأين هو ؟ قال : في المسجد ، فخرجوا سراعاً ، ووقف أبو هريرة لهم حتىٰ رجعوا .

فقال لهم : ما لكم ؟ فقالوا : يا أبا هريرة ؛ قد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يقسم ، فقال لهم أبو هريرة : وما رأيتم في المسجد أحداً ؟ قالوا : بلىٰ ، رأينا قوماً يصلون ، وقوماً يقرؤون القرآن ، وقوماً يتذاكرون الحلال والحرام ، فقال لهم أبو هريرة : ويحكم ، فذلك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم[4] .

وعن علي رضي الله عنه قال : العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله .

وعن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : باب من العلم نعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعاً ، وباب من العلم نعلمه ـ عمل به أو لم يعمل به ـ أحب إلينا من مئة ركعة تطوعاً .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٣٥) .
(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٩٢٦٠) .
(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٣٨٢) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٤٥١) .

وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا جاء [طالبَ العلم] الموتُ وهو علىٰ ذلك الحال . . مات وهو شهيد »[1] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة .

وعن الحسن البصري قال : لأن أتعلم باباً من العلم ، فأعلمه مسلماً . . أحب إلي من أن تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله .

وعن سفيان الثوري والشافعي رضي الله عنهما : ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وعن أحمد ابن حنبل ـ وقيل له : أي شيء أحب إليك ؛ أجلس من الليل أنسخ ، أو أصلي تطوعاً ؟ ـ قال : نَسْخُك تعلم به أمر دينك ، فهو أحب إلي .

وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة : أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد ، فالعلماء دلوا الناس علىٰ ما جاءت به الرسل ، وأهل الجهاد جاهدوا علىٰ ما جاءت به الرسل .

وعن سفيان بن عيينة : أرفع الناس عند الله تعالىٰ منزلة من كان بين الله وعباده ، وهم الرسل والعلماء .

وعن سهل التستري : من أراد النظر إلىٰ مجالس الأنبياء . . فلينظر إلىٰ مجالس العلماء ، فاعرفوا لهم ذلك .

وقال أبو مسلم الخولاني : مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء ، إذا بدت للناس . . اهتدوا بها ، وإذا خفيت عليهم . . تحيروا .

قال الإمام القشيري رحمه الله تعالىٰ : (جعل الله المسلمين علىٰ مراتب ؛ فعوامهم كالرعية للملك ، وكتبة الحديث كخزان الملك ، وأهل القرآن كحفاظ الذخائر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للملك ؛ إذ الفقيه يوقع عن الله تعالىٰ ، وعلماء الأصول كالقواد وأمراء الجيوش ، والأولياء كأركان الباب ، وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٦٧) .

فشغل قوماً بحفظ أركان الشرع ، وآخرين بإمضاء الأحكام ، وآخرين بالرد على المخالفين ، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعل قوماً منفردين بحضور القلب ، وهم أصحاب الشهود ليس لهم شغل ، يراعون مع الله أنفاسهم ، وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزهم طلب ، ولا يهزُّهم إصر ، فهم بالله لله ، يمحو ما سوى الله .

وأما الذين يتفقهون في الدين . . فهم الراغبون ، وإنما يفهم الخلق عن الله إذا كان يفهم عن الله) اهـ

وقال وهب بن منبه : يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنيّاً ، والعز وإن كان هيناً ، والقرب وإن كان قصياً ، والغنىٰ وإن كان فقيراً ، والنبل وإن كان حقيراً ، والمهابة وإن كان وضيعاً ، والسلامة وإن كان سفيهاً[(١)] .

أوصىٰ بعض الحكماء أولاده فقال : يا بني عليكم بالعلم ؛ فإنكم إن كنتم سادة . . فقتم ، وإن كنتم أوساطاً . . فزتم ، وإن كنتم سوقة . . عشتم ، واعلموا أن شر العلم السحر ، وبه دخل سحرة فرعون الجنة ، فإذا كان هـٰذا علم السحر دخل به أصحابه الجنة . . فما ظنكم بالعلم بالكتاب والسنة ؟! اهـ

وقد قيل : العالم كالعين العذبة ، نفعها دائم ، وكالسراج ، من مرَّ به . . اقتبس .

وقال الشافعي رضي الله عنه : من أراد الدنيا . . فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة . . فعليه بالعلم . ومن لا يحب العلم . . فلا خير فيه ، ولا يكون بينك وبينه معرفة ولا صداقة[(٢)] .

وقال : إن لم يكن العلماء أولياء الله . . فليس لله ولي[(٣)] .

وقال : من تعلم القرآن . . عظمت قيمته ، ومن نظر في الفقه . . نبل قدره ، ومن نظر في اللغة . . رق طبعه ، ومن نظر في الحساب . . جزل رأيه ، ومن كتب الحديث . . قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه . . لم ينفعه علمه[(٤)] .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/ ٣٩٥) .

(٢) ذكر الإمام النووي المقطع الأول في « تهذيب الأسماء واللغات » (١/ ٥٤) ، وأخرج ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤٠٧) المقطع الثاني .

(٣) أخرجه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٥) بلفظ : (إن لم يكن الفقهاء . . .) .

(٤) أخرجه البيهقي في « المدخل » (٥١١) ، والخطيب في « التاريخ » (١١/ ٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٣) .

وقال علي رضي الله عنه : العلم أفضل من المال بسبعة أوجه :

أحدها : العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة .

الثاني : العلم لا ينقص بالنفقة ، والمال ينقص .

والثالث : المال يحتاج إلىٰ حافظ ، والعلم يحفظ صاحبه .

والرابع : إذا مات الرجل . . يبقىٰ ماله ، والعلم يدخل معه القبر .

والخامس : المال يحصل للمؤمن والكافر ، والعلم لا يحصل إلا للمؤمن .

والسادس : جميع الناس يحتاجون إلى العالم في دينهم ، ولا يحتاجون إلىٰ صاحب المال .

السابع : العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط ، والمال يمنعه منه .

وقال الفقيه أبو الليث : (إن من جلس عند العالم ولا يقدر أن يحفظ من ذلك العلم شيئاً . . فله سبع كرامات :

أولاها : ينال فضل المتعلمين .

الثانية : ما دام جالساً عنده . . كان محبوساً عن الذنوب .

الثالثة : إذا خرج من منزله طلباً للعلم . . نزلت الرحمة عليه .

الرابعة : إذا جلس في حلقة العلم ، فإذا نزلت عليهم السكينة والرحمة . . حصل له منها نصيب .

الخامسة : ما دام في استماع . . يكتب له طاعة .

السادسة : إذا استمع ولم يفهم . . ضاق قلبه بحرمانه إدراك العلم ، فيصير ذلك الغم وسيلة إلىٰ حضرة الله تعالىٰ ؛ لقوله : (أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي)[١] .

السابعة : يرىٰ إعزاز المسلمين للعالم ، وإذلالهم للفاسق ، فيرد قلبه عن الفسق ، ويميل طبعه إلى العلم ، ولهـٰذا أمر عليه الصلاة والسلام بمجالسة الصالحين)[٢] .

---

(١) انظر « الأسرار المرفوعة » للقاري (ص١٣٧) .

(٢) انظر « تنبيه الغافلين » (ص ٤٣٩ـ٤٤٠) .

في الإنجيل في السورة السابعة عشرة منه :

قال الله تعالىٰ : (ويل لمن سمع بالعلم فلم يطلبه ، كيف يحشر مع الجهال إلى النار ، اطلبوا العلم وتعلموه ، وإن العلم إن لم يسعدكم . . لم يشقكم ، وإن لم يرفعكم . . لم يضعكم ، وإن لم يغنكم . . لم يفقركم ، وإن لم ينفعكم . . لم يضركم ، ولا تقولوا : نخاف أن نعلم ولا نعمل ، ولـٰكن قولوا : نرجوا أن نعلم فنعمل .

والعلم يشفع لصاحبه ، وحقٌّ على الله ألاَّ يخزيه ، إن الله تعالىٰ يقول يوم القيامة : يا معشر العلماء ؛ ما ظنكم بربكم ؟ فيقولون : ظننا أن يرحمنا ويغفر لنا ، فيقول : فإني قد فعلت ، إني استودعتكم علمي لا لشر أردته بكم ، بل لخير أردته بكم ، فادخلوا في صالح عبادي إلىٰ جنتي برحمتي) .

وعن الحسن البصري قال : صرير قلم العلماء تسبيح ، وكتابة العلم والنظر فيه عبادة ، وإذا أصاب من ذلك المداد ثوبه . . فكأنما أصابه دم الشهداء ، وإذا قطر منه على الأرض . . تلألأ نوره ، وإذا قام من قبره . . نظر إليه أهل الجمع ، فيقال : هـٰذا عبد من عباد الله ، أكرمه الله وحشره مع الأنبياء عليهم السلام .

قال الإمام الرازي : (نقول : من علم أسماء المخلوقات . . وجد التحية من الملائكة ، ومن علم ذات الخالق وصفاته أما يجد تحية الملائكة ؟ بل [يجد] تحية الرب : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ .

الخضر وجد بعلم الفراسة صحبة موسىٰ ، وأمة الحبيب بعلم الحقيقة ، فكيف لا يجدون صحبة محمد صلى الله عليه وسلم ؟! ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ .

يوسف بتأويل الرؤيا نجا من الحبس في الدنيا ، فمن كان عالماً . . فكيف لا ينجو من حبس الشبهات ؟! ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾)[1] .

ثم ذكر نكتاً :

منها : قال : (المعصية عند الجهل لا يرجىٰ زوالها ، وعند السهو يرجىٰ زوالها ، انظر

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٨٤) .

إلىٰ آدم عليه السلام ؛ فإنه بعلمه استغفر ، والشيطان غوىٰ وبقي في غيه أبداً ؛ لأن ذلك كان بسبب الجهل .

ومنها : أن يوسف عليه السلام لما صار ملكاً . . احتاج إلىٰ وزير ، فسأل ربه عن ذلك ، فقال جبريل : إن ربك يقول لك : لا تختر إلا فلاناً ، فرآه يوسف في أسوأ الأحوال ، فقال لجبريل : إنه كيف يصلح لهٰذا العمل مع سوء حاله ؟! فقال جبريل عليه السلام : إن ربك عينه لذلك ؛ لأنه ذَبَّ عنك حين قال : ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ .

والنكتة : أن الذي ذب عن يوسف يستحق الشركة في مملكته ، فمن ذب عن الدين القويم بالبرهان المستقيم . . فكيف لا يستحق من الله تعالى الإحسان والتحسين ؟!

ومنها : أراد واحد خدمة ملك ، فقال : اذهب وتعلم حتىٰ تصلح لخدمتي ، فلما شرع في التعلم وذاق لذة العلم . . بعث الملك إليه وقال : اترك التعلم ؛ فقد صرت أهلاً لخدمتي ، فقال : كنت أهلاً لخدمتك حين لم ترني أهلاً لخدمتك ، وحين رأيتني أهلاً لخدمتك رأيت نفسي أهلاً لخدمة الله تعالىٰ ، وذلك أني كنت أظن أن الباب بابك ، والآن علمت أن الباب باب الرب .

ومنها : تحصيل العلم إنما صعب عليك ؛ لفرط حبك في الدنيا ؛ لأنه تعالىٰ أعطاك سواد العين وسويداء القلب ، ولا شك أن السواد أكبر من السويداء في اللفظ ؛ لأن السويداء تصغير السواد ، ثم إذا وضعت علىٰ سواد عينك جزءاً من الدنيا . . لا ترىٰ شيئاً ، فكيف إذا وضعت على السويداء كل الدنيا ، فكيف ترىٰ بقليل شيئاً ؟!

ومنها : قالت نملة : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ إلىٰ قوله : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

كانت رياسة تلك النملة علىٰ غيرها بسبب أنها علمت مسألة ، وهي كأنها قالت : إن سليمان معصوم ، والمعصوم لا يجوز منه إيذاء البريء عن الجرم ، ولـٰكنه لو حطمكم . . فإنما يصدر ذلك منه علىٰ سبيل السهو ؛ لأنه لا يعلم حالكم ، فقوله : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه إشارة إلىٰ تنزيه الأنبياء عن المعصية ، فلما علمت هـٰذه المسألة الواحدة . . استحقت الرياسة التامة .

فمن علم حقائق الأشياء من الموجودات والمعدومات.. كيف لا يستوجب الرياسة في الدنيا .

ومنها : الكلب إذا تعلم وأرسله صاحبه على اسم الله تعالىٰ.. صار صيده النجس طاهراً .

والنكتة : أن هناك العلم انضم إلى الكلب ، فصار ببركة العلمِ النجسُ طاهراً ، فهٰهنا النفس والروح طاهرتان في أصل الفطرة ، إلا أنها تلوثت بأوزار المعصية ، ثم انضم إليها العلم بالله وبصفاته ، فنرجو من عميم لطفه أن ينقلب النجس طاهراً ، والمردود مقبولاً)[1] .

فإذا تقرر فضل العلم والعلماء العاملين.. عرفت أنهم أفضل البشر بعد الأنبياء ؛ لأنهم أمناء الله علىٰ خلقه ، وخلفاؤه الآمرون بأمره ، والناهون بنهيه .

قال صلى الله عليه وسلم : « العالم أمين الله في الأرض »[2] .

وقال الإمام الغزالي : (أشرف موجود على الأرض جنس الإنس ، وأشرف جزء من الإنسان قلبه ، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى الله تعالىٰ .

فتعليم المعلم من وجه عبادة لله تعالىٰ ، ومن وجه خلافة لله تعالىٰ ، وهو [من] أجل خلافة [الله] ، فإن الله تعالىٰ قد فتح علىٰ قلب العالم العلم الذي هو أخص صفاته ، فهو كالخازن لأنفس خزائنه ، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه علىٰ كل محتاج إليه ، فأي رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفىٰ ، وسياقتهم إلىٰ جنة المأوى ؟!) اهـ[3]

فيجب احترامهم واحتشامهم وإكرامهم وتعظيم حرماتهم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (٢/ ١٩٣ـ١٩٤) .
(٢) أخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥١) .
(٣) إحياء علوم الدين (١/ ١٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل قال : من عادىٰ لي ولياً . . فقد آذنته بالحرب »[1] .

وعن الإمامين الجليلين الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما قالا : إن لم يكن الفقهاء أولياء الله . . فليس لله ولي[2] .

وفي كلام الشافعي رضي الله عنه : الفقهاء العاملون[3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من آذىٰ فقيهاً . . فقد آذىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن آذىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقد آذى الله عز وجل .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إني لا أخاف علىٰ أمتي إلا ثلاث خلال : أن تكثر لهم الدنيا فيتحاسدون ، وأن يفتح لهم الكتاب ، يأخذه المؤمن يبتغي تأويله ، وليس يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، وأن يروا ذا علمهم فيضيعوه ولا يبالوا عليه »[6] .

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله : (اعلم يا أخي ـ وفقنا الله وإياك

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) .
(٢) قاله القاري في « الأسرار المرفوعة » (ص١٥٣) ، وأخرجه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٥) عنه فقط .
(٣) أخرجه البيهقي في « المناقب » (٢/ ١٥٥) .
(٤) أخرجه الضياء في « المختارة » (٤٤٥) ، والحاكم (١/ ١٢٢) ، وأحمد (٥/ ٣٢٣) .
(٥) أخرجه معمر بن راشد في « الجامع » (٢٠١٣٦) والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « المدخل » (٦٦٧) .
(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٩٣) .

لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ـ أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله تعالىٰ في هتك أستار منتقصهم معلومة ، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثَّلب[1] . . بلاه الله تعالىٰ قبل موته بموت القلب ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾)[2] .

قال العلماء ـ نفعنا الله بهم ، ورزقنا محبتهم ، ووفقنا لاقتفاء آثارهم ـ : اعلم أن ما ذكرناه من الفضل في طلب العلم إنما هو فيمن طلبه مريداً به وجه الله تعالىٰ ، لا لعرض من الدنيا ، ومن أراده لعرض دنيوي ، كمال أو رياسة أو منصب أو وجاهة أو شهرة ، أو استمالة الناس إليه ، أو قهر المناظرين ، أو نحو ذلك . . فهو مذموم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ . . . الآية .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتي به ، فعرَّفه نعمة فعرفها ، فقال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولـٰكنك قاتلت ؛ حتىٰ يقال : جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرَّفه نعمهُ فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمتُ فيك العلم وعلمته ، وقرأت القرآن ، قال : كذبت ، ولـٰكنك تعلمتَ ؛ ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ؛ ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار »[3] .

---

(١) **الثلب** : شدة اللوم ، أو العيب .

(٢) انظر « تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري » (ص ٢٩ـ٣٠) .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥) ، والحاكم (١/١٠٧) ، والنسائي (٦/ ٢٣) ، وغيرهم .

قال الإمام البيهقي : (قال الحَليمي : ثبت بالقرآن والسنة أن كل عمل أمكن أن يراد به وجه الله تعالىٰ . . إذا لم يعمل لمجرد التقرب به إليه وابتغاء رضوانه . . حبط ، ولم يستوجب ثواباً ، إلا أن لذلك تفصيلاً ، وهو : إن كان ذاك العمل من جملة الفرائض وعملَه بنية أداء الفرض ؛ ليقول الناس : إنه فعول لكذا ، لا تطلُّباً لرضوان الله تعالىٰ ، واتقاء سخطه . . سقط عنه الفرض ، ولم يعاقب بما يعاقب به التارك ، ولا يستوجب ثواباً ، بل ثوابه ثناء الناس عليه [في الدنيا] ومدحهم إياه بما فعل .

وإن كان العمل تطوعاً ، ففعله يريد به وجوه الناس . . فأجره يحبط ولا يحصل من عمله علىٰ شيء يكون له كما حصل الأول علىٰ سقوط الفرض [عنه] .

ثم معاقبتهما علىٰ أنهما عملا لا لوجه الله تعالىٰ ، وباعا ثواب الله تعالىٰ بمحمدة الناس يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يقال : إن الذي جاء به الحديث من قول الله عز وجل : « فقد قيل » إخبار عن عقوبة الله له علىٰ عدوله عن قصد وجه الله تعالىٰ إلىٰ وجه الناس .

ومعنىٰ هـٰذا : أنه استخف حق الله ، واستهان بنعمته ، فلم يجز أن يقصر ذلك عن ذنب غيره ، والذنوب موجبة للعقاب ، فكذلك هـٰذا .

قلت : إلاَّ أن يعفو الله[1] .

والوجه الآخر : أنه لا يعاقب ولا يثاب ، ومعنى الحديث : أن هـٰذه الأعمال لا تنفعه حتىٰ تثقل بها كفة الطاعات ، لا أنه يعاقب على الرياء بالنار ، إنما عقوبة الرياء إحباط العمل فقط ؛ لأنه أراد بعمله حمد الناس ، فأحيل عليهم ، فجوزي بصنيعه ، وليس وراء ذلك ذنب يستوجب عقاباً ؛ لأن جميع عمله شيئان :

أحدهما : فعل لم يخْلُ من أن يكون فعَله عبادة لله تعالىٰ ؛ لأنه لو أراد عبادة غيره به . . لكفر .

والآخر : قصده أن يمدحه الناس بفعله ، لا أن يثاب عليه .

فأما الأول . . فليس بذنب ، وأما الثاني . . فهو الذنب .

---

(١) القول للإمام البيهقي رحمه الله .

فإذا لم يتب وقصر على قول الناس . . فقد جوزي ، فثبت أن ذلك قصارى أمره ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : تأويل الخبر : أن تكون له ذنوب غير ذلك ، ولم ترجح بهـٰذا الذي عمله رياءً كفةُ الطاعات كفةَ المعاصي ، فعوقب بالمعاصي ، لا بما فعل رياءً ، والله أعلم .

قال الإمام البيهقي : والحديث الذي رويناهُ عن أبي بن كعب أنه صلى الله عليه وسلم قال : « بشر هـٰذه الأمة بالتيسير والسنا ، والرفعة في الدين ، والتمكين في البلاد والنصر ، فمن عمل بعمل الآخرة للدنيا . . فليس له في الآخرة نصيبٌ » كالدلالة على هـٰذا الوجه ، والله أعلم)[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا . . لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعني : ريحها[2] .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من تعلم علماً ينتفع به في الآخرة ، يريد به عرضاً من الدنيا . . لم يرح رائحة الجنة »[3] .

قال الإمام النووي رحمه الله : (روي : « يرح » بفتح الياء مع فتح الراء وكسرها ، وروي بضم الياء مع كسر الراء ، ثلاث لغات مشهورة ، ومعناه : لم يجد ريحها) .

وعن أنسٍ وحذيفة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من طلب العلم ليماري به السفهاء ، ويكاثر به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه . . فليتبوأ مقعده من النار »[4] ، ورواه الترمذي من رواية كعب بن مالك وقال فيه : « أدخله الله النار »)[5] .

---

(١) انظر « شعب الإيمان » (٩/ ١٥٧ـ١٥٨) ، وانظر كلام الإمام الحليمي رحمه الله في كتابه « المنهاج في شعب الإيمان » (٣/ ١١٤ـ١١٥) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٨) ، والحاكم (١/ ٨٥) ، وأبو داوود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) ، وأحمد (٢/ ٣٣٨) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٧) .

(٤) حديث حذيفة رضي الله عنه عند ابن ماجه (٢٥٩) بمعناه ، وحديث أنس رضي الله عنه عند الضياء في « المختارة » (٢٤٨٠) بمعناه أيضاً .

(٥) الترمذي (٢٦٥٤) ، وانظر كلام الإمام النووي رحمه الله في « المجموع » (١/ ٤٢) .

ثم المقصود من العلم العمل ، فعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر ، وسحاب بلا مطر ، وقد ذم الله تعالى اليهود حيث لم يعملوا بعلمهم ، فقال تعالىٰ : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ . . . إلىٰ آخر الآية .

قال الإمام الواحدي : (هٰذه الآية من أشد الآي علىٰ ذوي العلم ، وذلك أن الله تعالىٰ أخبر أنه آتاه آياته من اسمه الأعظم ، والدعوات المستجابة ، والعلم والحكمة ، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوىٰ تغيير النعمة عليه ، والانسلاخ عنها ، ومن الذي يسلم من هاتين الحالتين إلا من عصمه الله ؟!) اهـ[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه»[٢] .

وعنه رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « شرار الناس شرار العلماء »[٣] .

وعن علي رضي الله عنه قال : يا حملة العلم ؛ اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ، ووافق علمَه عملُه ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيَهم ، يخالف عملُهم علمَهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم ، يجلسون حلقاً ، يباهي بعضهم بعضاً ، حتىٰ إن الرجل ليغضب علىٰ جليسه أن يجلس إلىٰ غيره ويدعه ، أولـٰئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالىٰ[٤] .

---

(١) الوسيط (٢/ ٤٢٧ـ٤٢٨) .
(٢) أخرجه القضاعي في « الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .
(٣) أخرجه البزار في « مسنده » (٢٦٤٩) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٤٤٧) كلاهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الدارمي (٣٩٤) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٣٢) .

وعن سفيان : ما ازداد عبد علماً فازداد في الدنيا رغبة . . إلا ازداد من الله بعداً[1] .

وقد قيل : كم من مذكر بالله ناسٍ لله ؟! وكم من مخوف من الله جريء على الله ؟! وكم من مقرب إلى الله بعيد عن الله ؟! وكم من داع إلى الله فار من الله ؟! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ؟!

وقد قال بعض المحققين : العلماء ثلاثة : عالم بالله غير عالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله غير عالم بالله ، وعالم بأمر الله وبالله .

أما الأول : فعبد استولت المعرفة الإلهية علىٰ قلبه ، فصار مستغرقاً بنور الجلال وصفات الكبرياء ، ولا يتفرغ لتعلم علم الأحكام .

وأما الثاني : فهو الذي عرف الحلال والحرام ، ودقائق الأحكام ، لٰكن لا يعرف أسرار جلال الله .

وأما العالم بالله وبأحكام الله : فهو جالس علىٰ حد مشترك ، فهو بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات ، فهو تارة مع الله بالجبلة ، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة ، فإذا رجع من ربه إلى الخلق . . صار معهم كواحد منهم ، كأنه لا يعرف الله ، فإذا خلا بربه مشتغلاً بذكره وخدمته . . فكأنه لا يعرف الخلق ، فهٰذا سبيل المرسلين والصديقين ، وهٰذا هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « سائل العلماء ، وخالط الحكماء ، وجالس الكبراء »[2] .

فالمراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « سائل العلماء » أي : العلماء بأمر الله غير العالمين به ، وأمر بمساءلتهم عند الحاجة إلى الاستفتاء منهم .

وأما الحكماء : فهم العالمون بالله الذين لا يعلمون أوامر الله ، فأمر بمخالطتهم .

وأما الكبراء : فهم العالمون بالله وبأحكام الله ، فأمر بمجالستهم ؛ لأن في مجالستهم منافع الدنيا والآخرة .

ثم قال شقيق البلخي : لكل واحد من هٰؤلاء الثلاثة ثلاث علامات :

---

(١) أخرجه الدارمي (٤٠٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٢٥) .

أما العالم بأمر الله : فأن يكون ذاكراً باللسان دون القلب ، وأن يكون خائفاً للخلق دون الربّ ، وأن يستحيي من الناس في الظاهر ولا يستحيي من الله في السر .

وأما العالم بالله : فأن يكون ذاكراً بالقلب لا باللسان ، خائفاً خوف الرياء لا خوف المعصية ، مستحيياً مما يخطر على القلب لا حياء الظاهر .

وأما العالم بالله وبأمر الله : فله ستة : الثلاثة التي ذكرناها للعالم بالله فقط ، مع ثلاثة أخرىٰ : كونه جالساً على الحد المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وكونه معلماً للقسمين الأولين بحيث يحتاج الفريقان الأولان إليه وهو يستغني عنهما .

ثم قال : مثل العالم بالله وبأمر الله كمثل الشمس ، لا تزيد ولا تنقص ، ومثل العالم بالله فقط كمثل القمر ، يكمل تارة وينقص أخرىٰ ، ومثل العالم بأمر الله كمثل السِّراج ، يحرق نفسه ويضيء لغيره .

وقال بعضهم في قوله تعالىٰ : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ : الماء ههنا : العلم ، شبهه الله بالماء ؛ لخمس خصال :

أحدها : كما أن المطر ينزل من السماء ، كذلك العلم ينزل من السماء .

الثاني : كما أن إصلاح الأرض بالمطر ، فإصلاح الخلق بالعلم .

الثالث : كما أن الزرع لا يخرج بغير المطر ، كذلك الأعمال والطاعات لا تخرج بغير العلم .

الرابع : كما أن المطر فرع الرعد والبرق ، كذلك العلم فرع الوعد والوعيد .

الخامس : كما أن المطر نافع وضار ، كذلك العلم نافع لمن عمل به ، ضار لمن لم يعمل به .

والأخبار والآثار في ذلك كثيرة ، وفي بعض ما أوردناه كفاية لمن أراد الله له الهداية ، وسبقت له منه العناية .

إلهي ؛ بإحسانك القديم ، وفضلك العميم . . نور قلوبنا بنور معرفتك .

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

في آداب العلم

اعلم أن اعتمادي علىٰ ما أورده الإمام النووي ـ رضي الله عنه ـ في « شرح المهذب »[1] فإنه ذكر آداب المعلم والمتعلم ، وبسط ذلك بسطاً وافياً ، وأوضحه إيضاحاً شافياً .

قال : من آداب المعلم : أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالىٰ ، ولا يشين عمله بشيء من الطمع وإن قل ، ولو كان في رفق يحصل من المشتغل عليه من خدمة أو مال .

وأن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها وحث عليها ، من الزهد في الدنيا ، والتقلل منها ، وعدم المبالاة بفواتها ، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه ، من غير خروج إلىٰ حد الخلاعة ، والحلم والصبر والتنزه عن دنيء الاكتساب ، ومداومة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع ، واجتناب الضحك والإكثار من المزح ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية [كالتنظف بإزالة الأوساخ ونتف الإبط وإزالة الروائح الكريهة] واجتناب الروائح الكريهة وتسريح اللحية .

أقول : لما ذكر الإمام أبو نعيم الحافظ في كتابه « رياضة المتعلمين » : وما يحسن بالعلماء أنه يستحب للعالم والمتعلم تقليم الأظفار وقص الشارب . . قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن خبر السماء ، فقال : « تسألني عن أخبار السماء وتدع أظفارك كأظفار الطير يجتمع فيها الخباثة والتفث ؟! » وقال : إن جبريل أبطأ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له فقال : « كيف لا يبطىء علي وأنتم حولي لا تستنون ، ولا تقلمون أظفاركم ، ولا تقصون شواربكم ، ولا تنقون رواجبكم ؟! » .

هي : ما بين عقد الأصابع من داخل ، واحدها : راجبة ، والبراجم : العقد في ظاهر الأصابع . « نهاية »[2] .

---

(١) من بداية هـٰذا الفصل إلىٰ بداية الفصل الرابع ملخص من كتاب « المجموع شرح المهذب » مع زيادات يسيرة وتقديم وتأخير في بعض المواضع ، انظر « المجموع » (١/ ٥٠ وما بعدها) .

(٢) النهاية (٢/ ١٩٧) .

فتأمل أيها العاقل هـٰذا الحديث ، وأن سبب إبطاء جبريل عليه عليهما السلام كون من حوله بالصفة المذكورة ، فكيف من لا يستعمل ذلك في نفسه ؟!

قال الإمام النووي : ومن آدابه : الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس ، وإن كانوا دونه بدرجات ، فهـٰذه أدواء وأمراض يبتلىٰ بها كثير من أصحاب الأنفس الخسيسات .

وأن يستعمل أحاديث التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات ، وسائر الآداب الشرعيات .

ويداوم مراقبة الله تعالىٰ في علانيته وسره ، ويحافظ علىٰ قراءة القرآن ، ونوافل الصلاة والصوم ، معولاً على الله في كل أمره ، معتمداً عليه مفوضاً أمره إليه .

ومن أهم آدابه : ألاَّ يذل العلم ، ولا يذهب به إلىٰ مكان ينسب إلىٰ من يتعلمه منه ، وإن كان المتعلم كبير القدر ، بل يصون العلم عن ذلك كما صانه السلف .

فإن دعت إلىٰ ذلك ضرورة ، أو اقتضته مصلحة راجحة علىٰ مفسدة ابتذاله . . رجونا أنه لا بأس به ما دامت الحالة هـٰذه ، وعلىٰ ذلك يحمل ما جاء عن بعض السلف في هـٰذا .

وإذا فعل فعلاً صحيحاً جائزاً في نفس الأمر ، ولـٰكن ظاهره أنه حرام ، أو مكروه ، أو مخل بالمروءة . . فينبغي له أن يخبر أصحابه بذلك ؛ لينتفعوا ، ولئلا يأثموا بظنهم الباطل ، ولئلا ينفروا عنه ويمتنع الانتفاع بعلمه ، ومن هـٰذا الحديث : « إنها صفية »[1] .

وينبغي ألاَّ يزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراءً ، ومطالعة وتعليقاً ، ومباحثة ومذاكرة وتصنيفاً .

ولا يستنكف من أخذ العلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين ، أو في علم آخر ، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده .

وألاَّ يستحيي من السؤال عما لا يعلمه ، وقد كان كثيرون من السلف يستفيدون من تلامذتهم ما ليس عندهم .

وينبغي أن تكون ملازمته بالعلم هي مطلوبه ، فلا يشتغل بغيره ، فإن اضطر إلىٰ غيره في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) .

وقت . . فعل ذلك بعد تحصيله وظيفته من العلم .

وينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له ، فبِهِ يطَّلع علىٰ حقائق العلم ودقيقه ، ويثبت [معه] لأنه يضطره إلىٰ كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة ، ويطلع به علىٰ مختلف كلام الأئمة ومتفقه ، وواضحه ومشكله ، وصحيحه وضعيفه ، وجزله وركيكه .

وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له ؛ فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه ، وليحذر من إخراج تصنيفه من يده قبل تهذيبه وترديد نظره فيه وتكريره .

وليحرص على العبارة الواضحة من غير أن ينتهي إلى الركاكة والإيجاز ، من غير أن يفضي إلى المحق والاستغلاق .

ويكون اعتناؤه بتصنيف ما لم يسبق إليه ، فإن كان . . فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها ، وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ، ويكثر الاحتياج إليه .

ومن آدابه : تعليم العلم ؛ إذ هو الأصل الذي به قوام الدين ، وبه يؤمن انمحاق العلم ، فهو من أهم أمور الدين ، وأعظم العبادات ، وآكد فروض الكفايات ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ . . . الآية .

وفي « الصحيح » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليبلغ الشاهد الغائب »[(١)] والأحاديث بمعناه كثيرة ، والإجماع منعقد عليه .

ويجب عليه أن يقصد بذلك وجه الله تعالىٰ ، ويستحضر في ذهنه كون التعليم آكد العبادات ؛ ليكون حاثاً له علىٰ تصحيح النية .

وينبغي ألاَّ يمتنع من تعليم أحد كونه غير صحيح النية ؛ فإنه يرجىٰ له حسن النية ، وربما عسر علىٰ كثير من المبتدئين تصحيح النية ؛ لضعف نفوسهم ، وقلة أنسهم بموجبات تصحيح النية ، فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلىٰ فوات كثير من العلم .

وقد قيل : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله ؛ أي : كانت عاقبته أن صار لله .

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤) ، ومسلم (١٣٥٤) .

وينبغي أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية ، ويعوده الصيانة في جميع أموره الكامنة والجلية .

فأول ذلك : أن يحرضه بأقواله وأفعاله على الإخلاص والصدق ، وحسن النيات ، ومراقبة الله تعالىٰ في جميع اللحظات ، وأن يدوم علىٰ ذلك إلى الممات ، ويعرفه أن بذلك تنفتح عليه أبواب المعارف ، وتتفجر من قلبه أنواع الحكم واللطائف ، ويبارك له في عمله وقوله وفعله[١] .

ويزهده في الدنيا ، والركون إليها ، والاغترار بها ، ويذكره أنها فانية ، والآخرة آتية باقية ، والتأهب للباقي طريق الحازمين ، وعباد الله الصالحين .

ويرغبه في العلم ، ويذكره فضائله ، وأن العلماء ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا رتبة أعلىٰ من ذلك .

وينبغي أن يحنو عليه ، ويعتني بمصالحه ، والصبر علىٰ جفائه ، وسوء أدبه ، ويعذره في سوء أدب وجفوة ، فإن الإنسان معرض للنقائص .

ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكون سمحاً ببذل ما حصله من العلم ، متلطفاً في إفادته طالبيه مع رفق ونصيحة .

ويحرص علىٰ حفظ ما يبذله لهم من الفوائد ، ولا يدخر عنهم شيئاً يحتاجون إليه إذا كان الطالب أهلاً لذلك ، ولا يلقي إليه شيئاً ما لم يتأهل له ؛ لئلا يفسد عليه حاله ، فإن سأله المتعلم عن ذلك . . لم يجبه ، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه .

ولا يتعظم على المتعلمين ، بل يلين لهم ويتواضع ، فقد أمر بالتواضع لآحاد الناس ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله أوحىٰ إلي ؛ أن تواضعوا »[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما تواضع أحد لله . . إلا رفعه الله »[٣] .

---

(١) في « المجموع » (١/ ٥٤) : (في قوله وفعله وحكمه) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) ، وأبو داوود (٤٨٩٥) ، وابن ماجه (٤١٧٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) ، والترمذي (٢٠٢٩) .

هـٰذا في التواضع لمطلق الناس ، فكيف لهـٰؤلاء الذين هم كأولاده ، ومع ما لهم عليه من حق الصحبة ، وترددهم إليه واعتمادهم عليه .

وفي الحديث : « لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه »[1] .

وقال الفضيل بن عياض : إن الله يحب العالم المتواضع ، ويبغض العالم الجبار ، ومن تواضع لله . . ورثه الحكمة .

وينبغي أن يكون حريصاً علىٰ تعليمهم ، مؤثراً ذلك علىٰ حوائج نفسه ما لم يكن ضرورة ، ويرحب بهم عند إقبالهم ، ويظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ، ويحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه بحسب التيسير .

ويخاطب الفاضل منهم بكنيته ؛ لقول عائشة رضي الله عنها : (كان صلى الله عليه وسلم يكني أصحابه إكراماً لهم) .

وأن يتفقدهم ، ويسأل عمن غاب منهم ، وأن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم ، حريصاً علىٰ هدايتهم ، ويفهم كل واحد بحسب فهمه ، فلا يعطيه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة .

ويخاطب كل أحد علىٰ قدر فهمه ، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً محققاً ، ويوضح العبارة لغيره ، ويكررها لمن لا يحفظها إلا بالتكرار .

ويذكر الأحكام بالأمثلة من غير دليل لمن لا يحفظ الدليل ، فإن سهل دليل بعضها . . ذكره له ، ويذكر ما ينبني علىٰ هـٰذه المسألة وما يشبهها وحكمه حكمها وما يقاربها وهو مخالف لها ، ويذكر الفرق بينهما ، ويذكر ما يرد عليها وجوابه إن أمكنه ، ويبين الدليل الضعيف ؛ لئلا يغتر به ، وينبه علىٰ غلط من غلط من المصنفين ، فيقول : الصواب كذا ، أو ما ذكره فلان غلط ، قاصداً النصيحة لا التنقص بالمصنف .

ويحرضهم على الاشتغال ، ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم ، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات ، فمن وجده حافظاً . . أكرمه وأثنىٰ عليه ما لم يخف فساد حاله بإعجاب

---

(١) عزاه العراقي لابن السني في « رياضة المتعلمين » انظر « المغني » بهامش « الإحياء » (٣/١٧٦) ، وكذلك ذكره الديلمي في « الفردوس » (٢٣٨) .

ونحوه ، ومن وجده مقصراً . . عنفه ما لم يخف تنفيره ، ويعيده له حتىٰ يحفظه حفظاً راسخاً .

وينصفهم في البحث ، ويعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً ، ولا يحسد أحداً منهم ، فالحسد حرام للأجانب ، وهنا أشد ؛ فإنه بمنزلة الولد ، وفضيلته يعود علىٰ معلمه منها نصيب وافر ؛ فإنه مربيه ، وله في تعليمه وتخريجه في الآخرة الثواب الجزيل ، وفي الدنيا الدعاء المستمر والثناء الجميل ، ويقدم في تعليمهم إذا ازدحموا الأسبق فالأسبق ، ولا يقدمه في أكثر من درس إلا برضا الباقين .

ويفهمهم الدرس بأيسر الطرق ، ويذكره مترسلاً مبيناً واضحاً ، ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه ، إلا إذا وثق بأن جميعهم يفهمون ، وإذا لم يكمل البيان إلا بالتصريح بعبارة يستحيىٰ في العادة من ذكرها . . فليذكرها بصريح اسمها ، ولا يمنعه الحياء ومراعاة الأدب من ذلك ؛ فإن إيضاحها أهم من ذلك ، وإنما تستحب الكناية إذا علم بها المقصود علماً جلياً ، وعلىٰ هـٰذا يحمل ما ورد في الأحاديث من التصريح في وقت ، والكناية في وقت .

ويؤخر ما ينبغي تأخيره ، ويقدم ما ينبغي تقديمه ، ويقف في موضع الوقف ، ويصل في موضع الوصل ، ويصلي في مجلس الدرس ركعتين ، فإن كان مسجداً . . تأكد ، ويقعد مستقبل القبلة علىٰ طهارة متربعاً ، أو محتبياً ، أو غير ذلك ، بوقار ، وثيابه نظيفة بيض ، ولا يعتني بفاخر الثياب ، ولا يقتصر علىٰ خلق ينسب صاحبه إلىٰ قلة مروءة .

ويحسن خلقه مع جلسائه ، يوقر فاضلهم بعلم أو سن أو شرف أو صلاح ، ويتلطف بالباقين ، ويرفع مجلس الفضلاء ، ويكرمهم بالقيام لهم علىٰ سبيل الاحترام .

ويصون يديه عن العبث ، وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة ، ويلتفت إلى الحاضرين التفافاً قصداً بحسب الحاجة ، ويجلس في موضع يبرز وجهه لكلِّهم .

ويقدم على التدريس تلاوة ما تيسر من القرآن ، ثم يبسمل ويحمد الله تعالىٰ ، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعلىٰ آله ، ثم يدعو للعلماء الماضين ، ومشايخه ووالديه والحاضرين وسائر المسلمين ، ويقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم ؛ إني أعوذ بك [من] أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل علي .

فإن كان له دروس.. قدم أهمها، فيقدم التفسير، ثم الحديث، ثم الأصولين، ثم المذهب، ثم الخلاف، ثم الجدال.

ولا يدرس وبه ما يزعجه من مرض، أو جوع، أو مدافعة حدث، أو شدة فرح أو غم.

ولا يطول مجلسه تطويلاً يمل أو يمنع فهم بعضه أو ضبطه؛ لأن المقصود إفادتهم، فإذا صاروا إلىٰ هٰذه الحالة.. فات المقصود.

وليكن مجلسه واسعاً.

ولا يرفع صوته زيادة على الحاجة، ولا يخفضه خفضاً يمنع بعضهم كمال فهمه.

ويصون مجلسه عن اللغط، والحاضرين من سوء الأدب في المباحثة.

وإذا ظهر من أحدهم شيء من مبادي ذلك.. تلطف به في دفعه قبل انتشاره، ويقول لهم: اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالىٰ، فلا تليق بنا المناقشة والمشاحنة، بل شأننا الرفق والصفاء، واستفادة بعضنا من بعض، واجتماع قلوبنا علىٰ ظهور الحق، وحصول الفائدة.

وإذا سأل سائل عن أعجوبة.. فلا يسخرون منه، وإذا سئل عن شيء لا يعرفه، أو عرض في الدرس ما لا يعرفه.. فليقل: لا أعرفه، ولا يستنكف عن ذلك، فمن علم العالم أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، أو: الله أعلم، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم؛ قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[1].

وقال عمر رضي الله عنه: نهينا عن التكلف[2].

وقالوا: ينبغي للعالم أن يورث أصحابه: لا أدري معناه، يكثر منها.

واعلم أن معتقد المحققين أن قول العالم: لا أدري لا يضع منزلته، بل هو دليل علىٰ عظم محله وتقواه، وكمال معرفته، وإنما يمتنع من ذلك من قل علمه، وقصرت معرفته؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين، وهٰذه جهالة منه؛ فإنه بإقدامه على الجواب في ما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم، ويعلم بذلك فساد نيته، وسوء طويته.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).

وفي الصحيح : « المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »[1] .

وينبغي أن يطرح علىٰ أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل ، ويختبر بذلك أفهامهم ، ويظهر فضل الفاضل ، ويثني عليه بذلك ، وليتدربوا بذلك ، ولا يعنف من غلط منهم إلا أن يرىٰ تعنيفه مصلحة .

وإذا فرغ من تعليمهم . . أمرهم بإعادته ؛ ليرسخ حفظهم ، فإن أشكل شيء عليهم . . عاودوا الشيخ في إيضاحه .

ومن أهم ما يؤمر به : ألاَّ يتأذىٰ ممن يقرأ عليه إذا قرأ علىٰ غيره ، وهـٰذه مصيبة يبتلىٰ بها جهلة المعلمين ؛ لفساد نيتهم ، وهي من الدلائل الصريحة في عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله الكريم .

وهـٰذا إذا كان المعلم الآخر أهلاً ، فإن كان فاسقاً أو مبتدعاً أو كثير الغلط ونحو ذلك . . فليحذر من الاغترار به ، وبالله التوفيق .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٢٩) .

الفصل الثالث

في آداب المتعلم

أما آدابه في نفسه ودرسه . . فكآداب المعلم ، وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ؛ ليصلح لقبول العلم وحفظه ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت . . صلح الجسد كله ، وإذا فسدت . . فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »[1] .

وقالوا : ينبغي للمعَلِّم تطييب القلب للعلم كتطييب الأرض للزرع ، ويقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد ، ويرضىٰ باليسير من القوت ، ويصبر علىٰ ضيق العيش .

قال الشافعي رضي الله عنه : لا يطلب أحد العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولـٰكن من طلبه بذُلِّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء . . أفلح[2] .

وقال : لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس ، فقيل : ولا الغني المكفي . قال : ولا الغني المكفي[3] .

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : لا يبلغ أحد من هـٰذا العلم ما يريد . . حتىٰ يضر به الفقر ، ويؤثره علىٰ كل شيء[4] .

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : يستعان على الفقه بجمع الهم ، ويستعان علىٰ حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا يزد .

قال الخطيب البغدادي : (يستحب لطالب العلم أن يكون عزباً ؛ لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة عن إكمال طلب العلم)[5] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

(٢) أخرجه البيهقي في « المدخل » (٥١٣) .

(٣) أخرجه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٧٣) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١١٩) من كلام الشافعي رحمه الله ، وكذلك ذكره الذهبي في « السير » (١٠/ ٨٩) .

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١٥٠) .

وروي نحو ذلك عن إبراهيم بن أدهم ، وسفيان الثوري ، وبشر الحافي[1] .

وينبغي له أن يتواضع للعلم والمعلم ، فبتواضعه له يناله ، وقد أمرنا بالتواضع مطلقاً ، فهنا أولىٰ .

وقد قالوا : [من الرجز]

أَلعلـــم حـــرب للفتـــى المتعـــالـــي كـــالسيـــل حـــرب للمكـــان العـــالـــي

وأول ما يبتدىء به حفظ القرآن العزيز ؛ فهو أهم العلوم ، وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن ، وإذا حفظه.. فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالاً يؤدي إلىٰ نسيان شيءٍ منه ، أو يعرضه للنسيان .

وبعد حفظه للقرآن يحفظ من كل فن مختصراً ، ويبدأ بالأهم ، ومن أهمها : الفقه والنحو ، ثم الحديث والأصول ، ثم الباقي علىٰ ما تيسر ، ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالاً ، بل يصحح علىٰ شيخ ؛ لأن الاستقلال بذلك من أضر المفاسد ، وإلىٰ هـٰذا أشار الشافعي رضي الله عنه بقوله : من تفقه من الكتب.. ضيع الأحكام .

ثم يشتغل باستشراح محفوظاته ، ويعتمد من الشيوخ في كل فن أكملهم ، فإن أمكنه قراءة دروس في كل يوم.. فعل ، وإلا اقتصر على الممكن من درسين وغيرهما ، ويبكر بدرسه للحديث : « اللهم ؛ بارك لأمتي في بكورها »[2] .

وينبغي أن يكون حريصاً على التعلم ، مواظباً عليه في جميع أوقاته ، ليلاً ونهاراً ، حضراً وسفراً ، ولا يُذهِب من أوقاته شيئاً في غير العلم ، إلا بقدر الضرورة لأكل أو نوم قدراً لا بد منه ، ونحوهما كاستراحة يسيرة لإزالة الملل ، وشبه ذلك من الضرورات ، وليس بعاقل من أمكنه درجة وراثة الأنبياء ثم فوتها .

وقد قال الشافعي رضي الله عنه في « رسالته » : حق علىٰ طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من تعلمه ، والصبر علىٰ كل عارض دون طلبه ، وإخلاص النية لله تعالىٰ في إدراك علمه نصاً واستنباطاً ، والرغبة إلى الله في العون عليه .

---

(١) انظر « الجامع » للخطيب (١/ ١٥١ـ١٥٣) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٧٥٤) ، وأبو داوود (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٢١٢) ، وابن ماجه (٢٢٣٦) .

وروىٰ مسلم عن يحيىٰ بن أبي كثير أنه قال : لا يستطاع العلم براحة الجسم[١] .

قال الخطيب : (وأجود أوقات الحفظ الأسحار ، ثم نصف النهار ، ثم الغداة ، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع)[٢] .

قال : (وأجود أماكن الحفظ الغرف ، وكل موضع بعيد عن الملهيات ، والحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطريق ليس بمحمود ؛ لأنه يمنع غالباً خلو القلب)[٣] .

وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط ، وحال الشباب ، وقوة البدن ، ونباهة الخاطر ، وقلة الشواغل ، قبل عوارض البطالة ، وارتفاع المنزلة ، فقد روينا عن عمر رضي الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا[٤] .

وقال الشافعي : تفقه قبل أن ترأس ، فإذا رأَست . . فلا سبيل إلى التفقه[٥] .

ويعتني بتصحيح درسه الذي يتحفظه تصحيحاً متقناً على الشيخ، ثم يحفظه حفظاً محكماً، ثم بعد حفظه يكرره مرات ؛ ليرسخ رسوخاً متأكداً ، ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً .

وإذا فرغ من المختصرات . . انتقل إلىٰ أكبر منها ، مع المطالعة المتقنة ، والعناية الدائمة ، وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب ، وحل المشكلات بما يراه في المطالعة ، أو يسمعه من الشيخ ، ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فن كانت ، بل يبادر إلىٰ كتابتها ، ثم يواظب علىٰ مطالعة ما كتبه .

وليلازم حلقة الشيخ بكل الدروس ، ويعلق عليها ما أمكن ، فإن عجز . . اعتنىٰ بالأهم .

وينبغي ألاَّ يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته ، واشتهرت صيانته وسيادته ، فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف : هٰذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم[٦] .

---

(١) مسلم (٦١٢) .
(٢) انظر « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٢٠٧ـ٢٠٨) .
(٣) انظر « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٢٠٨) .
(٤) أخرجه الدارمي (٢٥٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم » (٥٠٨) و(٥٠٩) ، وعلقه البخاري في (كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة) .
(٥) أخرجه البيهقي في « المدخل » (٣٧٥) .
(٦) أخرجه مسلم في المقدمة (١/ ١٤) عن ابن سيرين رحمه الله ، وذكره الذهبي في « السير » (٥/ ٣٤٣) عن=

ولا يكفي في أهلية التعليم أن يكون كثير العلم ، بل ينبغي ـ مع كثرة علمه بذاك الفن ـ كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية ؛ فإنها مرتبطة ، ويكون له دراية ودين ، وخلق جميل ، وذهن صحيح ، واطلاع تام .

ولا يأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة علىٰ شيوخ أو شيخ حاذق ، فمن لم يأخذه إلا من الكتب . . يقع في التصحيف ، ويكثر منه الغلط والتحريف .

وينقاد لمعلمه ، ويشاوره في أموره ، ويأتمر بأمره ، كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح ، وهـٰذا أولىٰ ؛ لتفاوت ثمرتيهما .

وينظر إلىٰ معلمه بعين الاحترام ، ويعتقد كمال أهليته ، ورجحانه علىٰ أكبر طبقته ، فهو أقرب إلى انتفاعه به ، ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه ، وقد كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلىٰ معلمه . . تصدق بشيء ، وقال : اللهم ؛ استر عيب معلمي عني ، ولا تذهب بركة علمه مني .

وقال الشافعي رحمه الله : كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحاً رفيقاً ، هيبة له ؛ لئلا يسمع وقعها[١] .

وقال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي ؛ هيبة له[٢] .

وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : من حق المعلم عليك : أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية ، وأن تجلس أمامه ، ولا تشير إليه بيدك ، ولا تعمدن بعينك غيره ، ولا تقولن : قال لي فلان خلاف قوله ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تسارَّ في مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تشبع من طول صحبته ، فإنما هو كالنخلة ؛ تنتظر متىٰ يسقط عليك منها شيء[٣] .

ومن آدابه : أن يتحرىٰ رضا المعلم وإن خالف رأي نفسه ، ولا يفشي له سراً .

= مالك رحمه الله ، وقد أخرجه الخطيب في « الجامع » (١٣٩) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفاً (١٤٠) ، وكذلك عن ابن سيرين رحمه الله (١٤١) .

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ٢٩٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في « المدخل » (٦٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤٠٤) .

(٣) أخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم » (٨٤١) ، والخطيب في « الجامع » (٣٥٠) .

وأن يرد غيبته إذا سمعها ، فإن عجز . . فارق ذلك المجلس .

وألاَّ يدخل عليه بغير إذن ، وإذا دخل عليه جماعة . . قدموا أفضلهم وأسنهم .

وأن يدخل كامل الهيئة ، فارغ القلب من الشواغل ، متطهراً متنظفاً ، بسواك ، وقص شارب وظفر ، وإزالة رائحة كريهة .

ويسلم على الحاضرين كلهم بصوت يسمعهم إسماعاً محققاً، ويخص الشيخ بزيادة إكرام، وكذلك يسلم إذا انصرف ، ففي الحديث الأمر بذلك[١] ، ولا التفات إلىٰ من أنكره[٢] .

ولا يتخطىٰ رقاب الناس ، ويجلس حيث انتهىٰ به المجلس ، إلا أن يصرح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدم أو التخطي ، أو يعلم من حالهم إيثار ذلك .

ولا يقيم أحداً من مجلسه ، فإن آثره غيره بمجلسه . . لم يأخذه ، إلا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين ، بأن يقرب من الشيخ ويذاكره مذاكرة ينتفع بها الحاضرون .

ولا يجلس وسط الحلقة إلا لضرورة ، ولا بين صاحبين إلا بإذنهما ، وإذا فسح له . . قعد وضم نفسه .

ويحرص على القرب من الشيخ ؛ ليفهم كلامه فهماً كلياً ، وهٰذا بشرط ألاَّ يرتفع في المجلس علىٰ أفضل منه .

ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس ؛ لأن ذلك تأدب مع الشيخ واحترام لمجلسه ، ويقعد قعدة المتعلمين ، لا قعدة المعلمين .

ولا يرفع صوته رفعاً بليغاً من غير حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام بلا حاجة ، ولا يعبث بيده ولا غيرها ، ولا يلتفت بلا حاجة ؛ بل يقبل على الشيخ مصغياً إليه ، ولا يسبقه إلىٰ شرح مسألة أو جواب سؤال ، إلا أن يعلم من حال الشيخ إيثار ذلك ، ولا يقرأ على الشيخ عند شغل قلبه ، ومله ، وغمه ، ونعاسه ، واستيفازه[٣] ، ونحو ذلك مما يشق عليه ، ويمنعه استيفاء الشرح .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٥٢٠٨) ، والترمذي (٢٧٠٦) ، ولفظه : « إذا انتهىٰ أحدكم إلى المجلس . . فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم . . فليسلم ؛ فليست الأولىٰ بأحق من الآخرة » .

(٢) انظر « الأذكار » (ص٤٢٣) .

(٣) استوفز في الأصل : قعد قعوداً منتصباً غير مطمئن ، والمراد هنا : الانشغال وعدم الاستقرار .

ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه ، ولا يلح في السؤال إلحاحاً مضجراً ، ويغتنم سؤاله عند طيبة نفسه وفراغه ، ويتلطف في سؤاله ، ويحسن في خطابه .

ولا يستحيي من السؤال عما أشكل عليه ، بل يستوضحه أكمل استيضاح ، فمن رق وجهه . . رق علمه ، ومن رق وجهه عند السؤال . . ظهر نقصه عند اجتماع الرجال .

وإذا قال له الشيخ : أفهمت ؟ . . فلا يقول له : نعم حتىٰ يتضح له المقصود إيضاحاً جلياً ؛ لئلا يكذب ويفوته الفهم ، ولا يستحيي من قوله : لم أفهم ؛ لأن استثباته يُحصِّل به له مصالح عاجلة ، وهو : حفظ المسألة ، وسلامته من كذب ونفاق ، واعتقاد شيخه اعتناءه ورغبته ، وكمال عقله وورعه ، وعدم نفاقه .

وآجلة ، وهي : ثبوت الصواب في قلبه دائماً ، واعتياده هـٰذه الطريقة المرضية ، والأخلاق الرضية .

وإذا سمع الشيخ يقول مسألة ، أو يحكي حكاية وهو يحفظها . . فليصغ لها إصغاء من لا يحفظها ، إلا إذا علم من الشيخ إيثاره علمه .

وينبغي أن يصبر علىٰ جفوة شيخه وسوء خلقه ، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ، ويتأول لأفعاله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة ، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق .

وإذا جفاه الشيخ . . ابتدأ هو بالاعتذار ، وأظهر أن الذنب له والعتب عليه ، فذلك أنفع له ديناً ودنيا ، وأبقىٰ لقلب شيخه ، وقد قالوا : من لم يصبر علىٰ ذل التعلم . . بقي عمره في عماية الجهالة ، ومن صبر عليه . . آل أمره إلىٰ عز الآخرة والأولىٰ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ذللت طالباً ، فعززت مطلوباً[1] .

ومن آدابه : الحلم والأناة ، وأن تكون همته عالية ، فلا يرضىٰ باليسير مع إمكان الكثير .

---

(١) ذكره العلامة العجلوني رحمه الله في « كشف الخفاء » (١٣٤٤) ، وقال : (قال النجم : هـٰذا لفظ مشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أخرجه الدينوري بلفظ : ذللت طالباً للعلم ، فعززت مطلوباً) .

وألاَّ يسوف في اشتغاله ، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلَّت إذا تمكن منها ، وإن أمن حصولها بعد ساعة ؛ لأن للتأخير آفات ، ولأنه في الزمن الثاني يُحصِّل غيرها ، ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة الملل .

وإذا جاء مجلس الشيخ فلم يجده . . انتظره ولا يفوت درسه إلا أن يخاف كراهية الشيخ لذلك ؛ بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه .

قال الخطيب : (وإذا وجده نائماً . . لا يستأذن عليه ، بل يصبر حتىٰ يستيقظ ، أو ينصرف)[1] .

وإذا اعتمد شيخاً في فن وكان لا يتأذىٰ بقراءة ذلك الفن علىٰ غيره . . فليقرأ علىٰ ثان وثالث وأكثر ، فإن تأذى المعْتمد . . اقتصر عليه وراعىٰ قلبه ، فهو أقرب إلى انتفاعه .

ويبتدىء درسه بالحمد لله والصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والدعاء للعلماء ومشايخه ووالديه وسائر المسلمين .

ولا يؤثر بنوبته ؛ فإن الإيثار بالقرب مكروه ، فإن رأى الشيخ المصلحة في ذلك وأشار به . . امتثل أمره .

وينبغي أن يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلىٰ مواطن الاشتغال والفائدة ، ويذكر لهم ما استفاده علىٰ جهة النصيحة ، فبذلك يبارك له في علمه ، ويستنير قلبه ، وتتأكد المسائل معه مع جزيل الثواب ، ومن يخل بذلك . . كان بضده ، فلا يثبت معه ، وإن ثبت . . فلا يثمر .

ولا يحسد أحداً ، ولا يحتقره ، ولا يعجب بفهمه .

ويذاكر بعض حاضري حلقة الشيخ ، قال الخطيب : (وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل)[2] .

وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك ، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء ، وربما لم يقوموا حتىٰ يسمعوا أذان الصبح .

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٣٥) .

(٢) انظر « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٢٦٦) .

فرع في آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

ينبغي لكل منهما ألاَّ يخل بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه ، مما يمكن معه الاشتغال ، ويستشفي بالعلم ، ولا يسأل تعنتاً فالسائل تعنتاً وتعجيزاً لا يستحق جواباً .

ويعتني بتحصيل الكتب شراء وعارية ، ولا يشتغل بنسخها إن حصلت بالشراء ، فإن تعذر الشراء ؛ لعدم الثمن ، أو عدم الكتاب . . استنسخه أو نسخه ، ولا يهتم بتحسين الخط ، بل بتصحيحه ، ولا يرتضي الاستعارة مع إمكان تحصيله ملكاً ، وإذا استعار . . لا يبطىء به ؛ لئلا يفوت الانتفاع به علىٰ صاحبه ، ولئلا يكسل من تحصيل الفائدة منه ، ولئلا يمتنع من إعارته غيره ، وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نظماً ونثراً .

قال الخطيب : وبسبب ذلك امتنع غير واحد من إعارتها .

والمختار : استحباب العارية لمن لا ضرر عليه في ذلك ؛ لأنه إعانة على العلم ، مع ما في مطلق العارية من الفضل .

وعن وكيع رضي الله عنه : أول بركة الحديث إعارة الكتب[١] .

وعن سفيان الثوري : من بخل بالعلم . . ابتلي بإحدىٰ ثلاث : أن ينساه أو يموت ، أو لا ينتفع به ، أو تذهب كتبه[٢] .

ويستحب شكر المعير ؛ لإحسانه .

واعلم أن الآداب كثيرة ، وفيما أوردناه كثرة بالنسبة إلىٰ هـٰذا الكتاب .

ومن الآداب التي لم يذكرها الإمام النووي وذكرها أبو نعيم :

أن للمتعلم الاستثبات فيما يقع في قلبه ؛ لما رواه المغيرة بن شعبة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح علىٰ خفيه ، فقلت : نسيت يا رسول الله ، فقال : « بل أنت نسيت ، بهـٰذا أمرني ربي عز وجل »[٣] .

---

(١) أخرجه السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (ص١٧٤) ، والخطيب في « الجامع » (٤٧٧) .

(٢) أخرجه الخطيب في « الجامع » (٤٧٩) بنحوه .

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٠) ، وأبو داوود (١٥٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٢٧١) ، وغيرهم .

وله الاستفهام مرة واحدة ؛ لما روى البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ علمني عملاً يدخلني الجنة ، قال : « لئن كنت أقصرت الخطبة . . لقد أعرضت المسألة ، أعتق النسمة ، وفك الرقبة » قال : أوليستا واحداً ؟ قال : « عتق النسمة : أن تفرَّد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها »(١) .

فإن عاوده الثانية بعد الإفهام . . فله الانتهار ؛ لما روىٰ أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأىٰ رجلاً يسوق بدنة ، فقال : « اركبها » قال : إنها بدنة ، قال : « اركبها » قال : إنها بدنة ، قال : « اركبها ويلك » في الثانية أو في الثالثة(٢) .

فإن عاد معترضاً عليه . . فله أن يعظه بلسانه ؛ لما روىٰ أبو الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات لا يشرك بالله شيئاً . . دخل الجنة » قال : قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟! قال : « نعم » قلت : وإن شرب الخمر ؟! قال : « نعم » وإن رغم أنف أبي ذر(٣) .

فإن عاد الرابعة . . فلا بأس أن يناله بضرب خفيف ؛ لما روىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ؛ أنؤاخذ بكل ما نقول ويكتب علينا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكب معاذ مراراً ثم قال : « ثكلتك أمك يا بن أم معاذ ، وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »(٤) .

وذكر أبو نعيم أيضاً أنه لا يسأله في حال شغل قلبه كما تقدم في الأدب ، فإن عاود مساءلته . . فلا بأس أن يناله بأدب خفيف ؛ لما روىٰ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه خرج إلى الصلاة ، فلقيه أعرابي ، فسأله عن شيء ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « ليست هـٰذه ساعة فتوىٰ » فأعاد عليه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربه بسوط كان معه ، أو بشيء .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٧٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٧٢) ، والدارقطني في « سننه » (٢/ ١٣٥) ، وأحمد (٤/ ٢٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري (١٦٨٩) ، ومسلم (١٣٢٢/ ٣٧١) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ، ومسلم (٩٤/ ١٥٤) ، والحديث عندهما عن أبي ذر رضي الله عنه وليس عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وأخرجه الترمذي (٢٦٤٤) عن أبي ذر رضي الله عنه ، وقال : حسن صحيح ، وفي الباب عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، فليتنبه .
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٦٤) .

ولا ينبغي للمتعلمين أن يتحفظوا زلل العلماء ، والتتبع لهفواتهم ، فلن يعرىٰ أحد من سهو وزلة ؛ لما روىٰ معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني أخاف عليكم ثلاثاً وهو كائن : زلة عالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، ودنيا تفتح عليكم »[1] .

وإذا وقفوا منه علىٰ زلة أو سقطة . . فلا يشيعوها ولا يذيعوها ، بل ينشرون عنه أحسن ما يعلمون عنه ؛ لما روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذي يسمع الحكمة فلا يحدث إلا بشرٍّ ما سمع . . كمثل الذي يقال له : ادخل الزرب فخذ أسمن شاة فيها ، فخرج بالكلب يقوده »[2] .

وليكونوا لفيئته منتظرين ، ولاعتراضهم بالطعن تاركين ؛ لما روىٰ كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا زلة العالم ، وانتظروا فيئته »[3] .

ويستحب للعالم أن يدعو لأهل مجلسه إذا أراد القيام عنهم ؛ لما روىٰ نافع قال : كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا جلس مجلساً . . لم يقم حتىٰ يدعو لجلسائه بهٰذه الكلمات ، ويزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهن لجلسائه : « اللهم ؛ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تقربنا به من جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة ، اللهم ؛ متعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا ، وانصرنا علىٰ من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا »[4] .

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٧١) ، ولفظه : « . . . وهن كافيات . . . » ، وفي « الصغير » (٢/ ٨٥) ولفظه : « . . . وهن كائنات . . . » ، وكذلك هو في « مجمع الزوائد » (١/ ١٩١) ، فلعل ما وقع في « الأوسط » تصحيف ، والله أعلم .

(٢) أخرجه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (ص٣٣٤) . والزرب ـ بالفتح ويكسر ـ هو : موضع الغنم .

(٣) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢١١) .

(٤) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠١٦١) .

الفصل الرابع

في آداب مشايخ الصوفية والمريدين

اعلم أنه لا بد قبل معرفة الآداب من معرفة الصوفية وعلومهم ، ومن يصلح للشيخوخة ، فأقول مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه :

هٰذه الطريقة خطرة ، وهي أفضل الطرق عند الله تعالىٰ ، ولها شروط وآداب .

أما كونها أفضل . . فلأن المقصود منها معرفة الله سبحانه وتعالىٰ ، وهي أفضل العلوم ؛ لأن العلم يشرف بشرف المعلوم .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : (العلوم كلها شريفة ، ويختلف شرفها باختلاف رتب متعلقاتها ، فما تعلق بالإله وأوصافه كان أشرف العلوم)[1] .

ثم قال : (ومنها علوم يمنحها الأنبياء والأولياء ؛ بأن يخلقها الله تعالىٰ فيهم من غير نظر ، وهي ضربان :

أحدهما أشرف من الآخر ، وهو : العلم بما يتعلق بالذات والصفات ، وله شرف عظيم ، ولا ثواب عليه في نفسه ، ولا على الأحوال الناشئة عنه ، فإن حدث عنها أمر مكتسب . . كان الثواب عليه دونها ، وكفىٰ به شرفاً في نفسه ؛ لأنه خير من الثواب .

والثاني : علوم إلهامية يكشف بها عما في القلوب ، فيرىٰ أحدهم بعينه من الغائبات ما لم تجر العادة برؤيته ، ويسمع بأذنيه ما لم تجر العادة بسماعه) اهـ[2]

ولا يتوصل إلىٰ ذلك إلا بتصفية القلب ، الذي هو محل المعرفة ؛ لقوله : (لن يسعني أرضي ولا سمائي ، وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن)[3] .

---

(١) القواعد (١/ ١٩٤ـ١٩٥) .

(٢) القواعد (١/ ١٩٤) .

(٣) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٤٤٦٦) ، وانظر « المقاصد الحسنة » للسخاوي (٩٩٠) ، و« الأسرار المرفوعة » (٤٢٣) .

وتصفيته بمعرفة أحوال القلب ما يحمد منها ، كالصبر والشكر ، والرجاء ، والرضا ، والزهد ، والتقوىٰ ، والقناعة ، والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالىٰ في جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، ومعرفة حقائق هـٰذه الأحوال ، وحدودها ، وأسبابها التي تكتسب بها ، وثمراتها ، وعلاماتها ، ومعالجة ما ضعف منها حتىٰ تقوىٰ ، وما زال منها حتىٰ يعود ، وما يذم ، كخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل ، والحسد ، والحقد ، والغش ، وطلب العلو ، وحب طول البقاء في الدنيا ، والكبر ، والرياء ، والعجب ، والغضب ، والأنفة ، والعداوة ، والبغضاء ، والطمع ، والبخل ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والتجبر ، والخيلاء ، والتنافس ، والمباهاة ، والخوض فيما لا يعني ، وحب كثرة الكلام ، والتزين للخلق ، والمداهنة ، والاشتغال عن عيوب نفسه بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها ذل ، والأمن من مكر الله ، واتخاذ إخوان العلانية علىٰ عداوة في السر ، والاتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمخادعة ، وطول الأمل ، والقسوة ، والفظاظة ، والفرح بالدنيا ، والأسف علىٰ ما فاته ، والأنس بالمخلوقين ، والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، وقلة الحياء ، وقلة الرحمة .

فهـٰذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ، ومنابت الأعمال المحظورة ، وأضدادها هي الأخلاق المحمودة .

وعلم الصوفية : هو العلم بحدود هـٰذه الأمور ، وحقائقها ، وأسبابها ، وثمرتها ، وعلاجها ، وهو : علم طريق الآخرة ، وهو فرض عين في فتوىٰ علماء الآخرة ، وجميع ذلك موجود في كتاب الله تعالىٰ ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم وفي شمائل الصحابة والتابعين ، وسبل عباد الله الصالحين ، وأوليائه المتقين ، ولا ينكره إلا من غلب عليه جهله ، واتبع هواه ؛ إذ لا خلاف بين الأمة أن الله تعالىٰ ذكر في كتابه الصديقين ، والصادقين ، والقانتين ، والخاشعين ، والموقنين ، والمخلصين ، والمخبتين ، والخائفين ، والمراقبين ، والوجلين ، والراجين ، والعابدين ، والسائحين ، والصابرين ، والراضين ، والمتوكلين ، والمحسنين ، والأولياء ، والمتقين ، والمصطفَيْن ، والأبرار ،

والمقربين ، والمطمئنين ، والسابقين ، والمقتصدين .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في أمتي مكلمين ومحدثين ، وإن عمر منهم »(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله . . لأبره ، وإن البراء منهم »(٢) .

وقال لوابصة : « استفت قلبك »(٣) ولم يقل لأحد غيره ذلك .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب » قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلىٰ ربهم يتوكلون »(٤) .

والأخبار في ذلك كثيرة ، ولا خلاف أن هـٰؤلاء كلهم في أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو لم يكونوا في الأمة موجودين ، واستحال كونهم في كل وقت . . لم يذكرهم الله تعالىٰ في كتابه ، ولم يصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان اسم الإيمان شاملاً لجميع المؤمنين ، وأفرد هـٰؤلاء بأسماء مختصة . . دل ذلك علىٰ تخصيصهم من بين سائر المؤمنين .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً . . يفقهه في الدين »(٥) ليس ذلك مخصوصاً بالتفقه في الأحاديث وظاهر الأحكام ، بل التفقه في هـٰذه الأحوال أحسن وأكثر .

والدين : اسم يشمل جميع أحكام الدين ظاهراً وباطناً ، وليس التفقه في معاني هـٰذه الأحوال التي تقدم ذكرها بأقل فائدة لأهله من التفقه في أحكام الطلاق والعتاق والبيع والحدود ؛ لأن تلك أحكام ربما لا تقع في العمر ، وإذا وقعت فاستعملت ما قيل فيها . . سقط عنك فرض ذلك إلىٰ أن تقع حادثة أخرىٰ .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) بنحوه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٩٨٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٠١) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه الدارمي (٢٥٧٥) ، وأحمد (٤/٢٢٨) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٨٦) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢١٨/٣٧٢) .

(٥) أخرجه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

وهـٰذه الأحوال والمقامات والمجاهدات والأفكار التي يتفقه فيها الصوفية يحتاج إليها في كل لحظة وخطرة ، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت ، بل يجب علىٰ كل عبد في كل لحظة وخطرة أن يعلم قصده وإرادته ، فإن كان حقاً من الحقوق . . وجب عليه أن يلزمه ، وإن كان حظاً من الحظوظ . . وجب عليه مجانبته .

وجميع العلوم لها حد ونهاية ، وهـٰذا العلم ليس له نهاية ؛ لأن أهله يغرفون من بحر العطاء ، فعلوم أصحاب الحديث تؤدي إلىٰ علوم الفقهاء ، وعلوم الفقهاء إذا بلغت النهاية . . تؤدي إلىٰ علم التصوف ، وعلم التصوف لا يبلغ إلىٰ نهاية ؛ لأنه كالبحر ؛ لأن المقصود ليس له نهاية ، ولأنها إشارات وخواطر وهبات ومواد ومواجيد وعطايا وفتوح في العلم والعمل ، يفتح الله علىٰ قلوب أوليائه في فهم كلامه كيف يشاء من حيث يشاء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

فالزيادة من الله تعالىٰ لا نهاية لها ، والشكر نعمة تستوجب الشكر ، فالشكر يستوجب المزيد ، وهـٰذا ما لا نهاية له أبداً .

فإن قيل : لم سمي الصوفي صوفياً . . قيل : للبسه الصوف .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : (ليس يشهد لهـٰذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر أنه كاللقب .

وأما قول من قال : إنه من الصوف . . فذلك وجه ، ولـٰكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : إنهم منسوبون إلىٰ صُفَّة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فالنسبة إلى الصفة صُفِّي لا صوفي .

ومن قال : إنه مشتق من الصفاء . . فهو بعيد من مقتضى اللغة .

ومن قال إنه مشتق من الصف . . فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله تعالىٰ . . فالمعنىٰ صحيح ، ولـٰكن اللغة لا تقتضي هـٰذه النسبة من الصف .

ثم هـٰذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلىٰ قياس لفظ أو اشتقاق ، وتكلم الناس في التصوف ما معناه ؟ وفي الصوفي من هو ؟ وكل عبر بما وقع له .

فقال أبو محمد الجريري : التصوف : الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دني .

وقال الجنيد : هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به .

وقال أيضاً : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

وقال أيضاً : الصوفي كالأرض ؛ يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح .

وقال أيضاً : إنه كالأرض ؛ يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالقطر يسقي كل شيء .

وقال أيضاً : إذا رأيت الصوفي ؛ يعني : بظاهره . . فاعلم أن باطنه خراب) .

هـٰذا بعض ما نقله الإمام القشيري في (باب التصوف)[1] .

وقال في أول الكتاب في (باب ذكر مشايخ الصوفية) : (إن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوىٰ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لا فضيلة فوقها ، ولما أدرك أهل العصر الثاني . . سمي من صحب الصحابة تابعين ، ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، فقيل لمن لهم شدة وعناية بأمر الدين : الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً وعباداً ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، واشتهر هـٰذا الاسم لهـٰؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة) اهـ كلامه[2]

فيؤخذ منه : أن الصوفي هو : من راعىٰ أنفاسه مع الله تعالىٰ ، وحفظ قلبه عن الغفلة عن الله تعالىٰ ، ثم إن مقتضىٰ كلامه أن هـٰذا الاسم محدث .

وقال الشيخ أبو نصر : ليس هـٰذا الاسم محدثاً ، فقد ورد عن الحسن البصري أنه قال : رأيت صوفياً في الطواف ، فدل علىٰ أن هـٰذا الاسم كان معروفاً في وقته ، وكان الحسن من التابعين .

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٢١٧ـ٢١٨) .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص١٢) .

وقال سفيان الثوري : لولا أبو هاشم الصوفي . . ما عرفت دقيق الرياء ، فدل أيضاً علىٰ أنه كان معروفاً في وقته .

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه الذي جمعه في أخبار مكة : (أن قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم خلا مكة حتىٰ لا يطوف بالبيت أحد[1] ، وكان يجيء من بلد بعيد رجل يقال له فلان الصوفي ، يطوف به وينصرف ، فإن صح ذلك . . دل علىٰ أن هـٰذا الاسم كان معروفاً قبل الإسلام ، وأنه ينسب إليه أهل الصلاح والفضل) اهـ .

فإذا تقرر ذلك . . فمن أراد أن يسلك هـٰذه الطريقة ، ويتحقق بالحقيقة . . فليبدأ أولاً بتعلم أركان الإسلام ، التي هي : الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ويعرف كيفية آدابها ، والنجاسات ، والطهارات ، والتطهير ، والوضوء ، ومصححات ذلك ومبطلاته ، وما يحل أكله وما يحرم ، وما يحل لبسه وما يحرم ، وما يجب ستره وما لا يجب .

وليس المراد أن يتعلم ذلك بقراءة كتاب ، بل يعرف ذلك باستفتاء أو بقراءة ، ولا يشترط التبحر في ذلك .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : (قال الجنيد : قال لي سري : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث .

أشار إلىٰ أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف . . أفلح ، ومن تصوف قبل العلم . . خاطر بنفسه) اهـ[2]

وإذا كان في المسألة خلاف بين العلماء . . فمذهب الصوفية الأخذ فيها بالأحسن والأولىٰ والأتم ، احتياطاً للدين ، وتعظيماً لما أمر الله تعالىٰ به عباده ، واجتناباً عما نهاهم الله عنه ، وليس لهم الترخص ؛ لأن الرخص إنما هي للعامة ، فمن طلب الأنفس والزيادة علىٰ مرتبة العوام . . فلا بد أن يذوق الشدائد في نيل ذلك ، فإن من أراد أن يرى الدر في نحره . . فلا بد أن يقاسي ظلمة بحره .

وكان الشيخ أبو مدين يقول : ما للمريد وللرخص ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : (خلت مكة . . .) ، والله أعلم .

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٢) .

فبالجهاد يتضح السبيل ، والسلوك سفر ، وهو قطعة من العذاب ، والمريد منتقل من عذاب إلىٰ عذاب ، فلا راحة .

وقد أحسن بعضهم بقوله : [من مجزوء الرجز]

مـــا للفقيـــر راحـــةٌ دون لقـــاء ربِّـــهِ
لـــو عـــاش فـــي عـــافيـــةٍ مستـــأمنـــاً فـــي سِـــربـــهِ
وعنـــده قـــوت جميـــعِ عمـــره مـــن كسبـــهِ
ولـــم يكـــن مـــن ربـــهِ مستـــأنســـاً بقـــربـــهِ
وقلبـــه ممتلئـــاً مستغـــرقـــاً بحبـــهِ
ولـــم يكـــن يشهـــدهُ بنـــور عيـــن قلبـــهِ
فمـــا لـــه مـــن راحـــةٍ إن هـــو لـــم يعـــش بـــهِ
مـــا للمحـــب راحـــةٌ إلا بـــوصـــل حِبِّـــهِ

ثم يطلب شيخاً مربياً .

قال بعضهم : ومقام الشيخ هو مقام النبوة والوراثة الكاملة ، والحاصل فيه يقال له : النبي في زمان الأنبياء ، والشيخ والوارث والأستاذ في حق العلماء بالله من غير أن يكونوا أنبياء .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله : (يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فمن لم يكن له أستاذ . . لا يفلح أبداً ، هـٰذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ . . فإمامه الشيطان) .

ثم قال : (سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : العبادة بلا علم كالبنيان على السرقين .

وقال الأستاذ أبو علي : الشجرة إذا أنبتت بنفسها من غير غارسٍ . . فإنها تورق ، ولـٰكن لا تثمر ، كذلك المريد ؛ إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفساً نفساً . . فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً منه) اهـ[1]

* * *

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٣١٥) .

الفصل الخامس

في الشيخ وآدابه

فمن شرطه : ألاَّ يقعد في مقام الشيخوخة إلا أن يقعده ربه بما يلقي إليه في سره ، أو يقعده أستاذه .

وصفة الشيخ : أن يكون عارفاً بالخواطر النفسية والشيطانية والملكية والربانية ، عارفاً بالأصل الذي تنبعث منه هٰذه الخواطر ، عارفاً بحركاتها الظاهرة ، وبما فيها من العلل والأعراض الصارفة عن صحة الوصول إلىٰ عين الحقيقة ، عارفاً بالأدوية وأعيانها ، وبالأزمنة التي يحمل المريد فيها على استعمالها .

وقال الشيخ العارف بالله نجم الدين طلحة بن عيسى الهِتَّار رحمه الله تعالىٰ : (اعلم أن الصوفية اخترعوا التحكيم والنصب وإلباس الخرقة ، ومرادهم بذلك الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن مثل الشيخ في قومه كمثل النبي في أمته .

فالتحكيم عند الصوفية أمكن ؛ لأنه أقرب في المعنىٰ بالمبايعة ، بل هو المبايعة بعينها .

وأما النصب : فمن رأوه بعين الحق أميناً على الأمة المحمدية . . أذنوا له في التقدم على الأمة ؛ ليجذبهم من الجهل إلى العلم ، ومن الضلالة إلى الهدىٰ ، فالإذن له في التقدم هو النصب ، وهو عام وخاص :

فالعام : نصب ولد الشيخ في مقام أبيه ، كالإرث والخلافة من طريق الظاهر ، والتوفيق والاجتباء من قبل الله عز وجل .

فالناصب هنا كغارس الأشجار ، وملقي البذر علىٰ وجه الأرض ، والثمر من قبل الله تعالى الإله الخالق والآمر تبارك الله رب العالمين .

وأما **الخاص** : فقالوا : لا يكون الشيخ شيخاً حتىٰ يكون منصوباً من قبل الله تعالىٰ ، فلا يجوز عند القوم إلا لمن ظهر منه البرهان) .

وقال : (لا يجوز للشيخ أن ينصب من تحكم لشيخ غيره إذا كان في الدنيا ، وإن كان قد

توفي شيخ التحكيم وله ذرية. . فلا يجوز نصبه إلا لولد شيخه ، أو من أقيم مقام شيخه ، فإن نصب المتحكم لغيره نقض عهد وسوء أدب من الناصب ، أو قِلُّ معرفةٍ بطريق القوم ، والله أعلم) اهـ

فإن قلت : فأين يوجد هٰذا الشيخ الموصوف بهٰذه الصفات في هٰذا الزمان ؟

قلت : اعلم أن هٰذه الصفات سر من أسرار الله تعالى اللدنية ، يضعها سبحانه وتعالىٰ فيمن يشاء من عباده ، ولا يجوز في طريق القوم إظهارها ، وإنما تظهر فيهم في حال استغراق ، فلا تظهر هٰذه الأسرار غالباً ، وحسن الظن بالمسلمين أسلم للدين ، فإذا وجدت شيخاً مواظباً على الصلوات مع الجماعة في أول أوقاتها ، تاركاً لما لا يعنيه ، مشتغلاً بنفسه ، مواظباً على الأذكار والأوراد ، متقيداً بقيد الشريعة ، يغلب نفسه في أكثر أحواله. . فالزمه ؛ فهو عزيز الوجود في هٰذا الزمان ؛ لكونه زمان غربة الدين ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « بدأ الدين غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ »[1] .

فلا شك أنه يضعف في كل يوم وليلة وساعة ولحظة ، تصديقاً لمن لا ينطق عن الهوىٰ ، وقد تركت أركان الدين التي هي الصلاة والصيام والزكاة والحج ، فلا يوجد من يقوم بها إلا الأقل من الناس ، وسيعدم ذلك يقيناً ؛ لما روىٰ مسلم في « صحيحه » عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض : الله ، الله »[2] .

وفي رواية : « لا تقوم الساعة علىٰ أحد يقول : الله ، الله »[3] .

وأساس هٰذه الطريقة ثلاثة أشياء :

أحدها : اجتناب جميع المحارم كبيرها وصغيرها .

الثاني : أداء جميع الفرائض عسيرها ويسيرها .

الثالث : ترك الدنيا علىٰ أهل الدنيا قليلها وكثيرها ، إلا ما لا بد منه .

قال بعضهم : فكل من لم يُحكِّم أساسَه علىٰ هٰذه الثلاثة الأشياء. . فهو مخدوع ولو

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) ، والترمذي (٢٦٢٩) ، وابن ماجه (٣٩٨٨) ، وغيرهم .
(٢) مسلم (١٤٨/ ٢٣٤) .
(٣) مسلم (١٤٨) .

مشىٰ على الهواء ، أو نطق بالحكمة ، أو وقع له قبول عند الخاصة والعامة .

فإذا وجدت هٰذه الثلاثة الأشياء في الشيخ . . كفىٰ .

وللشيخ آداب ، وهي مذكورة في كتب القوم ، أذكر بعضها تبركاً ، ومن أراد معرفتها . . فليطلبها من مظانها .

فمن آدابه : ألاَّ يترك المريد يبرح من منزله ألبتة ، إلا بإذنه .

وأن يعاقبه علىٰ كل هفوة تصدر منه ، فإن لم يفعل . . لم يوف حق المقام الذي هو فيه ، وهو غاش للمريد .

وأن يشترط على المريد ألاَّ يكتمه شيئاً مما يخطر في نفسه .

ويجب على الشيخ ألاَّ يقبل مريداً حتىٰ يختبره .

وأن يحاسبه علىٰ أنفاسه وحركاته ، ويضيق عليه علىٰ قدر صدقه في اتباعه .

وإذا تكلم في مسألة وقام إليه منازع فيها . . قطع الكلام ، فإنه لا كلام لهم بحضرة المنازع ؛ لأن علومهم لا تقبل المنازعة ؛ لأنها مواهب ربانية ، فيجب على المريد التصديق بها ، ومتىٰ خالفه في ذلك ، واستدل علىٰ شيخه بالأدلة الشرعية والعقلية . . زجره وهجره عليها ، فإن لم يزجره . . فقد خانه في التربية ، وهو ساع في هلاكه ، وإذا لم ينزجر . . طرده من منزله ، فإنه يفسد بقية أصحابه ، ولا يفلح في نفسه .

وإذا وصف المريد رؤيا رآها ، أو مكاشفة . . فلا يتكلم عليها ، بل يعطيه من الأعمال ما يدفع به ما فيها من المضرة ، ومتىٰ ما تكلم الشيخ علىٰ ما يأتي به المريد . . فقد أساء في حقه .

ومن شرطه : ألاَّ يترك مريده يجالس أحداً سوىٰ إخوته الذين معه تحت حكمه ، ولا يزور ولا يزار ، ولا يكلم أحداً في خير ولا شر ، ومتىٰ تركه . . فقد أساء في حقه .

وألاَّ يجالس تلامذته إلا مرة في اليوم والليلة .

وألاَّ يطلع له المريد علىٰ حركة من حركاته ، ولا يعرف له سراً ، ولا يقف له علىٰ طعام ولا شراب ولا غير ذلك ، فليظهر له في أكمل صورة من التنزيه ؛ لأن المريد إذا وقف له علىٰ شيء من ذلك . . نقص من عينه ؛ لضعفه .

وألاَّ يترك المريد يحضر السماع أصلاً ، ويربيه قبل كل شيء باليقين في القوت ، ويتركه على التجريد والجلوس مع الله على الصفاء ، ويمده الشيخ بالهمة ، فإن فقدها.. فبالسياسة ، ولا بد إذا صدق المريد في هـٰذا الجلوس أن يفتح الله عليه ، إما في اليقين دفعة ابتداء ، وإما في رزق يأكله حتىٰ يفاجئه اليقين .

ويجب عليه ألاَّ يترك أصحابه يزورون شيخاً آخر ، ولا يجالسون أصحابه ، فإن ذلك مضرة سريعة للمريد ؛ لأن الشيخ إنما يأتي المريد من الباب الذي يخالف هواه ، فإذا أراد شيخاً آخر.. فقد يرىٰ مع أصحابه ما يوافق هواه ، فتميل نفسه إلىٰ صحبته ؛ لتخيله أنه يحمله علىٰ ما يوافق هواه ، فيُسْقِط حرمةَ شيخه من قلبه .

فإذا صار إلىٰ ذلك الشيخ ، فإن كان شيخاً حقيقة.. فلا بد أن يأتي لهـٰذا المريد من مخالفة هواه كما فعل الأول ، فيسقط هـٰذا الآخر من قلبه ، ولا يقبل الأول ، فحينئذ لا يفلح أبداً ، وهـٰذا كله في حق المريدين الذين لا يحضرون مجالس العامة .

وأما إذا كانوا يحضرون مجالس العامة.. فلا كلام مع هـٰؤلاء ، ولا حرج عليهم في زيارة الشيوخ والتبرك بهم ، وليس علىٰ شيخهم في ذلك حرج .

ويجب على الشيخ إذا رأىٰ شيخاً آخر هو فوقه أن يلزم خدمته هو وتلامذته ، فإنه صلاح في حقه وحق أصحابه ، وإلا.. فهو غير ناصح لنفسه ، ولا صاحب همة ، بل هو محب للرياسة ، وهـٰذا نقص ، ألا ترىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « لو كان موسىٰ حياً ما وسعه إلا أن يتبعني »[1] .

ويجب عليه أن يكون له وقت مع ربه ، ولا يتكلم علىٰ ما حصل له من قوة الحضور ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول : « لي وقت لا يسعني فيه غير ربي »[2] .

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٧٤) .

(٢) انظر « المقاصد الحسنة » للسخاوي (ص٣٥٦) ، و« المصنوع » (ص١٥١) .

الفصل السادس

في آداب المريد

فمن آدابه ألاَّ يصحب من الشيوخ إلا من يقع له حرمة في قلبه ، ويتابعه على المنشط والمكره ، ولا يكتم شيخه شيئاً مما يخطر له ، ولا يعترض عليه فيما يكون منه ألبتة ، ولا يقتدي بأفعال الشيخ إلا بأمره ، ولا يتعدىٰ أمره ، ولا يتأول كلامه ، بل يقف عند ظاهر كلامه ، ولا يطلب علة الأمر الذي يأمره به ، بل يمتثل أمره ، سواء عقل معناه أو لم يعقل ، ولا يتصرف في غير ما حدَّ له شيخه .

وأن يرىٰ نفسه أقل الناس ، وأقل المريدين ، ولا يرىٰ له حقاً علىٰ أحد ، وأن يرىٰ أن لكل أحد عليه حقاً .

وألاَّ يطأ سجادة شيخه برجله ، ولا يلبس ثوباً لبسه شيخه ، إلا إذا كساه إياه .

ولا يسأله عن شيء سؤال من يطلب الجواب ، بل يذكر له ما خطر له ، فإن أجابه . . فذاك ، وإلا . . سكت ، ولا يخون شيخه في أمر من أموره .

وأن يستسلم لما يحكم عليه به شيخه إذا وقع في زلة ، ومتىٰ صدق العبد مع الله تعالىٰ ، وتوجه إليه بالقصد التام . . يسر له شيخاً ناصحاً .

فإن كانت همة المريد فوق معرفة الشيخ . . فتح الله تعالىٰ للشيخ معرفة ما تعلقت به همة المريد ، وترقىٰ به إليها ، وذلك من صدقه ، وليس من شرط الشيخ الكشف .

ومن شرط المريد : ألا يكون له إرادة مع شيخه ، بل يكون معه كالميت بين يدي الغاسل ، وكان ينبغي ألا يسمىٰ مريداً ؛ إذ لا إرادة له مع شيخه ، وإنما سمي مريداً بالابتداء ؛ لأنه أراد الكمال الذي خلق له .

ومن شرطه : ملازمة الجوع والسهر والصمت والعزلة بعد إحكام التوبة ، فإن لم يقدر على الخلوة . . فمن شرطه القرين الصالح .

وأن يستعمل الصدق فيما يطلبه من الله تعالىٰ ، وأسباب الطاعات والبحث عن هـٰذه

اللقمة التي لا بد منها حتىٰ يأخذها على الوجه المشروع .

ومن شرطه : ألا يرد علىٰ شيخه كلامه وإن كان الحق معه ، فإن الاعتراض على الشيوخ حرام ، ومتىٰ وقع المريد في ذلك . . فهو مسخرة للشيطان .

ويجب عليه الخروج من المال والجاه ، والخروج من الجاه آكد .

ومن شرطه : أن يعتقد أن طريقه أشرف الطرق ؛ لأنه إذا لم يعتقد ذلك . . تشوفت النفس إلىٰ ما هو أشرف ، ومن ثم ما هو أشرف منه .

وألا يلتفت ؛ لأنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام ، حتىٰ لو سئل أحدهم عن صفة جليسه . . ما عرفها .

وينبغي أن يكون المريدون عند شيخهم كأنهم لصوص ورد عليهم السلطان ، فهم خائفون للعقوبة .

وأن يعتقد في شيخه أنه علىٰ شريعة من ربه ، ولا يزن أحواله بميزانه ، فقد يصدر من الشيخ ما هو مذموم في الظاهر وهو محمود في الباطن .

وإذا أمره شيخه بأمر . . مضىٰ له من غير توقف ولا تأويل ، ولا يصرفه عنه صارف .

وأن يكون ذا نشاط ، ولا يرمي نفسه إلى العجز والكسل ، وإذا قيل له : احمل كذا إلىٰ فلان ، أو إلى السوق . . فلا يقول : انظر ، هل ثم حاجة أخرىٰ حتىٰ يكون خروجاً واحداً ؟

وأن يفي بكل ما شرطه عليه شيخه ، سواء صعب عليه ذلك أو سهل ، فإن طريق الله مجاهدة ومكاره ، وليس له أن يشترط على الشيخ شيئاً ؛ إذ ليس للميت شرط علىٰ غاسله .

وألا يكلف أحداً يعمل له شيئاً يقدر عليه بنفسه .

وليرفع كلفة الخلق ما استطاع ، ولا يتحرك بحركة حتىٰ ينظر ما فيها من مرضاة الله تعالىٰ وحظ النفس .

ولا يترك الناس يتبركون به ويعظمونه ، فإنه إذا فعل ذلك . . لا يرجىٰ فلاحه ، ولهـٰذا كان من أصعب الدعاء علىٰ أحدهم قولهم : أذاقك الله طعم نفسك .

ويجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه عالم بالله ، ناصح لخلقه ، ولا يعتقد في شيخه العصمة في أحواله ، كيف وقد سمع الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ .

وروي أن تلميذاً رأىٰ شيخه يفعل زلة ، فلم يتغير في خدمته ، ولا أخل بشيء من مرسومات شيخه ، ولا ظهر منه نقص في احترامه ، وقد عرف الشيخ أنه رآه ، فقال له يوماً : يا بني ؛ إني عرفت أنك رأيتني حين فعلت تلك الزلة ، وكنت أنتظر نفارك مني من أجل ذلك ، فقال له التلميذ : يا سيدي ؛ الإنسان معرض لمجاري أقدار الله تعالىٰ عليه ، وإني لما دخلت في خدمتك . . ما دخلت علىٰ أنك معصوم ، وإنما خدمتك علىٰ أنك عارف بطريق الله تعالىٰ ، عارف بكيفية السلوك إليه الذي هو طلبي ، وكونك تعصي أو لا تعصي شيء بينك وبين الله تعالىٰ ، لا يرجع علي من ذلك شيء ، فهـٰذا هو عقدي ، فقال له الشيخ : وُفِّقت ، فبرع ذلك التلميذ بعد ذلك ، وجاء منه ما تقر به العين من حسن الحال وعلو المقام .

وكل مريد يرىٰ في شيخه نقصاً ويقعد عنده . . فهو منافق ، وكل مريد غسل ثوبه لغير نجاسة ، أو اكتحل ، أو رجل شعره ، أو حسن شيئاً من حاله بغير ضرورة أو أمر شيخ . . فهو صاحب علة .

ومن شرطه : الحفظ والأمانة ، فإنه في طريق وهب الأسرار ، ولا توهب إلا للأمناء .

ومن شرطه : الكتمان ، إلا أن يأمره صاحب السر بإذاعته ، وألا يبيت علىٰ معلوم .

من شرط المريدين : أن يدخلوا على الشيخ إذا زاروه بتفريغ قلوبهم من جميع ما عندهم ، وأن يقبلوا جميع ما يلقي عليهم ، وألا يدخلوا إلا علىٰ طهارة ظاهراً وباطناً ، مسلمين مستسلمين .

ومن أصعب الآفات في هـٰذه الطريقة صحبة الأحداث .

قال الإمام القشيري : (ومن ابتلاه الله تعالىٰ بشيء من ذلك . . فبإجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله تعالىٰ وخذله .

قال الواسطي : إذا أراد الله هوان عبد . . ألقاه إلىٰ هـٰؤلاء الأنتان والجيف .

وقال فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال ، كلهم أوصوني عند فراقي إياهم ؛ قالوا : اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم) اهـ[1]

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٢٠) .

ومن شروط هٰذه الطريقة مطلقاً : عدم المسامحة في أمر يؤدي إلى الخروج عن الطريق ، وعدم الصفح عن الزلات التي لا مسامحة للشرع فيها ، ويسامحون في حق أنفسهم ، وينصفون الناس من أنفسهم ولا ينتصفون ، ويقبلون المعذرة من الأجانب ولا يعتذرون ، وينصرون ولا ينتصرون ، ويعاملون الناس بالرحمة والشفقة ، ويتعاملون فيما بينهم بالانتقاد .

ولا يسلم لصاحبه ما لا تقتضيه طريقهم .

ولا بغضاء بينهم ولا شحناء ، ولا حسد في مواهب الله تعالىٰ .

وليس في طريقهم : لي ، ولا عندي ، ولا متاعي ، ولا نعلي ، ولا ثوبي .

ويتركون إرفاق النساء ومجالستهن ومؤاخاتهن ، ولا يتخذون السماع عبادة وديناً ؛ لأن الزمان فاسد ، فينبغي لكل مؤمن أن يأخذ بالأحوط ، فإن النفس تقبل على السماع ابتداء ، فإنه من شهواتها ، وهٰذا الأمر لم يجر عليه الصديقون و الأئمة ، وإشارات القوم من أولهم إلىٰ آخرهم أنه من حظوظ النفس في الحقيقة ، ومن الأفعال المباحة في الحكم ، ورجال الله اتقوا وجعلوا حركاتهم في فريضة أو فضيلة .

ومن شرطهم : ألا يَعِدُوا ، فمن غلط ووعد . . وجب عليه الوفاء ، واستغفر الله .

ويصدقون في الحديث ، ويحفظون آداب الشريعة دقيقها وجليلها إذا علمها ، ويسأل إذا لم يعلم عن كل حالة يكون عليها ؛ ما حكمها في الشرع ؟ فإنه إذا خان في آداب الشريعة . . فأحرىٰ أن يخون في الأسرار الإلهية ، والله تعالىٰ لا يهب أسراره إلا للأمناء من عباده .

ومن دخل في هٰذه الطريق وهو ذو زوج . . فلا يطلق ، أو عزب . . فلا يتزوج حتىٰ يكمل .

ولا يبيت علىٰ معلوم ، ولا يعترض علىٰ أحد إلا إذا كان المعترض أعلىٰ ، فإنه تأديب لا اعتراض ، ولا يعتقدون في العاصي الإصرار ، بل يقولون : لعله تاب ، أو : لعله ممن يختم له بالتوبة .

ولا يعتقدون في أحد سوءاً ، وهم رحماء بينهم .

ومن أوصافهم الرياضة ، وهي : تطهير النفس عن كل خلق دني ، وتحليتها بكل خلق سني .

ويتحملون أذى الخلق ولا يؤذونهم ، ويحملون كلفهم ولا يلقون كلهم علىٰ أحد ، ويعينون علىٰ أسباب البر .

ويغيثون الملهوف ، ويرشدون الضال ، ويعلمون الجاهل ، وينبهون الغافل .

ولا يتخذون حِجَاباً ولا حُجَّاباً ، وكل من طلبهم وجدهم ، ولا يستترون ، ولا يقولون : نرجع بعد ساعة ، ولا يمنعون سائلاً .

يقرون الضيف ، ويؤنسون المستوحش ، ويؤمنون الخائف ، ويسقون العاطش ، ويشبعون الجائع ، ويكسون العاري ، ويعينون الخادم .

ولا يرجعون عن فضيلة ، ولا يقدمون علىٰ رذيلة ، ويتوبون مع الأنفاس ، ويستغفرون ، ويقومون تائبين ، ويقعدون كذلك ، ويجتنبون المحارم والشبهات ومواطن التهم ، ويحاسبون النفس علىٰ حركاتها وخواطرها ، ويحملونها على المكاره من الجوع والعطش والعري .

ولا بد لهم من مقاساة الأربع الموتات : الموت الأبيض ، وهو : الجوع ، والأحمر ، وهو : مخالفة الهوىٰ ، والأسود ، وهو : تحمل الأذىٰ ، والأخضر ، وهو : طرح الرقاع بعضها علىٰ بعض .

ويطرحون ما سوى الله ، ويعتمدون في جميع أمورهم على الله ، ويرضون بكل ما يجري عليهم مما تكرهه النفوس ، ويقطعون جميع العلائق والعوائق ، ويسعون في قضاء حوائج المسلمين بعد فراغهم من نفوسهم ، وأما قبل ذلك . . فهو طلب رياسة .

ويقنعون ، والقناعة : وقوف النفس عند ما رزقت من غير تشوف إلىٰ زيادة ، ويشكرون على السراء والضراء ، ولا يحلقون شعراً ، ولا يقصرونه ، ولا يقلمون ظفراً ، ولا يتجردون عن ثوب يعطونه لأحد إلا علىٰ طهارة ؛ لأنهم يريدون ألاّ يفارقهم شيء إلا وهم طاهرون ؛ لقوله : « تركناهم وهم يصلون »[1] وهو سر عجيب .

ومن صفاتهم : الذلة ، والفقر ، والمسكنة ، والخضوع ، والخشوع ، والتواضع ، والخوف ، والرجاء ، ولا يعودون ألسنتهم إلا الخير .

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٧٣٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١/ ٤٦٤) ، وأحمد (٢/ ٣١٢) ، وغيرهم .

روي أن عيسىٰ عليه السلام رأىٰ خنزيراً ، فقال له : انج بسلام ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني كرهت أن أعود لساني إلا الخير[١] .

ويغضون أبصارهم ، ويسرعون في المشي ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويصلحون ذات البين بأحسن سياسة وتلطف ، ويستحيون من الله تعالىٰ حق الحياء ، ويدعون للمسلمين ، ويخدمون الفقراء ، ويشفقون علىٰ خلق الله من ناطق وغيره .

روي أنه كان ببخارىٰ وال ظالم من أظلم الناس ، فركب يوماً فرأىٰ كلباً أجرب ، وكان ذلك اليوم فيه برد شديد ، فقال لبعض رجاله : ارفعوا ذلك الكلب ، فرفع إلىٰ داره ، فتلطف به وأحسن إليه ، فلما جاء الليل . . نودي في منامه : يا فلان ؛ كنت كلباً ، فوهبناك لكلب ، فهـٰذه رحمة بكلب أثرت .

وفي الحديث : « في كل كبد رطبة أجر »[٢] .

وينشرون محاسن الخلق ، ويسترون مساوئهم ، وينظرون للخلق بعين التعظيم لا بعين الازدراء ، ولا يرون أن لهم فضلاً ولا حقاً علىٰ أحد ، ويرون أن للخلق عليهم حقوقاً ، ويعادون لله ، ويحبون لله ، ويبغضون لله ، ويتصدقون بأعراضهم ودمائهم وأموالهم علىٰ جميع عباد الله ، ولا يقرضون أحداً ، وإن أقرضوا . . لا يأخذون منه شيئاً ، فإن أبى المقترض إلا الرد . . أخذوه ودفعوه إلىٰ محتاج ، ولا يرجعون فيما خرجوا عنه ، وإذا سقط منهم شيء ولو كان مئة ألف دينار . . لا يطلبونه ولا يرجعون في طلبه .

وإنما أقام النبي صلى الله عليه وسلم من أجل العقد ؛ لكونه مال الغير[٣] ، وليس هـٰذا من إضاعة المال ، فإن غلبت عليه الإضاعة . . وقف عندما يسقط حتىٰ يمر محتاج فيأمره بأخذه وينصرف ، ولا يدخل في ملكه إلا إن رد عليه من غير طلب ، فهو فيه مخير ، إن شاء أمسكه ، وإن شاء . . أخرجه .

ولا يأكلون ولا يشربون ولا يركبون ولا ينكحون إلا عن ضرورة ؛ لأن هـٰذه الأشياء

---

(١) أخرجه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٣) ، ومسلم (٢٢٤٤) .

(٣) وذلك في حديث آية التيمم ، وهو عند البخاري (٣٣٤) ، ومسلم (٣٦٧) .

مباحات ، وليس من شأنهم فعل المباحات ، وإذا اضطر الإنسان إليها . . صارت فرضاً ، وأين مرتبة الفرض من مرتبة المباح ؟!

هٰذا ما أردت نقله من كلامهم ، وأكثر هٰذه الآداب في « الرسالة » للقشيري ، وفيه كفاية لمن أراد الله له التوفيق والهداية ، ومن أراد زيادة علىٰ ذلك . . فلينظر في كتب القوم ، ولٰكن الاشتغال بتطهير النفس وتهذيبها أهم من القراءة والمطالعة ؛ إذ الأنفاس معدودة ، والآجال محدودة ، والأعمال مقبولة أو مردودة .

وجميع ما أوردناه يشهد له الكتاب والسنة ، ولو أوردت ذلك . . لطال ، ولٰكني آثرت الاختصار خوفاً من الإملال .

واعلم أن احترام المشايخ واجب كما تقدم ، وعقوقهم حرام ، وهو أشد من عقوق الوالدين . قاله أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي ، كما أخبرنا شيخنا الإمام ، قدوة الأنام ، شيخ مشايخ الإسلام ، جمال الدين محمد الطيب بن أحمد الناشري رحمه الله تعالىٰ ، قال : أخبرنا الشيخ الإمام أبو الخير محمد بن محمد الجزري ، قال : أخبرنا الشيخ الإمام تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي ، قال : أخبرنا أحمد بن علي الجزري بقراءتي عليه ، وفاطمة بنت إبراهيم بن أبي عمر قراءة عليها وأنا أسمع ، قالا : أخبرنا إبراهيم بن خليل ، قال : أنا أبو محمد عبد الرحمٰن بن علي المسلم ، أنا أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين الموازيني ، أنا الشيخ أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الفراتي ، قال : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن السلمي يقول : قال الأستاذ أبو سهل الصعلوكي : عقوق الوالدين يمحوها الاستغفار ، وعقوق الأستاذين لا يمحوها شيء .

وبه إلىٰ أبي عبد الرحمٰن السلمي قال : قلت يوماً لأبي سهل في كلام جرىٰ بيننا : لِمَ ؟ فقال : أما علمت أن من قال لأستاذه : لِمَ . . لا يفلح أبداً .

وقال الإمام القشيري : (قال الشيوخ : عقوق الأستاذين لا توبة عنها)[1] .

ولما نقل شيخنا شمس الدين السخاوي كلام الشيخ أبي سهل . . قال : وزاد غيره من أهل النقل أنه ربما كان سبباً لاختلال العقل .

وقد قال الحليمي : (في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الديك ؛ فإنه يدعو إلى

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص٢٥٨) فالذي فيها : (حقوق الأستاذين . . .) .

الصلاة »[1] دليل علىٰ أن كل من استفيد منه خير لا ينبغي أن يسب ويهان ، بل حقه أن يشكر ويكرم ويتلقىٰ بالإحسان) اهـ[2]

وقال الإمام الغزالي : (من وظيفة المعلم : الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرىٰ بنيه ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »[3] فإن قصده إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الأبوين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة ؛ أعني : معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا علىٰ قصد الآخرة ، لا علىٰ قصد الدنيا) اهـ[4]

قال الزركشي في « الخادم » : وقال بعض العلماء : الولادة نوعان :

أحدهما : هٰذه المعروفة .

والثانية : ولادة القلب والروح ، وخروجهما من مشيمة النفس وظلمة الطبع .

وهٰذه الولادة لما كانت بسببه صلى الله عليه وسلم كان كالأب للمؤمنين ، ولله در القائل : [من المنسرح]

مـــن علـــم النـــاس ذاك خيـــر أب ذاك أبـــو الـــروح لا أبـــو النطـــف

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالىٰ : (سمعت أحمد بن يحيى الأبيوردي يقول : من رضي عليه شيخه . . لا يكافأ في حال حياته ؛ لئلا يزول عن قلبه ذلك الشيخ ، فإذا مات الشيخ . . أظهر الله عليه ما هو جزاء رضاه ، ومن تغير عليه قلب شيخه . . لا يكافأ في حال حياته ، فإذا مات . . فحينئذ يجد المكافأة) اهـ[5]

قال الشيخ أبو نصر الطوسي : (دخل شيخ من أجلة المشايخ بلداً ، فرأىٰ فيها مريداً قد أجابته نفسه لكل شيء من الطاعات والعبادات والفقر والتقلل ، وكان قد تولد له من ذلك

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٧٣١) ، وأبو داوود (٥١٠١) ، وأحمد (٥/ ١٩٢) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٧١٥) ، وغيرهم .

(٢) انظر « المنهاج في شعب الإيمان » (٢/ ٥٥٧) .

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٨٠) ، وابن ماجه (٣١٣) .

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٥٥) .

(٥) الرسالة القشيرية (ص٢٦٠) .

قبول عند العامة ، فقال له هـٰذا الشيخ : لم يصح لك جميع ما أنت فيه إلا أن تكدي كسر الخبز من الأبواب ، ولا تأكل شيئاً غيرها ، فصعب عليه ذلك ، وعجز عنه ، فلما كبر سنه . . اضطر إلى السؤال والحاجة ، فكان يرىٰ أن ذلك عقوبة له ؛ لمخالفة الشيخ في أيام إرادته) اهـ

وروي أن رجلاً من أهل صنعاء من الزيدية وصل إلى الإمام الصالح محمد بن عبد الله بن زاكي ، وكان المذكور عارفاً بالقراءات السبع ، فقرأ الرجل الزيدي على الفقيه المذكور القراءات السبع ، فلما أكمل وحقق ورجع إلىٰ بلده . . أعجب أهل بلده بمعرفته وتحقيقه ، فقالوا له : ما أحسن لو كان شيخك من الزيدية! فقال : وما علي منه ، أخذت العسيلة ، وتركت العكيكة .

فبلغ كلامه المقرىء ، فجمع دَرَسته وأمرهم بقراءة : (يس) وقال لهم : اقرؤوها ليرد الله علينا عسيلتنا ، فقرؤوها ، ودعا الفقيه وهم يؤمنون ، فسلب ذلك الرجل جميع ما قرأه على الفقيه ، حتىٰ كأنه لم يقرأ شيئاً .

فيروىٰ أنه تاب إلى الله عز وجل ودخل في مذهب أهل السنة ، ورجع إلى الإمام المذكور ، وقرأ عليه مرة ثانية ، وانتفع به .

* * *

الباب الخامس

في العقوق

نسأل الله الكريم أن يعصمنا من ذلك ، ويوفقنا لأحسن المسالك .

اعلم أن العقوق حرام بإجماع المسلمين ، وأنه كبيرة . قاله سيد المرسلين ، كما روى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنع وهات ، ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » رواه البخاري[1] .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » فقلنا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يقولها حتىٰ قلت : لا يسكت . رواه البخاري[2] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر ، أو سئل عن الكبائر ، فقال : « الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين » ثم قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قال : « قول الزور وشهادة الزور » رواه البخاري[3] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قيل : يا رسول الله ؛ وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » رواه البخاري[4] .

---

(١) البخاري (٢٤٠٨) .
(٢) البخاري (٥٩٧٦) .
(٣) البخاري (٥٩٧٧) .
(٤) البخاري (٥٩٧٣) .

وعن أبي الطفيل قال : سئل علي رضي الله عنه : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ؟ قال : ما خصنا بشيء لم يعم به الناس كافة ، إلا ما في قراب سيفي هـٰذا ، وأخرج صحيفة ، فإذا فيها مكتوب : « لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من غير منار الأرض ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من آوىٰ محدثاً » رواه مسلم[١] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة ولد زناً ، ولا مدمن خمر ، ولا عاق ، ولا منان »[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا قاطع رحم ، ولا ولد زنية ، ولا عاق والديه ، ولا من أتىٰ ذات محرم »[٣] .

وعن سالم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، وثلاثة لا يدخلون الجنة ، فأما الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة . . فالعاق لوالديه ، والمرأة المترجلة تَشَبَّه بالرجال ، والديوث ، وأما الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم . . فالعاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطىٰ »[٤] قال الإمام البيهقي : كذا جاء به أبو عاصم ، وتبعه فيه غيره فذكر العاق في الموضعين ، وكذا رواه الهيثمي في « الزوائد » عن البزار ، قال : ورجال إسناده ثقات[٥] .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من العباد عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولا يطهرهم » قالوا : ومن أولـٰئك يا رسول الله ؟ قال : « المتبرىء من والديه رغبة عنهما ، والمتبرىء من ولده ، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم ، وتبرأ منهم »[٦] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد

---

(١) مسلم (١٩٧٨/٤٥) .
(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١١٦٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٨٩) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٩٢) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٤٩٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٣٠٢) .
(٥) انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٥١) .
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٩٥) . والبيهقي في « الشعب » (٧٥٠٣) .

الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ، أو قتله نبي ، أو قتل أحد والديه ، والمصورون ، وعالم لم ينتفع بعلمه » .[1] .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل الذنوب يغفر الله منها ما يشاء ، إلا عقوق الوالدين ، فإنه يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات »[2] .

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بر أباه من شد إليه الطرف »[3] .

وعن عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالي ، وصمت شهر رمضان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات علىٰ هـٰذا . . كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هـٰكذا ـ ونصب إصبعيه ـ ما لم يعق والديه » رواه الهيثمي عن أحمد والطبراني[4] .

وعن أبي غسان الضبي قال : قال لي أبو هريرة رضي الله عنه : أتعرف عبد الله بن خداش ؟ قلت : لا ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فخذه في جهنم مثل أحد ، وضرسه مثل البيضاء » قال أبو هريرة : فقلت : ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : « كان عاقاً بوالديه » رواه الهيثمي عن الطبراني[5] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تراح ريح الجنة من مسيرة خمس مئة عام ، ولا يجد ريحها منان بعمله ، ولا عاق ، ولا مدمن خمر » رواه الهيثمي عن الطبراني[6] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٠٤) .
(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ١٥٦) بنحوه .
(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٩٣٧٧) .
(٤) انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٥٠) .
(٥) مجمع الزوائد (٨/ ١٥١) ، والمعجم الأوسط (٦٨٥٣) .
(٦) مجمع الزوائد (٨/ ١٥١) ، والمعجم الصغير (١/ ١٤٦) .

ونحن مجتمعون ، فقال : « يا معشر المسلمين ؛ اتقوا الله وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة رحم ، وإياكم والبغي ؛ فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغي ، وإياكم وعقوق الوالدين ؛ فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين ، والكذب كله إثم إلا ما نفعت به مؤمناً ، ودفعت به عن دين ، وإن في الجنة لسوقاً ما يباع فيها ولا يشترىٰ ، ليس فيها إلا الصور ، فمن أحب صورة من رجل أو امرأة . . دخل فيها » رواه الهيثمي عن الطبراني[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال للعاق : اعمل ما شئت ؛ فإني لا أغفر لك ، ويقال للبار : اعمل ما شئت ؛ فإني سأغفر لك » رواه الثعلبي في « تفسيره »[٢] .

وشكا رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم سوء خلق أمه ، قال : « لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر » قال : إنها سيئة الخلق ، قال : « لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين » قال : إنها سيئة الخلق ، قال : « لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها ، وأظمأت نهارها » قال : لقد جازيتها ، قال : « ما فعلت ؟ » قال : حججت بها علىٰ عاتقي ، قال : « ما جزيتها ولا بطلقة واحدة » .

وعن عبد الله ابن أبي أوفىٰ قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه آتٍ فقال : شاب يجود بنفسه ، فقيل له : قل : لا إلٰه إلا الله ، فلم يستطع ، فقال : « كان يصلي ؟ » فقال : نعم ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهضنا معه ، فدخل على الشاب فقال : « قل : لا إله إلا الله » فقال : لا أستطيع ، قال : « لم ؟ » قال : كان يعق والدته .

وفي رواية : قال : بعقوق والدتي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أحية والدته ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ادعوها » فدعوها فجاءت ، فقال : « هـٰذا ابنك ؟ » فقالت : نعم ، فقال لها : « أرأيت لو أججت نار ، فقيل لك : إن شفعت له . . خلينا عنه ، وإلا . . قذفناه

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٥١ـ١٥٢) ، والمعجم الأوسط (٥٦٦٠) .
(٢) تفسير الثعلبي (٦/ ٩٤) .

فيها ، أكنت تشفعين له ؟ » قالت : يا رسول الله ؛ إذاً أشفع ، قال : « فأشهدي الله وأشهديني أنك قد رضيت عنه » فقالت : اللهم ؛ إني أشهدك وأشهد رسولك أني قد رضيت عن ابني ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام ؛ قل : لا إله إلا الله » فقال : لا إله إلا الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي أنقذه من النار » ذكره البيهقي في « شعب الإيمان » والهيثمي في « مجمع الزوائد » عن الطبراني[1] .

وفيه : فقال : قل : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

وعن جابر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ إن لي مالاً وولداً ، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي ، فقال : النبي صلى الله عليه وسلم : « اذهب فأتني بأبيك » فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: (إذا جاء الشيخ . . فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه) فلما جاءه الشيخ . . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال ابنك يشكوك ، تريد أن تأخذ ماله ؟ » قال : سله يا رسول الله ؛ هل أنفقه إلا علىٰ عماته وخالاته وعلىٰ نفسي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيه ، دعني من هـٰذا » أخبرنا عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك ، فقال الشيخ : يا رسول الله ؛ ما زال الله يزيدنا بك يقيناً ، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي ، قال : « قل » فقال : [من الطويل]

غذوتك مولوداً ومنتك يافعاً ... تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيناي تهمل
تخاف الردىٰ نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدىٰ ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إن لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... علي بمال دون مالك تبخل

---

(١) انظر « شعب الإيمان » (٧٥٠٨) ، و« مجمع الزوائد » (٨/ ١٥١) .

قال : فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : « أنت ومالك لأبيك »[1] .

وفي رواية قال : شكا رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ علىٰ عصىٰ ، فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوي ، وفقيراً وأنا غني ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي ، وأنا اليوم ضعيف وهو قوي ، وأنا فقير وهو غني ، ويبخل علي ، فبكىٰ صلى الله عليه وسلم وقال : « ما من حجر ولا مدر يسمع هـٰذا . . إلا بكىٰ » ثم قال للولد : « أنت ومالك لأبيك ، أنت ومالك لأبيك » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان في بني إسرائيل رجل يقال له : جريج ، وكان عابداً ، فابتنىٰ صومعة ، فجعل يصلي فيها ، فأتته أمه فقالت : يا جريج ، قال : اللهم ؛ أمي وصلاتي ، فأقبل علىٰ صلاته ، فانصرفت ، ثم جاءته يوماً آخر ، ففعل مثل ذلك ، ثم جاءته يوماً ثالثاً ، ففعل مثل ذلك ، فقالت أمه : اللهم ؛ لا تمته حتىٰ ينظر في وجوه المومسات ، وكان في بني إسرائيل بَغِيٌّ ، فقالت : لأفتنن جريجاً ، فجاءته فتعرضت له ، فأعرض عنها .

فأتت راعياً يأوي إلىٰ صومعة جريج ، فأمكنته من نفسها ، فحملت فولدت غلاماً ، وقالت : هو من جريج ، فأتاه بنو إسرائيل فضربوه وشتموه وهدموا صومعته ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهـٰذه البغي ، وولدت غلاماً ، قال : فأين الغلام ؟ قال : فجيء به ، فقام وصلىٰ ودعا ، ثم قال للغلام : من أبوك ؟ قال : راعي الغنم ، قالوا : نبني صومعتك من ذهب ، قال : لا حاجة لي في ذلك ، ابنوها كما كانت »[2] .

وعن ليث بن سعد قال : حدثني يزيد بن حوشب الفهري عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وفي رواية ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كان جريج الراهب فقيهاً عالماً . . لعلم أن إجابته أمه أفضل من عبادة ربه » رواه البيهقي[3] .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٥٦٦) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ٣٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٠) بنحوه ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٩٥) .

(٣) شعب الإيمان (٧٤٩٦) .

وعن طلق بن علي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أدركت والدي ، أو أحدهما وأنا في صلاة العشاء ، وقد قرأت بفاتحة الكتاب نادىٰ : يا محمد . . لأجبته : لبيك »رواه البيهقي[١] .

وقال : في سنده ياسين بن معاذ ، وهو ضعيف .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث دعوات مستجابات : دعوة الوالد علىٰ ولده ، ودعوة المظلوم ، ودعوة المسافر »[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الوالدة أسرع إجابة » قيل : يا رسول الله ؛ ولم ذاك ؟ قال : « هي أرحم من الأب ، ودعوة الرحيم لا تسقط » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ : قال العلماء في حديث جريج : (إنه كان الصواب في حقه إجابته أمه ؛ لأنه كان في صلاة نفل ، والاستمرار فيها تطوع لا واجب ، وإجابة الأم واجبة ، وبرها واجب ، وعقوقها حرام ، وكان يمكنه أن يخفف الصلاة ويجيبها ، ويعود لصلاته)[٣] .

قال : (وفي حديثه فوائد كثيرة :

منها : عظم بر الوالدين ، وتأكيد حق الأم ، وأن دعاءها مجاب .

وأنه إذا تعارضت الأمور . . بدىء بأهمها .

وأن الله تعالىٰ يجعل لأوليائه مخارج عند ابتلائهم بالشدائد غالباً ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ .

وقد تجري عليهم الشدائد في بعض الأوقات زيادة في أحوالهم ، وتهذيباً لهم ، فيكون لطفاً .

ومنها : استحباب الوضوء والصلاة عند الدعاء بالمهمات .

---

(١) شعب الإيمان (٧٤٩٧) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٦٩٩) ، والترمذي (١٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٨٦٢) ، وغيرهم .

(٣) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٠٥) .

ومنها : أن الوضوء كان معروفاً في شرع من قبلنا ، وقد ثبت هـٰذا الحديث في « البخاري » : « فتوضأ وصلىٰ »[1] .

وقد حكى القاضي عن بعضهم أنه زعم اختصاصه بهـٰذه الأمة .

ومنها : إثبات كرامات الأولياء ، وهو مذهب أهل السنة ، خلافاً للمعتزلة .

وفيه : أن كرامات الأولياء قد تقع باختياراتهم وطلبهم ، وهـٰذا هو الصحيح عند أصحابنا المتكلمين ، ومنهم : من قال : لا تقع باختياراتهم وطلبهم .

وفيه : أن الكرامات قد تكون بخوارق العادات علىٰ جميع أنواعها ، ومنعه بعضهم ، وادعىٰ أنها تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه ، وهـٰذا غلط من قائله ، وإنكار للحس ، بل الصواب : جريانها بقلب الأعيان ، وإحضار الشيء من العدم ونحوه) اهـ[2]

* * *

---

(١) البخاري (٢٤٨٢) .

(٢) شرح صحيح مسلم (١٦/١٠٨) .

فَصْلٌ

في الكلام على الكبائر

قال الإمام النووي رحمه الله في « شرح مسلم » : (ذهب الجماهير من السلف والخلف في جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلىٰ صغائر وكبائر ، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد تظاهرت علىٰ ذلك دلائل الكتاب والسنة ، واستعمال سلف الأمة وخلفها .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : كل شيء نهى الله عنه . . فهو كبيرة ، وبهـٰذا قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني ، وحكى القاضي عياض هـٰذا عن المحققين ، واحتج القائلون بهـٰذا بأن كل مخالفة بالنسبة إلىٰ جلال الله تعالىٰ كبيرة) اهـ[١]

ونسب ابن بطال هـٰذا إلى الأشعرية فقال : انقسام الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر هو قول عامة الفقهاء ، وخالفهم الأشعرية فقالوا : المعاصي كلها كبائر ، وإنما يقال لبعضها : صغيرة بالإضافة إلىٰ ما هو أكبر منها ، كما يقال : القبلة المحرمة صغيرة بإضافتها إلى الزنا .

قالوا : ولا ذنب عندنا يغفر واجباً باجتناب ذنب آخر ، بل كل ذلك كبيرة ، ومرتبكه في المشيئة ، غير الكفر .

وأجابوا عن قوله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ أن المراد : الشرك .

وقد قال الفراء : من قرأ : ﴿ كَبَآئِرَ ﴾ المراد به : كبير ، وكبير الإثم هو الشرك .

وقد يأتي لفظ الجمع والمراد به الواحد ، كقوله تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ولم يرسل إليهم غير نوح .

وقال الإمام الغزالي : (إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه)[٢] .

---

(١) انظر « شرح صحيح مسلم » (٢/ ٨٤ ـ ٨٥) ففي النقل هنا تقديم وتأخير .

(٢) نقله الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٠/ ٤٠٩) عن « البسيط » .

وقال القرطبي : (ما أظنه يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كل ما نهى الله عنه كبيرة ؛ لأنه مخالف لظاهر القرآن في الفرق بين الصغائر والكبائر ، كقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ .

فجعل من المنهيات صغائر وكبائر ، وفرق بينهما في الحكم ؛ إذ جعل تكفير السيئات في الآية مشروطاً باجتناب الكبائر ، واستثنى اللمم من الكبائر والفواحش ، فكيف يخفىٰ ذلك علىٰ حبر القرآن ؟!)[1] .

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (الرواية عن ابن عباس صحيحة ، رواها الطبراني بسند صحيح علىٰ شرط الشيخين ، فالأولىٰ أن يكون المراد بقوله : نهى الله عنه . . محمولاً علىٰ نهي خاص ، وهو الذي قرن به وعيد ، كما في الرواية الأخرىٰ عن ابن عباس ، فيحمل مطلقه علىٰ مقيده جمعاً بين كلاميه) اهـ[2]

فإذا تقرر ذلك . . فهل ميز الله سبحانه وتعالى الكبيرة من الصغيرة .

قال الإمام الغزالي والإمام النووي ـ نقلا عن الواحدي ـ والإمام الرازي واللفظ له : (الأكثرون علىٰ أنه تعالىٰ لم يميز جملة الكبائر عن جملة الصغائر ؛ لأنه تعالىٰ بين أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر ، فإذا عرف العبد أن الكبائر ليست إلا هـٰذه الأصناف المخصوصة . . عرف أنه متى احترز عنها . . صارت صغائر مكفرة ، فكان ذلك إغراء له بالإقدام علىٰ ترك الصغائر ، والإغراء بالقبيح لا يليق بالجملة .

أما إذا لم يميز الله تعالىٰ كل الكبائر عن كل الصغائر ، ولم يعرف في شيء من الذنوب أنه صغيرة . . فلا ذنب يقدم عليه إلا ويجوز كونه كبيرة ، فيكون ذلك زاجراً له عن الإقدام عليه .

قالوا : ونظير هـٰذا إخفاء الصلاة الوسطىٰ في الصلوات ، وليلة القدر في ليالي رمضان ، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة ، ووقت الموت في جملة الأوقات .

والحاصل : أن هـٰذه القاعدة تقتضي أن الله تعالىٰ لم يبين في شيء من الذنوب أنه صغيرة ، ولا بين أن الكبائر كذا وكذا ، ولـٰكن يجوز أن يبين في بعض الذنوب أنه كبيرة .

---

(١) انظر « المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » (١/ ٢٨٤) .
(٢) فتح الباري (١٠/ ٤١٠) .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما تعدون الكبائر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : « الإشراك بالله ، وقتل النفس المحرمة ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وقول الزور ، وأكل الربا ، وقذف المحصنات الغافلات » .

وعن عبد الله بن عمر أنه زاد فيها : استحلال آمّين بيت الله الحرام ، وشرب الخمر .

وعن ابن مسعود : أنه زاد فيها : القنوط من رحمة الله ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله)[١] .

قال الجوهري : القنوط : اليأس ، وقال : اليأس : القنوط[٢] ، فعرف كل واحد بالآخر .

وقال ابن الأثير : (القنوط أشد من اليأس من الشيء)[٣] .

وذكر عند ابن عباس أن الكبائر سبع ، فقال : هي إلى السبعين أقرب[٤] .

وفي رواية أخرىٰ : إلىٰ سبع مئة[٥] .

وقال الإمام النووي رحمه الله : (قال العلماء : ولا انحصار للكبائر في عدد مذكور، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « الكبائر سبع » . . فالمراد : من الكبائر سبع ؛ فإن هـٰذه الصيغة وإن كانت للعموم . . فهي مخصوصة بلا شك ، وإنما وقع الاقتصار علىٰ هـٰذه السبع ، وفي الرواية الأخرىٰ ثلاث ، وفي الأخرىٰ أربع ؛ لكونها من أفحش الكبائر ، مع كثرة وقوعها ، ولم يذكر في بعضها ما ذكر في الأخرىٰ ، وهـٰذا مصرح بما ذكرته من أن المراد البعض .

وقد جاء من الكبائر شتم الرجل والديه ، وجاء في النميمة وعدم الاستبراء من البول أنهما من الكبائر ، وجاء أيضاً من الكبائر اليمين الغموس ، واستحلال بيت الله الحرام .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/١٧) ، و« شرح صحيح مسلم » (٢/٨٦) ، و« تفسير الرازي » (١٠/٧٦ـ٧٧) ، وأثر ابن مسعود رضي الله عنه عند معمر بن راشد في « الجامع » (١٩٧٠١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٩) .

(٢) الصحاح : مادة (قنط) و (يئس) .

(٣) النهاية (٤/١١٣) .

(٤) أخرجه معمر بن راشد (١٩٧٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٠) .

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٥/٢٧) .

وإذ ثبت انقسام المعاصي إلىٰ صغائر وكبائر . . فقد اختلفوا في ضبطهما اختلافاً كثيراً منتشراً جداً .

فروي عن ابن عباس أنه قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب ، ونحو هـٰذا عن الحسن البصري .

وقال آخرون : هي ما أوعد عليه بنار ، أو حدٌّ في الدنيا .

وقال أبو حامد الغزالي في « البسيط » : الضابط الشامل المعنوي في ضبط الكبيرة : أن كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف وحذار أو ندم كالمتهاون بارتكابها ، والمستجرىء عليها اعتياداً ، فما أشعر بهـٰذا الاستخفاف والتهاون . . فهو كبيرة ، وما يحمل علىٰ فلتات النفس وفترة مراقبة التقوىٰ ولا ينفك عن تندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية . . فهـٰذا لا يمنع العدالة ، وليس بكبيرة .

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله في « فتاويه الكبيرة » : كل ذنب كبر وعظم عظماً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبر ، ووصف بكونه عظيماً على الإطلاق ، قال : فهـٰذا حد الكبيرة ، ثم لها أمارات :

منها : إيجاب الحد .

ومنها : الإيعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب أوالسنة .

ومنها : وصف فاعلها بالفسق .

ومنها : اللعن ، كلعنِ اللهِ مَنْ غَيَّرَ منارَ الأرض [١] .

وقال الشيخ الإمام أبو محمد بن عبد السلام رحمه الله في كتابه « القواعد » : إذا أردت معرفة الفرق بين الصغيرة والكبيرة . . فاعرض مفسدة الذنب علىٰ مفاسد الكبائر المنصوص عليها ، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر . . فهي من الصغائر ، وإن ساوت أدنىٰ مفاسد الكبائر ، أو أربت عليه . . فهي من الكبائر ، فمن شتم الرب سبحانه وتعالىٰ ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو استهان بالرسل ، أو كذب واحداً منهم ، أو ضمخ الكعبة

(١) فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح (١/١٤٨) .

بالعذرة ، أو ألقى المصحف في القاذورات . . فهي من أكبر الكبائر ، ولم يصرح الشرع بأنه كبيرة .

وكذلك لو أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها ، أو أمسك مسلماً لمن يقتله ، فلا شك أن مفسدة ذلك أعظم من مفسدة أكل مال اليتيم مع كونه من الكبائر .

وكذلك لو دل الكفار علىٰ عورة المسلمين مع علمه أنهم يستأصلون بدلالته ، ويسبون حرمهم وأطفالهم ، ويغنمون أموالهم ، فإن تسببه إلىٰ هـٰذه المفاسد أعظم من توليه يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر .

وكذلك لو كذب علىٰ إنسان كذباً يعلم أنه يقتل بسببه .

أما إذا كذب عليه كذباً يؤخذ بسببه تمرة . . فليس كذبه من الكبائر .

قال : وقد نص الشرع علىٰ أن شهادة الزور وأكل مال اليتيم من الكبائر ، فإن وقعا في مال خطير . . فهـٰذا ظاهر ، وإن وقعا في غير خطير . . فيجوز أن يجعلا من الكبائر فطاماً عن هـٰذه المفاسد ، كما جعل شرب قطرة من خمر من الكبائر وإن لم تتحقق المفسدة ، ويجوز أن يضبط ذلك بنصاب السرقة .

قال : والحكم بغير الحق كبيرة ، فإن شهادة الزور سبب ، والحكم مباشرة ، فإذا جعل السبب كبيرة . . فالمباشرة أولىٰ .

قال : وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأنها كل ذنب قرن به وعيد ، أو حد ، أو لعن .

فعلىٰ هـٰذا : كل ذنب علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به الحد ، أو الوعيد ، أو اللعن ، أو أكثر من مفسدته . . فهو كبيرة .

ثم قال : الأولىٰ أن تضبط الكبيرة بما يشعر بتهاون مرتكبها في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها(١) ، والله أعلم) اهـ

ذكر ذلك الإمام النووي في « شرح مسلم » في حد الكبيرة(٢) ، ثم قال : (قال العلماء : والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة .

---

(١) انظر « القواعد الكبرىٰ » (١/ ٢٩ـ٣٠ـ٣١ـ٣٢ـ٣٤) .
(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (٢/ ٨٤ـ٨٦) .

وروي عن عمر وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم : « لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار »[1] .

معناه : أن الكبيرة تمحىٰ بالاستغفار ، والصغيرة تصير كبيرة مع الإصرار)[2] .

وليس المراد به : استغفار الكذابين باللسان ، وإنما المراد : التوبة والندم والإقلاع ، والالتجاء إلى الله تعالىٰ بالقلب . قاله الإمام الغزالي وغيره .

وقال الإمام النووي : (قال الشيخ أبو محمد بن عبد السلام في حد الإصرار : هو أن تتكرر منه الصغيرة تكرراً يشعر بقلة مبالاته بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك .

قال : وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع ، بحيث يشعر مجموعها بما يشعر به أصغر الكبائر[3] .

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله : المُصرُّ : من تلبس من أضداد التوبة باستمرار العزم على المعاودة ، أو باستدامة الفعل بحيث يدخل به ذنبه في حيز ما يطلق عليه الوصف بصيرورته كبيراً عظيماً ، وليس لزمان ذلك وعدده حصر ، والله أعلم)[4] اهـ كلام النووي في « شرح مسلم »[5] .

وقال ابن الأثير : (أصر يصر إصراراً ، إذا لزمه وداومه وثبت عليه ، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب) اهـ[6]

وقال بعضهم : الإصرار هو : العزم على العود إلىٰ مثل ذلك الذنب .

وقال الإمام النووي في « الروضة » : (قيل : الإصرار : المداومة علىٰ نوع من الصغائر .

وقيل : الإكثار من الصغائر ، سواء كانت من نوع أو أنواع ، ويوافق الثاني قول

---

(١) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٨٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، وابن جرير في « تفسيره » عنه أيضاً موقوفاً .

(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٨٧) .

(٣) القواعد الكبرىٰ (١/ ٣٤) .

(٤) فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح (١/ ١٤٨) .

(٥) شرح صحيح مسلم (١/ ٣٤) .

(٦) النهاية (٣/ ٢٢) .

الجمهور : إن من غلبت طاعاته معاصيه . . كان عدلاً ، وعكسه فاسق .

فعلىٰ هـٰذا : لا تضر المداومة علىٰ نوع من الصغائر إذا غلبت الطاعة ، وعلى الأول تضره) اهـ[1]

فإذا عرفت أن الإصرار المداومة ، أو استمرار العزم على المعاودة . . عرفت أن ذلك صفة العاصي ، ولا يلزم من وجودها فيه بقاء الذنب السابق ، ولا من غفران الذنب السابق بفعل المكفرات كالوضوء والصلاة عدمها .

وإذا اتصف بصفة الإصرار . . تعذر تكفير الصغائر بفعل المكفرات ، ما لم يتب ؛ لأنه يصير كبيرة ، ولا تغفر الصغائر مع وجود الكبيرة ؛ لنصوص الكتاب والسنة .

تَنبِيه

مذهب أهل السنة : أن المعصية لا تسلب الإيمان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

واحتج ابن عباس رضي الله عنهما علىٰ هـٰذا بقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن القصاص إنما يجب على القاتل المتعمد ، ثم إنه خاطبه بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فدل علىٰ أنه مؤمن .

وثانيها : قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ وهـٰذه الأخوة ليست إلا أخوة الإيمان ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

وثالثها : قوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ وهـٰذا لا يليق إلا بالمؤمن .

ومما يدل علىٰ هـٰذا المطلوب قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ ﴾ أبقى اسم الإيمان علىٰ من لم يهاجر مع عظم الوعيد لترك الهجرة ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

---

(١) انظر « روضة الطالبين » (١١/ ٢٢٥) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ومع هـٰذا جعلهم مؤمنين .

ويدل عليه أيضاً قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ ﴾ .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ والأمر بالتوبة لمن لا ذنب عليه محال .

ومذهب أهل السنة أيضاً : أنها لا تحبط العمل الصالح ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ .

والمراد بالخلط هنا : الجمع المطلق .

ولما وصف الله تعالى العمل الصالح والعمل السيىء بالمخالطة ، والمختلطان لا بد أن يكونا باقيين حال اختلاطهما ؛ لأن الاختلاط صفة المختلطين ، وحصول الوصف حال عدم الموصوف محال . . دل علىٰ بقاء العملين حال الاختلاط . قاله الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالىٰ[1] .

* * *

(١) تفسير الرازي (١٦/١٧٦) .

فَصْلٌ

في [معنىٰ] العقوق

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح مسلم » : (العقوق مأخوذ من العق ، وهو : القطع ، وذكر الأزهري أنه يقال : عق والده يعقه بضم العين عقاً وعقوقاً ، إذا قطعه ولم يصل رحمه ، وجمع العاق : عَقَقَة بفتح الحروف كلها ، وعُقُق بضم العين والقاف .

وقال صاحب « المحكم » : رجل عُقَق وعُقُق وعق وعاق بمعنىٰ واحد ، وهو الذي شق عصا الطاعة لوالده . هٰذا قول أهل اللغة .

وأما حقيقة العقوق المحرم شرعاً . . فقل من ضبطه ، وقد قال الشيخ الإمام أبو محمد بن عبد السلام رحمه الله : لم أقف في عقوق الوالدين وفيما يختصان به من الحقوق علىٰ ضابط أعتمد عليه ، فإنه لا تجب طاعتهما في كل ما يأمران به ، ولا في كل ما ينهيان عنه باتفاق العلماء ـ قال الإمام الزركشي : « قد نوزع في دعواه الاتفاق ، فإنه إذا أراد بحيث يشتمل الحرام . . فصحيح ، وإن أراد غير ذلك . . ففيه نظر » اهـ قال[1] : وقد حرم على الولد الجهاد بغير إذنهما ؛ لما يشق عليهما من توقع قتله ، أو قطع عضو من أعضائه ، ولشدة تفجعهما علىٰ ذلك ، وقد ألحق بذلك كل سفر يخافان فيه علىٰ نفسه ، أو عضو من أعضائه .

هٰذا كلام الشيخ أبي محمد[2] .

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في « فتاويه » : العقوق المحرم : كل فعل يتأذىٰ به الوالد أو نحوه تأذياً ليس بالهين ، مع كونه ليس من الأفعال الواجبة .

قال : وربما قيل : طاعة الوالدين واجبة في كل ما ليس بمعصية ، ومخالفة أمرهما في ذلك عقوق ، وقد أوجب كثير من العلماء طاعتهما في الشبهات .

---

(١) القول للعز بن عبد السلام بنقل النووي رحمهما الله ، وقول الزركشي مُقْحَمٌ في كلامه . فليتنبه .
(٢) انظر « القواعد الكبرىٰ » (١/ ٣١) .

قال : وليس قول من قال من علمائنا : يجوز له السفر في طلب العلم وفي التجارة بغير إذنهما . . مخالفاً لما ذكرته ، فإن هـٰذا كلام مطلق ، وفي ما ذكرته بيان لتقييد ذلك المطلق ، والله أعلم) اهـ[١]

وما ذكره الإمام ابن الصلاح اقتصر عليه في « الروضة »[٢] .

وقال الإمام أبو طالب المكي في « قوت القلوب » : (تفسير العقوق جملة : أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما ، وأن يسألاه في حاجة فلا يعطيهما ، وأن يأتمناه فيخونهما ، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما ، وأن يسباه فيضربهما .

وذكر وهب بن منبه اليمني أصل البر بالوالدين في التوراة : وأن تقي مالهما بمالك ، فتوفر عليهما مالهما بمالك ، وتطعمهما من مالك .

وأصل العقوق : أن تقي مالك بمالهما ، فتوفر مالك وتأكل مالهما) اهـ[٣] .

ونقل الإمام الغزالي في « الإحياء » كلام الإمام أبي طالب المكي وسكت عليه[٤] .

قال الإمام الزركشي : (قول ابن الصلاح : وربما قيل : طاعة الوالدين واجبة في كل ما ليس بمعصية ، وتبعه علىٰ ذلك في « الروضة ». . يشعر بضعف هـٰذا القول ، وليس كذلك ، بل هو الظاهر ، وهو أنه تجب طاعتهما في كل ما ليس بمعصية ؛ لأن ذلك واجب في حق ولاة الأمر ، فالوالدان به أولىٰ ، ويشهد لهـٰذا حديث جريج) اهـ

أقول : ومما يدل علىٰ وجوب طاعتهما في المباح : الحديث المروي عن ابن عمر أن أباه أمره بطلاق امرأته ، فأبىٰ ، فشكاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بطلاقها ، وقد مر الكلام عليه .

وروي أيضاً نحو ذلك عن أبي بكر رضي الله عنه أنه أمر ابنه عبد الله بطلاق عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت حسناء جميلة ، فأولع بها ، فعزم عليه أبوه حتىٰ طلقها ،

---

(١) شرح صحيح مسلم (٢/ ٨٧) ، وانظر « فتاوىٰ ومسائل ابن الصلاح » (١/ ٢٠١) .
(٢) انظر « الروضة » (٥/ ٣٨٩) .
(٣) انظر « قوت القلوب في معاملة المحبوب » (٢/ ١٤٨) .
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٨) .

فهجم عليه أبوه وهو يقول : [من الطويل]

ولـم أر مثلـي طلـق اليـوم مثلهـا ... ولا مثلهـا فـي غيـر جـرم تطلـق
لهـا خلـق جـزل ورأي ومنصـب ... وخلـق سـوي فـي الحيـاة مصـدق

فرق له أبوه فارتجعها[١] .

فدل ذلك أيضاً علىٰ وجوب امتثال أمر الوالدين في المباح .

وروىٰ [أبو] عمر ابن عبد البر أن طلحة بن عبد الله أمر ابنه محمداً بالخروج لقتال علي رضي الله عنه ، وكان هواه فيما ذكروا مع علي ، وكان علي رضي الله عنه قد نهىٰ عن قتله في ذلك اليوم ، وقال : إياكم وصاحب البرنس ، فأمره أبوه بالتقدم ، فتقدم ونثل درعه بين رجليه وقام عليها[٢] ، وجعل كلما حمل عليه رجل . . قال : أنشدتك بـ ﴿حمٓ﴾ حتىٰ شد عليه رجل فقتله ، فمر به علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو قتيل فقال : هـٰذا السجاد ورب الكعبة ، وكان يعرف بالسجاد هـٰذا الذي قتله بره بأبيه[٣] .

فانظر كيف سماه باراً .

وهـٰذه الحكاية تفتح البحث في أنه لو كان الوالد والولد مجتهدين ، واختلف اجتهادهما ، وأمره والده باتباعه . . فهل يجب على الولد موافقة والده علىٰ رأيه ؟

الجواب : أنه لا يجب ، بل يجوز ؛ لأن المجتهد لا يقلد المجتهد ، وقد قررنا في الباب الذي قبل هـٰذا أن عقوق الشيخ أعظم من عقوق الوالد ، ومع ذلك . . فقد خالف الإمام الشافعي رضي الله عنه مشايخه في كثير من المسائل ؛ لكونه مجتهداً .

وقد أورد الإمام الرازي سؤالاً علىٰ ذلك فقال : فإن قال قائل : لمَّا كان حال الإمام مالك في العلم والدين ما هو مشهور ، وكان تعظيم الأستاذ واجباً عند كل مسلم . . فكيف أقدم الشافعي علىٰ مخالفته ؟! وكيف جوز من نفسه أن يضع الكتاب عليه ؟!

والجواب : قال البيهقي : إنما وضع الكتاب علىٰ مالك ؛ لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستشفىٰ بها ، وكان يقال لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : قال

---

(١) ذكره ابن عبد البر في « الإستيعاب » (٤/ ٣٥٤) .
(٢) نثل درعه : ألقاها .
(٣) انظر « الإستيعاب » (٣/ ٣٣٠) .

مالك ، فقال الشافعي : (إن مالكاً آدمي يخطىء ويصيب) فصار ذلك داعياً للشافعي إلىٰ أن وضع الكتاب علىٰ مالك ، وكان يقول : كرهت أن أفعل ذلك ، ولـٰكن استخرت الله تعالىٰ سنة .

قال الإمام الرازي : وأنا أقول : إن أرسطاطاليس الحكيم تعلم الحكمة من أفلاطون ثم خالفه ، فقيل له : كيف فعلت ذلك ؟ فقال : أستاذي صديقي ، والحق صديقي ، فإذا تنازعا . . فالحق أولىٰ بالصداقة .

وهـٰذا المعنىٰ بعينه هو الذي حمل الشافعي علىٰ إظهار مخالفة مالك ، رضي الله عنهما .

فإن قيل : فكيف خرج محمد بن طلحة لقتال علي رضي الله عنه طاعة لوالده وهو لا يراه ؟

قلت : أطاعه في الخروج لا في القتال ، ولذلك نثل درعه ، ولو كان يريد القتال . . للبس آلة الحرب .

فائدة

محمد بن طلحة هـٰذا يعرف بالسجاد ، وأمه حمنة بنت جحش أخت زينب ، أتىٰ به أبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسه وسماه محمداً ، وكناه بأبي القاسم ، وقيل : كنيته : أبو سليمان .

قال ابن عبد البر : والصحيح : أبو القاسم[1] .

وقال [أبو] راشد بن حفص الزهري : أدركت أربعة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يسمىٰ محمداً ويكنىٰ أبا القاسم : محمد بن علي ، ومحمد بن أبي بكر ، ومحمد بن طلحة ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص[2] .

وقال الواقدي : كان محمد بن جعفر بن أبي طالب ، ومحمد ابن الحنفية ، ومحمد بن الأشعث ، ومحمد بن أبي حذيفة كلهم يكنىٰ أبا القاسم[3] .

---

(١) الإستيعاب (٣/ ٣٣٠) .
(٢) ذكره ابن عبد البر في « الإستيعاب » (٣/ ٣٣٠)
(٣) ذكره في « الإستيعاب » (٣/ ٣٢٧) .

وعن محمد بن [عبد الله بن] عبيد بن عمير الليثي قال : كانت عائشة رضي الله عنها تكني محمد بن أبي بكر بأبي القاسم في زمان الصحابة ، فلا يرون بذلك بأساً[1] .

ثم نرجع إلى الكلام علىٰ ضابط العقوق فنقول :

وقال الإمام الغزالي في (حقوق الوالدين) : (أكثر العلماء علىٰ أن طاعة الوالدين واجبة في الشبهة وإن لم تجب في الحرام المحض ، حتىٰ إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام . . فعليك أن تأكل معهما ؛ لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم .

وكذا ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل ؛ لأنه على التأخير ، والخروج لطلب العلم نفل ، إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك ، وذلك كمن أسلم ابتداء في بلد وليس فيها من يعلمه شرع الإسلام . . فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين)[2] .

وقال في (الباب الرابع في كيفية الخروج من المظالم) : **مسألة** : إذا كان الحرام أو الشبهة في يد والديه . . فليمتنع عن مواكلتهما ، فإن كانا يسخطان . . فلا يوافقهما على الحرام المحض ، بل يباينهما ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالىٰ .

فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع . . فهٰذا قد عارضه طلب رضاهما ، بل هو واجب ، فليتلطف في الامتناع ، فإن لم يقدر . . فليوافق وليقلل الأكل ؛ بأن يصغر اللقمة ، ويطيل المضغ ، ولا يتوسع ، فإن ذلك غرور ، والأخ والأخت قريب من ذلك ؛ لأن حقهما أيضاً مؤكد .

وكذا إذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة ، وكانت تسخط برده . . فليقبل ، وليلبس بين يديها ، ولينزع في غيبتها ، وليجتهد ألاّ يصلي فيه إلا عند حضورها ، فيصلي فيه صلاة المضطر .

وعند تعارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هٰذه الدقائق .

وقد حكي عن بشر رحمه الله : أنه سلمت إليه أمه رطبة وقالت له : بحقي عليك إلا ما أكلتها ، وكان يكرهه ، فأكل ، ثم صعد غرفة ، فصعدت أمه من ورائه ، فرأته يتقيأ .

---

(١) ذكره في « الإستيعاب » (٣/ ٣٢٨) .

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٨) .

وإنما فعل ذلك ؛ لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة .

وقد قيل لأحمد : سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ فقال : لا ، فقال أحمد : هٰذا تشديد ، فقيل له : سئل محمد بن مقاتل العباداني عنها ، فقال : بر والديك ، فماذا تقول ؟ قال : أحب أن تعفيني ، فقد سمعت ما قالا ، ثم قال : ما أحسن أن يداريهما)[1] .

وقال في (الباب الثاني في كيفية الأمر بالمعروف) : (فإن قيل : أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد ، وللعبد على السيد ، وللزوجة على الزوج ، وللتلميذ على الأستاذ ، وللرعية على الوالي مطلقاً كما ثبتت للوالد على الولد ، وللسيد على العبد ، وللزوج على الزوجة ، وللأستاذ على التلميذ ، وللسلطان على الرعية ، أو بينهما فرق ؟

قلنا : الذي نراه أنه يثبت أصل الولاية ، ولٰكن بينهما فرق في التفصيل ، ولنفرض في الولد مع الوالد فنقول : قد رتبنا للحسبة خمس مراتب ، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما : التعريف ، ثم الوعظ والنصح باللطف ، وليس له الحسبة بالسب والتعنيف ، ولا بالتهديد ، ولا بمباشرة الضرب ، وهما الرتبتان الأخيرتان .

وهل له الحسبة بالرتبة الخامسة[2] حيث يؤدي إلىٰ إيذاء الوالد وسخطه ، وهٰذا فيه نظر ، وهو : بأن يكسر عوده ، ويريق خمره ، ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ، ويرد إلى الملاك ما يجده في يده من المال الذي غصبه ، أو سرقه ، أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين المغتنين ، ويبطل الصورة المنقوشة علىٰ حيطانه ، والمنقورة في خشب بيته ، ويكسر أواني الذهب والفضة ، فإن فِعْلَهُ في هٰذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب ، بخلاف الضرب والسب ، ولٰكن الوالد يتأذىٰ به ، ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الأب منشؤه حبه الباطل والحرام .

والأظهر في القياس : أنه يثبت للولد ذلك ، بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلىٰ قبح المنكر وإلىٰ مقدار الأذىٰ والسخط ، فإن كان المنكر فاحشاً وسخطه عليه قريباً ، كإراقة خمر من لا يشتد غضبه . فذلك ظاهر ، وإن كان المنكر قريباً والسخط شديداً ، كما

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/١٣٣ ـ ١٣٤) .

(٢) في « الإحياء » : (الثالثة) ، ولعل الصواب : (الرابعة) انظر شرحه لمراتب الحسبة (٢/٣١٥) من « الإحياء » .

لو كانت له آنية من بلور أو زجاج علىٰ صورة حيوان ، وفي كسره خسران مال كبير . . فهـٰذا مما يشتد فيه الغضب ، وليس تجري هـٰذه المعصية مجرى الخمر وغيره ، فهـٰذا كله مجال النظر .

فإن قيل : ومن أين قلتم : ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلىٰ ترك الباطل ، والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاماً من غير تخصيص ، فأما النهي عن التأفيف والإيذاء . . فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات . . فنقول : قد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء عن العموم ، إذ لا خلاف أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه في الزنا ، ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده . . لم يلزمه قصاص ، ولم يكن له أن يؤذيه في مقابلته .

وقد ورد في ذلك أخبار ، وثبت بعضها بالإجماع ، فإذا لم يجز إيذاؤه بعقوبة هي حق علىٰ جناية سابقة . . فلا يجوز إيذاؤه بعقوبة هي منع عن جناية مستقبلة متوقعة ، بل أولىٰ .

وهـٰذا الترتيب أيضاً في العبد والزوجة مع السيد والزوج ، فهما قريبان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكد من ملك النكاح ، ولـٰكن في الخبر أنه : « لو جاز السجود لمخلوق . . لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[1] وهـٰذا يدل علىٰ تأكد الحق أيضاً .

وأما الرعية مع السلطان . . فالأمر فيه أشد من الولد ، فليس له معه إلا التعريف والنصح .

وأما الرتبة الخامسة[2] . . ففيها نظر من حيث أن الهجوم علىٰ أخذ الأموال من خزائنه وردها إلى الملاك ، وعلىٰ تحليل الخيوط من ثيابه الحرير ، وكسر الملاهي ، وإراقة الخمر في بيته . . يكاد يفضي إلىٰ خرق هيبته وإسقاط حشمته ، وذلك محظور ورد النهي عنه كما ورد عن السكوت على المنكر[3] ، وقد تعارض فيه أيضاً محذوران ، والأمر فيه موكول إلى

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤١٦٢) ، والترمذي (١١٥٩) ، وابن ماجه (١٨٥٢) بنحوه .

(٢) في « الإحياء » : (الثالثة) ، ولعل الصواب : (الرابعة) انظر (٢/ ٣١٥) منه .

(٣) أخرج الحاكم (٣/ ٢٩٠) « من كانت عنده نصيحة لذي سلطان . . فلا يكلمه بها علانية ، وليأخذ بيده وليخل به ، فإن قبلها . . قبلها ، وإلا . . كان قد أدى الذي عليه والذي له » ، وأخرج الترمذي » (٢٢٢٤) : « من أهان سلطان الله في الأرض . . أهانه الله » .

اجتهاد منشؤه النظر في تفاحش المنكر ومقدار ما يسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه ، وذلك مما لا يمكن ضبطه .

فأما التلميذ والأستاذ . . فالأمر فيما بينهما أخف ؛ لأن المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين ، ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه . . فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه .

وقد روي عن الحسن رحمه الله : أنه سئل عن الولد كيف يحتسب علىٰ والده ؟ فقال : يعظه ما لم يغضب ، فإن غضب . . سكت عنه) اهـ[1]

قال الزمخشري في « تفسيره » : (قال الفقهاء : لا يذهب بأبيه إلى البيعة ، وإذا بعث إليه ليحمله منها . . فعل ، ولا يناوله الخمر ، ويأخذ الإناء منه إذا شربها .

وعن أبي يوسف : إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيه لحم الخنزير . . أوقد .

وعن حذيفة : أنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه وهو في صف المشركين ، فقال : « دعه . . يله غيرك ») اهـ[2]

وقال الأذرعي : قال الحليمي : عقوق الوالدين كبيرة ، فإن كان معه سب أو شتم أو ضرب . . فهو فاحشة ، وإن كان العقوق هو الاستثقال لأمرهما ، ونهرهما ، والعبوس في وجوههما ، والتبرم بهما مع بذل الطاعة ، ولزوم الصمت . . فهـٰذا من الصغائر .

فإن كان ما يأتيه من ذلك يلجئهما إلىٰ أن ينقبضا عليه فلا يأمرانه ولا ينهيانه ، ويلحقهما من ذلك ضرر . . فهو كبيرة . اهـ

وهـٰذا الذي ذكره الحليمي هو الذي ينبغي الاعتماد عليه ؛ لموافقته مقتضى الآيات والأحاديث الواردة في حق الوالدين ، فهو الصواب إن شاء الله تعالىٰ .

ومن آفات العقوق والعياذ بالله تعالىٰ : غضب والديه عليه ، فيغضب الله سبحانه وتعالىٰ لغضبهما ، وتبغضه الملائكة ، وينادىٰ في السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يبغضه أهل الأرض[3] .

---

(١) الإحياء (٢/٣١٧ـ٣١٩) .
(٢) الكشاف (٢/٦١٨) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣٧) بنحوه .

ولا تقبل شهادته ، ولا يجوز أن يتولىٰ ولاية ، فلا يلي أولاده ، ولا ينكح بناته ، ويكره أن يؤم في الصلاة ، ويجب تأديبه ، ولا يصعد عمله إلى الله تعالىٰ ، فإن تاب وأصلح وإلا . . فيخاف أن ينزع منه الإيمان عند الموت ، والعياذ بالله ، فقد قال الإمام محمد بن عبد الرحمـٰن الحبيشي في « كتاب النورين في صلاح الدارين » : (وأكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت أربعة أشياء :

ترك الشكر على الإسلام ، وترك الخوف علىٰ ذهاب الإسلام ، وظلم أهل الإسلام ، وعقوق الوالدين) اهـ[1]

ويدل علىٰ هـٰذا الحكاية المتقدمة التي رواها عبد الله بن أبي أوفىٰ ، رضي الله عنهما .

وقال صاحب « عيون الأخبار » : (ذكر في الخبر عن مالك بن دينار رضي الله عنه أنه قال : خرجت حاجاً إلىٰ بيت الله الحرام ، فلما قضيت مناسكي وفرغت من حجتي . . بت ليلة ، ثم أخذت وردي من الليل ، فإذا بهاتف يهتف ، فأوقع الله صوته في أذني ، فإذا هو يقول : إن الله قد تكرم علىٰ أهل منىً ومزدلفة وعرفات ، ومن حج واعتمر وطاف وسعىٰ ولبىٰ وحلق وقصر ورمى الجمار ، وقد عفا عن الجميع ، ووهب المسيء منهم للمحسن ، إلا رجلاً يقال له : عبد الرحمـٰن بن محمد البلخي ، فإن الله عليه ساخط غضبان .

قال : فلما أصبحت . . سألت عن رفقة البلخيين ، فدللت عليهم ، فسألتهم عن عبد الرحمـٰن بن محمد البلخي وعن حاله ، فقيل لي : هو رجل صالح يستسقىٰ به عند شدة القحط ، وهو من جملة العباد والزهاد ، وأكثر الناس عبادة ، يتلو القرآن من أول الليل إلىٰ آخره ، ويتكفل بالأرامل والأيتام ، ويحمل على الخيل في سبيل الله ، ويحج البيت ، فقلت في نفسي : إن النداء الذي سمعته هو من الشيطان .

فلما كان في السنة القابلة . . حججت ، فلما قضيت مناسكي وفرغت من حجتي . . بت ليلة ، فلما كان في جوف الليل . . سمعت الهاتف يقول مثل مقالته في العام الأول ، فقلت في نفسي : لا أدري إن كان هـٰذا النداء من الرحمـٰن أو من الشيطان ، فسألت عن حاله ثانية ، فقيل لي كما قيل لي أولاً ، فقلت : اللهم إنك أعلم بعبدك ، وأنت علام الغيوب ، وعلمك قد أحاط بكل شيء ، ثم قلت : لا بد لي أن أسأل عنه ، وأكشف عن أمره ، فلما

---

(١) كتاب النورين (ص٦٠) .

صليت الصبح . . لم أزل أمشي حتىٰ أتيت رفقة البلخيين ، فقلت لهم : لعلكم تدلوني علىٰ خيمة عبد الرحمـٰن بن محمد البلخي ، فدلوني علىٰ خيمته ، فنظرت إلىٰ خيمة من الشعر الأسود لاصقة بالأرض ، فلما وقفت علىٰ باب الخيمة . . سمعت صوتاً بأنين وعويل ، فنظرت في داخل الخيمة فإذا شاب قد غل يمينه إلىٰ عنقه بسلسلة ، وقد أعطىٰ طرف السلسلة غلاماً أسود ، وهو واقف من خلف ظهره وهو يقول له : يا غلام ؛ إن أنا غفلت . . فلا تغفل ، وإن أنا نسيت . . فلا تنس ، ألصق خدي بالأرض وقل : هـٰذا جزاء من عصى الله وعصىٰ والديه .

قال : فدخلت عليه الخيمة ، وسلمت عليه فرد علي السلام ، فإذا هو غلام وضيء الوجه ، وعليه مدرعة من شعر لو لبسها أحد من الناس . . لتقطع جسمه من شدة خشونتها ، فقال : من تكون يرحمك الله ؟ فقلت له : أنا رجل من أهل البصرة ، قال : أنت مالك بن دينار ؟ فقلت له : نعم ، فمن أعلمك أني مالك بن دينار ؟ فقال : إنك جئتني لتسألني عن خبر الهاتف الذي سمعته ؛ هل هو من الرحمـٰن أو من الشيطان ؟ يا مالك ؛ بل هو من الرحمن ، فقلت له : يا شاب ؛ قد ارتفع الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن أعلمك بذلك ؟ فقال لي : يا مالك ؛ أنا منذ عشرين سنة أحج هـٰذا البيت ، فإذا انقضى الموسم وفرغ الحاج من حجه . . هتف هاتف في السماء ، أسمع الصوت ولا أدري الشخص ، وهو يقول كما سمعت ، فقلت له : يا شاب ؛ فما سريرتك مع ربك ؟ فقال : كنت رجلاً كثير المال ، رخي البال ، مدمناً علىٰ شرب الخمر ، مقيماً على المعاصي ، مضيعاً للصلوات ، لا أشهد جمعة ولا جماعة .

فلما كان آخر يوم من شعبان وأول ليلة من رمضان . . أتيت إلىٰ منزل أبي وأنا سكران ، فأقبل أبي من الصلاة ، فسأل عني أمي لأمر قد أراده الله تعالىٰ ، فقال لها : ما فعل ابني وقرة عيني عبد الرحمـٰن في هـٰذه الليلة الشريفة ؟ ثم قال لي : يا عبد الرحمن ؛ قم فصل ، فقلت له : تنح عني ؛ فلا حاجة لي بالصلاة ، ولا أريد أن أصلي ، كل ذلك تمرداً على الله تعالىٰ .

فقال لي : يا عبد الرحمن ؛ خف الله تعالىٰ واستحي منه ، واستغفر مولاك ، فلعل الله أن يغفر لك ، يا بني ؛ تب وارجع إلىٰ مولاك ، ولا تتمادىٰ في غيك وطغيانك ، ولا تتبع هواك ، فأكثر علي ، فرفعت يدي هـٰذه المشؤومة ، فلطمته علىٰ حُرِّ وجهه ، فسالت حدقته

علىٰ خده ، فقام وقد وضع يده علىٰ رأسه وهو يقول : يا بني ؛ لا غفر الله لك ، ولا لقنك عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله ، ولا رضي عنك يوم يرضىٰ عن عباده كما أزلت نور وجهي .

فلما أصبحت . . أتتني والدتي الشفيقة علي ، والرحيمة بي ، فقالت لي : يا عبد الرحمن ؛ كيف تأوي إلىٰ بيتي وقد أوقدت علىٰ نفسك ناراً لا تطفأ ؟ فقلت لها : يا أماه ؛ وما الذي جنيت ؟ وأي شيء فعلت ؟ فقالت : إنك لطمت وجه أبيك فسالت حدقته علىٰ خده ، فقمت إلى الخمر فهرقتها ، وإلى الملاهي فكسرتها ، ثم أعتقت كل جارية كانت لي أتلذذ بها ، وتصدقت بثيابي التي كنت أتزين بها في المعاصي ، ثم قلت لها : يا أماه ؛ ادفعي لي مالك الذي ورثتيه من أبيك ؛ فإني تائب إلى الله ، ولا يراني ربي علىٰ هـٰذه الحالة بعد هـٰذا أبداً ، فمكنيني من مالك حتىٰ أتقرب به إلى الله تعالىٰ قبل لقائه ، فلعل الله تعالىٰ أن يقبلني ، فقالت : يا بني ؛ قد صيرت لك ذلك كله ، فدفعت إلي جميع مالها ، فأنا أتكفل بالأرامل والأيتام ، وأحمل على الخيل في سبيل الله ، وأطعم الفقراء والمساكين ، ومع ذلك لا ينقضي الموسم حتىٰ أسمع الصوت يقول كما سمعت .

فقلت له : يا هـٰذا ؛ تنح عني لا تحرقني بنارك ، فقد أوقدت علىٰ نفسك ناراً لا تطفأ ، وهممت بالخروج من عنده ، فبكىٰ بكاء شديداً ، ثم قال : يا مالك ؛ أتؤيسني من عفو الله و رحمته ، فقلت له : يا هـٰذا ؛ إن كان أبوك في الحياة . . فطوبىٰ لك ، وإن كان قد مات . . فالويل لك ثم الويل الطويل ، فقال : بل هو في الحياة ، فقلت له : الآن فرجت عني كربة ، وفرحت قلبي ، هل هو معك في هـٰذا الموسم ؟ فقال : نعم ، قلت له : دلني عليه ، فأومأ بيده إلىٰ قبة بيضاء وقال : هو في تلك القبة .

فذهبت إليها ، فوقفت علىٰ بابها ، فإذا شيخ وضيء الوجه ، ناعم الجسم ، طيب الرائحة ، وفي حجره مصحف وهو يقرأ فيه بصوت حزين ضعيف ، فسلمت عليه فرد علي السلام ، وقال لي : يا مالك بن دينار ؛ هل من حاجة ؟ فقلت : سألتك بالله ، هل رأيتني قبل اليوم ؟ فقال : لا ، فقلت له : كيف عرفتني ؟ فقال : إني سمعت عنك ، فدعوت الله مجيب الدعوات في الليلة التي مضت حين هجعت العيون ، وغارت النجوم أن يجمع بيني وبينك قبل خروج روحي من جسدي ، لعلي أنتفع بلقائك ، فلما أشرفت علي . . عرفتك ،

اجلس يا مالك ، فأنا مشتاق إليك ، فلعل أن تسألني حاجة من حوائج الدنيا فأفوز بها بين يدي الله تعالىٰ ، فإنه بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قضىٰ لأخيه المسلم حاجة من حوائج الدنيا يريد بها ما عند الله . . قضى الله له سبعين حاجة ، وكشف عنه سبعين كربة من كرب الآخرة »[1] فقلت له : يا شيخ ؛ إليك عني ، فمثل لنفسك كأنك في عرصات القيامة ، وقد طاش عقلك ، وطار لبك ، وخرس لسانك ، وأنت في شدة جوع وعطش ، فيؤخذ في ذلك الوقت بيد غلام وضيء الوجه ، ناعم البدن ، فيؤمر به إلى النار .

قال : فبكى الشيخ بكاء شديداً حين سمع هـٰذه المقالة ، ثم قال : يا مالك ؛ تعني به ولدي عبد الرحمن ؟ فقلت له : نعم ، فقال : يا مالك ؛ أنا أشهد الله وملائكته وأشهدك أني قد رضيت عنه ، ووهبت له ما كان منه إلي ، قال : فبينما أنا أخاطب الشيخ . . إذ بهاتف يهتف علىٰ باب الخيمة : الحقوا عبد الرحمن ؛ فإنه يعالج سكرات الموت ، وما أراكم تلحقونه .

فهبطت أنا والشيخ أبوه ، فدخلنا عليه فإذا هو ممدود إلى القبلة ، وهو يعالج سكرات الموت .

قال : فانكب الشيخ عليه ، وقبل بين عينيه وقال له : يا حبيبي يا عبد الرحمن ؛ لا واخذك الله بما كان منك إلي ، ثم قال لي : يا مالك ؛ لقن حبيبي شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلقنته الشهادة فلم يستطع أن يقولها ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إن مات هـٰذا الشاب ولم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . يكون مصيره إلى النار ، ثم عاودته ثانية فلم يقلها ، ثم عاودته ثالثة فأطلق الله لسانه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ثم فتح عينيه وقال : يا مالك ؛ من معك ؟ فقلت له : معي والدك الذي جنيت علىٰ نفسك من أجله ، وأوجبت علىٰ نفسك النار بسببه .

فقال : يا أبي ؛ ادن مني فاقتص مني ، وخذ القصاص من حر وجهي قبل القصاص غداً ، وناد علي : هـٰذا جزاء من عصى الله تعالىٰ وعصىٰ والديه ، فانكب الشيخ عليه وقبل

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١١/ ١٧٥) بنحوه .

بين عينيه وقال له : يا حبيبي عبد الرحمن ؛ عفا الله عنك ، ولا واخذك الله بما فعلت ، ولا بما كان منك إلي .

فقلت له : يا عبد الرحمن ، ما لك حين عرضت عليك الشهادة في أول مرة وفي الثانية لم تجبني ؟ فقال : يا مالك ؛ كان ملك من ملائكة العذاب أقبح ما يكون ، سيء المنظر ، وبيده قضيب من نار ، كلما أردت أن أقولها . . أومأ إلي ؛ أن اسكت ، فكنت لا أقدر أن أقولها ، حتىٰ أتاني ملك من ملائكة الرحمة ، وبيده منديل من سندس أخضر ، فمسح به علىٰ وجهي ، وقال لي : قلها ولا تخف ، فقد رضي الله عنك لما رضي عنك أبوك ، فما برحنا عنه حتىٰ غمضناه ، وأخذنا في جهازه ، فغسلناه وكفناه ، وصلينا عليه ، وواريناه بالتراب .

فلما كان في الليلة القابلة . . إذا بهاتف يهتف ويقول : إن الله قد غفر لجميع من وقف بعرفات من أجل رجل يقال له : عبد الرحمـٰن بن محمد البلخي .

حكاية أخرى :

ذكر أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه كان ذات ليلة يطوف بالبيت ، وكانت ليلة ظلماء ، ومعه ابنه الحسن ، فسمع نادباً يندب ويقول : [من البسيط]

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم	يا كاشف الضر والبلوىٰ مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا	وعين جودك يا قيوم لم تنم
هب لي بجودك فضل العفو عن سرف	يا من إليه أشار الخلق في الحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سرف	فمن يجود على العاصين بالكرم

فلما سمع علي هـٰذه المقالة وهـٰذه الأبيات . . رق لقائلها وقال لابنه الحسن : أدرك النادب ، فأدركه الحسن في بعض الطواف ، فقال له : أنت النادب بهـٰذه الأبيات ؟ فقال : نعم ، قال : أجب أمير المؤمنين ، فأتاه الرجل وهو مشلول أحد جانبيه يجر رجله ، حتىٰ وصل إليه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال له علي : من أنت ؟ قال : أنا مُنَازلُ بن لاحق ، رجل من العرب ، كنت كثير اللهو والطرب ، وكنت لا أراقب الله في ليالي رجب ولا شعبان ، ولا أستحيي منه في شهر رمضان ، فدخلت علىٰ أبي فوبخني علىٰ فعلي ،

وحذرني مصارع الجهال ، ووقوع عثرة لا تقال ، فسفهت عليه ، ولطمته علىٰ حدقته ، فركب علىٰ قعود له حتىٰ أتىٰ هٰذا البيت ، فوقف حوله في هٰذا الموضع وقال : [من البسيط]

يا من إليه أتى الحجاج مسرعة ... على الجمال بأقصىٰ غاية البعد
إني أتيتك يا من لا يخيبني ... يا كاشف الضر لا تردد علي يدي
هٰذا مُنَازِلُ لا يرتاع من عققي ... فخذ بحقيَ يا مولاي من ولدي
حتىٰ تُشِلَّ بجود منك جانبه ... يا من تقدس لم يولد ولم يلد

فما استتم والدي مقالته حتىٰ بليت بما ترىٰ ، وقد شل إحدىٰ جانبي مع إحدىٰ يدي ، ولا تسمع إحدىٰ أذني ، ولا تبصر إحدىٰ عيني ، فأدركه علَيَّ الإشفاق والرأفة والرحمة ، فسألته أن يدعو الله لي في هٰذا الموضع الذي دعا علي فيه لعل الله أن يشفيني مما حل بي ، فأجابني وركب قعوده وأنا معه علىٰ قعود آخر ، وقصدنا هٰذا البيت ، فسرنا في جوف الليل ، فلما توسطنا الطريق. . إذ بطائر قد طار من شجرة على الطريق ، فتنكر البعير الذي كان عليه أبي ، فوقع إلى الأرض ، واندقت عنقه فمات وبقيت أنا علىٰ حالي كما ترىٰ .

فقال له علي : أتحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن أباك قد رضي عنك ، وكان قد قصد هٰذا البيت ؛ ليدعو الله حوله أن يفرج عنك ما نزل بك ، فحلف له الرجل ، فتقدم إليه علي رضي الله عنه ، ومسح بيده علىٰ جانبه وعلىٰ وجهه ، ودعا الله له ، فاستجاب دعوته ، وعوفي في الوقت .

فانظر في أمر نفسك أيها الإنسان ، وتدبر هٰذه الأخبار العجيبة ، وإياك وعقوق الوالدين ؛ فإن ذلك من أكبر الكبائر عند الله ، واطلب رضاهما ؛ فإن ذلك من أعظم الحسنات ، واعلم أن هٰذا الذي ذكرناه إنما أشرنا إليه ليعلم تعجيل عقوبة العاق ، وتعجيل مثوبة البار .

نسأل الله العظيم المولى الكريم أن يوفقنا لطاعته ، ويتداركنا برحمته ، ويميتنا مسلمين ، إنه هو أرحم الراحمين) اهـ كلام صاحب « عيون الأخبار » .

ولبعضهم يحث علىٰ بر الوالدة : [من الطويل]

لأمك حق لو علمت كبير ... كثيرك يا هٰذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بِثْقلك تشتكي ... لها من جواها أنة وزفير

وفي الوضع لو تدري عليها مشقة فمــن غُصــص منهــا الفــؤاد يطيــر
وكــم غسلــت منــك الأذىٰ بيمينهــا ومــا حجــرهــا إلا لــديــك ســريــر
تُفَــدِّيــك ممــا تشتكيــه بنفسهــا ومــن ثــديهــا در إليــك خطيــر
وكــم مــرة جــاعــت وأعطتــك قــوتهــا حنــواً وإشفــاقــاً وأنــت صغيــر
فضيعتهــا لمــا أسنــت جهــالــة وطــال عليــك الأمــر وهــو قصيــر
فــآهــاً لأعمــىٰ وهــو يتبــع الهــوى وآهــاً لأعمــى القلــب وهــو بصيــر
فــدونــك فــارغــب فــي عميــم دعــائهــا فــأنــت لمــا تــدعــو إليــه فقيــر

* * *



الباب السادس

في صلة الأرحام

قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ .

قال الإمام البيهقي : (جعل الله تعالىٰ قطع الأرحام من الإفساد في الأرض ، ثم أتبع ذلك الإخبار بأن ذلك فعل من حقت عليه لعنته ، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره ، فهو يسمع دعوة الله تعالىٰ ، ويبصر آياته ، فلا يجيب الدعوة ، ولا ينقاد للحق ، كأنه لم يسمع النداء ، ولم يقع له من الله البيان ، وجعله كالبهيمة أو أسوأ حالاً منها ، فقال تعالىٰ : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ .

وقال تعالىٰ في الواصل والقاطع : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ .

فقرن وصل الرحم ـ وهو الذي أمر الله به أن يوصل ـ بخشيته ، والخوف من حسابه ، والصبر علىٰ محارمه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وجعل ذلك كله من فعل أولي الألباب ، ثم وعدهم الله بالجنة ، وزيارة الملائكة إياهم ، وتسليمهم عليهم ، ومدحهم لهم .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ .

فقرن قطيعة الرحم بنقض عهد الله ، والإفساد في الأرض ، ثم أخبر بأن لهم اللعنة ولهم سوء المنقلب ، فثبت بالآيتين ما في صلة الرحم من الفضل ، وما في قطعها من الوزر والإثم) اهـ كلام البيهقي[1] .

ثم إنه ورد في صلة الرحم أحاديث وآثار ، فلنورد أولاً الأحاديث :

---

(١) انظر « شعب الإيمان » (١٠/ ٣١٧ ـ ٣١٨) .

الحديث الأول : عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، قال القوم : ما له ما له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرَبٌ ما له » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم ، ذرها » قال : كأنه كان علىٰ راحلته . رواه البخاري[1] .

الحديث الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالىٰ خلق الخلق حتىٰ إذا فرغ من خلقه . . قالت الرحم : هـٰذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعَم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلىٰ يا رب ، قال : فهو لك » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ رواه البخاري[2] .

الحديث الثالث : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك . . وصلته ، ومن قطعك . . قطعته » رواه البخاري[3] .

وكذا روي عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الرحم شجنة ، [من الله] ، من وصلها . . وصلته ، ومن قطعها . . قطعته »[4] .

الحديث الرابع : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سرَّه أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأ في أثره . . فليصل رحمه » رواه البخاري[5] .

الحديث الخامس : عن عمرو بن العاصي رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله

---

(١) البخاري (٥٩٨٣) .
(٢) البخاري (٥٩٨٧) .
(٣) البخاري (٥٩٨٨) . **والشجنة** ـ بكسر الشين وضمها ـ هي في الأصل : عروق الشجرة المشتبكة ، والمعنىٰ هنا : أن الرحم مشتقة من الرحمن .
(٤) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/٢٦) ، و أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٥٩٩) ، وغيرهم .
(٥) البخاري (٥٩٨٥) .

عليه وسلم جهاراً غير سر يقول : « إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي ، ولكنْ لهم رحم أبلها ببلالها » رواه البخاري[١] .

الحديث السادس : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن للرحم لساناً يوم القيامة تحت العرش تقول : يا رب ؛ قطعت ، يا رب ؛ ظلمت ، يا رب ؛ أسيء إلي ، فيجيبها ربها : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك »[٢] .

الحديث السابع : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : « إن الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني . . وصله الله ، ومن قطعني . . قطعه الله » رواه مسلم[٣] .

الحديث الثامن : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للرحم لساناً ذلقاً يوم القيامة ، يقول : يا رب ؛ صل من وصلني ، واقطع من قطعني » رواه البيهقي[٤] .

وروي عن جابر بن عبد الله بلفظ : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرحم معلقة بالعرش ، لها لسان ذلق يقول : اللهم ؛ صل من وصلني ، واقطع من قطعني »[٥] .

وروي نحو هـٰذا عن قتادة عن أبيه مرسلاً[٦] .

وعن [ابن] طاووس عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للرحم شعبة من الرحمن ، تجيء يوم القيامة تحت العرش بلسان طلق ذلق ، فمن أشارت إليه بوصل . . وصله الله ، ومن أشارت إليه بقطع . . قطعه الله » مرسل[٧] .

---

(١) البخاري (٥٩٩٠) .
(٢) أخرجه أبو داوود الطيالسي في « مسنده » (ص ٣٣١) .
(٣) مسلم (٢٥٥٥) .
(٤) شعب الإيمان (٧٥٦٠) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٦٣) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٦١) ، وفيه أنه عن قتادة يرويه قال : تجيء الرحم . . . إلخ ، وليس فيه : عن أبيه .
(٧) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٦٢) .

الحديث التاسع : عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث معلقات بالعرش : الرحم تقول : اللهم ؛ إني بك فلا أقطع ، والأمانة تقول : اللهم ؛ إني بك فلا أخان ، والنعمة تقول : اللهم ؛ إني بك فلا أكفر » . رواه البيهقي ، ورواه الهيثمي عن البزار[١] .

الحديث العاشر : عن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل : أنا الرحمن ، أنا خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها . . وصلته ، ومن قطعها . . بتته » رواه البيهقي[٢] .

الحديث الحادي عشر : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم ، فإنه لا بعد للرحم إذا قربت وإن كانت بعيدة ، ولا قرب لها إذا بعدت وإن كانت قريبة ، وإن كل رحم آتية أمام صاحبها يوم القيامة تشهد له بصلة إن كان وصلها ، وبقطيعة إن كان قطعها » رواه البيهقي[٣] .

الحديث الثاني عشر : عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يمد في عمره ، ويبسط له في رزقه ، ويدفع عنه ميتة السوء ، ويستجاب دعاؤه . . فليصل رحمه » رواه البيهقي[٤] .

الحديث الثالث عشر : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله وصلوا أرحامكم » رواه البيهقي[٥] .

الحديث الرابع عشر : عن درة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ من خير الناس ؟ قال : « أتقاهم للرب ، وأوصلهم للرحم ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر » رواه البيهقي[٦] .

الحديث الخامس عشر : عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله

---

(١) شعب الإيمان (٧٥٦٤) ، ومجمع الزوائد (٨/ ١٥٢) .
(٢) شعب الإيمان (٧٥٦٦) .
(٣) شعب الإيمان (٧٥٧٠) ، ولفظه : « احفظوا أنسابكم . . . » .
(٤) شعب الإيمان (٧٥٧٥) .
(٥) شعب الإيمان (٧٥٧٧) .
(٦) شعب الإيمان (٧٥٧٨) .

عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة قاطع » رواه البخاري[1] .

الحديث السادس عشر : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافىء ، إن الواصل الذي إذا قطعت رحمه . . وصلها »[2] .

الحديث السابع عشر : عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلك علىٰ خير أخلاق الأولين والآخرين ؟ » قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « تعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » رواه البيهقي[3] .

وروي عن عقبة بن عامر مثله[4] .

الحديث الثامن عشر : عن أبي بكرة الثقفي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من ذنب أحرىٰ أن يعجل الله عز وجل لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة . . من قطيعة الرحم والبغي » رواه البيهقي[5] .

الحديث التاسع عشر : عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في حلقة ، فقال : « ألا لا يحل لرجل أمسىٰ قاطع رحم إلا قام عنا » فلم يقم إلا فتىٰ كان في أقصى الحلقة ، فأتىٰ خالة له ، فقالت : ما جاء بك ؟ ما هـٰذا عن أمرك! فأخبرها بما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع ، فجلس في مجلسه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما لي لم أر أحداً قام من الحلقة غيرك ؟ فأخبره بما قال لخالته وما قالت له ، فقال له : « اجلس ، فقد أحسنت ، ألا إنه لا تنزل الرحمة علىٰ قوم فيهم قاطع رحم » رواه البيهقي[6] .

الحديث العشرون : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (٥٩٨٤) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٤٤٦) ، وأحمد (٢/١٦٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٨١) .
(٣) شعب الإيمان (٧٥٨٤) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٨٧) .
(٥) شعب الإيمان (٧٥٨٨) .
(٦) شعب الإيمان (٧٥٩٠) .

وسلم : « تعرض الأعمال كل خميس ليلة الجمعة ، فلا يقبل عمل قاطع رحم » رواه أحمد ، ورواه البيهقي[1] .

الحديث الحادي والعشرون : عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تنزل علىٰ قوم فيهم قاطع رحم » رواه الهيثمي عن الطبراني[2] .

الحديث الثاني والعشرون : عن جابر رضي الله عنه قال : (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحث علىٰ صلة الرحم) رواه الهيثمي عن الطبراني في « الأوسط »[3] .

الحديث الثالث والعشرون : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، وإن أهل البيت ليكونون فجاراً ، فتنموا أموالهم ، ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم » رواه الهيثمي عن الطبراني في « الأوسط »[4] .

الحديث الرابع والعشرون : عن العلاء بن خارجة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة للأهل ، مثراة للمال ، ومنسأة للأجل » رواه الترمذي ، ورواه الهيثمي عن الطبراني[5] .

الحديث الخامس والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أهل بيت واصلوا . . إلا أجرى الله عليهم الرزق ، وكانوا في كنف الله » رواه البيهقي ، ورواه الهيثمي عن الطبراني[6] .

الحديث السادس والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليعمر بالقوم الديار ، ويثمر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٤٨٣) ، وشعب الإيمان (٧٥٩٣) .
(٢) انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٥٤) .
(٣) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٤) ، والمعجم الأوسط (٤٧٥٧) .
(٤) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) ، المعجم الأوسط (١٠٩٦) .
(٥) الترمذي (١٩٧٩) ، ومجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) ، والمعجم الكبير (١٨/ ٩٨) .
(٦) شعب الإيمان (٧٥٩٨) ، ومجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) ، والمعجم الكبير (١١/ ١١٤) .

خلقهم » قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « بصلتهم أرحامهم » رواه الهيثمي عن الطبراني[١]

الحديث السابع والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا أرحامكم ولو بالسلام » رواه الهيثمي عن البزار[٢] .

وروىٰ عن الطبراني بروايته عن أبي الطفيل رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بلوا أرحامكم بالسلام »[٣] .

ورواه البيهقي عن سويد بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (ومعناه : صلوا أرحامكم ، وكأنه جعل وصل الرحم كتسكين الحرارة بالماء . قاله الحليمي حكاية عن غيره) اهـ[٤]

الحديث الثامن والعشرون : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم ألاّ تأخذني في الله لومة لائم ، وأوصاني بصلة الرحم وإن أدبرت) رواه الهيثمي عن الطبراني[٥] .

الحديث التاسع والعشرون : عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : « إنه من أعطي حظه من الرفق . . فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق . . حرم حظه من خير الدنيا والآخرة ، وصلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار ، ويزدن في الأعمار » رواه الهيثمي عن أحمد ، ورواه البيهقي أيضاً[٦] .

الحديث الثلاثون : عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذي رحم أتىٰ رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه . .

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) ، والمعجم الكبير (١٢/ ٦٧) ، والذي في « المجمع » بلفظ : « لتضييعهم أرحامهم » .
(٢) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) .
(٣) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) ، ولفظه : « صلوا أرحامكم . . . » .
(٤) شعب الإيمان (١٠/ ٣٤٧) ، وانظر « المنهاج في شعب الإيمان » (٣/ ٢٥٦) .
(٥) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٧) ، والمعجم الكبير (٢/ ١٥٦) .
(٦) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٦) ، ومسند أحمد (٦/ ١٥٩) ، وشعب الإيمان (٧٥٩٩) .

إلا أخرج الله له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها : شجاع ، تتلمظ فتطوق به » رواه الهيثمي عن الطبراني[1] .

الحديث الحادي والثلاثون : عن سراقة بن مالك رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « خيركم الدافع عن عشيرته ما لم يأثم » رواه البيهقي[2] .

الحديث الثاني والثلاثون : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، قال : « لئن كنت كما قلت . . فكأنما تسفهم المل ، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علىٰ ذلك » أخرجه مسلم[3] .

قوله : « تسفهم المل » هو من قولهم : سففت الدواء ـ بالكسر ـ أسفه ، وأسففته غيري ، وهو : السفوف بالفتح .

والمل : الرماد الذي يحمىٰ ليدفن به الخبز لينضج ، أراد أن إعطاءك إياهم حرام عليهم ، ونار في بطونهم إذا كانوا يقابلون إحسانك بالإساءة ، حتىٰ كأنك في إحسانك إليهم مع إساءتهم إليك أطعمتهم النار .

قال الطيبي : ولعله صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك ؛ لما عرف أن قومه يبغون عليه ، فغضب له عليهم وقال ذلك .

ومنه قول الحماسي : [من الطويل]

وإن الـذي بيني وبيـن بنـي أبـي ... وبيـن بنـي عمـي لمختلـف جـدّا
إذا أكلـوا لحمـي وفـَرْت لحـومهـم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعـوا عيبـي حفظـت عيـوبهـم ... وإن همْ هووا غيي هويت لهم رشدا

اهـ

الحديث الثالث والثلاثون : عن ميمونة رضي الله عنها أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه . . قالت : أشعرت يا رسول الله

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٧) ، والمعجم الكبير (٢/ ٣٢٢) .
(٢) شعب الإيمان (٧٦٠٥) ، ولفظه : « خيركم المدافع . . . » .
(٣) مسلم (٢٥٥٨) .

أني أعتقت وليدتي ؟ قال : « أو فعلت ؟ » قالت : نعم ، قال : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك . . كان أعظم لأجرك » أخرجه البخاري ومسلم وأبو داوود[1] .

الحديث الرابع والثلاثون : عن سلمان بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلىٰ ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة » أخرجه النسائي[2] .

الحديث الخامس والثلاثون : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » وفي أخرىٰ : « فأحسنوا إلىٰ أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً » أو قال : « ذمة وصهراً » أخرجه مسلم[3] .

الحديث السادس والثلاثون : عن جابر رضي الله عنه أن جويرية قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إني أريد أن أعتق هـٰذا الغلام ، قال : « أعطه خالك الذي في الأعراب يرعىٰ عليه ، فإنه أعظم لأجرك » رواه الهيثمي عن البزار[4] .

الحديث السابع والثلاثون : عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ مكة . . عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض ، والنوق الأدم . . فعليك ببني مدلج ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ منع من بني مدلج بصلتهم الرحم » رواه في « الإحياء »[5] .

الحديث الثامن والثلاثون : عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال وسأله عن قوله عز وجل : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ قال : « هي الصدقة علىٰ وجهها ، وبر الوالدين ، واصطناع المعروف ، وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة ، وتزيد في العمر ، وتقي مصارع السوء ، يا علي ؛ ومن كانت معه خصلة واحدة من هـٰذه الأشياء . . أعطاه الله هـٰذه الثلاث خصال » .

---

(١) البخاري (٢٥٩٢) ، ومسلم (٩٩٩) ، وأبو داوود (١٦٩٠) .
(٢) النسائي (٥/ ٩٢) .
(٣) مسلم (٢٥٤٣/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) .
(٤) مجمع الزوائد (٨/ ١٥٦) .
(٥) الإحياء (٢/ ٢١٥) ، وقد عزاه العراقي إلى الخرائطي في « مكارم الأخلاق » .

الحديث التاسع والثلاثون : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بَيْرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها فيشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت هٰذه الآية : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ . قام أبو طلحة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إن الله تبارك وتعالىٰ يقول : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بَيْرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وأرىٰ أن تجعلها في الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه . رواه البخاري[1] .

الحديث الأربعون : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الصدقة علىٰ ذي الرحم الكاشح » كذا ذكره الإمام الغزالي في « الإحياء »[2] ثم قال : وهو معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن ظلمك »[3] .

وروى الهيثمي الحديث عن الطبراني بروايته عن أبي أيوب الأنصاري ، وعن حكيم بن حزام ، وعن أم كلثوم بنت عقبة أنه قال : « أفضل الصدقة الصدقة علىٰ ذي الرحم الكاشح »[4] .

والكاشح : بالشين المعجمة ، الذي يضمر العداوة ويطوي عليها كشحه .

الحديث الحادي والأربعون : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل : يا رسول الله ؛ هٰذه زينب ، فقال : « أي الزيانب ؟ » فقيل : امرأة ابن مسعود ، قال : « نعم ، ائذنوا لها » فأذن

---

(١) البخاري (١٤٦١) .

(٢) الإحياء (٢/٢١٦) ، والحديث عند ابن خزيمة (٢٣٨٦) ، والحاكم (١/٤٠٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/٢٧) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٨٩) .

(٤) مجمع الزوائد (٣/١١٩) ، والمعجم الكبير (٣/٢٠٢) ، (٤/١٣٨) ، (٢٥/٨٠) .

لها ، قالت : يا نبي الله ؛ إنك أمرت بالصدقة ، وكان عندي حلي لي ، فأردت أن أتصدق به ، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق ابن مسعود ، زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم » رواه البخاري[1] .

الحديث الثاني والأربعون : عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدقة علىٰ ذي قرابة يضعف أجرها مرتين » رواه الهيثمي عن الطبراني[2] .

الحديث الثالث والأربعون : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ، ولان له في الكلام ، ورحم يتمه وضعفه ، ولم يتطاول علىٰ جاره بفضل ما آتاه الله » وقال : « يا أمة محمد ؛ والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلىٰ صلته ويصرفها إلىٰ غيرهم ، والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة » رواه الهيثمي عن الطبراني في « الأوسط »[3] .

ثم قال : فيه عبد الله بن عامر الأسلمي ، وهو ضعيف ، وقال أبو حاتم : ليس بالمتروك ، وبقية رجاله ثقات .

وأما الآثار : فروي عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلىٰ عماله : مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : (إنما قال ذلك لأن التجاور يوجب التزاحم على الحقوق وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم) اهـ[4]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خلال المكارم تكون في الرجل ولا تكون في أبيه ، وتكون في الغلام ولا تكون في سيده ، يقسمها الله لمن أحب ، فقالوا : ما هي يا أم

---

(١) البخاري (١٤٦٢) .
(٢) مجمع الزوائد (٣/ ١٢٠) ، والمعجم الكبير (٨/ ٢٠٦) .
(٣) مجمع الزوائد (٣/ ١٢٠) ، والمعجم الأوسط (٨٨٢٣) .
(٤) الإحياء (٢/ ٢١٦) .

المؤمنين ؟ فقالت : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء[1] .

وعن ابن عباس وثوبان رضي الله عنهم مسنداً عن التوراة : يابن آدم ؛ اتق ربك ، وبر والديك ، وصل رحمك ، أمد لك في عمرك .

وعن علي مرفوعاً : « الصدقة بعشر ، والقرض بثمانية عشر ، وصلة الإخوان بعشرين ، وصلة الرحم بأربعة وعشرين » .

وعن أبي حجيرة الأكبر أن رجلاً أتاه فقال : إني نذرت ألا أكلم أخي ، فقال : إن الشيطان ولد له ولد فسماه نذراً ، وإنه من قطع ما أمر الله به أن يوصل وجبت عليه اللعنة[2] .

وهـٰذا في كتاب الله تعالىٰ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ .

وعن معاوية رضي الله عنه أنه سأل عمرو بن العاصي رضي الله عنه عن المروءة ، فقال : تقوى الله ، وصلة الرحم .

وعن قتادة عن الحسن في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ قال : لا يقول أحدكم : إني آليت ألاّ أصل رحماً ، ولا أسعىٰ في صلاح ، ولا أتصدق من مالي ، كفر عن يمينك ، وائت الذي حلفت عليه[3] .

وعن ابن دينار أن كعب الأحبار كان يوماً جالساً يقضي بدمشق ، حتىٰ إذا فرغ . . قال : إنا نريد أن ندعو ، فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكان قاطعاً . . فليقم عنا ، فقام فتىٰ من القوم ، فولىٰ إلىٰ عمة له ، وكان بينه وبينها محرم ، فدخل عليها وصالحها ، فقالت : ما بدا لك ؟ قال : سمعت كعباً يقول : كذا وكذا ، وقال كعب : الأعمال تعرض كل خميس وإثنين ، إلا عمل قاطع ، فإنه يتجلجل بين السماء والأرض[4] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٦) .
(٢) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٧٢) ، وعزاه لابن أبي حاتم .
(٣) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٣٣) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٩١) .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه جالساً بعد الصبح في حلقة ، فقال : أنشد الله قاطع الرحم لما قام عنا ، فإنا نريد أن ندعو ربنا ، وإن أبواب الجنة مرتجة دون قاطع الرحم[1] .

قال القاضي عياض : (الرحم توصل وتقطع وتبر إنما هي معنىً من المعاني ليست بجسم ، وإنما هي قرابة ونسب يجمعه رحم ولادة ، ويتصل بعضه ببعض ، فسمي ذلك الاتصال رحماً ، والمعاني لا يتأتىٰ منها القيام ولا الكلام ، فيكون ذكر قيامها وتعلقها ضرب مثل ، وحسن استعارة علىٰ عادة العرب في استعمال ذلك .

والمراد : تعظيم شأنها ، وفضيلة واصلها ، وعظم إثم قاطعها ؛ لعقوقهم ، ولهـٰذا سمي العقوق قطعاً .

والعق : الشق ، وكأنه قطع ذلك السبب المتصل .

قال : ويجوز أن يكون المراد : قيام ملك من الملائكة يتعلق ويتكلم علىٰ لسانها بهـٰذا بأمر الله تعالىٰ) اهـ

كذا نقله الإمام النووي في « شرح مسلم » ساكتاً عليه[2] .

وقال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (قال ابن أبي جمرة : يحتمل أن يكون بلسان الحال ، ويحتمل أن يكون بلسان المقال ، قولان مشهوران ، والثاني أرجح .

وعلى الثاني : فهل تتكلم كما هي ، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلاً ؟ قولان مشهوران ، والأول أرجح ؛ لصلاحية القدرة العامة علىٰ ذلك ، ولما في الأولين من تخصيص عموم الحديث بغير دليل ، ولما يلزم منه من حصر قدرة القادر التي لا يحصرها شيء .

وقال ابن أبي جمرة : الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه ، وإنما خاطب الناس بما يفهمون .

ولما كان أعظم ما يعطيه المحبوب لمحبه الوصال ، وهو القرب منه ، وإسعافه بما يريد ، ومساعدته علىٰ ما يرضيه ، وكانت حقيقة ذلك مستحيلة في الله تعالىٰ . . عرف أن ذلك كناية عن عظيم إحسانه لعبده .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٩/١٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٩٢) .
(٢) شرح صحيح مسلم (١٦/١١٢) ، وانظر « إكمال المعلم بفوائد مسلم » للقاضي عياض (٨/١٩ ـ ٢٠) .

قال : وكذا القول في القطع ، وهو كناية عن حرمان الإحسان) اهـ[1]

قال الإمام النووي رضي الله عنه في « الروضة » : (والصلة : هي فعلك مع قريبك ما تعد به مواصلاً غير منافر ومقاطع له ، ويحصل ذلك تارة بالمال ، وتارة بقضاء حاجته ، أو خدمته ، أو زيارته ، وفي حق الغائب بنحو هـٰذا ، وبالمكاتبة ، وإرسال السلام إليه ، ونحو ذلك)[2] .

وقال في « شرح مسلم » : (قال العلماء : حقيقة الصلة : العطف والرحمة ، وصلة الله تعالىٰ عباده لطفه بهم ، ورحمته إياهم ، وعطفه بإحسانه ونعمه ، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلىٰ ، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته .

قال القاضي : ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة ، وقطيعتها معصية كبيرة .

قال : والأحاديث تشهد بهـٰذا ، ولـٰكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض ، وأدناها ترك المهاجرة ، وصلتها بالكلام ولو بالسلام ، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب .

ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها . . لا يسمىٰ قاطعاً ، ولو قصر عما ينبغي له ويقدر عليه . . لم يسم واصلاً .

قال : واختلفوا في حد الرحم التي تجب صلتها ، فقيل : هو في كل ذي رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثىٰ . . حرمت مناكحاتهما .

فعلىٰ هـٰذا : لا يدخل أولاد الأعمام ، ولا أولاد الأخوال .

واحتج هـٰذا القائل بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ونحوه ، وجواز ذلك في بنات الأعمام والأخوال .

وقيل : هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام ، يستوي فيه المحرم وغيره ، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « ثم أدناك أدناك » هـٰذا كلام القاضي ، وهـٰذا القول الثاني هو الصواب ، ومما يدل عليه الحديث السابق في أهل مصر ، أن لهم ذمة ورحماً .

---

(١) انظر « فتح الباري » (١٠/٤١٧ ـ ٤١٨) ، و« بهجة النفوس » لابن أبي جمرة (٢/١٢٩٢ ـ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٥) .

(٢) روضة الطالبين (٥/٣٩٠) .

وحديث : « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » مع أنه لا محرمية ، والله أعلم) اهـ كلام الإمام النووي[1]

وقال الإمام القصري في « شعب الإيمان » : (اعلم أن الرحم علىٰ ضربين : رحم قرابة وولادة ، ورحم إيمان وإسلام .

فأما رحم القرابة : فعلىٰ نوعين : ضرب منهم يرث ، وضرب لا يرث ، ومنهم من تجب نفقته بالحكم مثل الآباء والأبناء ، ومنهم من لا تجب نفقته بالحكم ، مثل الإخوة والأخوات ، والأخوال والخالات ، وسائر القرابات ، لٰكن بالصلة والإحسان .

وأما رحم الإسلام والإيمان قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . . فالإيمان جمع بين المؤمنين ، وأوجب لكل واحد منهم علىٰ أخيه حقاً ، فإذا اجتمع رحم الإيمان ورحم القرابة والولادة . . كان له حقان : حق القرابة ، وحق الإسلام ، وإذا انفرد رحم الإيمان . . كان له حق أخوة الإيمان .

واعلم أن الصدقة تكون بالمال ، وتكون بالزيارة وبالإحسان ، وبالنصح في الأقوال ، وبالعون في الأفعال ، وبالألفة والمحبة والاجتماع ، وغير ذلك من معاني التواصل والتراحم .

هٰذا في الدنيا ، وأما من مات من القرابة . . فصلتهم تكون بالاستغفار لهم ، والدعاء في الأوقات التي ترجىٰ فيها الإجابة لهم ، وتنفيذ وصاياهم ، وغير ذلك مما يخفف عنهم ، أو يدخل سروراً عليهم .

وصلة رحم الإيمان بقطع التقاطع والتدابر ، وترك الهجران ، إلا ما أباحه الشرع من ذلك ، وصلتهم بالمال عند الحاجة .

ومن صلة الرحمين جميعاً : تعليمهم ما يجهلون ، وتنبيههم علىٰ ما ينفعهم ويضرهم ، كما ورد في الخبر : « نعم الهدية الكلمة من الحكمة يهديها الرجل إلىٰ أخيه المسلم »)[2] .

ثم قال : (والصلة مأخوذة من الوصلة والاتصال ، الذي هو ضد القطع والانفصال .

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١١٢ ـ ١١٣) ، وانظر « إكمال المعلم بفوائد مسلم » (٨/ ٢٠ـ٢١) .
(٢) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٣١١) بنحوه .

والحكمة في ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه عليهم السلام كانوا للأمة كالآباء والأمهات ، والأمة كالبنين ، كما تقدم في بر الوالدين ، والمؤمنون كلهم إخوة ، كما قال عليه السلام : « المسلم أخو المسلم »[1] جمعهم لبان فطرة الإيمان .

فإذا لم تكن رحم الإيمان ، وكانت رحم الولادة مجردة عن الإيمان . . وجبت البراءة منها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ .

والحكمة في هٰذا : أن الصلة نوع من التوحيد ؛ لأن الألفة اجتماع ، والاجتماع اتحاد ، والقطيعة افتراق ، والافتراق كثرة ، والكثرة ضد التوحيد ، فمن أجل ذلك قطع الله قاطع الرحم ؛ لأن الله واحد لا يصل إلا واحداً متصفاً بالتوحيد ، وهو بعيد عن الكثرة ، جل جلاله عن ذلك) اهـ[2]

حكاية غريبة

ذكرها الإمام أبو محمد عيسى الأندلسي في كتابه « عيون الأخبار » :

قال : (ذكر في الخبر : أن رجلاً من أهل خراسان كان ساكناً بمكة ، وكان رجلاً صالحاً كثير الاجتهاد في العبادة والخير ، وكان الناس يودعونه الودائع ، فجاء رجل فأودع عنده عشرة آلاف دينار ، وخرج في بعض أسفاره ، ثم رجع إلىٰ مكة ، فوجد الرجل الخراساني قد مات ، فسأل أهله وولده عن ماله فقالوا : لم يكن لنا علم بمالك ، فخرج الرجل إلىٰ جماعة من العلماء والزهاد بمكة ، فشكا إليهم أمره ، فقالوا له : نحن نرجو أن يكون ذلك الرجل من أهل الجنة ، ولٰكن قم في الليل إذا مضى النصف أو الثلث ، وصل إلىٰ بئر زمزم ، وتطلع فيه برأسك ، وناد بأعلىٰ صوتك : يا فلان ؛ أنا فلان صاحب الوديعة ، فما فعلت بها ؟ ففعل الرجل ذلك ثلاث ليال ، فلم يجبه أحد .

ثم رجع إلى القوم فأخبرهم بذلك ، فقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، نخشىٰ أن يكون الرجل من أهل النار ، ولٰكن سر إلى اليمن إلىٰ واد في عدن يقال له : برهوت ، وفيه بئر ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٦٤) .

(٢) انظر « شعب الإيمان » (١/ ٣٢٨ ـ ٣٣٠) .

فاطلع برأسك في البئر إذا مضىٰ من الليل نصفه أو ثلثه ، وناد : يا فلان ؛ أنا فلان صاحب الوديعة ، فما فعلت بها ؟

فمضى الرجل وفعل ما أمروه به ، فأجابه في أول صوت فقال له : هي علىٰ حالها ، وإني لم أأتمن عليها أهلي ولا أولادي ، وأنا قد دفنتها في داري في بيت كذا وكذا ، فقل لولدي يدخلوا داري ، ثم ادخل البيت الفلاني واحفر فيه في موضع كذا وكذا ، فإنك تجد المال علىٰ حاله ، فقال له : ويحك ما أنزلك هٰهنا وقد كنت من أهل الخير والصلاح ؟ فقال له : كان لي أهل وقرابة وأرحام في خراسان ، فقطعتهم ولم أصلهم حتىٰ مت ، فواخذني ربي بذلك ، وأنزلني هٰذه المنزلة .

فرجع الرجل إلىٰ مكة ووجد ماله علىٰ حاله لم ينقص منه شيء .

فعليكم بصلة الأرحام ولا تقطعوها ، فإن قطعها من أعظم الذنوب عند الله ، نسأل الله العظيم ، المولى الكريم أن يوفقنا لطاعته ، ويتداركنا برحمته ، ويميتنا مسلمين ، إنه أرحم الراحمين) اهـ كلامه

فإذا كان هٰذا في قطع الرحم الذي لولا الوالدان ما كانت. . فكيف بقطع الوالدين وعدم صلتهما ، فلا شك أن ذنب قطعهما أعظم من ذلك .

وحكي أن رجلين تحاكما إلىٰ داوود عليه السلام ، فلما خرجا. . أخبره ملك الموت أن أحدهما يموت بعد أسبوع ، وعينه باسمه ، فلما كان بعد مدة طويلة. . رأىٰ داوود ذلك الرجل ، فسأل ملك الموت عن حاله ، فقال له ملك الموت : لما خرج من عندك. . وصل رحماً كان قد قطعه ، وأحسن الصلة ، فمد الله في عمره ثلاثين سنة .

ولبعضهم : [من الخفيف]

ليس في كل حالة وأوان	تتأتىٰ صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها	حذراً من تعذر الإمكان

* * *



الباب السابع

في حقوق الإخوان والصحبة والمسلم على المسلم والجار والمملوك وفيه فصول

اعلم أن اعتمادي في أكثر ما في هٰذا الباب علىٰ « الإحياء » وما كان من غيره أضفته إلىٰ قائله .

قال الإمام الغزالي نفعنا الله به : (اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق ، ومهما كان المثمر محموداً . . كانت الثمرة محمودة ، وحسن الخلق لا يخفىٰ في الدين فضيلته ، وهو الذي مدح الله تعالىٰ به نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال صلى الله عليه وسلم : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »[1] .

وقال أسامة بن شريك رضي الله عنهما[2] : قلنا : يا رسول الله ؛ ما خير ما أعطي الإنسان ؟ فقال : « خلق حسن »)[3] اهـ[4]

والأصل في الأخوة من الكتاب قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

قال الإمام أبو طالب المكي : (ذكَّر الله تعالىٰ عباده المؤمنين نعمته عليهم في الدين ، إذ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٧٦) ، والحاكم (٤/ ٣٢٤) ، والترمذي (٢٠٠٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) .

(٢) في النسخ : (أسامة بن زيد) ، والمثبت من المراجع .

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ١٢١) ، وابن ماجه (٣٤٣٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٣٤٣) .

(٤) الإحياء (٢/ ١٥٧) .

ألف بين قلوبهم بعد أن كانوا متفرقين ، فأصبحوا بنعمته إخواناً بالألفة متفقين ، وعلى البر والتقوىٰ مصطحبين .

ونهىٰ عن التفرق إذ جمعتهم الدار ، وقرن ذلك بالمنة منه إذ أنقذهم من شفا حفرة من النار ، وجعل ذلك كله من آياته الدالة عليه ، وسبله الموصلة بالهداية إليه) اهـ[1]

وقال تعالىٰ : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ومن السنة : أنه صلى الله عليه وسلم آخىٰ بين المهاجرين والأنصار .

وذكر القرطبي أنه صلى الله عليه وسلم آخىٰ بين الصحابة مرتين ، مرة بمكة قبل الهجرة ، وأخرىٰ بعدها .

وقال ابن عبد البر : الصحيح في المؤاخاة : أنها في المدينة بعد بنائه المسجد[2] .

وقيل : كان قبل ذلك والمسجد يبنىٰ .

وقيل : بعد قدومه المدينة بخمسة أشهر .

وفي « تاريخ ابن أبي خيثمة » : أنها كانت في المسجد ، وكانوا مئة وخمسين رجلاً من الأنصار ، وخمسين من المهاجرين .

وقال ابن الجوزي : (قد أحصيت أسماء الذين آخا بينهم في كتابي المسمىٰ « بالتلقيح » وكانوا مئة وستة وثمانين رجلاً) اهـ

قال ابن النحوي : (والمؤاخاة : مفاعلة من الأخوة ، ومعناها : أن يتعاقد الأخوان على التناصر والمواساة حتىٰ يصيرا كالأخوين نسباً ، كما قال أنس) اهـ

وهٰذا يدل علىٰ أن هناك إيجاباً وقبولاً ، ولم أجد ذلك .

نعم ؛ الذي أدركناه وأخذناه من المتقدمين قبلنا ، وأخذوه ممن قبلهم : أن يأخذ بيد أخيه ويقرأا معاً سورة الفاتحة ، ويصليا على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول أحدهما

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٣) .
(٢) انظر « المفهم » (٦/ ٤٨٠) ، و« الدرر في اختصار المغازي والسير » لابن عبد البر (ص٩٧) .

للآخر : رضيت بي أخاً لك في الله تعالى ؟ فيقول المخاطب : رضيت ، ويقول : وأنت رضيت بي أخاً لك في الله ؟ فيقول : رضيت .

ورأيت في كتاب « قوت القلوب » لأبي طالب المكي قال : (حدثونا عن يعقوب بن أخي معروف ، قال : جاء أسود بن سالم إلىٰ عمي معروف ، وكان مؤاخياً له ، فقال : إن بشر بن الحارث يحب مؤاخاتك وهو يستحيي أن يشافهك بذلك ، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتد بها ، إلا أنه يشترط فيها شروطاً : لا يحب أن يشتهر بذلك ، ولا تكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة ؛ فإنه يكره كثرة الالتقاء .

فقال معروف : أما أنا فلو أحببت أحداً . . لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهاراً ، ولزرته في كل وقت ، ولأوثرنه علىٰ نفسي في كل حال .

ثم ذكر من فضائل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها : وآخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين علي ، فشاركه في العلم ، وقاسمه البدن ، وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه ، وخصه بذلك لمؤاخاته ، وإني أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه ، واعتقدت إخاءه في الله لرسالته ، ولمسألتك علىٰ ألا يزورني إن كره ذلك ، ولـٰكني أزوره متىٰ أحببت ، وآمره أن يلقاني في مواضع نلتقي فيها ، وآمره ألا يخفي علي شيئاً من شأنه ، وأن يطلعني علىٰ جميع أحواله .

قال : فانصرف بذلك أسود بن سالم ، وأخبر به بشراً ، فرضي بذلك ، وسر به) اهـ[1]

فيؤخذ من هـٰذا : أنه يكفي اعتقاد أخوته في الله تعالىٰ مع الطلب ، سواء حضرا في موضع واحد ، أو لا .

ولما ذكر الإمام النووي في « شرح مسلم » المؤاخاة . . قال : (قال القاضي : قال الطبري : لا يجوز الحِلْف اليوم ؛ فإن المذكور في الحديث من الموارثة والمؤاخاة كله منسوخ[2] .

وقال الحسن : كان التوارث بالحلف ، فنسخ بآية الميراث) .

ثم قال : (قلت : وأما ما يتعلق بالإرث . . فيستحب فيه المحالفة عند جماهير العلماء .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢٣٦) .

(٢) انظر « إكمال المعلم » (٧/ ٥٦٧) .

وأما المؤاخاة في الإسلام ، والمحالفة علىٰ طاعة الله ، والتناصر في الدين ، والتعاون على البر والتقوىٰ ، وإقامة الحق . . فهـٰذا باق لم ينسخ ، وهـٰذا معنىٰ قوله عليه الصلاة والسلام : « أيما حِلْف كان في الجاهلية . . لم يزده الإسلام إلا شدة »[1] .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « لا حلف في الإسلام »[2] . . فالمراد به : حلف التوارث ، والحلف علىٰ ما منع الشرع منه) اهـ[3]

فيؤخذ من هـٰذا : أنه يحلف كل واحد للآخر أنه معه علىٰ طاعة الله ، وينصره في الدين ، ويعينه على البر والتقوىٰ ، وإقامة الحق ، والله أعلم .

ثم رأيت الإمام محب الدين الطبري ذكر في كتابه « الرياض النضرة » المؤاخاة ، وذكر فيها اختلاف الروايات ، ومنها : ما أخرجه أبو سعيد في « شرف النبوة » قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر وعمر ؛ أمرت أن أؤاخي بينكما ، أنتما أخوان في الدنيا والآخرة ، فليسلم كل منكما على الآخر ، وليصافحه » فأخذ أبو بكر بيد عمر) اهـ[4]

وفي هـٰذا استئناس لما يفعله الناس اليوم .

وكانت المؤاخاة في الله تعالىٰ ، والصحبة لأجله ، والمحبة له في السفر والحضر طرائق العاملين ، وكانت الألفة من الصحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين ، ثم اختلف رأي التابعين ، فمنهم من يقول : أقلل من المعاريف ، فإنه أسلم لدينك ، وممن مال إلىٰ هـٰذا : سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وداوود الطائي ، والفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، وحذيفة المرعشي ، وبشر الحافي .

وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان في الله تعالىٰ ، والتآلف والتحبب إلى المؤمنين ؛ لأن في ذلك زينة في الرخاء ، وعوناً عند الشدائد ، وتعاوناً على البر والتقوىٰ .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٠) ، وابن حبان (٤٣٧١) ، وأبو داوود (٢٩٢٥) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٩٤) ، ومسلم (٢٥٢٩) .

(٣) شرح صحيح مسلم (١٦/ ٨١ـ ٨٢) .

(٤) انظر « الرياض النضرة » (١/ ١٩٦ـ٢٠٥) ، و« شرف المصطفىٰ » (٢/ ٣٩٢ـ٣٩٣) .

وقال بعضهم : استكثروا من الإخوان في الله ؛ فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث غريب في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ .

قال : « يشفعهم في إخوانهم ، فيدخلهم الجنة معهم » .

وممن مال إلىٰ هٰذا سعيد بن المسيب ، والشعبي ، وابن أبي ليلىٰ ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد ابن حنبل ، ومن وافقهم .

وقد ورد في الأخوة أحاديث وآثار ، **أما الأحاديث** : فقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أراد الله به خيراً . . رزقه خليلاً صالحاً ، إن نسي . . ذكره ، وإن ذكر . . أعانه »[٣] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين ، تغسل إحداهما الأخرىٰ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من آخىٰ أخاً في الله تعالىٰ . . رفعه الله تعالىٰ درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله » .

وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ رضي الله عنه : إني أحبك في الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ثم أبشر ؛ فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، ومنابر من نور ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس

---

(١) عزاه الحافظ العراقي للطبراني في « مكارم الأخلاق » كما في « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٥٨) .

(٢) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٩) بنحوه .

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٤٩٤) ، وأبو داوود (٢٩٣٢) ، والنسائي (٤٢٠٤) بمعناه .

ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فقيل : من هـؤلاء يا رسول الله ؟ قال : « هم المتحابون في الله تعالىٰ »[1] .

ورواه أبو هريرة رضي الله عنه فقال : فقالوا : يا رسول الله ؛ صفهم لنا ، فقال : « المتحابون في الله ، والمتجالسون في الله ، والمتزاورون في الله »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما تحاب اثنان في الله . . إلا كان أحبهما إلى الله تعالىٰ أشدهما حباً لصاحبه »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ يقول : حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . . » إلىٰ أن قال : « ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا علىٰ ذلك وتفرقا عليه »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن رجلاً زار أخاً له في الله تعالىٰ ، فأرصد الله له ملكاً فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد أن أزور أخي فلاناً ، قال : ألحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فبنعمة له عندك ؟ قال : لا ، قال : فلم ؟ قال : أحبه في الله ، قال : فإن الله أرسلني إليك يخبرك أنه يحبك بحبك إياه ، وقد أوجب لك الجنة »[6] .

وأما الآثار : فقال علي رضي الله عنه : عليكم بالإخوان ، فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ، ألا تسمع إلىٰ قول أهل النار : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ .

قال الإمام أبو طالب المكي رحمه الله : (معنىٰ حميم : أي : هميم ، أبدلت الهاء

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣) بنحوه .

(٢) عزاه الحافظ العراقي للنسائي في « الكبرىٰ » وقال : (رجاله ثقات) اهـ « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٥٩) .

(٣) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٧٤٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٢٩٢٠) .

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٦) بنحوه .

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٦٧) ، وابن حبان (٥٧٢) ، وأحمد (٢/ ٤٠٨) بنحوه .

حاء ؛ لتقاربهما ، مأخوذ من الاهتمام ؛ أي : مهتم بأمره ، وفيه دليل على أن الصديق هو المهتم بك ، فإن الاهتمام حقيقة الصداقة) اهـ[1]

وروى الإمام الواحدي في « تفسيره » : (عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي فلان ؟ وصديقه في الجحيم ، فيقول الله عز وجل : أخرجوا له صديقه إلى الجنة ، فيقول من بقي : فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم » اهـ[2]

ويقال : إن الأخوين في الله تعالى إذا كان أحدهما أعلى مقاماً في الآخرة . . رفع الله الآخر معه إلى مقامه ، وإنه ليلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض ؛ لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله . . لم يكن عملها دون عمل الولادة ، وقد قال تعالى : ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ما أعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح .

وقال أيضاً : إذا رأى أحدكم وداً من أخيه . . فليتمسك به ، فقل ما يصيب ذلك .

وقد قال بعض الحكماء في ذلك كلاماً منظوماً ، وهو : [من السريع]

ما نالت النفس على بغية ... ألذ من ود صديق أمين
من فاته ود أخ صالح ... فذلك المغبون حق اليقين

وقد روي :

. . . . فذلك المقطوع منه الوتين

وقال الشيخ أبو إسحاق رحمه الله تعالى : [من الوافر]

سألت الناس عن خل وفي ... فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بود حر ... فإن الحر في الدنيا قليل

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : والله لو صمت النهار كله لا أفطره ، وقمت الليل كله

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٢١٤) .
(٢) الوسيط (٣/ ٣٥٧) .

لا أنامه ، وأنفقت مالي في سبيل الله ، وأموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله ، وبغض لأهل معصيته . . ما نفعني ذلك شيئاً .

وقال ابن السماك رحمه الله عند موته : اللهم ؛ إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك . . كنت أحب من يطيعك ، فاجعل ذلك قربة إليك[1] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو أن رجلاً أقام بين الركن والمقام يعبد الله تعالىٰ سبعين سنة . . لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب .

وقال مجاهد رحمه الله تعالىٰ : المتحابون في الله إذا التقوا فكشر بعضهم إلىٰ بعض . . تتحاتُّ عنهم الذنوب كما يتحاتُّ ورق الشجر في الشتاء إذا يبس .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ : نظر الرجل إلىٰ وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه آمين : (اعلم أن المحب في الله غامض ، وينكشف الغطاء عنه بما نذكره ، وهو أن الصحبة تنقسم إلىٰ ما يقع بالاتفاق كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع في المكتب ، أو في المدرسة ، أو في السوق ، أو علىٰ باب السلطان ، أو في السفر وإلىٰ ما تنشأ اختياراً وقصداً ، وهي التي نريد بيانها ، إذ الأخوة في الدين واقعة علىٰ هـٰذا لا محالة ؛ إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ، والصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمحادثة والمحاورة ، وهـٰذه الأمور لا يقصد بها الإنسان غيره إلا إذا أحبه ، فإن غير المحبوب يجتنب .

والذي يحب : إما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلىٰ محبوب مقصود وراءه ، وإما أن يحب للتوصل به إلىٰ مقصود، وذلك المقصود إما : أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها، وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالىٰ ، فهـٰذه أربعة أقسام :

القسم الأول : حبك للإنسان لذاته ، فذلك ممكن ، وهو : أن يكون هو في ذاته محبوباً ، فتحبه علىٰ معنىٰ أنك تلتذ برؤيته ، ومعرفته ، ومشاهدة أخلاقه ؛ لاستحسانك له ، ثم ذلك المستحسن إما : أن يكون هو الصورة الظاهرة ؛ أعني : حسن الخلقة ، وإما

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٣٤٧) .

أن يكون الصورة الباطنة ؛ أعني : كمال الفضل والعقل وحسن الأخلاق .

ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ، ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عن الطبع السليم ، والعقل المستقيم ، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب .

فظهر بهـٰذا أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة منه في حال أو مآل ، ويدخل في هـٰذا الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة ، فإن الصورة الجميلة مستلذة في عينها .

وهـٰذا الحب لا يدخل في الحب لله تعالىٰ ، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالىٰ ، إلا أنه إذا اتصل به غرض مذموم . . صار مذموماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة ، وإن لم يتصل به غرض مذموم . . فهو مباح ، لا يوصف بحمد ولا ذم .

القسم الثاني : أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته ، فيكون وسيلة إلىٰ محبوب غيره ، والوسيلة إلى المحبوب محبوب .

وذلك كمن يحب سلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه ، أو يحب خواصه لتحسينهم حاله عنده .

فإن كان مقصور الفائدة على الدنيا . . لم يكن من جملة الحب في الله تعالىٰ ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولـٰكنه ليس يقصد به إلا الدنيا ، كحب التلميذ لأستاذه ، وهو أيضاً خارج عن الحب لله تعالىٰ . . فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم ، فإن كان لا يقصد به التقرب إلى الله تعالىٰ ، بل لينال به الجاه والمال ، والعلم وسيلة إلىٰ ذلك ، والأستاذ وسيلة إلى العلم . . فليس في شيء من ذلك حب لله تعالىٰ .

ثم إن كان مقصوده مذموماً كقهر الأقران وحيازة المال . . كان الحب مذموماً ، وإن كان مباحاً . . فهو مباح .

القسم الثالث : أن يحبه لا لذاته ، بل لغيره وذلك الغير من حظوظ الآخرة ، كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوسل به إلىٰ تحصيل العلم ، وتحسين العمل ، ومقصوده من ذلك الفوز بالآخرة ، فهـٰذا من جملة المحبين في الله تعالىٰ ، وكذا من أحب تلميذه لكونه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ، ويترقىٰ به إلىٰ درجة التعظيم في ملكوت السماء ، كما قال عيسىٰ عليه السلام : من علم وعمل وعلم . . فذلك يدعىٰ عظيماً في ملكوت السماء ، فهو

محب في الله تعالىٰ ، بل الذي يتصدق بأمواله ، ويجمع الضيفان ، ويهيء لهم الأطعمة اللذيذة إذا أحب طباخاً لحسن صنعته . . فهو محب في الله تعالىٰ ، ومن أحب من يخدمه ، ويغسل ثيابه ، ويطبخ طعامه ومقصوده من استخدامه الفراغ للعمل ، أو من يكسوه ، وينفقه ، ويقوم بجميع أغراضه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل ، والتقرب إلى الله تعالىٰ ، فأحبه لذلك . . فهـٰذا أيضاً من جملة الحب في الله .

فقد كان جماعة من السلف يكفل كفايتهم جماعة من أولي الثروة ، وكان المواسىٰ والمواسي جميعاً من جملة المتحابين في الله تعالىٰ .

وليس من شرط حب الله تعالىٰ ألاّ يحب في العاجل حظاً ألبتة ؛ إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء عليهم السلام فيه جمع بين الدنيا والآخرة ، فمن ذلك : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة »[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم ؛ عافني من بلاء الدنيا والآخرة » .

فمن أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعلمه ، أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه . . فهما من جملة المتحابين في الله تعالىٰ ، ولـٰكن بشرط واحد ، وهو : أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلاً ، أو تعذر عليه تحصيله منه . . لنقص حبه بسببه ، والقدر الذي ينقص بسبب فقده هو لله تعالىٰ ، وله علىٰ ذلك القدر ثواب الحب في الله تعالىٰ .

القسم الرابع : أن يحب لله تعالىٰ ، وفي الله تعالىٰ ، لا لينال منه علماً أو عملاً ، فهـٰذا أعلى الدرجات وأدقها وأغمضها ، وهـٰذا ممكن ، فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدىٰ من المحبوب إلىٰ كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد .

فمن أحب إنساناً حباً شديداً . . أحب محب ذلك الإنسان ، وأحب محبوبه ، وأحب من يخدمه ، وأحب من يثني عليه محبوبه ، وأحب من يتسارع إلىٰ رضا محبوبه ، حتىٰ قال عقبة بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن . . أحب كلبه ، وهو كما قال ، وتشهد له

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١١١٩) ، والترمذي (٣٤١٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٨٣) .

التجربة في أحوال العشاق ، ويدل عليه أشعار الشعراء ، فمن ذلك قول مجنون بني عامر حيث يقول : [من الوافر]

أمـــر علـــى الـــديـــار ديـــار ليلـــى أقبـــــل ذا الجـــــدار وذا الجـــــدار
ومـــا حـــب الـــديـــار شغفـــن قلبـــي ولكـــن حـــب مـــن سكـــن الـــديـــارا[1]

فحب الله تعالىٰ إذا قوي وغلب على القلب استولىٰ عليه حتىٰ ينتهي إلىٰ حد الاشتهار ، فيتعدىٰ إلىٰ كل موجود سواه ، إذ كل موجود سواه آية من آيات قدرته ، ومن أحب إنساناً . . أحب صنعته وجميع أفعاله ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة الثمر . . مسح بها عينيه وأكرمها وقال : « إنه قريب العهد بربنا » .

وحب الله تعالىٰ تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لذاته لا لمعنىٰ آخر ، وهو أدق ضروب المحبة وأعلاها .

والمقصود : أن حب الله تعالىٰ إذا قوي . . أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله تعالىٰ في علم ، أو عمل ، وأثمر حب كل من فيه صفة هي مرضية عند الله تعالىٰ من خلق حسن ، أو تأدب بأدب الشرع ، وذلك حب لله تعالىٰ ، وفي الله تعالىٰ ؛ لأنه إنما يحبه لأن الله تعالىٰ يحبه ويرضىٰ عنه ، إلا أنه إذا ضعف . . لم يظهر أثره ، فلا يظهر به ثواب وأجر ، وإذا قوي . . جاء على الموالاة ، والنصر ، والذب بالنفس والمال واللسان ، ويتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله تعالىٰ .

ولو كان الحب في الله مقصوراً علىٰ حظ ينال من المحبوب في الحال ، أو المآل . . لما تصور حب الموتىٰ من العلماء ، والعباد من الصحابة والتابعين ، بل من الأنبياء المنقرضين ، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم ، وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم ، وكل ذلك حب لله تعالىٰ ؛ لأنهم خواص عباد الله تعالىٰ .

ومن أحب ملكاً أو شخصاً جميلاً مفضالاً . . أحب خواصه وخدمه ، وأحب من يحبه ،

(١) ديوان مجنون ليلىٰ (ص١٢٧ ـ ١٢٨) .

إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقىٰ للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر قول من قال : [من الوافر]

أريـــد وصـــالــه ويـــريـــد هجـــري فـــأتـــرك مـــا أريـــد لمـــا يـــريـــد

فحصل من هـٰذا كله أن كل من أحب عالماً ، أو عابداً ، أو أحب شخصاً راغباً في علم ، أو عبادة ، أو في خير . . فإنما أحبه في الله ولله تعالىٰ ، وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه)(1) .

ثم اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان ، قال صلى الله عليه وسلم : « المرء علىٰ دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل »(2) .

فلا بد أن يتميز بصفات يرغب بسببها في صحبته ، وتلك الصفات بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة ؛ لأنها تطلب لفوائد دينية ودنيوية .

أما الدنيوية : فكالانتفاع بالمال ، أو الجاه ، أو مجرد الإيناس والمشاهدة والمحاورة ، وليس ذلك غرضاً .

وأما الدينية : فهي أغراض مختلفة .

منها : الاستفادة من العلم والعمل .

ومنها : الاستفادة من الجاه ؛ تحصناً به عن إيذاء من يشوش القلب ، ويصد عن العبادة .

ومنها : استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت .

ومنها : الاستعانة في المهمات ، فيكون عدة في المصائب ، وقوة في الأحوال .

ومنها : التبرك بمجرد الدعاء .

ومنها : انتظار الشفاعة في الآخرة .

---

(1) انظر « الإحياء » (٢/ ١٦١ـ١٦٦) .
(2) أخرجه الحاكم (٤/ ١٧١) ، وأبو داوود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٣٧٨) ، وأحمد (٢/ ٣٣٤) ، وغيرهم .

قال بعض السلف : استكثر من الإخوان ما استطعت ، فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك .

ويقال : إذا غفر للعبد.. شفع في إخوانه .

وعلى الجملة : ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال : العقل ، وحسن الخلق ، وأن يكون غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا .

أما العقل.. فهو رأس المال ، وهو الأصل ، ولا خير في صحبة الأحمق ، فإلى القطيعة والوحشة ترجع عاقبتها وإن طالت ، والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك من حيث لا يدري ، ولذلك قال الشاعر : [من الكامل]

إني لآمن من عدو عاقل ... وأخاف خلاً يعتريه جنون

العقل فن واحد وطريقه ... أدري فأرصد والجنون فنون

والمراد بالعاقل : غير الأحمق ، الذي يفهم الأمور علىٰ ما هي عليه ، إما بنفسه ، وإما إذا فهم وعلم .

وأما حسن الخلق.. فلا بد منه ، إذ رب عاقل يدرك الأشياء علىٰ ما هي عليه ، ولـٰكنه إذا غلبه غضب ، أو شهوة ، أو بخل ، أو جبن.. أطاع هواه ، وخالف ما هو المعلوم عنده ؛ لعجزه عن قهر صفاته ، وتقويم أخلاقه ، فلا خير في صحبته .

قال الجنيد : لأن يصحبني فاسق حسن الخلق.. أحب إلي من أن يصحبني قارىء سيء الخلق .

وأما الفاسق المصر علىٰ فسقه.. فلا فائدة في صحبته ؛ لأن من يخاف الله عز وجل.. لا يصر علىٰ كبيرة ، ويكف شره ، ومن لا يخاف الله تعالىٰ.. لا يؤمن شره وغائلته ، ولا يوثق بصداقته ، بل يتغير بتغير الأغراض ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ .

وقال تعالىٰ ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ .

وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق ؛ لأن مشاهدة الفاسق والفسق يهون أمر المعصية على القلب ، ويبطل نفرة القلب عنها .

وأما المبتدع . . ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إلىٰ من صحبه ، فالمبتدع مستحق للهجرة والمقاطعة .

وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث علىٰ طلب التدين في الصديق ـ فيما رواه ابن المسيب رحمه الله ـ : عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم ؛ فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة في البلاء ، وضع أمر أخيك علىٰ أحسنه حتىٰ يجيئك ما يغلبك منه ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من يخشى الله تعالىٰ ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه علىٰ سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالىٰ[1] .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : الوحدة خير من جليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة[2] .

وأما الحريص على الدنيا . . فصحبته سم قاتل ؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء ، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري ، ومجالسة الحريص تحرك الحرص ، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا ، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ، وتستحب صحبة الراغبين في الآخرة .

قال علي رضي الله عنه : أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيىٰ منه .

وقال أحمد رحمه الله : ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه .

وقال لقمان : يا بني ؛ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن القلوب تحيىٰ بالحكمة كما تحيى الأرض الميتة بوابل المطر[3] .

* * *

---

(١) أخرجه القزويني في « التدوين » (١/ ٢١٧) .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٤٣) عن أبي ذر مرفوعاً ، وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٣٣١) : (لكن المحفوظ أنه موقوف) .

(٣) انظر « الإحياء » (٢/ ١٧٠ـ ١٧٣) .

فصل

في حقوق الإخوان

قال الإمام الغزالي رحمه الله : (اعلم أن عقد[1] الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح ، فكما يجب الوفاء بحقوق النكاح . . كذلك يجب الوفاء بحقوق الأخوة ، فلأخيك عليك حق في المال ، وفي النفس ، واللسان ، والقلب بالعفو والدعاء ، والإخلاص ، والوفاء ، وبالتخفيف ، وترك التكلف والتكليف ، وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الأول : في المال ، قال صلى الله عليه وسلم : « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرىٰ » وإنما شبههما باليدين لا باليد والرجل ؛ لأنهما يتعاونان علىٰ غرض واحد ، فكذا الإخوان ، إنما تتم أخوتهما إذا توافقا في مقصد واحد ، فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهـٰذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء ، والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار .

والمواساة بالمال علىٰ ثلاث مراتب :

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك وخادمك ، فتقوم بحاجته من فضل مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة علىٰ حاجتك . . أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال ، فإن أحوجته . . فهو غاية التقصير في حق الأخوة .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك ، وترضىٰ بمشاركته إياك في مالك ، وبنزوله منزلة نفسك حتىٰ تسمح بمشاطرته على المال .

قال الحسن رحمه الله : كان أحدهم يشق إزاره لأخيه باثنين .

الثالثة ـ وهي العليا ـ : أن تؤثره علىٰ نفسك ، وتقدم حاجته علىٰ حاجتك ، وهـٰذه مرتبة الصديقين ، ومنتهىٰ درجات المتحابين)[2] .

---

(١) في « الإحياء » : (يشق إزاره بينه وبين أخيه) .

(٢) انظر « الإحياء » (٢/ ١٧٣) .

أقول : وقد وصف الله الأنصار بذلك ومدحهم به فقال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

ثم إن لم تصادف نفسك في رتبة من هـٰذه المراتب مع أخيك . . فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن .

روي أن عتبة الغلام جاء إلىٰ منزل رجل كان قد آخاه ، فقال له : أحتاج من مالك إلىٰ أربعة آلاف ، فقال : خذ ألفين ، فأعرض عنه وقال : آثرت الدنيا على الآخرة ، أما استحييت أن تدعي الأخوة في الله تعالىٰ وتقول هـٰذا .

ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي ألا تعامله في الدنيا .

قال أبو حازم رحمه الله : إذا كان لك أخ في الله . . فلا تعامله في أمور دنياك .

أما الرتبة العليا . . فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : كانوا خلطاء في الأموال ، لا يميز بعضهم رحله من بعض .

جاء رجل إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه فقال : إني أريد أن أؤاخيك في الله تعالىٰ ، فقال : أتدري ما حق الإخاء ؟ قال : عرّفني ، قال : ألا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني ، فقال : لم أبلغ هـٰذه المرتبة بعد ، قال : فاذهب عني .

وقال علي بن الحسين رحمه الله : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه ، أو كيسه فيأخذ ما يريد من غير إذن ؟ قال : لا ، قال : فلستم بإخوان .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : أهدي لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال : أخي فلان أحوج إليه مني ، فبعثه إليه ، فبعثه ذلك إلىٰ آخر ، فلم يزل يبعث به واحد إلىٰ آخر حتىٰ رجع إلى الأول ، حتىٰ تداوله سبعة .

ولما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمـٰن بن عوف وسعد بن الربيع . . آثره بالمال والأهل ، فقال : بارك الله لك فيهما[1] ، فآثره بما آثره به ، فكأنه قبله ثم آثره به ، وذلك مساواة ، والبداية إيثار ، والإيثار أفضل من المساواة ، واقتداء الكل في الإيثار بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه دخل غيضة مع أصحابه فاجتنىٰ منها سِواكَين ، أحدهما معوج

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٤٩) ، والترمذي (١٩٣٣) ، والنسائي (٦/ ١٣٧) ، وغيرهم .

والآخر مستقيم ، فدفع المستقيم إلىٰ صاحبه فقال : يا رسول الله ؛ كنت أحق بالمستقيم مني ، فقال : « ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار . . إلا سئل عن صحبته ، هل أقام فيه حق الله تعالىٰ أو أضاعه ؟ »[1] .

فأشار في هٰذا إلىٰ أن الإيثار هو القيام بحق الصحبة .

وخرج صلى الله عليه وسلم : « إلىٰ بئر يغتسل عندها ، فأمسك حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما الثوب علىٰ رأسه صلى الله عليه وسلم ، وستره حتى اغتسل ، ثم جلس حذيفة يغتسل ، فتناول النبي صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس ، فأبىٰ حذيفة وقال : بأبي وأمي يا رسول الله لا تفعل ، فأبىٰ إلا أن يستره بالثوب حتىٰ يغتسل[2] .

فأشار بهٰذا إلىٰ أن الإيثار هو القيام بحق الله في الصحبة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله تعالىٰ أرفقهما بصاحبه » .

وكان الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة ، وكيف وقد قال تعالىٰ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ .

إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلىٰ أخيه ، ويفوض إليه التصرف كما يريد ، وكان يتحرج عن الأكل بحكم التقوىٰ ، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ هٰذه الآية ، وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثاني : الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة ، وهٰذه أيضاً لها درجات ، فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ، لٰكن مع البشاشة والاستبشار والفرح .

قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك الحاجة فلم يقضها . . فذكره ثانياً ، فلعله أن يكون قد نسي ، فإن لم يقضها . . فكبر عليه ، واقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة ، يقوم بحاجاتهم ،

---

(١) انظر « المجروحين » (١/ ١٥٦) ، و« لسان الميزان » (١/ ٦٣٠) .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٢٨) .

يتردد كل يوم إليهم ، ويكفيهم بماله ، وكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، وبهٰذا تظهر الشفقة .

والأخوة إذا لم تثمر الشفقة حتىٰ يشفق علىٰ أخيه كما يشفق علىٰ نفسه . . فلا خير فيها .

وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجة نفسك أو أهم ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة ، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها ، ولا ترىٰ لنفسك حقاً بسبب قيامك ، بل تتقلد منة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره .

ولا ينبغي أن تقتصر علىٰ قضاء الحاجة ، بل تجهد في البداية بالإكرام في الزيادة ، والإيثار والتقديم على الأقارب والولد .

وكان الحسن رحمه الله يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ؛ لأن أهلينا يذكروننا الدنيا ، وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

وقال أيضاً : من شيع أخاه في الله تعالىٰ . . بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة .

وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يلتفت يميناً وشمالاً بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فقال : أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه ، فقال : « إذا أحببت رجلاً . . فاسأله عن اسمه ، وعن اسم أبيه ، وعن منزله ، فإن كان مريضاً . . عدته ، وإن كان مشغولاً . . أعنته »[1] وفي رواية : « وعن اسم جده وعشيرته » .

وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول : أعرف وجهه ولا أعرف اسمه : تلك معرفة النوكىٰ ؛ أي : الحمقىٰ .

الحق الثالث : على اللسان مرة بالسكوت ، وأخرىٰ بالنطق .

أما السكوت : فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : [من الطويل]

أحب من الإخوان كل مُواتي … وكل غضيض الطرف عن عثراتي

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٦٠٦) بنحوه .

يصاحبني في كل أمر أحبه ... ويحفظني حياً وبعد مماتي

فمن لي بهٰذا ليت أني أصبته ... فقاسمته مالي مع الحسنات

تصفحت إخواني فكان أقلهم ... علىٰ كثرة الإخوان أهل ثقات[1]

ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ، ولا يماريه ، ولا يناقشه .

وأن يسكت عن التجسس والسؤال ، وإذا رآه في طريق أو في حاجة ولم يفاتحه بذكر غرضه من مورده ومصدره . . فلا يسأله عنه ، فربما يثقل عليه ذكره ، ويحتاج إلىٰ أن يكذب فيه .

وأن يسكت عن أسراره التي يبثها إليه ، فلا يبثها إلىٰ غيره ألبتة ، ولا إلىٰ أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن .

وأن يسكت عن القدح في أحبائه وأهله وولده .

وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بلغك .

وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً ، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت ، فإن ذلك لا يبالىٰ بكراهته ؛ لأن ذلك إحسان عليه في التحقيق وإن كان يظن أنه إساءة في الظاهر .

وذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله من الغيبة ، وذلك حرام في حق كل مسلم ، ويزجرك عنه أمران :

أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك ، فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً . . فهون علىٰ نفسك ما تراه من أخيك ، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه كعجزك فيما أنت مبتلىٰ به ، فلا تستثقله بخصلة واحدة .

الثاني : أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب . . اعتزلت عن الخلق كافة ، فما من الناس أحد إلا وله محاسن ومساوىء ، فإذا غلبت المحاسن المساوىء . . فهو الغاية .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ما من أحد من المسلمين يطيع الله فلا يعصيه ،

---

(١) ديوان الشافعي (ص٤٣) .

ولا أحد يعصي الله فلا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه . . فهو عدل ، فإذا جعل هـٰذا عدلاً في حق الله تعالىٰ . . فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضىٰ أخوَّتك أولىٰ .

فالمؤمن الكريم يحضر في قلبه محاسن أخيه ؛ ليبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، والمنافق اللئيم يلاحظ المساوىء والعيوب .

قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « استعيذوا بالله من جار السوء الذي إن رأىٰ خيراً . . ستره ، وإن رأىٰ شراً . . أظهره »[1] .

وكما يجب السكوت عليك عن معاصيه ومساوئه . . يجب عليك السكوت بقلبك ، وذلك بترك إساءة الظن ، فسوء الظن غيبة القلب ، وذلك منهي عنه .

وحده : ألاّ تحمل فعله علىٰ وجه فاسد ما أمكن أن يحمل علىٰ وجه حسن .

فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة . . فلا يمكنك ألا تعلمه ، وعليك أن تحمل ما تشاهد علىٰ سهو أو نسيان إن أمكن ، وهـٰذا جار في حق كل مؤمن ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء »[2] .

وقال : « إياكم والظن ؛ فإن الظن أكذب الحديث »[3] .

فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين ، ويكفيك تنبيهاً علىٰ كمال الرتبة في ستر القبيح ، وإظهار الجميل أن الله تعالىٰ وصف به في الدعاء ، فقيل : يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والمرضي عند الله من تخلق بأخلاقه ، فإنه ستار العيوب ، غفار الذنوب ، ومتجاوز عن العبيد ، فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك ، وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك .

ومنشأ التقصير في ستر العورة ، أو السعي في كشفها هو الحقد والحسد ، فإن الحقود الحسود يمتلىء باطنه بالخبث ، ولـٰكنه يحبسه في باطنه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالاً ، فإذا وجد فرصة . . انحلت الرابطة ، وارتفع الحياء ، وترشح الباطن بخبثه .

---

(١) عزاه الحافظ العراقي للبخاري في « التاريخ » كما في « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٧٧) .
(٢) عزاه الحافظ العراقي للحاكم في « التاريخ » كما في « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٧٧) .
(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) .

ومن السكوت ألا يفشي سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذباً ، فليس الصدق واجباً في كل مكان ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره . . يجوز أن يخفي عيوب أخيه وأسراره ، وإن احتاج إلى الكذب . . فله أن يفعل ذلك في حق أخيه ، فإن أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد ، لا يختلفان إلا بالبدن ، و هٰذه حقيقة الأخوة .

وكذا لا يكون بالعمل بين يديه مرائياً أو خارجاً عن أعمال العلانية ، فإن معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ستر عورة أخيه . . ستر الله عليه في الدنيا والآخرة »[1] .

وقال : « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ، لا يحل لأحدهما أن يفشي علىٰ أخيه ما يكره »[2] .

وقيل لأديب : كيف حفظك الستر[3] ؟ فقال : أنا قبره .

وقيل : إن قلب الأحمق في فيه ، ولسان الغافل في قلبه .

وقيل لحكيم : كيف تحفظ السر ؟ فقال : أجحد المخبر ، وأحلف للمستخبر .

وقال بعضهم : [من الطويل]

وما السر في صدري كثاو بقبره	لأني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولٰكنني أنساه حتىٰ كأنني	بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بيني وبينه	عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وأفشىٰ بعضهم سراً إلىٰ أخيه ثم قال : حفظت ؟ فقال : لا ، بل نسيت .

وكان أبو سعيد الثوري رحمه الله يقول : إذا أردت أن تؤاخي رجلاً . . فأغضبه ، ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيراً وكتم سرك . . فاصحبه ، ومن أفشى السر عند الغضب . . فهو اللئيم .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦) بنحوه .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » (١٩٧٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٦٧٧) ، وقال : (هٰذا مرسل جيد) .

(٣) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : (السر) ، والله أعلم .

وقد قيل في ذلك : [من الكامل]

وترى الكريم إذا تصرم وصله ... يخفي القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضَّىٰ وصله ... يخفي الجميل ويظهر البهتانا

ومن السكوت السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا تمار سفيهاً فيؤذيك ، ولا حليماً فيقليك .

وقال : صلى الله عليه وسلم : « لا تمار أخاك ، ولا تمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لا تَسَعون الناس بأموالكم ، ولـٰكن ليسعهم منكم بسط وجوه ، وحسن خلق »[2] .

وأشد الأسباب لإثارة الحقد بين الإخوان المماراة ، فإنها عين التدابر والتقاطع ، فإن التقاطع يقع أولاً بالآراء ، ثم بالأقوال ، ثم بالأبدان ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تدابروا ، ولا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يحرمه ، ولا يخذله ، بحسب المرء من السوء أن يحقر أخاه »[3] .

وأشد الاحتقار الممارة ؛ لأن من رد علىٰ غيره كلامه . . فقد نسبه إلى الجهل والحمق ، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء علىٰ ما هو عليه ، وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش ، والباعث علىٰ ذلك إظهار التميز بمزيد العقل والفضل ، واحتقار المردود عليه ، وهـٰذا يشتمل على التكبر والإيذاء ، ولا معنىٰ للمعاداة إلا هـٰذا ، فكيف تبقىٰ معه الأخوة والمصافاة ؟!

وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة إلىٰ حد لم يروا السؤال أيضاً ، وقالوا : إذا قلت لأخيك : قم ، فقال : إلىٰ أين ؟ فلا تصحبنه ، بل قالوا : ينبغي أن تقوم ولا تسأل .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق ، فإن الإخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره . .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٩٤) .
(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٢٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٩٥) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) بألفاظ مقاربة ، وأخرج الترمذي (١٩٣٥) أوله .

تقتضي أيضاً النطق بالمحاب ، وإنما تراد الأخوة ؛ ليستفاد منهم ، لا ليتخلص من أذاهم .

والسكوت معناه : كف الأذىٰ ، فعليه أن يتودد إليه بلسانه ، وينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور ، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب أحدكم أخاه . . فليخبره »[1] .

وإنما أمر بالإخبار ؛ لأن ذلك يوجب زيادة حب ، فإذا عرف أنك تحبه . . أحبك بالطبع لا محالة ، والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ، ومحبوب في الدين ، ولذلك علم صلى الله عليه وسلم فيه الطريق فقال : « تهادوا تحابوا »[2] .

ومن النطق : أن تدعوه بأحب أسمائه في غيبته وحضوره ، وأن تثني عليه بما تعرف من محاسن أخلاقه عند من يؤثر الثناء عنده ، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذا الثناء علىٰ أولاده ، وأهله ، وصنعته ، وفعله ، وعقله ، وخلقه ، وهيئته ، وخطه ، وشعره ، وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به ، وذلك من غير كذب ولا إفراط ، وآكد من ذلك أن يبلغه ثناء من أثنىٰ عليه مع إظهار الفرح به ، فإن إخفاء ذلك من الحسد .

ومن ذلك أن تشكره علىٰ صنيعه في حقك ، بل علىٰ نيته وإن لم يتم .

قال علي رضي الله عنه : من لم يحمد أخاه علىٰ حسن النية . . لم يحمده علىٰ حسن الصنيعة ، وأُنشِد في معناه : [من البسيط]

لأشكرنك معروفاً هممت به	إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر	فالشيء بالقدر المكتوب مصروف

وأعظم من ذلك أثراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء ، أو تعرض لعرضه بكلام صريح ، أو تعريض ، فحق الأخوة التشمير للإجابة والنصرة ، وتبكيت المتعنت ، وتغليظ القول عليه ، فالسكوت علىٰ ذلك موغر للصدر ، ومنفر للقلب ، وتقصير في حق الأخوة ، وأخس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحمك وهو ساكن لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك ، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٧٠) ، والحاكم (٤/ ١٧١) ، وأبو داود (٥١٢٤) ، والترمذي (٢٣٩٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ١٦٩) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٩٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٢٣٦) ، وغيرهم .

ولذلك شبهه الله تعالىٰ بأكل لحم الميتة فقال : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ .

وحماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة .

قال بعضهم : ما ذكر أخ لي بعيب إلا تصورته جالساً فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر .

وهـٰذا من صدق الإخاء ، وهو ألاّ يرىٰ لأخيه إلا ما يراه لنفسه .

وقد نظر أبو الدرداء رضي الله عنه إلىٰ ثورين يحرثان في فدّان ، فوقف أحدهما يحك جسمه ، فوقف الآخر ، فبكىٰ وقال : هـٰكذا الأخوان في الله تعالىٰ يعملان ، فإذا وقف أحدهما . . وافقه الآخر .

وبالموافقة يتم الإخلاص ، ومن لم يكن مخلصاً في إخائه . . فهو منافق .

والإخلاص : استواء الغيب والشهادة ، واللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والجماعة والخلوة .

والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك دَخَل في الدين[1] ، ووليجة في طريق المؤمنين[2] ، ومن لا يقدر علىٰ ذلك . . فالانقطاع والعزلة أولىٰ له من المؤاخاة ، فإن حق الأخوة ثقيل لا يطيقه إلا محقق ، وأجره جزيل ـ لا جرم ـ لا يناله إلا موفق ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً »[3] .

فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة ، والإسلام جزاء الجوار .

والفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام . . علىٰ حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار وحق الصحبة ، فإن الصحبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة ، بل على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم .

ومن النطق : التعليم والنصيحة ، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، فإن كنت غنياً بالعلم . . فعليك مواساته من فضلك ، وإرشاده إلىٰ كل ما ينفعه في

---

(١) **الدخَل** : العيب والفساد .
(٢) **الوليجة** : البطانة ، والمراد هنا : ما دخل في الشيء وليس منه .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥) ، وابن ماجه (٤٢١٧) بنحوه .

الدنيا والدين ، فإن علمته فلم يعمل بمقتضى العلم . . فعليك نصيحته ؛ بأن تذكره آفات ذلك ، وتنبهه علىٰ عيوبه ، وتقبح القبيح في عينه ، وتحسن الحسن ، ولـٰكن ينبغي أن يكون سراً لا يطلع عليه أحد ، فما كان على الملأ . . فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان في السر . . فهو شفقة ونصيحة ، والله تعالىٰ يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه ، وفي ظل ستره ، فيوقفه علىٰ ذنوبه سراً ، وقد يدفع كتاب عمله مختوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة . . أعطوه الكتاب مختوماً ليقرأه .

وأما أهل المقت . . فينادون علىٰ رؤوس الأشهاد ، وتستنطق جوارحهم بفضائحهم ، فيزدادون بذلك حزناً وافتضاحاً ، نعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر .

فإن قلت : إذا كان في النصح ذكر العيوب ، وفيه إيحاش القلب ؛ أعني : قلوب العقلاء . . فكيف يكون ذلك من حق الأخوة .

فاعلم أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه ، فأما تنبيهه علىٰ ما لا يعلمه . . فهو عين الشفقة ، وهو استمالة للقلوب ؛ أعني : قلوب العقلاء .

وأما الحمقىٰ . . فلا يلتفت إليهم ، فإن من نبهك علىٰ فعل مذموم تعاطيته ، أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك . . كان كمن نبهك علىٰ حية أو عقرب تحت ذيلك ، وقد همت بإهلاكك ، فإن كنت تكره ذلك . . فما أحمقك ، وقد كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من إخوانه ويقول : رضي الله عن امرىء أهدىٰ إلىٰ أخيه عيوبه[1] .

وهـٰذا في عيب هو غافل عنه ، فأما إذا علمت أنه يعلمه من نفسه وإنما هو مقهور من طبعه . . فلا ينبغي أن تكشف فيه ستره إن كان يخفيه ، وإن كان يظهره . . فلا بد من التلطف في النصح ، بالتعريض مرة ، وبالتصريح مرة إلىٰ حد لا يؤدي إلى الإيحاش .

فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه ، وأنه يضطر من طبعه إلى الإصرار عليه . . فالسكوت عنه أولىٰ ، وهـٰذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه ودنياه ، وأما ما يتعلق بتقصيره في حقك . . فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه .

نعم ؛ إن كان يؤدي إلى القطيعة . . فالعتاب في السر خير من القطيعة ، والتعريض به خير من التصريح ، والمكاتبة خير من المشافهة ، والاحتمال خير من الكل .

---

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرىٰ » (٣/ ٢٩٣) بلفظ : أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات ، وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية ، أو في حقك بتقصير في الأخوة .

أما ما يكون من ارتكاب معصية وإصرار عليها . . فعليك اللطف في نصحه بما يقيم أَوَده[1] ، ويجمع شمله ، فإن لم تقدر وبقي مصراً . . فقد اختلف الصحابة والتابعون في إدامة حق مودته ، أو مقاطعته .

فذهب أبو ذر إلى الانقطاع ، وقال : إذا تغير أخوك عما كان عليه . . فأبغضه من حيث أحببته ، ورأىٰ ذلك من مقتضى الحب في الله تعالىٰ ، والبغض في الله تعالىٰ .

وأما أبو الدرداء رضي الله عنه ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم . . فذهبوا إلىٰ خلافه ، فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك . . فلا تدعه لأجل ذلك ؛ فإنه يعوج مرة ، ويستقيم أخرىٰ .

وقال النخعي رحمه الله : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب ؛ فإنه يركبه اليوم ، ويتركه غداً .

وفي الخبر : « اتقوا زلة العالم ، ولا تقطعوه ، وانتظروا فيئه »[2] .

وكان لعمر رضي الله عنه أخ ، فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : ما فعل أخي ؟ فقال : ذاك أخو الشيطان ، فقال : مه ، قال : إنه قارف الكبائر حتىٰ وقع في الخمر ، فقال : إذا أردت الخروج . . فآذني ، فكتب إليه عند خروجه : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ الآية .

ثم عاتبه تحت ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب . . بكىٰ وقال : صدق الله ، ونصح عمر رضي الله عنه ، فتاب ورجع .

وهـٰذه الطريقة ألطف وأفقه من طريقة أبي ذر ، وطريقته أحسن وأسلم .

فإن قلت : ولم قلت : هـٰذه ألطف وأفقه ، ومقارف المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء ، فتجب مقاطعته انتهاء ؛ لأن الحكم إذا ثبت بعلة . . فالقياس : أن يزول بزوالها ؟

---

(١) **الأوَد** : العوج .

(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢١١) بدون قوله : « ولا تقطعوه » .

فأقول : أما كونه ألطف . . فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة ؛ لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طعمه عن الصحبة . . أصر واستمر .

وأما كونه أفقه . . فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت . . تأكد الحق ووجب الوفاء به ، ومن الوفاء . ألا يهمل أيام حياته وفقره ، وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه ، فينبغي أن يراعىٰ ويراقب ويتلطف به ؛ ليعان على الخلاص من الواقعة التي ألمت به ، فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان ، وهٰذا من أشد النوائب .

ولأن الصداقة لحمة كلحمة النسب ، والقريب لا يجوز أن يهجر أخاه وقريبه بالمعصية ، ولذلك قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم في عشيرته : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل : إني بريء منكم ؛ مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب ، وإلىٰ ذلك أشار أبو الدرداء رضي الله عنه لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ، فقال : إنما أبغض عمله ، وإلا . . فهو أخي ، وأنا أخوه ، وأخوة الدين آكد من أخوة القرابة(١) .

فإذاً الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها . . واجب ، وهٰذا جواب عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق ، فإنه لم يتقدم له حق .

فإن تقدمت له قرابة . . فلا جرم لا ينبغي أن يقاطع ، بل يجامل ، والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحبة ابتداء ليس بمذموم ولامكروه .

وأما قطع الأخوة في دوامها . . فمنهي عنه ، ومذموم في نفسه ، ونسبته إلىٰ تركه ابتداء كنسبة الطلاق إلىٰ ترك النكاح ، والطلاق أبغض إلى الله من ترك النكاح ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « شرار عباد الله المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة »(٢) .

وقال بعض السلف في زلات الإخوان : ود الشيطان أن يلقىٰ علىٰ أخيكم مثل هٰذا حتىٰ تهجروه ، فماذا أبقيتم من محبة عدوكم ؛ يعني : أن التفرق بين الأحباب من محاب

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في « الجامع » (٢٠٢٦٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٢٦٤) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٢٣) ، وأحمد (٦/ ٤٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤/ ١٦٧) ، وغيرهم .

الشيطان ، كما أن مقارفة العصيان من محابه ، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه . . فلا يضاف إليه الثاني ، وإلىٰ هـٰذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تكونوا عوناً للشيطان علىٰ أخيكم »[1] .

فبهـٰذا تبين الفرق بين الدوام والابتداء ؛ لأن مخالطة الفساق محذورة ، ومفارقة الإخوان أيضاً محذورة ، وليس ما سلم من معارضة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم ، فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولىٰ ، وفي الدوام تعارضاً ، فكان الوفاء بحق الإخوة أولىٰ .

وأما زلته في حقك بما يوجب إيحاشك . . فلا خلاف في أن العفو عنه والاحتمال أولىٰ ، بل كل ما يحتمل تنزيله علىٰ وجه حسن ، ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد . . فهو واجب بحق الأخوة .

وقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً ، فإن ظهر بحيث لا يقبل التحسين . . فينبغي ألا تغضب إن قدرت ، ولـٰكن ذلك لا يمكن ، فقد قال الشافعي رضي الله عنه : من استغضب ولم يغضب . . فهو حمار ، ومن استرضي ولم يرض . . فهو شيطان[2] .

فلا تكن حماراً ولا شيطاناً ، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطاناً[3] .

وقد قيل : [من مجزوء الكامل]

خـذ مـن خليلـك مـا صفـا ... دون الـذي فيـه الكـدر
فـالعمـر أقصـر مـن معـا ... تبـة الخليـل علـى الغيـر[4]

وقال الإمام أبو طالب المكي رضي الله عنه : وأنشدونا لمحمد بن عامر في الإخوان : [من الوافر]

فـلا تعجـل علـىٰ أحـد بظلـم ... فـإن الظلـم مـرتعـه وخيـم

---

(1) أخرجه البخاري (٦٧٨١) ، وأبو داوود (٤٤٧٧) .

(2) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٧٣٤) .

(3) انظر « الإحياء » (٢/ ١٧٣ـ١٨٥) .

(4) البيتان لكُشاجم ، وهما في « ديوانه » (ص٩٤) . بلفظ : (خذ من زمانك . . .) ، و(معاتبة الزمان . . .) .

ولا تفحـــش وإن مُلِّيــت غيظــاً ... علــىٰ أحــد فــإن الفحــش لــؤم
ولا تقطــع أخــاً لــك عنــد ذنــب ... فــإن الــذنــب يغفــره الكــريــم
ولكـــن داو روعتـــه بـــرقـــع ... كمــا قــد يــرقــع الخلــق القــديــم

قال : وأنشدونا في معناه عن أحمد بن يحيىٰ بن ثعلب قال[1] : أنشدني عبد الله بن شبيب : [من مجزوء الوافر]

إخــــاء النــــاس ممتــــزج ... وأكثـــر فعلهـــم سمـــج
فـــإن بـــدهتـــك مقطعـــة ... وليـــس وراءهـــم فـــرج
فقـــومهـــم بـــوصلهـــم ... فـــإن لـــم يـــوصلـــوا اعتـــوجـــوا
صـــروف الـــدهـــر دائبـــة ... تَقَطَّـــعُ دونهـــا المهـــج[2]

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه : (ومهما اعتذر أخوك إليك ، صادقا كان أو كاذباً . . فاقبل عذره ، قال صلى الله عليه وسلم : « من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره . . كان عليه مثل إثم صاحب المكس »[3] .

وقال أيضاً : « المؤمن سريع الغضب سريع الرضا »[4] فلم يصفه بأنه لا يغضب ، ولذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ ولم يقل : والعادمين الغيظ ، وهـٰذا لأن العادة لا تنتهي إلىٰ أن يجرح الإنسان ولا يتألم ، بل تنتهي إلىٰ أن يصبر عليه ، وكما أن التألم بالجروح مقتضىٰ طبع البدن . . فالتألم بأسباب الغيظ طبع القلب ، لا يمكن قلعه ، ويمكن ضبطه وكظمه ، والعمل بخلاف مقتضاه ، فإنه يقتضي التشفي والانتقام والمكافأة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن)[5] .

---

(1) في (أ) : (محمد بن يحيىٰ ثعلب) ، وفي (ب) : (محمد بن يحيىٰ تغلب) ، والمثبت من « قوت القلوب » .

(2) قوت القلوب (٢/ ٢١٦) .

(3) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٩٨١) ، وغيرهم .

(4) قال العراقي رحمه الله : لم أجده هـٰكذا ، وللترمذي [٢١٩١] وحسنه : « ألا إن بني آدم خلقوا علىٰ طبقات شتىٰ . . . » ، الحديث ، وفيه : « ومنهم سريع الفيء ، فتلك بتلك » اهـ « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٨٥) .

(5) الإحياء (٢/ ١٨٥ـ١٨٦) .

قال الإمام أبو طالب المكي : (من عرف فضل الأخوة في الله تعالىٰ ، وعلم درجة المحبة لله . . صبر لأخيه ، وشكر له ، وحلم عنه ، واحتمل له ؛ لينال ما أمله من مؤمله فيه ، ويبلغ ما طلبه من طالبه به ، فإن الصبر يحتاج إليه ليتم العمل ، والشكر لا بد منه لدوام النعمة ، ومن طلب نفيساً . . خاطر بنفيس ، ومن رغب في رغبة . . بذل لها مرغوباً ، والله الموفق لما يحب) اهـ[١]

الحق السادس : الدعاء للأخ في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب . . قال الملك : ولك بمثل ذلك »[٢] وفي لفظ آخر : « يقول الله تعالىٰ : بك أبدأ يا عبدي » .

وفي الحديث : « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه »[٣] .

وفي الحديث : « دعوة الأخ لأخيه لا ترد »[٤] .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم[٥] .

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ، أهلك يقتسمون ميراثك ، ويتنعمون بما خلفت لهم ، وهو منفرد بحزنك ، مهتم بما قدَّمت ، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرىٰ[٦] . وكأن الأخ الصالح يقتدي بالملائكة ؛ إذ جاء في الخبر : « إذا مات العبد . . قال الناس : ما خلف ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ »[٧] يفرحون له بما قدم ، ويسألون عنه ، ويشفقون عليه .

---

(١) قوت القلوب (٢/٢١٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) ، وأبو داوود (١٥٣٤) ، وابن ماجه (٢٨٩٥) بنحوه .

(٣) قال العراقي رحمه الله : لم أجده بهٰذا اللفظ ، ولأبي داوود [١٥٣٥] والترمذي [١٩٨٠] وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « إن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لغائب » اهـ « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/١٨٦) .

(٤) عزاه العراقي للدارقطني في « العلل » كما في « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/١٨٦) .

(٥) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ١٣٤) .

(٦) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٣١) .

(٧) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩٩٩٢) .

ويقال : من بلغه موت أخيه ، فترحم عليه ، واستغفر له . . كتب كأنه شهد جنازته ، وصلىٰ عليه .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل الميت في قبره مثل الغريق ؛ يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد ، أو والد ، أو أخ ، أو قريب » وإنه ليدخل علىٰ قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال .

وقال بعض السلف : الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور ، عليه منديل من نور ، فيقول : هٰذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان ، فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص ، ومعنى الوفاء : الثبات على الحب إلى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت . . حبط العمل ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلهم الله تعالىٰ : « ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا علىٰ ذلك وتفرقا عليه » .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان »[1] .

فمن الوفاء : مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ نفسه ، فإن فرحه يتعلق بتفقد من يتعلق به ، حتى الكلب الذي علىٰ باب داره ينبغي أن يتميز في القلب عن سائر الكلاب .

ومتى انقطع الوفاء بداوم المحبة . . شمت به الشيطان ، فإنه [لا] يحسد متعاونين على البر كما يحسد متواخيين في الله ومتحابين في الله تعالىٰ ، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ويقال : ما تواخى اثنان في الله تعالىٰ فيفرق ما بينهما . . إلا بذنب يرتكبه أحدهما .

ومن ثمرات المودة : ألا تكون مع حسد في دين ودنيا ، وكيف يحسد وكل ما هو لأخيه

(١) أخرجه الحاكم (١٥/١) ، والطبراني في « الكبير » (١٤/٢٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٧٠١) ، وغيرهم .

فإليه ترجع فائدته ؟ وقد وصف الله تعالى المحبين في الله تعالىٰ فقال : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ . وجود الحاجة هو الحسد .

ومن الوفاء : ألا يتغير حاله من التواضع من أخيه وإن ارتفع شأنه ، واتسعت ولايته ، وعظم جاهه ، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم ، قال الشاعر : [من البسيط]

إن الكـرام إذا مـا أيسـروا ذكـروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقال بعض الحكماء : إذا ولي أخوك ولاية فثبت علىٰ نصف مودته لك . . فهو كثير .

وحكى الربيع رحمه الله تعالىٰ أن الشافعي رضي الله عنه آخىٰ رجلاً ببغداد ، ثم إن أخاه ولي السِّيبين ، فتغير له عما كان عليه ، فكتب الشافعي رضي الله عنه هـٰذه الأبيات : [من الكامل]

اذهـب فـودُّك مـن فـؤادي طـالـق ... أبـداً وليـس طـلاق ذات البيـن

فـإن ارعـويـت فـإنهـا تطليقـة ... ويـدوم ودُّك لـي علـىٰ ثنتيـن

وإن امتنعـت شفعتُهـا بمثـالهـا ... فتكـون تطليقيـن فـي حيضيـن

فـإذا الثـلاث أتتـك منـي بتـة ... لـم تغـن عنـك ولايـة السِّيبيـن[(١)]

واعلم أنه ليس الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء المخالفة .

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء : أن يكون شديد الجزع من المفارقة ، نَفُورَ الطبع من أسبابها .

ومن الوفاء : ألا يسمع بلاغات الناس علىٰ صديقه ، لا سيما من يظهر أولاً أنه محب لصديقه ؛ كيلا يتهم ، ثم يلقي الكلام عرضاً ، وينقل عن الصديق ما يوغر القلب ، فذلك من دقائق الحيل ، ومن لا يحترز منه . . لم تدم مودته .

ومن الوفاء : ألا يصادق عدو صديقه ، قال الشافعي رضي الله عنه : إذا أطاع صديقُك عدوَّك . . فقد اشتركا في عداوتك .

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٩٥-٩٦) وهي عنده عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي . والسيب ـ بكسر أوله وسكون ثانيه ـ وأصله : مجرى الماء كالنهر ، وهو : كورة من سواد الكوفة ، وهما سيبان : الأعلىٰ ، والأسفل . اهـ « معجم البلدان » (٣/ ٢٩٣) .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف ، وذلك بألا يكلف أخاه ما يشق عليه ، بل يروح سره من مهماته وحاجاته ، ويرفهه عن أن يحمله شيئاً من أعبائه ، ولا يستمد منه من جاه ولا مال ، ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالىٰ ؛ تبركاً بدعائه ، واستئناساً بلقائه ، واستعانة به علىٰ دينه ، وتقرباً إلى الله تعالىٰ بالقيام بحقوقه ، وتحمل مؤنه ، وتمام التخفيف طي بساط التكليف ، حتىٰ لا يستحيي منه فيما لا يستحيي من نفسه .

قال الجنيد رحمه الله تعالىٰ : ما تواخى اثنان في الله تعالىٰ فاستوحش أحدهما من صاحبه ، أو احتشم . . إلا لعلة في أحدهما .

وقال علي رضي الله عنه : شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن أحوجك إلىٰ مداراة ، ومن ألجأك إلى اعتذار .

وقال بعض الصوفية : لا تعاشر من الناس إلا من [لا] تزيد عنده ببر ، ولا تنقص بإثم ، ثم لا يكون ذلك لك وعليك ، وأنت عنده سواء .

وإنما قال هٰذا ؛ لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ ، وإلا . . فالطبع يحمله علىٰ أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده ، وينبغي أن يؤاخي كل متدين عاقل ، ويعزم علىٰ أن يقوم بهٰذه الشروط ولا يكلفه هٰذه الشروط ؛ حتىٰ تكثر إخوانه ؛ إذ به يكون مؤاخياً في الله تعالىٰ ، وإلا . . كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط .

ومن التخفيف وترك التكليف : ألا يعترض عليه في نوافل العبادات ؛ لأن طائفة من الصوفية يصطحبون علىٰ شرط المساواة بين أربعة معان :

إن أكل أحدهم النهار كله . . لم يقل له صاحبه : صم .

وإن صام الدهر كله . . لم يقل له : أفطر .

وإن نام الليل كله . . لم يقل له : قم .

وإن صلاَّه كله . . لم يقل له : نم .

ويستوي عنده حالاه بلا مزيد ولا نقصان ؛ لأن ذلك إن تفاوت . . حرك الطبع والتحفظ لا محالة .

وقد قيل : من سقطت كلفته . . دامت ألفته ، ومن خفت مؤنته . . دامت مودته .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف »[1] .

وقال بعضهم : إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال . . فقد تم أنسه به : إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، ونام ، وصلىٰ .

فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال : بقيت خامسة ، وهي : أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجامعها ؛ لأن البيت يتخذ للاستخفاء في هٰذه الأمور الخمسة ، وإلا . . فالمساجد أروح لقلوب المتعبدين ، فإذا فعل هٰذه الخمس . . فقد تم الاتحاد ، وارتفعت الحشمة ، وتأكد الانبساط .

وقول العرب للصاحب : مرحباً وأهلاً وسهلاً ؛ أي : لك عندنا مرحب ، وهو : السعة في القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة منا ، ولك عندنا سهولة في ذلك كله .

ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرىٰ نفسه دون إخوانه ، ويحسن الظن بهم ، ويسيء بنفسه .

قال أبو معاوية رحمه الله : إخواني خير مني ، قيل : وكيف ؟ قال : كلهم يرى الفضل لي عليه ، ومن فضلني علىٰ نفسه . . فهو خير مني .

وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان : [من المتقارب]

تذلل لمن إن تذللت له ... يرىٰ ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل ... علي الأصدقاء يرى الفضل له

وقال آخر : [من الخفيف]

كم صديق عرفته بصديق ... صار أحظىٰ من الصديق العتيق
ورفيق رأيته في طريق ... صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه . . فقد احتقر أخاه ، وهٰذا في عموم المسلمين مذموم ، قال

---

(١) عزاه العراقي للدارقطني في « الأفراد » وضعفه ، كما في « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٨٩) .

صلى الله عليه وسلم : « حسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[1] .

ومن تتمة الانبساط وترك التكلف : أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده ، ويقبل إشارتهم ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ .

ولا ينبغي أن يخفي عنهم شيئاً من أسراره .

فهٰذا جامع حقوق الصحبة ، وقد أجملناه مرة وفصلناه أخرىٰ ، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون علىٰ نفسك للإخوان ، ولا تكون لنفسك عليهم ، وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم ، فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر : فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك ، وتنظر إلىٰ محاسنهم ، وتتعامىٰ عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك .

وأما السمع : فأن تسمع كلامهم متلذذاً بسماعه ، ومصدقاً به ، ومظهراً للاستبشار به ، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادَّة ومنازعة ومداخلة وإعراض ، فإن أرهقك عارض . . اعتذر إليهم ، وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون .

وأما اللسان : فقد ذكرنا حقوقه ، فإن القول فيه يطول ، ومن ذلك : ألا يرفع صوته عليهم ، ولا يخاطبهم إلا بما يفهمون .

وأما اليدان : فلا يقبضهما عن معونتهم في كل ما يتعاطىٰ باليد .

وأما الرجلان : فتمشي وراءهم مشي الاتباع لا مشي المتبوعين ، ولا تقدمهم إلا بقدر ما يقدمونك ، ولا تقرب منهم إلا بقدر ما يقربونك ، وتقوم لهم إذا أقبلوا ، ولا تقعد إلا حيث يقعدونك ، ومهما تم الاتحاد . . خف حمله من هٰذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء ، فإنها من حقوق الصحبة ، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف .

فإذا تم الاتحاد . . انطوىٰ بساط التكلف ، فلا يسلك به إلا مسلك نفسه ؛ لأن هٰذه الآداب الظاهرة عنوان أدب الباطن وصفاء القلب ، ومهما عرفت القلوب . . استغني عن تكلف إظهار ما فيها[2] .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) ، وأبو داوود (٤٨٨٢) ، وابن ماجه (٤٢١٣) .

(٢) انظر « الإحياء » (٢/١٨٦ـ١٩١) .

فَصْلٌ

في حقوق المسلم على المسلم

هي : أن يسلم عليه إذا لقيه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويشمته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات ، ويبر قسمه إذا أقسم عليه ؛ أي : حيث لم تكن المصلحة في عدم إبراره ، وينصح له إذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه .

روىٰ أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمدبرهم ، وأن تحب تائبهم »[1] .

وقال النعمان بن بشير رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ، إذا اشتكىٰ عضو منه . . تداعىٰ سائره بالحمىٰ والسهر »[2] .

ومنها : ألاّ يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول ، قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[3] .

وقال مجاهد رحمه الله : يسلط علىٰ أهل النار الجرب ، فيحتكون حتىٰ يبدوا عظم أحدهم ، فينادىٰ : يا فلان ؛ هل يؤذيك هـٰذا ؟ فيقول : نعم ، فيقال هـٰذا بما كنت تؤذي المؤمنين[4] .

---

(١) ذكر الديلمي في « الفردوس » (١٤٩٩) ، وقال العراقي رحمه الله : (لم أجد له إسناداً) اهـ « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ١٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠) ، ومسلم (٤١) .

(٤) أخرجه هناد في « الزهد » (٢٧٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرىء يشير إلىٰ أخيه بنظرة تؤذيه »[1] .

وقال : « لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً »[2] .

وقال الربيع بن خثيم رحمه الله : الناس رجلان : مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله[3] .

ومنها : أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فالله تعالىٰ لا يحب كل مختال فخور .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ أوصىٰ إلي ؛ أن : تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد » .

وعن ابن أبي أوفىٰ رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته)[4] .

ومنها : ألا يزيد في الهجر لمن يعرفه علىٰ ثلاثة أيام إذا غضب ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان ، فيعرض هٰذا ، ويعرض هٰذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أقال مسلماً عثرته . . أقاله الله تعالىٰ يوم القيامة »[6] .

ومنها : أن يحسن إلىٰ كل من قدر منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل ، قال صلى الله عليه وسلم : « اصنع المعروف إلىٰ أهله وإلىٰ غير أهله ، فإن أصبت أهله . . فهو أهله ، وإن لم تصب أهله . . فأنت من أهله »[7] .

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك في « الزهد » (٦٨٩) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٥٠٠٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٤٩) ، وأحمد (٥/ ٣٦٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٧٧) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٠) .

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٤٢٣) ، والحاكم (٢/ ٦١٤) ، والنسائي (٣/ ١٠٨) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (١/ ٣٢٩) .

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٧٧) ، ومسلم (٢٥٦٠) .

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٠٣٠) ، والحاكم (٢/ ٤٥) ، وأبو داوود (٣٤٦٠) ، وابن ماجه (٢١٩٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٢٧) ، وغيرهم .

(٧) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٧٤٧) ، وانظر « ميزان الإعتدال » (٢/ ٥٥٠) ، و« لسان الميزان » (٢/ ٣١٧) .

ومنها : ألا يسمع بلاغات بعضهم في بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة قتات »[1] .

وقال الخليل بن أحمد رحمه الله : من نم إليك . . نم عليك ، ومن أخبرك بخبر غيرك . . أخبر غيرك بخبرك .

ومنها : ألا يدخل علىٰ أحد منهم إلا بإذن ، فيستأذن ثلاثاً ، فإن لم يؤذن له . . انصرف ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الاستئذان ثلاث : فالأولىٰ يستنصتون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردون »[2] .

ومنها : أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعاملهم بحسب طريقتهم ، فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمي بالفقه ، والعيي بالبيان . . آذىٰ وتأذىٰ .

ومنها : أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان ، قال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا » والتلطف بالصبيان من عادته صلى الله عليه وسلم[3] .

ومن تمام توقير المشايخ : ألا يتكلم بين أيديهم إلا بإذن .

وفي الخبر : « ما وقَّر شاب شيخاً لسنه . . إلا قيض الله له في سنه من يوقره »[4] . وهـٰذه بشارة بدوام الحياة ، فليتنبه لها ، ولا يوفق لتوقير الشيخ إلا من قضي له بطول العمر .

ومنها : أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً ، طلق الوجه ، قال صلى الله عليه وسلم : « علىٰ من حرمت النار ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « اللين الهين ، السهل القريب »[5] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) ، **والقتات** : النمام .

(٢) قال العراقي رحمه الله : أخرجه الدارقطني في « الأفراد » بسند ضعيف . اهـ « المغني » بهامش « الإحياء » (١٩٦/٢) .

(٣) أخرج الطبراني في « الأوسط » (٦٣٥٧) ، عن أنس رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع الصبي .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٢٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٨٠١) ، والطبراني في « الأوسط » (٨٥٩٩) بلفظ : « ما أكرم . . من يكرمه » .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٧٧٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب السهل الطلق »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من موجبات المغفرة بذل السلام ، وحسن الكلام »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا . . فبكلمة طيبة »[3] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : البر شيء هين ؛ وجه طلق ، وكلام لين[4] .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : إن رجلاً من بني إسرائيل سأل الله ؛ كيف يغوي الشيطان الناس ؟ فأراه جنود إبليس قد أحاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من الناس إلا وحوله الشياطين كالذباب ، فقال : أي رب ؛ من ينجو من هٰذا ؟ قال : الورع اللين[5] .

ومنها : ألا يَعِد مسلماً إلا ويفي به ، قال صلى الله عليه وسلم : « العدة دين »[6] .

وقال : « ثلاث في المنافق : إذا وعد . . أخلف ، وإذا حدث . . كذب ، وإذا اؤتمن . . خان »[7] .

ومنها : أن ينصف الناس من نفسه ، ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتىٰ إليه ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستكمل العبد الإيمان حتىٰ يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الاقتار ، والإنصاف من نفسه ، وبذل السلام »[8] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة . . فليأته موته

---

(١) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٩٨) .
(٢) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٤٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٨٠) .
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٣) ، ومسلم (١٠١٦/٦٨) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٠٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣١/ ١٧٦) .
(٥) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٢) .
(٦) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٣٥٣٧) .
(٧) أخرجه البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) بنحوه .
(٨) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (٨٩٢) .

وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتىٰ إليه »[1] .

وسأل موسىٰ عليه السلام ربه فقال : أي رب ؛ أي الناس أعدل ؟ قال : من أنصف من نفسه[2] .

ومنها : أن يزيد في توقير من هيئته وثيابه تدل علىٰ علو منزلته ، فينزل الناس منازلهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أتاكم كريم قوم . . فأكرموه »[3] .

وروي أن عائشة رضي الله عنها أعطت سائلاً قرصاً ، ودعت غنياً إلى الطعام ، فقيل لها : تعطين المسكين قرصاً ، وتدعين الغني ؟! فقالت : إن الله تعالىٰ قد أنزل الناس منازل لا بد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل ، هـٰذا المسكين يرضىٰ بقرص ، وقبيح بنا أن نعطي هـٰذا الغني علىٰ هـٰذه الهيئة قرصاً .

وكذلك يكرم كل من له عليه حق قديم ، روي أن ظئر النبي صلى الله عليه وسلم التي أرضعته جاءت إليه ، فبسط لها رداءه ثم قال لها : « مرحباً بأمي » ثم أجلسها على الرداء ، ثم قال لها : « اشفعي تشفعي ، وسلي تعطي » فقالت : قومي ، فقال : « أما حقي وحق بني هاشم . . فهو لك » فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقنا يا رسول الله ، ثم وصلها بعدد من الإبل والغنم ، وأخدمها ، ووهب لها سُهْمانَهُ من خيبر ، فبيع ذلك من عثمان رضي الله عنه بمئة ألف[4] .

ومنها : أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إلىٰ ذلك سبيلاً ، قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة »[5] .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٧٣٨) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١٣٩) عن أبي عمرو الشيباني رحمه الله ، قال : (بلغنا أن موسىٰ . . .) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٦٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٦٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٢٥) ، وغيرهم .

(٤) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٥٤) ، والحاكم (٣/ ٦١٨) ، وأبو داوود (٥١٤٤) مختصراً .

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٠٩٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٩١) ، وأبو داوود (٤٩١٩) ، والترمذي (٢٥٠٩) وأحمد (٦/ ٤٤٤) ، وغيرهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ؛ فإن الله تعالىٰ يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً »[٢] .

وهـٰذا يدل علىٰ وجوب الإصلاح ؛ لأن ترك الكذب واجب ، ولا يسقط الواجب إلا بواجب ، أو آكد منه .

ومنها : أن يستر عورات المسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : « من ستر علىٰ مسلم . . ستره الله في الدنيا والآخرة »[٣] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه . . إلا دخل الجنة »[٤] .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : لو أخذت شارباً . . لأحببت أن يستر الله تعالىٰ عليه[٥] .

فإذاً على المسلم أن يستر عورة نفسه ، فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كل أمتي معافىٰ إلا المجاهرون ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل سوءاً ثم يخبر به »[٦] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تغتابوا الناس ، ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من تتبع عورة أخيه . . تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته . . يفضحه ولو كان في جوف بيته »[٧] .

ومن أعظم الأدلة علىٰ طلب الشرع لستر الفواحش : أن الزنا أفحش الفواحش ، وقد نيط بأربعة من العدول يشاهدون ذلك منه في ذلك منها ، وهـٰذا قط لا يتفق ، وإن علمه القاضي تحقيقاً . . لم يكن له أن يكشف عنه ، فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٦) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (١١٨) .
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) بنحوه .
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ، وأبو داوود (٤٩٤٦) ، والترمذي (١٤٢٥) ، وابن ماجه (٢٢٥) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٧/ ٢٨٨) .
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٤٦٢) .
(٦) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) بنحوه .
(٧) أخرجه أبو داوود (٤٨٨٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٤٧) ، وأحمد (٤/ ٤٢٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٦٧٥) ، وغيرهم ، وانظر « الإحياء » (٢/ ١٩٤ـ٢٠١) .

الرجم الذي هو أعظم العقوبات ، ثم انظر إلىٰ ستر الله عز وجل كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه ، فنرجو ألا نحرم هـٰذا الكرم يوم تبلى السرائر ؛ ففي الحديث : « إن الله تعالىٰ إذا ستر علىٰ عبد عورته في الدنيا . . فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة ، وإن كشفها في الدنيا . . فهو أكرم من أن يكشفها أخرىٰ »[1] .

وقد ورد في حديث ابن عمر في النجوىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ يقول للعبد : (يا عبدي ؛ إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم)[2] .

ومنها : أن يتقي مواضع التهم ؛ صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا عصوا الله تعالىٰ بذكره ، وكان هو السبب فيه . . كان شريكاً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسب أحدكم أباه » فقالوا : يا رسول الله ؛ أيسب أحدنا أباه ؟ قال : « نعم ، يسب أب الرجل فيسب أباه »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما هي صفية »[4] .

وقال عمر رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام التُّهَمة . . فلا يلومن من أساء به الظن[5] .

ومنها : أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلىٰ من له عنده منزلة ، ويسعىٰ في قضاء حاجته بما يقدر ، قال صلى الله عليه وسلم : « اشفعوا تؤجروا »[6] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان » قيل : وكيف ذلك ؟ قال : « الشفاعة يحقن بها الدم ، وتجر بها المنفعة ، وتدفع بها المكروه عن آخر »[7] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٣٨٣) ، والترمذي (٢٦٢٦) ، وابن ماجه (٢٦٠٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/٣٢٨) ، وغيرهم بمعناه .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) بنحوه .

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) .

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) .

(٥) ذكره العجلوني في « كشف الخفاء » (٢/٣٣٣) وقال : (رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » عن عمر من قوله) .

(٦) أخرجه البخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) .

(٧) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/٢٣٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧٩) بنحوه ، وانظر « علل ابن أبي حاتم » (٢/٢٩١) .

ومنها : أن يبدأ كل مسلم بالسلام ، ويصافحه عند السلام ، قال صلى الله عليه وسلم : « من بدأ بالكلام قبل السلام . . فلا تجبه حتىٰ يبدأ بالسلام »[1] .

وقال أنس رضي الله عنه : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثماني حجج ، فقال لي : « يا أنس ؛ أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم علىٰ من لقيته من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت منزلك . . فسلم علىٰ أهل بيتك يكثر خير بيتك »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتىٰ تحابوا ، أولا أدلكم علىٰ عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « أفشوا السلام بينكم »[3] .

وقال : « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه . . صلت عليه الملائكة سبعين مرة »[4] .

وقال : « إن الملائكة تعجب من المسلم يلقى المسلم فلا يسلم عليه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه . . كان له عليهم فضل درجة ؛ لأنه ذكرهم السلام ، وإن لم يردوا عليه . . رد عليه ملأ خير منهم وأطيب » أو قال : « وأفضل »[5] .

وكان أبو مسلم الخولاني رضي الله عنه يمرُّ على القوم فلا يسلم عليهم ، ويقول : ما يمنعني إلا أني أخشىٰ ألاّ يردوا فتلعنهم الملائكة .

والمصافحة أيضاً سنة مع السلام ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المؤمنان فتصافحا . . قسمت بينهما سبعون مغفرة ، تسعة وستون لأحسنهما بشراً » .

---

(١) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢١٤) .

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٤١٨٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٦٤٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٥٤) ، وابن حبان (٢٣٦) ، والحاكم (٤/ ١٦٧) ، وأبو داوود (٥١٩٣) ، والترمذي (٢٦٨٨) ، وابن ماجه (٦٨) ، وغيرهم .

(٤) قال العراقي رحمه الله : ذكره صاحب « الفردوس » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولم يسنده ولده في « المسند » اهـ « المغني » بهامش « الإحياء » (٢/ ٢٠٣) .

(٥) أخرجه البزار في « مسنده » (١٧٧١) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٨٢) .

وقال عمر رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا التقى المسلمان فسلم كل واحد منهما علىٰ صاحبه وتصافحا . . نزلت بينهما مئة رحمة ، للبادىء تسعون ، وللمصافح عشرة »[1] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أنه سلم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ ، فلم يرد عليه حتىٰ فرغ من وضوئه ، ورد عليه ، ومد يده وصافحه ، فقال : يا رسول الله ؛ ما كنت أرىٰ هـٰذا إلا من أخلاق الأعاجم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن المسلمين إذا التقيا فتصافحا . . تحاتت ذنوبهما »[2] .

ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين تبركاً وتوقيراً ، روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم[3] .

وعن كعب بن مالك قال : لما نزلت توبتي . . أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده[4] .

وروي أن أعرابياً قال : يا رسول الله ؛ ائذن لي فأقبل رأسك ويدك ، قال : فأذن له ففعل[5] .

ولقي أبو عبيدة عمر رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده ، وتنحيا يبكيان[6] .

والانحناء عند السلام منهي عنه ، قال أنس رضي الله عنه : قلنا : يا رسول الله ؛ أينحني بعضنا لبعض ؟ قال : « لا » قال : فيقبِّل بعضنا بعضاً ؟ قال : « لا » قال : فيصافح ؟ قال : « نعم »[7] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٥٥٧) .
(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥/ ١٢٨) بنحوه .
(٣) أخرجه أبو داوود (٥٢٢٣) ، وابن ماجه (٣٧٠٤) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ١٩٨) .
(٤) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٣١٤) وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه .
(٥) أخرجه أبو نعيم في « دلائل النبوة » (٢/ ٥٠٢) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ١٣) وعزاه للبزار .
(٦) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ٤٧٦) .
(٧) أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٠٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٨٨) .

والالتزام والتقبيل قد ورد عند القدوم من السفر ، والأخذ بالركاب في توقير العلماء قد ورد به الأثر ، فعل ذلك ابن عباس بركاب زيد بن ثابت[1] ، وأخذ عمر رضي الله عنه بعضد زيد حتىٰ رفعه وقال : هٰكذا فافعلوا بزيد وأصحابه[2] .

والقيام مكروه علىٰ سبيل الإعظام ، لا علىٰ سبيل الإكرام ، وهو في المسجد أشد كراهة ؛ لأن الجلوس في المسجد عبادة ، ويكره القيام فيه للداخل ؛ لأنه إشراك عبادة بغيرها ، قال أنس رضي الله عنه : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه . . لم يقوموا ؛ لما يعلمون من كراهيته لذلك[3] .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال مرة : « إذا رأيتموني . . فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم »[4] .

هٰذا ما ذكره في « الإحياء » في القيام[5] .

وقال الإمام النووي رحمه الله : (الذي نختاره : أن إكرام الداخل بالقيام مستحب لمن فيه فضيلة ظاهرة من علم ، أو صلاح ، أو شرف ، أو ولاية مصحوبة بصيانة ، أو له ولادة ، أو رحم مع سن ونحو ذلك ، ويكون علىٰ وجه القيام للبر والإكرام والاحترام ، لا للرياء والإعظام ، وهٰذا الذي اخترناه استمر عليه عمل السلف والخلف) اهـ[6]

وأورد الإمام البيهقي في « شعب الإيمان » أحاديث في ذلك :

منها : ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن بني قريظة نزلوا علىٰ حكم سعد ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، فلما كان قريباً من المسجد . . قال للأنصار : « قوموا إلىٰ سيدكم »[7] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٢٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٢١١) .
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ١٢٨) .
(٣) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٩٥٨) ، والترمذي (٢٧٥٤) ، وأحمد (٣/ ١٣٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٧٨٤) ، وغيرهم .
(٤) أخرجه أبو داوود (٥٢٣٠) .
(٥) انظر « الإحياء » (٢/ ٢٠١ـ٢٠٥) .
(٦) روضة الطالبين (١٠/ ٢٣٦) .
(٧) شعب الإيمان (٨٥٢٨) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن فاطمة رضي الله عنها كانت إذا دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم . . قام إليها ، وأخذ بيدها ، وقبلها ، وأجلسها في مجلسه ، وكانت إذا دخل عليها . . قامت له ، وأخذت بيده ، وقبلته ، وأجلسته في مجلسها[١] .

وفي حديث توبة كعب بن مالك لما دخل المسجد ، قال : فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتىٰ صافحني وهنأني ، ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا في المسجد يحدثنا ، فإذا قام . . قمنا قياماً حتىٰ نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه[٣] .

وعنه رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يدخل بيتاً . . قمنا له[٤] .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : ما دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قط . . إلا توسع لي ، أو قال : تحرك لي ، قال : فجئت يوماً وهو في بيت مملوء من أصحابه ، فلما رآني . . تحرك ، أو قال : توسع لي حتىٰ جلست إلىٰ جانبه[٥] .

وعن واثلة بن الخطاب القرشي قال : دخل رجل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم وحده ، فتحرك له النبي صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : يا رسول الله ؛ المكان واسع ، فقال : « إن للمؤمن حقاً »[٦] .

وفي رواية : فقال : « إن للمسلم حقاً إذا رآه أخوه أن يتزحزح له »[٧] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورجل عنده ، فقام حتىٰ قعدت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمك هي ؟ » قال : لا ، قال :

---

(١) شعب الإيمان (١١/ ٢٧٠) .
(٢) شعب الإيمان (١١/ ٢٧٠) .
(٣) شعب الإيمان (٨٥٣١) .
(٤) شعب الإيمان (٨٥٣٠) .
(٥) شعب الإيمان (٨٥٣٢) .
(٦) شعب الإيمان (٨٥٣٣) .
(٧) شعب الإيمان (٨٥٣٤) .

« أختك هي؟» قال : لا ، قال : « أتعرفها ؟ » قال : لا ، قال : « رحمتها رحمك الله »[1] .

وعن عمر رضي الله عنه قال : من أراد أن يصفو له ود أخيه . . فليوسع له في مجلسه ، وليدعه بأحب الأسماء إليه ، وليسلم عليه إذا لقيه[2] .

قال أبو سليمان الخطابي : وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً . . فليتبوأ مقعده من النار » . . فمعناه أن يأمرهم بذلك ، ويلزمهم إياه علىٰ وجه الكبر .

وقوله « يتمثل » معناه : يقوم وينتصب بين يديه .

قال : وفي حديث سعد دلالة علىٰ أن قيام المرء بين يدي الرئيس الفاضل ، أو الوالي العادل ، وقيام المتعلم للعالم . . مستحب غير مكروه .

قال الإمام البيهقي : وهـٰذا القيام يكون علىٰ معنى البر والإكرام ، كما كان قيام الأنصار لسعد ، وقيام طلحة لكعب ، ولا ينبغي للذي يقام له أن يريد ذلك من صاحبه حتىٰ إن لم يفعل . . حنق عليه ، أو شكاه ، أو عاتبه[3] .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : (لا باس بالقيام للإكرام والاحترام للوالدين والعلماء والصالحين ، وأما في هـٰذا الزمان . . فقد صار تركه مؤدياً إلى التباغض والتقاطع والتدابر ، فينبغي أن يفعل دفعاً إلىٰ هـٰذه المحذور لا لعينه ، بل لكونه صار تركه وسيلة إلىٰ هـٰذه المفاسد ، ولو قيل بوجوبه . . لم يكن بعيداً ؛ لأنه صار تركه إهانة واحتقاراً لمن جرت العادة بالقيام له ، ولله أحكام تحدث عند حدوث أسباب لم تكن موجودة في الصدر الأول ، والله أعلم) اهـ

وما قاله نفعنا الله تعالىٰ به غريب .

ومنها[4] : أن يصون عرض أخيه ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ، ويذب عنه ويناضل دونه وينصره .

---

(١) شعب الإيمان (٨٥٣٥) .

(٢) شعب الإيمان (٨٥٣٦) .

(٣) انظر « شعب الإيمان » (١١/ ٢٧٧ـ٢٧٨) .

(٤) أي : من حقوق المسلم على المسلم ، والكلام للغزالي رحمه الله في « الإحياء » (٢/ ٢٠٥) .

رویٰ أبو الدرداء رضي الله عنه أن رجلاً نال من رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فرد عنه رجل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رد عن عرض أخيه . . كان له حجاباً من النار »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه . . إلا كان حقاً على الله عز وجل أن يرد عنه نار جهنم »[2] .

وعن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما قالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من امرىء ينصر مسلماً في موضع يهتك فيه من عرضه ، ويستحل حرمته . . إلا نصره الله تعالیٰ في موطن يحب نصره ، وما من مسلم خذل مسلماً في موطن تنتهك فيه حرمته . . إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته »[3] .

ومنها : تشميت العاطس ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا ويقول : « إذا عطس أحدكم . . فليقل : الحمد لله رب العالمين ، فإذا قال ذلك . . فليقل من عنده : يرحمك الله ، فإذا قال ذلك . . فليقل : يغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين »[4] .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عطس . . غض صوته ، واستتر بثوبه أو يده)[5] وروي : (وخمر وجهه)[6] .

أقول : وفي « البخاري » عن البراء رضي الله عنه قال : (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع ، ونهانا عن سبع ؛ أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإجابة الداعي ، ورد السلام ، ونصر المظلوم ، وإبرار القسم)[7] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٦٨) ، وهو عند الترمذي (١٩٣١) بنحوه .
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٩) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٤٨٨٤) ، وأحمد (٤/ ٣٠) بتقديم وتأخير .
(٤) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٩٣٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٦٢) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٢٢٤) .
(٥) أخرجه أبو داوود (٥٠٢٩) ، والترمذي (٢٧٤٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٩١١) .
(٦) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٠) ، والطبراني في « الأوسط » (١٨٧٠) .
(٧) البخاري (١٢٣٩) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ، فإذا عطس أحدكم فحمد الله . . فحق علىٰ كل مسلم سمعه أن يشمته »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا عطس أحدكم . . فليقل : الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له : يرحمك الله . . فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم »[2] .

ومنها : إذا بلي بذي شر . . فينبغي أن يجامله ويتقيه ، قال بعضهم : خالص المؤمن مخالصة ، وخالق الفاجر مخالقة ؛ فإن الفاجر يرضىٰ بالخلق الحسن في الظاهر[3] .

وقال أبو الدرداء : إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم[4] ، وهـٰذا معنى المداراة.

وقال ابن عباس في معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ : أي : الفحش والأذىٰ بالسلام والمداراة .

وفي الخبر : « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة »[5] .

وقال محمد ابن الحنفية رضي الله عنه : ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف مَنْ لا يجد من معاشرته بداً حتىٰ يجعل الله تعالىٰ له مخرجاً[6] .

ومنها : أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويخالط المساكين ، ويحسن إلى الأيتام ، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين »[7] .

---

(١) البخاري (٦٢٢٣) .

(٢) البخاري (٦٢٢٤) .

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٢٢٠) عن صعصعة بن صوحان رحمه الله بنحوه .

(٤) علقه البخاري في (كتاب الأدب ، باب المداراة مع الناس) ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ١٩١) .

(٥) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٤٢) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٠٤٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٤) بنحوه .

(٦) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٩) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ٣٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٥١) .

(٧) أخرجه الضياء في « المختارة » (٣٣٢) ، والحاكم (٤/ ٣٢٢) ، والترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه =

وكان سليمان صلوات الله عليه في ملكه إذا دخل المسجد فرأىٰ مسكيناً . . جلس إليه وقال : مسكين جالس مسكيناً .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن نبياً من الأنبياء قال : يا رب ؛ كيف أعلم رضاك عني فقال : انظر كيف رضا المساكين عنك .

وأما اليتيم : فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ضم يتيماً من بين أبوين مسلمين حتىٰ يستغني . . فقد وجبت له الجنة ألبتة »[1] .

وقال صلىٰ الله عليه وسلم : « من وضع يده علىٰ رأس يتيم ترحماً . . كان له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه »[3] .

ومنها : النصيحة والشفقة لكل مسلم ، والجهد في إدخال السرور علىٰ قلبه ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أقر عين مؤمن . . أقر الله عينه يوم القيامة » .

وقال : « من مشىٰ في حاجة مؤمن ساعة من ليل أو نهار ، قضاها أو لم يقضها . . كان خيراً له من اعتكاف شهرين »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من أحب الأعمال إلى الله تعالىٰ إدخال السرور على المؤمن ، وأن يفرج عنه غماً ، أو يقضي عنه ديناً ، أو يطعمه من جوع » .

= (٤١٢٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٢) .

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٩٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٩٩) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧٨) .

(٣) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (١٣٧) ، وابن ماجه (٣٦٧٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧٨٢) .

(٤) أخرجه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) بنحوه .

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٦٩) بنحوه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يهتم للمسلمين . . فليس منهم »[1] .

وقال معروف رحمه الله : من قال : اللهم ؛ أصلح أمة أحمد ، اللهم ؛ ارحم أمة أحمد ، اللهم ؛ فرج عن أمة أحمد كل يوم ثلاث مرات . . كتبه الله عز وجل من الأبدال .

ومنها : أن يعود مرضاهم ، والمعرفة والإسلام كاف في إثبات هٰذا الحق ونيل فضله .

وأدب العائد : خفة الجلسة ، وقلة السؤال ، وإظهار الرقة ، والدعاء بالعافية ، وغض البصر عن عورات الموضع .

وأدبه عند الاستئذان : لا يقابل الباب ، ويدق برفق ، ولا يقول : أنا إذا قيل : من ؟ ولا يقول : يا غلام ، ولٰكن يحمد ويسبح ويسلم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده علىٰ جبهته ، أو علىٰ يده ، ثم يسأله كيف هو ، وتمام تحياتكم المصافحة »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً . . قعد في مخارف الجنة ، حتىٰ إذا قام . . وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل »[3] .

وجملة آداب المريض : حسن الصبر ، وقلة الشكوىٰ والضجر ، والفزع إلى الدعاء ، والتوكل بعد الدواء علىٰ خالق الدواء .

ومنها : أن يشيع جنائزهم قال صلى الله عليه وسلم : « من شيع جنازة . . فله قيراط من الأجر ، فإن وقف حتىٰ دفن . . فله قيراطان »[4] .

وفي الخبر : « القيراط مثل أحد »[5] .

والقصد من التشييع قضاء حق المسلم والاعتبار ، خرج مالك بن دينار رحمه الله خلف

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٣١٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٧٤) .
(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٣١) ، وأحمد (٥/٢٥٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢١١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٧٦٨) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٣٠٩٨) ، وابن ماجه (١٤٤٢) بنحوه .
(٤) أخرجه البخاري (١٣٢٥) ، ومسلم (٩٤٥) بنحوه .
(٥) أخرجه مسلم (٩٤٦) .

جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تقر عيني حتىٰ أعلم إلام صرت ، ولا والله لا أعلم ما دمت حياً .

وقال الأعمش رحمه الله تعالىٰ : كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي ؛ لحزن القوم كلهم .

ومنها : أن يزور قبورهم ، والمقصود الدعاء للميت والاعتبار وترقيق القلب ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف علىٰ قبر . . بكىٰ حتىٰ يبل لحيته ويقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه . . فما بعده أيسر ، وإن لم ينج منه . . فما بعده أشد »[1] .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقعد إلى القبور ، فقيل له في ذلك ، فقال : أجلس إلىٰ قوم يُذكِّرونني معادي ، وإن قمت . . لم يغتابوني .

وقال حاتم الأصم رحمه الله : من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم . . فقد خان نفسه وخانهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من ليلة إلا ينادي مناد : يا أهل القبور ؛ من تغبطون ؟ فيقولون : نغبط أهل المساجد ؛ لأنهم يصومون ولا نصوم ، ويصلون ولا نصلي ، ويذكرون الله تعالىٰ ولا نذكره » .

وقال سفيان رحمه الله : من أكثر ذكر القبر . . وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره . . وجده حفرة من حفر النيران .

وآداب المعزي : خفض الجناح ، وإظهار الحزن ، وقلة الحديث ، وترك التبسم .

وأدب تشييع الجنازة : لزوم الخشوع ، وترك الحديث ، وملاحظة الميت ، والتفكر في الموت ، والاستعداد له ، وأن يمشي أمام الجنازة وبقربها ، والإسراع بها سنة ، فهٰذه جمل

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (٣٨٩) ، والحاكم (١/ ٣٧١) ، والترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) ، وغيرهم .

تنبه علىٰ آداب المعاشرة مع الخلق . اهـ كلام الإمام الغزالي ، رضي الله عنه ونفعنا به وبعلومه ، آمين[1] .

ولم يذكر دلائل استحباب الزيارة ، وقد روىٰ مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يخرج في ليلتها من آخر الليل إلى البقيع ، فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون ، غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم ؛ اغفر لأهل بقيع الغرقد »[2] .

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المدينة ، فأقبل عليهم بوجهه ، فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم ، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » قال الترمذي : حديث حسن[3] .

قال الإمام النووي : (يستحب للزائر الإكثار من قراءة القرآن والذكر ، والدعاء لأهل تلك المقبرة وسائر الموتىٰ والمسلمين أجمعين .

ويستحب الإكثار من الزيارة ، وأن يكثر الوقوف عند قبور أهل الفضل والخير) اهـ[4]

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٠٥ـ٢١١) .
(٢) مسلم (٩٧٤) .
(٣) الترمذي (١٠٥٣) .
(٤) الأذكار (ص٢٨٧) .

فصل

في حق الجار

قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ .

قال ابن عباس : قوله : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يريد البر بهما ، مع اللطف ولين الجانب ، وقد مر .

وقوله تعالىٰ ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ قال : يصله ، ويتعطف عليه ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ يرفق بهم ، ويدنيهم ، ويمسح رؤوسهم ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ ببذل يسير ، أو رد جميل ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني : الذي بينك وبينه قرابة ، فله حق القرابة ، وحق الجوار ، وحق الإسلام ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ هو الذي ليس بينك وبينه قرابة ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدي والضحاك : هو الرفيق في السفر ، له حق الجوار ، وحق الصحبة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو الضيف يجب قراه إلىٰ أن يبلغ حيث يريد .

قال ابن عباس : هو عابر السبيل تؤويه وتطعمه حتىٰ يرتحل عنك ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد المملوك يحسن رزقه ، ويعفو عنه فيما يخطىء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ قال ابن عباس : يريد بالمختال العظيم في نفسه ، الذي لا يقوم بحقوق الله ، والفخور الذي يفخر علىٰ عباد الله بما خوله من كرامته ، وما أعطاه من نعمته . هٰذا ما ذكره الواحدي في تفسير هٰذه الآية[1] .

وقال أبو حيان : (﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي : صاحب الدار القريبة من دارك ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ هو : البعيد الدار من دارك ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ أي : المتصل المسكن

---

(١) انظر « الوسيط » (٢/٤٩ـ٥١) .

بمسكنك ، و« المختال » التياه الجهول ، الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه ، ولا يلتفت إليهم) اهـ[1]

وقال صاحب « عين المعاني » : (﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ من جاورك في الرحم ، وقيل : القريب من دارك ، وقيل : الجار القريب بالنسب ، وقيل : من جاورك في دار الإسلام ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ هو : الجار الأجنبي ، أو المشرك ، أو الجار البعيد الجوار ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ قال علي : هو الزوجة ، وقال ابن عباس : رفيق السفر ، وقال زيد : من يصحبك رجاء نفعك) اهـ

قال الإمام البيهقي : (وروينا عن علي وعبد الله ثم عن إبراهيم وغيره في (الصاحب بالجنب) أنها المرأة ، وعن سعيد بن جبير في رواية كذلك ، وفي رواية : الرفيق الصالح) اهـ[2]

ثم في الجار أحاديث :

منها : عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سيورثه » رواه البخاري ، ورواه أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما[3] .

وعن أبي شريح وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل : يا رسول الله ؛ ومن ؟ قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه » رواه البخاري[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يا نساء المسلمات ؛ لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسِن شاة » رواه البخاري[5] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . فلا يؤذ جاره » رواه البخاري[6] .

---

(١) النهر الماد (٣/ ٢٤٤ـ٢٤٥) .
(٢) شعب الإيمان (١٢/ ٨٢) .
(٣) البخاري (٦٠١٤) و(٦٠١٥) .
(٤) البخاري (٦٠١٦) .
(٥) البخاري (٢٥٦٦) . الفِرْسِن : هو للبعير موضع الحافر للفرس ، والمراد به هنا : عظم قليل اللحم .
(٦) البخاري (٦٠١٨) .

وعن أبي شريح العدوي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . فليكرم جاره » رواه البخاري[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ إن لي جارين ، فإلىٰ أيهما أهدي ؟ قال : « إلىٰ أقربهما منك باباً » رواه البخاري[2] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » رواه مسلم[3] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر ؛ إذا طبخت مرقة . . فأكثر ماءها ، ثم انظر أهل بيت من جيرانك ، فاغرف لهم منها » رواه مسلم[4] .

وفي رواية له : « إذا طبخت اللحم . . فأكثر المرق ، وتعاهد جيرانك »[5] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلىٰ جنبه »[6] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره »[7] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يأخذ هـٰؤلاء الكلمات ويعمل بهن ويعلمهن من يعمل بهن ؟ » قال أبو هريرة : قلت : أنا ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فعقد فيها خمساً : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلىٰ جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس

---

(١) البخاري (٦٠١٩) .
(٢) البخاري (٢٢٥٩) .
(٣) مسلم (٤٦) .
(٤) مسلم (١٤٣/٢٦٢٥) .
(٥) مسلم (١٤٢/٢٦٢٥) ولفظه : « إذا طبخت مرقة . . فأكثر ماءها . . » .
(٦) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٦٩٩) .
(٧) أخرجه ابن خزيمة (٢٥٣٩) ، وابن حبان (٥١٨) ، والحاكم (٤٤٣/١) ، والترمذي (١٩٤٤) ، وأحمد (١٦٧/٢) ، وغيرهم .

ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تقوم الليل ، وتصوم النهار ، وتفعل ، وتتصدق ، وتؤذي جيرانها بلسانها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا خير فيها ، هي من أهل النار » وقيل : وفلانة تصلي المكتوبة ، وتصدق بالأثوار ، ولا تؤذي أحداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هي من أهل الجنة »[2] .

الثور : القطعة من الأقط .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو جاره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اصبر » ثم أتاه الثانية ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اصبر » ثم أتاه الثالثة يشكو ، فقال له : « اصبر » ثم أتاه الرابعة يشكو ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « اطرح متاعك على الطريق ، أو في الطريق » فطرحه ، فجعل الناس يمرون عليه .

وفي رواية : فجعل لا يمر به أحد إلا قال له : شكوت جاري إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني أن أخرج متاعي علىٰ ظهر الطريق ، فجعل لا يمر به أحد إلا قال : اللهم ؛ العنه ، اللهم ؛ أخزه ، قال : فأتاه : فقال له : يا فلان ؛ ارجع إلىٰ منزلك ، فوالله لا أؤذيك أبداً[3] .

وفي رواية : فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ما لقيت من الناس ، قال : « وما لقيت منهم ؟ » قال : يلعنونني ، قال : « فلقد لعنك الله عز وجل قبل الناس » قال : فإني لا أعود يا رسول الله ، قال : فجاء الذي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ارفع متاعك ؛ فقد أمنت ـ أو ـ كفيت » .

وفي رواية : « إن لعنة الله فوق لعنتهم[4] » .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥) ، وأحمد (٢/ ٣١٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٢٤٠) ، وغيرهم .
(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (١١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٠٩٨) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠٠) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يحبهم الله عز وجل : رجل غزا في سبيل الله عز وجل صابراً محتسباً مجاهداً ، فلقي العدو ، فقاتل حتىٰ قتل ، ورجل له جار سوء يؤذيه فصبر علىٰ أذاه حتىٰ يكفيه الله إياه ، إما بحياة ، وإما بموت ، ورجل سافر مع قوم فأدلجوا حتىٰ إذا كانوا من آخر الليل . . وقع عليهم الكرىٰ ، وهو : النعاس ، فضربوا رؤوسهم ، ثم قام فتطهر رهبة لله ورغبة فيما عنده ، وثلاثة يبغضهم الله عز وجل : المختال الفخور ، والبخيل المنان ، والتاجر الحلاف ـ أو ـ البائع الحلاف »[١] .

وعن الزهري قال : حدثني من لا أتهم من الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب الله ورسوله . . فليصدق الحديث ، وليؤد الأمانة ، ولا يؤذ جاره »[٢] .

وعن المقداد ابن الأسود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره ، ولأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره »[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعوذوا بالله من مجاورة جار سوء ، إن رأىٰ خيراً . . كتمه ، وإن رأىٰ شراً . . أذاعه »[٤] .

وعن نافع بن [عبد] الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من سعادة المسلم المسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء »[٥] .

وفي رواية عن سعد : والزوجة الصالحة .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدري ما حق الجار ؟ إذا استعانك . . أعنته ، وإذا استقرضك . . أقرضته ، وإذا افتقر . . عدت عليه ، وإذا مرض . . عدته ، وإذا أصابه خير . . هنأته ، وإن أصابته مصيبة . . عزّيته ، وإذا مات . . اتبعت جنازته ، ولا تستطل عليه بالبناء تحجب عليه الريح ، ولا تؤذيه بريح

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠٤) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠٥) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠٧) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١١١) .

قدرك إلا أن تغرف له منها ، وإن اشتريت فاكهة . . فأهد له منها ، وإن لم تفعل . . فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده ما يبلغ حق الجار إلا قليل ممن رحمه الله » .

فما زال يوصيهم بالجار حتىٰ ظنوا أنه سيورثه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة : فمنهم من له ثلاثة حقوق ، ومنهم من له حقان ، ومنهم من له حق ، فأما الذي له ثلاثة حقوق . . فالجار المسلم القريب ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق القرابة ، وأما الذي له حقان . . فالجار المسلم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام ، وأما الذي له حق . . فالجار الكافر ، له حق الجوار »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ دلني علىٰ عمل إذا عملته . . دخلت الجنة ، فقال : « كن محسناً » قال : كيف أعلم أني محسن ؟ قال : « سل جيرانك ، فإن قالوا : أنت محسن . . فأنت محسن ، وإن قالوا : أنت مسيء . . فأنت مسيء »(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون إلا خيراً . . إلا قال الله عز وجل : قد قبلت قولكم ، وغفرت له ما لا تعلمون »(٣) .

روىٰ هـٰذه الأحاديث الإمام البيهقي في « شعب الإيمان »(٤) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مئة أهل بيت من جيرانه البلاء ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ رواه الهيثمي عن الطبراني في « الكبير »(٥) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما آمن

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١١٣) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٢٠) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٢١) .
(٤) شعب الإيمان (١٢/ ٨١ـ١١٠) .
(٥) مجمع الزوائد (٨/ ١٦٧) .

بي من بات شبعان وجاره جائع إلىٰ جنبه وهو يعلم » رواه الهيثمي عن الطبراني والبزار ، وقال : إسناد البزار حسن[1] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ اكسني ، فأعرض عنه ، فقال : يا رسول الله ؛ اكسني ، فقال : « أما لك جار له فضل ثوبين ؟ » قال : بلىٰ ، غير واحد ، قال : « فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة » رواه الهيثمي عن الطبراني[2] .

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال : يا رسول الله ؛ إني نزلت في محلة بني فلان ، وإن أشدهم لي أذىٰ أقربهم لي جواراً ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً يأتون المسجد فيقومون علىٰ بابه فيصيحون : ألا إن أربعين داراً جار ، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه . رواه الهيثمي عن الطبراني[3] .

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حق الجار أربعون داراً ، هٰكذا وهٰكذا وهٰكذا وهٰكذا ، يميناً وشمالاً ، وقدام وخلف »[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من اطلع في بيت جاره فنظر إلىٰ عورة أخيه المسلم ، أو شعر امرأته ، أو شيء من جسدها . . كان حقاً على الله أن يدخله النار » رواه الهيثمي عن الطبراني[5] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : « لا يصحبنا اليوم من آذىٰ جاره » فقال رجل من القوم : أنا بلت في أصل حائط جاري ، فقال : « لا تصحبنا اليوم » رواه الهيثمي عن الطبراني[6] .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٧٠) ، والمعجم الكبير (١/ ٢٥٩) .
(٢) مجمع الزوائد (٨/ ١٧١) ، والمعجم الأوسط (٧١٨١) .
(٣) مجمع الزوائد (٨/ ١٧٢) ، والمعجم الكبير (١٩/ ٧٣) .
(٤) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٩٨٢) .
(٥) مجمع الزوائد (٨/ ١٧٣) ، والمعجم الأوسط (٦٤٥٢) .
(٦) مجمع الزوائد (٨/ ١٧٣) ، والمعجم الأوسط (٩٤٧٥) .

خصمين يوم القيامة جاران » رواه الهيثمي عن أحمد[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أنت رميت كلب جارك . . فقد آذيته » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أراد الله به خيراً . . عسله » قيل : وما عسله ؟ قال : « يحببه إلىٰ جيرانه » ذكرهما في « الإحياء »[٢] .

قال ابن الأثير : (شبه ما رزقه الله من العمل الصالح الذي طاب به ذكره بالعسل الذي يجعل في الطعام فيحلو ويطيب) اهـ[٣]

ويقال : إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة ويقول : يا رب ؛ سل هٰذا ؛ لم منعني معروفه وسد بابه دوني . كذا في « الإحياء »[٤] ، ورواه في كتاب « عيون الأخبار » عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الآثار

بلغ ابن المقفع رحمه الله أن جاراً له يبيع داره في دين ركبه ، وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدماً ، فدفع إليه ثمن الدار وقال : لا تبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره ، فقيل له : لو اقتنيت هراً ، فقال : أخشىٰ أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلىٰ دار الجيران ، فأكون قد أحببت لهم ما لا أحبه لنفسي .

وجاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال : إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق علي ، فقال له : اذهب ، فإن هو عصى الله فيك . . فأطع الله فيه .

قال صلى الله عليه وسلم : « من آذىٰ جاره . . ورثه الله داره » .

قال الزمخشري : (ولقد عاينت هٰذا في مدة قريبة ، كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا فيها ، فمات ذلك العظيم ، وملكني الله ضيعته ، فنظرت يوماً إلىٰ أبناء خالي يترددون فيها ، ويدخلون في دورها ، ويخرجون ، ويأمرون ، وينهون ، فذكرت قول رسول الله عليه

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ١٧٣) ، ومسند أحمد (٤/ ١٥١) .

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٢ـ٢١٥) ، قال العراقي رحمه الله عن حديث : « إذا أنت رميت . . . » : (لم أجد له أصلاً) وقال عن حديث : « من أراد الله به خيراً . . . » : (رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق ») .

(٣) النهاية (٣/ ٢٣٧) .

(٤) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٣) .

الصلاة والسلام وحدثتهم به ، فسجدنا شكراً لله تعالىٰ)[1] .

وقال مجاهد : كنت عند ابن عمرو رضي الله عنهما وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام ؛ إذا سلخت . . فابدأ بجارنا اليهودي ، حتىٰ قال ذلك مراراً ، فقال له : كم تقول هـٰذا ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار[2] .

وقال هشام : كان الحسن لا يرىٰ بأساً أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك .

ورأى الصديق ولده عبد الرحمـٰن رضي الله عنهما وهو يماظُّ جاراً له ، فقال له : لا تماظِّ جارك ، فإنه يبقىٰ والناس يذهبون[3] .

قال ابن الأثير : (المماظَّة : شدة المنازعة والمخاصمة مع طول اللزام) اهـ[4]

وقال الحسن بن عيسى النيسابوري : سألت عبد الله بن المبارك وقلت : الرجل المجاور يأتيني ويشكو غلامي أنه أتىٰ إليه أمراً ، والغلام ينكر ، فأكره أن أضربه ، ولعله بريء ، فأكره أن أدعه ، فيجد علي جاري ، فكيف أصنع ؟ فقال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثاً فيستوجب الأدب فاحفظ عليه ، فإذا شكاه جارك . . فأدبه علىٰ ذلك الحدث .

قال الإمام الغزالي : (وهـٰذا تلطف في الجمع بين الحقين)[5] .

وعن عمران بن سليم التميمي قال : بلغني أن لقمان قال لابنه : يا بني ؛ قد حملت الحجارة والحديد والحمل الثقيل ، فلم أحمل شيئاً قط أثقل من جار السوء ، يا بني ؛ قد ذقت المر كله ، فلم أذق شيئاً قط أمر من الفقر[6] .

* * *

---

(١) الكشاف (٢/ ٥١٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١١٦) .
(٣) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٦٩٩) .
(٤) النهاية (٤/ ٣٤٠) .
(٥) الإحياء (٢/ ٢١٤) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٩١٠٨) .

فَصْلٌ

في حق المالك علىٰ مملوكه والمملوك علىٰ مالكه

عن علي رضي الله عنه قال : كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم »[(١)] .

قال الإمام البيهقي : (قال الحليمي : أوصى الله تبارك وتعالىٰ عباده ، ثم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بالمماليك كالإيصاء بالوالدين والجيران ، وكالإيصاء بالصلاة ، فدل ذلك علىٰ وجوب الإحسان إليهم ، وترك التحامل بالجور عليهم .

فمن ذلك : ألا يقول أحد للذكر منهم : عبدي ، بل يقول : فتاي ، ولا يقول للأنثىٰ : أمتي ، بل يقول : فتاتي ، وبذلك جاء الخبر[(٢)] .

ولا يكلفه ما لا يطيق ، ولا يجوعه ، ولا يعريه ، ولا يعذبه من غليظ القول بما يشق عليه ، ولا من الضرب بما ينهكه ، إلا أن يصيب حداً فيقيمه عليه) اهـ[(٣)]

فإذا تقرر ذلك . . فلنورد طرفاً من الأحاديث الواردة في حق المملوك علىٰ مالكه ، وفي حق المالك علىٰ مملوكه .

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « للمملوك طعامه وكسوته ، ولا يكلف من العمل ما لا يطيق »[(٤)] .

وعن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حلة ، وعلىٰ غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ، فقال : إني ساببت رجلاً فعيرته بأمه ، فشكاني إلىٰ رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (١٥٨) ، وابن حبان (٦٦٠٥) ، والضياء في « المختارة » (٨٠٦) ، وأبو داوود (٥١٥٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١١) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) .

(٣) شعب الإيمان (١١/ ٧٠ ـ ٧١) ، وانظر كلام الحليمي رحمه الله في « المنهاج » (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) .

(٤) أخرجه مسلم (١٦٦٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٩٢) ، وابن حبان (٤٣١٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٦) ، وأحمد (٢/ ٢٤٧) ، وغيرهم .

صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعيرته بأمه ؟ » فقلت : نعم ، فقال : « إنك امرؤ فيك جاهلية ، إخوانكم خَوَلُكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده . . فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم . . فأعينوهم »(١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لاءمكم من مملوككم . . فأطعموه مما تأكلون ، واكسوه مما تلبسون ، ومن لا يلائمكم منهم . . فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله »(٢) .

قال الإمام أحمد : (هٰذا هو [الأصل ، و] الأفضل أن يسوي بين طعامه وطعام رقيقه ، وبين كسوته وكسوة رقيقه ، فإن لم يفعل . . فله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نفقته وكسوته بالمعروف)(٣) .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : (والمعروف عندنا : المعروف لمثله في بلده الذي يكون فيه)(٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء خادم أحدكم بطعام . . فليجلسه معه ، فإن لم يفعل . . فليناوله أكلة أو أكلتين ، أو لقمة أو لقمتين ؛ فإنه ولي حَرِّه وعلاجه »(٥) .

وفي رواية : « إذا صنع لك طعاماً . . فأجلسه معك ، فإن أبىٰ . . فأطعمه ، ولا تضربوا وجوههم »(٦) .

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : كنت أضرب غلاماً لي ، فسمعت من خلفي صوتاً : « اعلم أبا مسعود ؛ لله أقدر عليك منك عليه » فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ؛ هو حر لوجه الله تعالىٰ ، فقال : « أما إنك لو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠) ، ومسلم (١٦٦١) . والخَوَل : الخدم .
(٢) أخرجه أبو داوود (٥١٦١) ، وأحمد (٥/ ١٦٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٠٠) .
(٣) نقله البيهقي في « الشعب » (١١/ ٧٤) .
(٤) الأم (٦/ ٢٦٣) .
(٥) أخرجه البخاري (٥٤٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٠٥) .
(٦) أخرجه الطيالسي في « مسنده » (ص ٣١٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٠٦) .

لم تفعل . . للفحتك النار » أو قال : « لمسَّتك النار »[١] .

وعن سويد بن مقرن رضي الله عنه قال : لقد رأيتني وأنا سابع سبعة أخوة علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما لنا إلا خادم واحد ، قال : فلطمه أحدنا ، قال : فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعتقه[٢] .

وفي رواية : قالوا : ليس لهم خادم غيرها ، قال : « فليستخدموها ، فإذا استغنوا . . فليخلوا سبيلها »[٣] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لطم مملوكه أو ضربه حداً لم يأته . . فكفارته أن يعتقه »[٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « من قذف مملوكه بالزنا . . أقام الله عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال »[٥] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل سائل كل راع عما استرعىٰ ، حفظ ذلك أم ضيع »[٦] .

وعن رافع بن مكيث رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سوء الخلق شؤم ، وحسن الملكة نماء ، والصدقة تدفع ميتة السوء »[٧] .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة سيء الملكة ، ملعون من ضار مسلماً أو ماكره »[٨] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا

---

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (١٧١) ، ومسلم (١٦٥٩) ، وأبو داوود (٥١٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٠٨) .

(٢) أخرجة مسلم (١٦٥٨/ ٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٠٩) .

(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٨/ ٣١) ، وأبو داوود (٥١٦٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٢) .

(٤) أخرجه مسلم (١٦٥٧/ ٣٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٠) .

(٥) أخرجه البخاري (٦٨٥٨) ، ومسلم (١٦٦٠) .

(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢١٢) .

(٧) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢١٤) .

(٨) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢١٥) .

ضرب أحدكم خادمه فذكر اسم الله . . فليمسك »[١] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما حق امرأتي علي ؟ قال : « تطعمها مما تأكل ، وتكسوها مما تكتسي » قال : فما حق جاري علي ؟ قال : « تُفْرِشُهُ معروفك ، وتكف عنه أذاك » قال : فما حق خادمي علي ؟ قال : « هو أشد الثلاثة عليك يوم القيامة »[٢] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ؛ كم نعفو عن العبد في اليوم ؟ قال : « سبعين مرة »[٣] .

وقال ابن المنكدر : إن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له ، فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسالك بوجه الله ـ مراراً ـ فسمع النبي صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أمسك يده فقال صلى الله عليه وسلم : « سألك بوجه الله تعالىٰ فلم تعفه ، فلما رأيتني . . أمسكت يدك! » قال : فإنه حر لوجه الله تعالىٰ يا رسول الله، فقال : « لو لم تفعل . . لسفعت وجهك النار » .

وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي كل يوم سبت ، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه . . وضع عنه[٤] .

ويروىٰ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأىٰ رجلاً علىٰ دابته وغلامه يسعىٰ خلفه ، فقال له : يا عبد الله ؛ احمله ، فإنما هو أخوك ، روحه مثل روحك ، فحمله ، ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مُشي خلفه[٥] .

وقالت جارية لأبي الدرداء : إني سممتك منذ سنة وما عمل فيك شيئاً ، قال : لم فعلت

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٢٠) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٢١) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢١٩) .
(٤) أخرجه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٢٧) .
(٥) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩٥) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٢٦٣) ، وليس عندهما هنا أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : لا يزال العبد يزداد . . . والقائل هو أبو الدرداء رضي الله عنه كما أخرجه ابن المبارك أيضاً في « الزهد » (٣٩٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١١٧) فليتنبه .

ذلك ؟ قالت : أردت الراحة منك ، قال : اذهبي ؛ فأنت حرة لوجه الله تعالىٰ .

وقال الزبير رضي الله عنه : متىٰ قلت للمملوك : أخزاك الله . . فهو حر .

وقيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، قيل : فما بلغ من حلمه ؟ قال : بينا هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسَفُّود عليه شواء(١) ، فسقط السَّفُّود من يدها على ابن له فعقره فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : لا يسكن روع هٰذه الجارية إلا العتق ، أنت حرة لا بأس عليك .

وكان عون بن عبد الله رحمه الله إذا عصاه غلامه . . يقول ما أشبهك بمولاك ، مولاك يعصي مولاه ، وأنت تعصي مولاك(٢) .

وأغضبه يوماً ، فقال : إنما تريد أن أضربك ؟ اذهب ؛ فأنت حر لوجه الله تعالىٰ .

وكان عند ميمون بن مهران ضيف ، فاستعجل علىٰ خادمة بالعشاء ، فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقتها علىٰ رأس سيدها ميمون ، فقال : يا جارية ؛ أحرقتني ، قالت : يا معلم الخير ، ومؤدب الناس ؛ ارجع إلىٰ ما قال الله تعالىٰ ، قال : وما قال ؟ قالت : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ : قد كظمت غيظي ، قالت : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ قال : قد عفوت عنك ، قالت زد : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : أنت حرة لوجه الله تعالىٰ .

وعن أبي عمرو بن العلاء قال : زرت يوماً العلاء بن زيد(٣) ، فأقمت يومي عنده إلى المساء ، فرأيت له غلاماً يخدمه ما رأيت غلاماً أقل طاعة وأكثر خلافاً لمولاه منه ، فقلت له : أبا مسلم(٤) ؛ ما تصنع بهٰذا ؟ أبعده ، أو بعه واستبدل به ، فقال لي : والله ما أمسكه إلا لخلة ، قلت : وما هي ؟ قال : أتعلم عليه الحلم(٥) .

ثم إنه يلزم العبد ملازمة سيده ، وإقامته حيث يراه ويأمره به ، وطاعته له في ما يطيقه ، فإذا استعصى العبد علىٰ مولاه . . فإنما يعصي الله تعالىٰ ؛ لأنه هو الحاكم عليه بالملك

---

(١) السَّفُّود : الحديدة التي يشوىٰ بها اللحم .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٧) .

(٣) كذا في النسخ ، وفي « الشعب » : (العلاء بن زبر) .

(٤) كذا في النسخ ، وفي « الشعب » : (أبا سالم) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٣٠) .

لسيده ، وقد قال الله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ .

وروي عن جرير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد أبق . . فقد برئت منه الذمة »[1] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أبق العبد . . لم تقبل له صلاة حتىٰ يرجع إلىٰ مواليه »[2] .

وفي رواية : « أيما عبد أبق من مواليه فقد كفر حتىٰ يرجع إليهم »[3] .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد مات في إباقه . . دخل النار وإن قتل في سبيل الله »[4] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . . . والعبد راع علىٰ مال سيده وهو مسؤول عنه »[5] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه . . فله أجره مرتين »[6] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم] : « للعبد المملوك المصلح أجران »[7] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعما للعبد أن يتوفاه الله يحسن عبادة ربه وطاعة سيده ، نعما له »[8] .

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٢٠٤) ، وأحمد (٤/ ٣٥٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٥٢) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٩٤١) ، والنسائي (٧/ ١٠٢) .

(٣) أخرجه مسلم (٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٣٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٣٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٩٢٢٨) والبيهقي في « الشعب » (٨٢٣٦) ، والحديث عندهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وليس عن جرير رضي الله عنه كما في النسخ . فليتنبه .

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٥٤) ، ومسلم (١٨٢٩) .

(٦) أخرجه البخاري (٢٥٤٦) ، ومسلم (١٦٦٤) .

(٧) أخرجه البخاري (٢٥٤٨) ، ومسلم (١٦٦٥) ، وعند البخاري « الصالح » بدل « المصلح » .

(٨) أخرجه مسلم (١٦٦٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ١٢) ، وأحمد (٢/ ٢٧٠) ، وغيرهم .

وعن مرة عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول من يقرع باب الجنة عبد أدىٰ حق الله وحق مواليه »[1] .

وقال أبو رافع : مر بي عمر بن الخطاب وأنا أصوغ وأقرأ القرآن ، فقال : يا أبا رافع ؛ لأنت خير من عمر ، تؤدي حق الله وحق مواليك[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يحاسب عبده المملوك يوم القيامة بما ضيع من صلاته ، قال : فيقول : يا رب ؛ سلطت علي مليك سوء كان ينهاني عن الصلاة لك ، وعن العبادة لك ، فيقول الله عز وجل : قد رأيتك سرقت من ماله ، ألا سرقت لي من عملك »[3] .

فائدة عارضة فيمن يكره من جنس الرقيق

عن أبي هريرة قال : جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « من أين أنت ؟ » قال : بربري ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قم عني » قال بمرفقه هـٰكذا ، فلما قام عنه . . أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الإيمان لا يجاوز حناجرهم » رواه أحمد[4] .

قال الهيثمي : (وفيه عبد الله بن نافع ، وهو متروك ، وقال ابن معين : يكتب حديثه)[5] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أخرج صدقة فلم يجد إلا بربرياً . . فليردها » رواه أحمد[6] .

قال الهيثمي : (وفيه ابن لهيعة ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات)[7] .

---

(١) أخرجه الطيالسي في « مسنده » (ص ٣ ـ ٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٤٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٢٤٧) ، والذي في النسخ : (عن عمرة عن أبي بكر . . .) ، والمثبت من المراجع .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٤٩) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٢٥١) .

(٤) المسند (٢/ ٣٦٧) .

(٥) مجمع الزوائد (٤/ ٢٣٧) .

(٦) المسند (٢/ ٢٢١) .

(٧) مجمع الزوائد (٤/ ٢٣٧) .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخبث سبعون جزءاً ، فجزء في الجن والإنس ، وتسعة وستون في البربر » رواه الطبراني في « الأوسط »[١] .

وفي رواية عنده : « قسم الله الخبث علىٰ سبعين جزءاً ، فجعل في البربر تسعة وستين جزءاً ، وللناس جزءاً واحداً »[٢] .

قال الهيثمي : (في إسناد الأول عبد الله بن صالح كاتب الليث ، وقد ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، وبقية رجاله ثقات)[٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا خير في الحبش ، إن جاعوا . . سرقوا ، وإن شبعوا . . زنوا ، وإن فيهم لخصلتين : إطعام الطعام ، وبأس عند البأس » رواه البزار .

قال الهيثمي : (ورجاله ثقات)[٤] .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ابتاع أحدكم الجارية . . فليكن أول ما يطعمها الحلواء ؛ فإنه أطيب لنفسها » رواه الطبراني في « الأوسط »[٥] .

قال الهيثمي : (وإسناده أقل درجاته الحسن)[٦] .

وفي « الإحياء » : (قال صلى الله عليه وسلم : « إذا ابتاع أحدكم الخادم . . فليكن أول شيء يطعمه الحلو ؛ فإنه أطيب لنفسه »)[٧]

تنبيه

إن قال قائل : كتابك هـٰذا موضوع لحقوق الوالدين والأرحام ، فلم ذكرت الإخوة والجار والمملوك ؟

---

(١) المعجم الأوسط (٨٦٦٧) .
(٢) المعجم الأوسط (٨٦٦٨) .
(٣) مجمع الزوائد (٤/ ٢٣٧) .
(٤) مجمع الزوائد (٤/ ٢٣٨) .
(٥) المعجم الأوسط (٦٠٦٦) .
(٦) مجمع الزوائد (٤/ ٢٣٩) .
(٧) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٢٠) .

قلت : لأني لم أجد في ذلك كتاباً أعتمده ، وحقوق الوالدين كثيرة غير منحصرة ، ورأيت الإمام الغزالي ذكر في « الإحياء » حقوق الإخوة والصحبة ، ثم حقوق المسلم على المسلم ، ثم حقوق الجار ، ثم حقوق الرحم ، ثم ذكر حقوق الوالدين ، ثم قال : (وكيفية القيام بحقهما تعرف مما ذكرناه في حق الأخوة ، فإن هـٰذه الرابطة آكد من حق الأخوة) اهـ[1]

فمن عرف هـٰذه الحقوق المفصلة . . عرف أن للوالدين أكثر من ذلك ، فكان فائدة ذكري لذلك معرفة حقوقهما مفصلة غير مجملة ، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٨) .



الباب الثامن

في التوبة
وفقنا الله تعالىٰ لها وختم لنا بها آمين

اعلم أن التوبة من الذنوب الصغائر والكبائر واجبة على الفور ، وهي أول مقامات السالكين ، ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم الفقر ، ثم الصبر ، ثم التوكل ، ثم القناعة ، ثم الرضا ، وهـٰذه هي المقامات ، ثم ينتقل العبد منها إلى الأحوال .

والفرق بين المقام والحال : أن المقام مقام العبد بظاهره وباطنه في حقائق الطاعات ، والحال نازلة تنزل بالقلب ، فلا تدوم .

فإذا تاب العبد . . اقتضت التوبة الورع ، وهو يقتضي الزهد ، وهو يقتضي معانقة الفقر واختياره ، وهو يقتضي الصبر ، والصبر يقتضي التوكل ، وهو يقتضي القناعة ، وإذا قنع . . رضي ، وهو آخر المقامات ، وهو مقام شريف ، قال الله تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ .

وقال : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ .

والرضا : هو أن يكون العبد ساكناً تحت ما حكم الله تعالىٰ .

وسئل الجنيد عن الرضا فقال : الرضا رفع الاختيار .

وقال ذو النون : الرضا سرور القلب بمر القضاء .

وقال ابن عطاء : الرضا نظر القلب إلىٰ قديم اختيار الله تعالىٰ للعبد ؛ لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل ، فيرضىٰ به ويترك السخط .

ولهم نفعنا الله بهم عبارات كثيرة ، وكل عبر عن مقتضىٰ حاله .

ثم بعد الرضا أحوال ، فأولها : المراقبة ، ثم القرب ، ثم المحبة ، ثم الخوف

والرجاء ، ثم الشوق ، ثم الأنس ، ثم الطمأنينة ، ثم المشاهدة ، ثم اليقين ، وغير ذلك من المواهب الربانية .

وهٰذه المقامات والأحوال لها شروط وأركان وآداب ، وهي مبسوطة في كتب القوم ، وإنما ذكرناها ؛ استطراداً لذكر التوبة التي هي مقصود هٰذا الباب ، ثم نرجع إلى المقصود ، فأقول :

اعلم أنه ورد في الأمر بالتوبة والحث عليها آيات كثيرة من كتاب الله العزيز ، ولٰكني أقتصر علىٰ بعضها ، وأحاديث من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وآثار عن الصحابة والتابعين والعلماء العاملين ، وسنذكر ذلك في فصول :

الفصل الأول

فيما ورد في ذلك من كتاب الله العزيز

قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

قال الواحدي : (أي توبوا عما كنتم تعملون في الجاهلية ، والمعنىٰ : راجعوا طاعته فيما أمركم ونهاكم)[١] .

وقال أبو حيان : (لما سبقت من الله تعالىٰ أوامر ومَناهٍ ، وكان الإنسان لا يكاد يقدر علىٰ مراعاتها دائماً وإن ضبط نفسه واجتهد ، فلا بد من تقصير . . أمر بالتوبة وترجي الفلاح إذا تاب) اهـ[٢]

وقال القشيري : (التوبة الرجوع عن المذمومات من الأفعال إلىٰ أضدادها المحمودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبة من الزلة وهي توبة العوام ، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص ، وتوبة من محاذرة العقوبة ، وتوبة عن ملاحظة الأمر .

ويقال : أمر الكافة بالتوبة ؛ والعاصين بالرجوع إلى الطاعة ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلىٰ رؤية التوفيق ، وخاص الخاص من رؤية التوفيق إلىٰ رؤية الموفق .

ويقال : أمر الكل بالتوبة ؛ لئلا يخجل العاصي في الرجوع بانفراده .

ويقال : مساعدة الأقوياء مع الضعفاء رفقاً بهم من أمارات الكرم .

وقوله تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أمرهم بالتوبة ؛ لينتفعوا هم بذلك ، لا ليكون للحق سبحانه وتعالىٰ بتوبتهم وطاعتهم تجمُّل ، وأحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس يحتاج إليها) اهـ[٣]

---

(١) الوسيط (٣/ ٣١٧) .

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠) .

(٣) لطائف الإشارات (٢/ ٦٠٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

قال الإمام الواحدي : (المفسرون كلهم قالوا : إن هٰذه الآية نزلت في قوم خافوا إن أسلموا ألاّ يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام ، فأنزل الله تعالىٰ هٰذه الآية ، وفرح النبي صلى الله عليه وسلم بها ، ورآها أصحابه من أوسع الآيات في مغفرة الذنوب) اهـ[1]

وقال الإمام أبو حيان : (هٰذه الآية عامة في كل كافر يتوب ، ومؤمن عاص يتوب تمحو الذنب توبته .

وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ عام يراد به ما سوى الشرك .

وفي قوله : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ بإضافتهم إليه وندائهم إقبال وتشريف .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي : بالمعاصي .

والمعنىٰ : أن ضرر تلك الذنوب إنما هو عائد عليهم ، والنهي عن القنوط يقتضي الأمر بالرجاء ، وإضافة الرحمة إلى الله تعالى التفات من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب ؛ لأن في إضافتها إليه سعة الرحمة إذا أضيفت إلى الله تعالى الذي هو أعظم الأسماء ؛ لأنه العلم المحتوي علىٰ جميع الأسماء .

ثم أعاد الاسم الأعظم ، وأكد الجملة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ مبالغة في الوعد بالغفران ، ثم وصف نفسه بما سبق في الجملتين من الرحمة والغفران بصفتي المبالغة ، وأكد بلفظ ﴿ هُوَ ﴾ المقتضي عند بعضهم الحصر .

ولما كانت هٰذه الآية فيها فسحة عظيمة للمسرف . . أتبعها بأن الإنابة ـ وهي الرجوع ـ مطلوبة ومأمور بها .

ثم توعد من لم يتب بالعذاب حتىٰ لا يبقى المرء كالمنهمل من الطاعة والمتكل على الغفران دون إنابة) اهـ[2]

---

(١) الوسيط (٣/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧) .
(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٣٤) .

قال الإمام القشيري : (التسمية بـ ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ مدح ، والوصف بأنهم أسرفوا ذم ، فلما قال : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ﴾ . . طمع المطيعون فرفعوا رؤوسهم ، ونكس العاصي رأسه ، قال : من أنا حتىٰ يقول لي هـٰذا ، فقال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ .

فانقلب الحال ، فالذين نكسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذلتهم ، والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صولتهم .

ثم أزال الأعجوبة عن القصة بما قوىٰ رجاءهم بقوله : ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ يعني : إن أسرفت . . فعلىٰ نفسك أسرفت .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الألف واللام للاستغراق والعموم ، وذنوب جمع و ﴿ جَمِيعًا ﴾ تأكيد ، فكأنه قال : أغفر ولا أترك ، وأعفو ولا أبقي .

ويقال : إذا كانت لكم جناية كبيرة عميمة . . فلي بشأنكم عناية قديمة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ الإنابة : الرجوع بالكلية .

وقيل : الفرق بين الإنابة والتوبة : أن التائب يرجع خوف العقوبة ، وصاحب الإنابة يرجع استحياء لكرمه .

قوله : ﴿ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ أي : أخلصوا في طاعتكم ، والإسلام الذي هو الإخلاص بعد الإنابة : أن يعلم أن نجاته بفضله لا بإنابته ، فبفضله يصل إلى الإنابة لا بإنابته يصل إلىٰ فضله) اهـ [١]

وقال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ .

التوبة النصوح : هي ترك العود إلىٰ ما تاب منه .

قال أبو زيد : توبة نصوح صادقة ، يقال : نصحته ؛ أي : صدقته .

وروىٰ عكرمة عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ؛ ما التوبة النصوح ؟ قال : أن يتوب التائب ثم لا يرجع في ذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع [٢] .

---

(١) لطائف الإشارات (٣/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٨/ ٢٢٧) وعزاه لابن مردويه .

وقال ابن مسعود : التوبة النصوح تكفر كل سيئة ، وهو في القرآن ، ثم قرأ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾[1] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

والمراد بـ(الفاحشة) هنا : الزنا .

وقوله : ﴿ أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ قال مقاتل والكلبي : هو ما دون الزنا .

قال الإمام القشيري : (قوله : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ معناه إلىٰ عمل يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمر شديد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة »[2] .

وإنما توجب المغفرةَ التوبةُ ؛ لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران ، والناس في المسارعة علىٰ أقسام : فالعابدون يسارعون بقدمهم في الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرع الحسرات .

فمن سارع بقدمه .. وجد مثوبته ، ومن سارع بهممه .. وجد قربته ، ومن سارع بندمه .. وجد رحمته .

ولما ذكر الجنة .. وصفها بسعة العرض ، وفيه تنبيه على الطول ؛ فإن الطول في مقابلة العرض ، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول ولا العرض ، فقوم قالوا : المغفرة من صفات الذات ، وهو بمعنى : الرحمة .

فعلىٰ هـٰذا : مغفرته حكمه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه ، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض .

ومن قال : مغفرته من صفات فِعْله .. قال : لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية ، إشارة إلى استغراقه لجميع الذنوب .

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٤٠١) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهـٰذا في معاملة الحق ، وأما في معاملة الخلق . . فالإحسان : أن تدع جميع حقك بالكلية كم كان علىٰ من كان ، وتقبل بقبوله منّةً ، ولا تقلده في ذلك منّةً .

أوحى الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ : قل للظلمة لا يذكروني ؛ فإني قد أوجبت أن أذكر من ذكرني ، وذكري للظلمة باللعنة[1] .

وقال لظلمة هـٰذه الأمة : ﴿ أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ . . . إلىٰ آخر الآية .

ويقال : فاحشة كل أحد علىٰ حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم) اهـ كلام الإمام القشيري[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

قال الإمام الغزالي : (كان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ، فذهب أحدهما وهو كون رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، وبقي الاستغفار معنا ، فإن ذهب . . هلكنا)[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٧/ ٤٦٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٧٩) بلفظ : (أوحى الله عز وجل إلىٰ داوود . . .) .

(٢) انظر « لطائف الإشارات » (١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٩) .

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٧) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ إخباراً عن موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالىٰ إخباراً عن داوود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

وقال إخباراً عن أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

وأخبر سبحانه عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه تاب عليه فقال : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال تعالىٰ في آدم عليه السلام : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو جمع بكاء أهل الدنيا إلىٰ بكاء داوود . . لكان بكاؤه أكثر ، ولو جمع ذلك إلىٰ بكاء نوح . . لكان أكثر ، وإنما سمي نوحاً ؛ لنوحه علىٰ نفسه ، ولو جمع ذلك كله إلىٰ بكاء آدم علىٰ خطيئته . . لكان أكثر » .

قال وهب : إنه لما كثر بكاؤه . . أمره تعالىٰ بأن يقول : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين ، فقالها آدم ، ثم قال : قل : سبحانك لا إله إلا أنت عملت سوءاً فارحمني وأنت خير الراحمين ، ثم قال : قل : سبحانك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم .

قال ابن عباس : هن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

قاله الإمام الرازي في تفسير (سورة طه)[1] .

وقال في تفسير (سورة البقرة) : (اختلفوا في تلك الكلمات التي تلقاها ما هي ، فروىٰ سعيد بن جبير عن ابن عباس أن آدم قال : يا رب ؛ ألم تخلقني بيدك بلا واسطة ؟ قال : بلىٰ ، قال : يا رب ؛ ألم تنفخ في من روحك ؟ قال : بلىٰ ، قال : ألم تسكني جنتك ؟ قال : بلىٰ ، قال : فهو قوله تعالىٰ : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ .

وزاد السدي فيه : يا رب ؛ هل كنت كتبت علي ؟ قال : نعم .

قال النخعي : أتيت ابن عباس فقلت : ما الكلمات التي تلقىٰ آدم من ربه ؟ قال :

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/١٢٩) .

علم الله آدم وحواء أمر الحج فحجا ، وهي الكلمات التي تقال في الحج ، فلما فرغا . . أوحى الله إليهما بأني قبلت توبتكما .

وقال مجاهد وقتادة في إحدى الروايتين عنهما : قوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : إنها قول : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ إلىٰ آخر الذكر المتقدم .

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما أراد الله تعالىٰ أن يتوب علىٰ آدم عليه السلام . . طاف بالبيت سبعاً ، والبيت يومئذ ربوة حمراء ، فلما صلىٰ ركعتين . . استقبل البيت وقال : اللهم ؛ إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي ، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي ، اللهم ؛ إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ، ويقيناً صادقاً حتىٰ أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي ، ورضني بما قسمت لي .

فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ آدم : يا آدم ؛ قد غفرت لك ذنبك ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به . . إلا غفرت ذنبه ، وكشفت همومه وغمومه ، ونزعت الفقر من بين عينيه ، وجاءته الدنيا وهو لا يريدها) اهـ[١]

وقال الإمام الواحدي في الرواية الأولىٰ : (عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه عليه السلام قال : يا رب ؛ ألم تخلقني بيدك ؟ قال : بلىٰ ، قال : ألم تنفخ فيَّ من روحك ؟ قال : بلىٰ ، قال : ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلىٰ ، قال : ألم تسكني جنتك ؟ قال : بلىٰ ، قال : فلم أخرجتني منها ؟ قال : بشؤم معصيتك ، فقال : يا رب ؛ أرأيت إن تبت وأصلحت . . أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال : نعم ، قال : فهـٰؤلاء الكلمات) اهـ[٢]

وقال أبو حيان : (اختلفوا في تعيين الكلمات ، وقد أبهمها الله تعالىٰ ، وقال في « سورة الأعراف » : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ولا يبعد أن تكون هي الكلمات .

وقوله تعالىٰ : ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي : تفضل عليه بقبول توبته ، وأخبر عنه وحده ؛ لأنه

---

(١) تفسير الرازي (٣/ ١٩ ـ ٢٠) .
(٢) الوسيط (١/ ١٢٥) .

المواجه بالأمر والنهي ، وهي تابعة له ، أو طوىٰ ذكرها كما طوي في قوله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ وطي ذكر النساء في القرآن والسنة كثير)[1] .

وقال الإمام القشيري رحمه الله تعالىٰ : (قوله تعالىٰ : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ جرىٰ علىٰ لسان آدم مع الحق سبحانه كلمات ، وأسمع الحق سبحانه آدم كلمات ، وأنشدوا : [من الوافر]

إذا خفنا من الرقباء عيناً تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحق سبحانه وتعالى القول في ذلك إجمالاً ، إما لتبقى القصة مستورة ، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح) اهـ[2]

وقال الشيخ تقي الدين السبكي في كتابه « السيف المسلول » : (روى الحاكم في « المستدرك » والبيهقي في « دلائل النبوة » أن آدم عليه السلام قال : يا رب ؛ أسألك بمحمد إلا غفرت لي ، فقال الله تعالىٰ : يا آدم ؛ وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟! فقال : يا رب ؛ إنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك.. رفعت رأسي فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله عز وجل : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلي ، وإذ سألتني بحقه.. فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك . قال الحاكم : هـٰذا صحيح الإسناد[3] .

وفي « المستدرك » أيضاً عن ابن عباس قال : أوحى الله عز وجل إلىٰ عيسىٰ عليه السلام : يا عيسىٰ ؛ آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك يؤمنوا به ، فلولا محمد.. ما خلقت آدم ، ولولا محمد.. ما خلقت الجنة والنار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فسكن . هـٰذا حديث صحيح الإسناد) اهـ[4]

وما رواه الحاكم والبيهقي من أن آدم توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم.. هو عند بعضهم تأويل قوله تعالىٰ : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ .

---

(١) النهر الماد (١/ ١٦٢ ـ ١٦٣) .
(٢) لطائف الإشارات (١/ ٨٢) .
(٣) المستدرك (٢/ ٦١٥) ، ودلائل النبوة(٥/ ٤٨٨) .
(٤) السيف المسلول (ص ٤٧٧ ـ ٤٨١) ، وانظر « المستدك » (٢/ ٦١٤) .

وقال السبكي في كتابه « شفاء السقام » : (اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ ، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين ، المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين ، ولم ينكره أحد من أهل الأديان ، ولا سمع بإنكاره في زمن من الأزمان ، فيجوز التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل خلقه ، وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا ، وبعد موته في مدة البرزخ ، وبعد البعث في عرصات القيامة ، وفي الجنة ، بمعنىٰ : أن طالب الحاجة يسأل الله تعالىٰ به ، أو بجاهه ، أو ببركته فيقول : اللهم ؛ إني أستشفع به ، أو أتوسل به ، أو أسألك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، أو بجاهه أو بحقه .

والمراد بـ « الحق » : المرتبة والمنزلة ، أو الحق الذي جعله الله تعالىٰ له على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله تعالىٰ بفضله له عليه ، كما في الحديث الصحيح : « فما حق العباد على الله تعالى ؟ »[1] .

وليس المرادُ بالحق الواجبَ ؛ فإنه لا يجب على الله شيء ، وقد ورد بذلك آثار عن الأنبياء الماضين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فمنها : الحديثان المرويان عن الحاكم في « المستدرك »[2] .

ومنها : ما رواه أبو عيسى الترمذي في « جامعه » في « كتاب الدعوات » عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ادع الله أن يعافيني ، قال : « إن شئت . . دعوت ، وإن شئت . . صبرت فهو خير لك » قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهٰذا الدعاء : « اللهم ؛ إني أسالك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد ؛ إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي ؛ لتقضىٰ لي ، اللهم ؛ شفعه فيّ » قال الترمذي : هٰذا حديث حسن غريب[3] .

ورواه البيهقي في « دلائل النبوة » ثم قال البيهقي : زاد محمد بن يونس في روايته فقال : فقام وقد أبصر .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦) ، ومسلم (٣٠) .
(٢) المستدرك (٢/ ٦١٤ ـ ٦١٥) .
(٣) الترمذي (٣٥٧٨) .

قال البيهقي : ورويناه في « كتاب الدعوات » بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة قال : ففعل الرجل فبرأ .

قال : وكذلك رواه حماد بن سلمة عن أبي جعفر .

ثم روىٰ بإسناده إلىٰ عثمان بن حنيف قال : قال عثمان : فوالله ؛ ما تفرقنا ولا طال الحديث . . حتىٰ دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط) اهـ[1]

وقال الإمام أبو طالب المكي في كتابه « قوت القلوب » : (حدثونا في الإسرائيليات أن رجلاً عصى الله عز وجل مئتي سنة في كلها يتمرد ويجترىء على الله ، فلما مات . . أخذ بنو إسرائيل برجله فألقوه علىٰ مزبلة ، فأوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ عليه السلام ؛ أن : اغسله وكفنه وصل عليه في جميع [بني] إسرائيل ، ففعل ما أمر به ، فعجب بنو إسرائيل من ذلك ، فأخبروه أنه لم يكن في جميع بني إسرائيل أعتىٰ على الله منه ولا أكثر معاصي منه ، فقال : قد علمت ، ولـٰكن الله عز وجل أمرني بذلك ، فقالوا : فسل لنا ربك عز وجل ، فسأل موسىٰ ربه فقال : يا رب ؛ قد علمت ما قالوا ، فأوحى الله عز وجل إليه ؛ أن : قد صدقوا ، إنه قد عصاني مئتي سنة ، إلا أنه يوماً من الأيام فتح التوراة فنظر إلى اسم محمد فقبله ووضعه علىٰ عينه ، فشكرت له ذلك فغفرت له ذنوب مئتي سنة) هـٰكذا في « قوت القلوب »[2] .

وفي غيره : أنه فتح التوراة يوماً فوجد اسم محمد صلى الله عليه وسلم فقبله وبكىٰ وقال : اللهم ؛ بحق صاحب هـٰذا الاسم . . إلا ما عفوت عني وغفرت لي ، فعفوت عنه وغفرت له ؛ لأجل حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال موسىٰ : اللهم ؛ اجعلني من أمة محمد .

وهـٰذه حكايات نقلتها من كتاب « المرجان » للإمام نجم الدين القرشي الإسنوي الذي التقطه من كتاب « عرى الإيمان » للبارزي فيمن استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم في حال غمه وكربه ، فوجده أعظم مغيث وأسرع مجيب ، وهو يعم الدنيا والآخرة .

فمن ذلك : ما اتفق للشيخ أبي عبد الله بن النعمان في قفوله من الحج ، وذلك أنه تقدم

---

(١) انظر « شفاء السقام » (ص ١٦٠ ـ ١٦٦) ففي النقل هنا تقديم وتأخير واختصار ، وانظر « دلائل النبوة » (٦/ ١٦٦ ـ ١٦٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ٨٤) .

الركب مع الدليل ، ثم نزل لقضاء حاجة ، فغلبته عينه فنام ، فما انتبه . . إلا آخر النهار ، قال : ودخل علي الليل وخفي عني الأثر ، وقويت الوحشة مع تعب عظيم وعطش ، وأشرفت على الهلاك ، فقلت : يا محمداه ، يا محمداه ؛ أنا مستغيث بك ، فما تم الكلام حتىٰ سمعت قائلاً يقول : ارشد ، فنظرت فإذا بشخص لم يتبين لي وجهه وعليه ثوب أبيض ، فأخذ بيدي ، فلما وقعت يده في يدي . . زال عني ما كنت أجد من العطش ، وأنست به ، ثم سار بي يده في يدي ساعة .

فبينا أنا كذلك . . سمعت الحجاج والدليل ينادي بالناس وقد أوقدوا ناراً يهتدون بها ، فنظرت فإذا أنا براحلتي ، فصحت من الفرح ، فنزع يده من يدي وقال : دونك راحلتك ، ثم رفعني بيده ووضعني علىٰ راحلتي وولىٰ وهو يقول : نحن لا نخيب من طلبنا واستغاث بنا ، فعلمت أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأيت أنواره تلوح في الظلام .

وينبغي ألاّ يمنع الشخص من الاستغاثة ما يعلمه من ذنوبه وخطاياه ؛ فإن من شيمته الكرم لا يخص به المطيع ، بل يعم به المطيع والعاصي .

ومن ذلك : ما روي عن محمد بن المنكدر قال : أودع رجل أبي ثمانين ديناراً ، وخرج الرجل يريد الجهاد ، وقال لأبي : إن احتجت إليها . . فأنفقها حتىٰ أعود ، فاحتاج أبي إليها فأنفقها ، وقدم الرجل وطلب ماله ، فقال له أبي : عد إلي غداً ، وبات في المسجد يلوذ بقبر النبي صلى الله عليه وسلم مرة ، وبمنبره مرة حتىٰ كاد يصبح ، فبينا هو كذلك . . إذا بشخص في الظلام يقول : دونكها يا أبا محمد ، قال : فمد أبي يده فإذا هو بصرة فيها ثمانون ديناراً .

وحكي عن أبي القاسم بن منصور المقري أنه قال : كان أبي يقترض مني طول الأسبوع ، فأطالبه فيحلف بالله يوم السبت يوفي الذي عليه ، ففعل ذلك مراراً ، فأنكرت عليه وسألته عن سببه فقال : يا بني ؛ إني أجمع ختماً فأختمها ليلة الجمعة ، وأجعل ثوابها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : يا رسول الله ؛ ديني ، فيجيبني من حيث لا أحتسب يوم السبت .

وحكي أن رجلاً بالأندلس أسر له ولد ، فخرج من بلده قاصداً إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر ولده ، فلقيه بعض معاريفه فقال : إلىٰ أين تريد ؟ فقال : إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أستشفع به ؛ فإن الروم قد أسروا ولدي وقرروا عليه ثلاث مئة دينار

ولا قدرة لي عليها ، فقال له : التشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل مكان ، فلم يفعل ولم يرجع إلىٰ أن وصل إلى التربة الشريفة ، وقام وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بحاجته وتوسل به ، ثم نام فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقول له : ارجع إلىٰ بلدك تجد ولدك .

فرجع فوجده قد خلصه الله تعالىٰ ، فسأله عن حاله فقال له : إن في الليلة الفلانية خلصني الله تعالىٰ وجماعة كثيرة من الأسرىٰ ، وإذا تلك الليلة هي ليلة وصول والده إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحكي عن عبدون السبتي أنه أخذه العدو وأسره وأوثقه ، فاستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم ؛ بفضله عندك فرج عني ، قال : فلما كان ثاني يوم . . أطلقت ببركة النبي صلى الله عليه وسلم .

وحكي عن بعض الصالحين أنه كان مأسوراً ببلاد الكفار ، قال : فوصل إلى البلد الذي كنت فيه مركب لابن أخي صاحب البلد ، فجمعوا جماعة كان عدتهم ثلاثة آلاف رجل ، فلم يقدروا علىٰ جره من البحر لعظمه ، فجاء أحدهم إلى الملك وقال : هٰذا المركب لا يجره إلا المسلمون بشرط أَلا يمنعوا من الكلام ، بل يتكلموا بما يريدون .

قال : فجمعونا وكنا أربع مئة وخمسين رجلاً ، وقالوا لنا : قولوا ما تريدون ، فقلنا بأجمعنا : يا رسول الله ، وجذبنا المركب جذبة واحدة فلم نتعوق حتىٰ أخرجناه إلى البر ببركة استغاثتنا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فعند ذلك أمر الملك بإطلاقنا .

وحكي عن بعض أهل الخير أنه قال : حصلت علي ضائقة ، وقرب علي العيد وليس عندي ولا عند عيالي ما يأكلونه ولا ما يلبسونه ، فقلت : اللهم ؛ بحرمة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم . . إلا فتحت علينا بشيء من الدنيا ، ثم إني استغثت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أتم الدعاء . . إلا وكبير البلد معه الرجال والشموع والخياطون فقال : رأيت الساعة في المنام النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن عبد العزيز ـ وهو اسمي ـ علىٰ أقبح صورة من الفقر ، فاعمل له في هٰذه الليلة ما يكسو به أولاده في هٰذا العيد ، واحمل إليه نفقة ، وقد جئت بالخياطين معي لتكون الثياب عليهم في غد ، ثم أعطاني مئتي دينار وقال : أنفقها عليك في هٰذا العيد ، ثم انصرف ، وذلك ببركة النبي صلى الله عليه وسلم .

وحكي أن رجلاً من أهل خراسان أودع أبا حسان بدرة[1] فيها عشرة آلاف درهم ، وسافر صاحب المال إلى الحج ، وكان علىٰ أبي حسان ديون كثيرة ، فقضىٰ ديونه وتصرف فيها ، وقال : إلىٰ ما ينقضي الحج ، فجاء صاحب المال وطلبه ، وبقي متحيراً في أمره ، فعند ذلك قال أبو حسان : ما لي إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يبكي ويقول : يا رسول الله ؛ أغثني ، خلصني مما وقعت فيه .

فبينما هو كذلك . . إذ وجه إليه المأمون فأحضره بين يديه ، وقال : اشرح لي قصتك ، فشرح له قصته ، فبكىٰ بكاء شديداً وقال له : ويحك ، ما تركني رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببك الليلة أنام ، أتاني أول الليل وقال : أغث أبا حسان ، فانتبهت مرعوباً ولم أعرفك وأثبت اسمك فنمت ، فأتاني وقال كمقالته الأولىٰ ، فانتبهت منزعجاً ثم نمت ، فقال : ويحك ، أغث أبا حسان . فما تجاسرت على النوم بعد وأنا ساهر منذ ذلك الوقت ، ثم بثثت الناس في طلبك ، خذ هـٰذه البدرة وأعطها الخراساني ، وهـٰذه بدرة أخرى اتسع بها ، وهـٰذه ثلاثون ألف درهم جهز بها بناتك ، وإذا كان يوم الموكب . . عد إلي ؛ لأقلدك عملاً جليلاً وأحسن إليك .

قال أبو حسان : فرجعت إلىٰ داري فإذا أنا بالخراساني على الباب ، فأدخلته البيت ، وأخرجت له البدرة وقلت له : خذ هـٰذه بدرتك ، فقال : ليس هـٰذه بدرتي ، فأخبرته فبكىٰ .

فقال : لو صدقتني في أول الأمر . . ما طالبتك ، والله ؛ لا دخل علي منها شيء ، أنت في حل منها .

قال أبو حسان : وركبت يوم الموكب إلىٰ دار المأمون ، فاستدعاني ، ثم أخرج عهداً من تحت مصلاه وقال : هـٰذا عهدك علىٰ قضاء الشرطية من الجانب الغربي ببغداد ، وقد أجريت عليك في كل شهر ألفي درهم ؛ لعناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بك .

وحكي عن بعض الصالحين أنه قال : أهلَّ شهر رمضان فأخذتني الحمىٰ ، وخفت من الفطر فيه ، فاستغثت بالنبي صلى الله عليه وسلم وشكوت إليه الحمىٰ ، فأقلعها الله عني ، وصمت رمضان ببركة النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ

---

(١) البدرة : كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ويقدم في العطايا ، ويختلف باختلاف العهود .

ولقد أحسن صاحب البردة حيث يقول في مدحه صلى الله عليه وسلم : [من البسيط]

هو الحبيب الذي ترجىٰ شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
لو ناسبت قدره آياته عظماً ... أحيا اسمه حين يدعىٰ دارس الرمم
ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به ... إلا ونلت جواراً منه لم يضم
ولا التمست غنى الدارين من يده ... إلا استلمت الندىٰ من خير مستلم
حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ... أو يرجع الجار منه غير محترم
ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه ... وجدته لخلاصي خير ملتزم

فائدتان

إحداهما :

ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رآني . . فقد رآني ؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي »[(١)] وفي رواية : « فقد رأى الحق »[(٢)] وفي رواية : « فسيراني »[(٣)] وفي رواية : « فإن الشيطان لا يتكونني »[(٤)] .

وقد تكلم العلماء في ذلك ، فمنهم من قال : هـٰذا إذا رآه في صورته المعروفة ، وهو قول ابن سيرين ، ونقله الداوودي عن بعض العلماء .

وقال القاضي عياض : (يحتمل أن يكون ذلك إذا رآه على الصفة المعروفة له في حياته ، فإن رآه علىٰ خلافها . . كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة)[(٥)] .

وضعفه النووي وقال : (الصحيح : أنه يراه حقيقة ، سواء كان علىٰ صفته المعروفة أو غيرها)[(٦)] .

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٢٢٦٦) .
(٢) عند البخاري (٦٩٩٦) ، ومسلم (٢٢٦٧) .
(٣) عند البخاري (٦٩٩٣) ، ومسلم (٢٢٦٦/ ١١) .
(٤) عند البخاري (٦٩٩٧) .
(٥) إكمال المعلم (٧/ ٢١٩) .
(٦) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٥) .

وقال المازري : (قوله : « فإن الشيطان لا يتمثل بي » فيه إشارة إلىٰ أن رؤياه لا تكون أضغاثاً ، وأنها تكون حقاً ، وقد يراه الرائي علىٰ غير صفته المنقولة إلينا ، كما لو رآه أبيض اللحية ، أو علىٰ خلاف لونه ، أو يراه رائيان في زمن واحد ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، ويراه كل واحد منهما معه في مكانه ، والاختلاف المذكور لا يدل علىٰ عدم رؤيته ، فإن ذلك غلط في صفاته ، وتخيل لها علىٰ غير ما هي عليه ، فتكون ذاته مرئية ، وصفاته متخيلة غير مرئية ، ويكون اختلاف الصفات ثمرتها اختلاف الدلالات .

فمن رآه شيخاً . . فهو عامُ سِلْم ، ومن رآه شاباً . . فهو عام حرب .

وكذلك لو رئي أنه أمر بقتل من لا يحل قتله ، فإن ذلك من الصفات المتخيلة لا المرئية)[1] .

وقال بعضهم : رؤيا الشخص للنبي صلى الله عليه وسلم بحسب حاله ، فإن رآه علىٰ صفته المعروفة . . فهو يدل علىٰ حسن حال الرائي في دينه ودنياه ، وإن رآه بغير صفته ، أو بنقصان عضو ، أو حالة في اللباس ، أو غيره من صفات النقص . . فهو راجع إلىٰ حال الرائي ، أو حال أهل ذلك الموضع ، فلينتبه الرائي لذلك ، وليسْعَ في إصلاح نفسه ، والإقلاع عما هو متلبس به .

فإن رآه صلى الله عليه وسلم مبتسماً . . فإن ذلك بشارة له فيما قام به في يقظته من طاعة ربه ، أو في شريعته وسنته ، وإن رآه علىٰ خلاف ذلك . . فالأمر بضده .

قال : فإن قيل : كيف يراه خلق كثير في حالة واحدة ، فيراه بعضهم شيخاً ، ويراه آخر شاباً ، ويراه بعضهم ضاحكاً ، وآخر باكياً ، إلىٰ غير ذلك من اختلاف الأحوال ؟

فالجواب : أن هـٰذه الاختلافات راجعة إلى الرائين لا إلى المرئي صلى الله عليه وسلم ، ومثاله : أن الإنسان يرىٰ وجهه في المرآة الكبيرة كبيراً ، وفي الصغيرة صغيراً ، وفي المعوجة معوجاً ، وفي الطويلة طويلاً ، إلىٰ غير ذلك ، فتكون الاختلافات راجعة إلى اختلاف أشكال الرائي .

ثم قال : وشبه أيضاً بجماعة ينظرون خلف جامات من الزجاج ملونة ، فوقع طائر أبيض

---

(١) المعلم بفوائد مسلم (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) .

وراء الجامات ، أليس أحدهم يراه أصفر ، وآخر يراه أحمر ، وآخر يراه أبيض ؟! فالاختلاف راجع إلى اختلاف مناظرهم . اهـ

وسئل الإمام النووي رضي الله عنه عن رؤيته صلى الله عليه وسلم ؛ هل يختص بها الصالحون دون غيرهم ؟ فقال : لا يختصون بها ، بل يراه الصالح وغيره[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فسيراني في اليقظة » قيل : المراد : من آمن به صلى الله عليه وسلم في حياته ولم يره لكونه غائباً عنه ، فتكون رؤياه في النوم بشارة له أنه يراه في اليقظة قبل موته .

وقيل : معناه سيرىٰ تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها .

وقيل : إنه سيراه في الآخرة ، وتُعُقِّب بأنه يراه في الآخرة جميع أمته ، من رآه في المنام ومن لم يره .

وأجاب القاضي عياض بأنه يحتمل أن يراه في الآخرة رؤية خاصة ، من القرب منه ، أو الشفاعة له بعلو الدرجة ، ونحو ذلك من الخصوصيات .

قال : (ولا يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه صلى الله عليه وسلم مدة)[2] .

وقيل : من رآه في النوم . . رآه في اليقظة حقيقة ، وهٰذا يكون للصالحين ، فهو عام فيهم لا في كل راءٍ ، وقد نقل ابن أبي هريرة عن جماعة من الصالحين أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة ، وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين ، وأرشدهم إلىٰ طريق تفريجها ، فجاء الأمر كذلك .

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (قلت : وهٰذا مشكل جداً ، ولو حمل علىٰ ظاهره . . لكان هٰؤلاء صحابة ، ولأمكن بقاء الصحابة إلىٰ يوم القيامة .

ويعكر عليه أن جمعاً ممن رأوه في المنام لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة ، وخبر الصادق لا يختلف .

---

(١) فتاوى الإمام النووي (ص ٢٧٥) .
(٢) إكمال المعلم (٧/ ٢٢١) .

وقد فطن ابن أبي جمرة لهٰذا ، فأحال بما قال علىٰ كرامات الأولياء ، فإن يكن كذلك . . تعين العدول عن العموم في كل راءٍ) اهـ[1]

قال الشيخ نجم الدين طلحة الهِتَّار :(رؤيته صلى الله عليه وسلم في اليقظة من طريق الكشف ، وقوله وفعله شريعة لأهل الحقيقة .

فأما دليل رؤيته في اليقظة . . فقوله صلى الله عليه وسلم : « مررت بموسىٰ ليلة أسري بي وهو قائم يصلي في قبره »[2] والصحيح : أن الإسراء كان في اليقظة بجسده ، وهٰذا من باب المعجزة له ، وما جاز للأنبياء من المعجزات . . جاز للأولياء من الكرامات ، وكرامات الأولياء من هٰذه الأمة المحمدية معجزة لنبيهم صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم من أجله أكرموا ، فمن أنكر كرامات الأولياء . . فقد جحد معجزات الأنبياء ، ومن جحد معجزات الأنبياء . . فقد قيل فيه ما قيل .

وقد بلغنا بالنقل الصحيح عن الثقات عن جمع من الصالحين أنهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة بعين الرأس ، وسمعوا كلامه بآذن الرأس ، منهم السيد الجليل إمام وقته أحمد بن موسىٰ عجيل ، والفقيه الصالح علي بن إبراهيم البجلي ، والفقيه الصالح محمد بن يعقوب السودي ، والفقيه الصالح محمد بن تمام بوادي زبيد ، والشيخ الصالح منصور بن جعدار ، والشيخ الصالح علي بن عبد الله الطواشي ، فلا حجة للمنكر ، لا سيما إذا كان يدعىٰ أنه من الصوفية ، فإنه لا خلاف عندهم في ذلك ، وإنما الخلاف عند أهل الظاهر .

وأما الصالحون منهم . . فيسلمون ذلك ، والذين ذكرنا أنهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم من الفقهاء الجامعين بين الشريعة والحقيقة ، قال : قد رأيته في اليقظة ، وقرأت عليه شيئاً من القرآن ، وفسر لي شيئاً منه) اهـ

أقول : اعلم وفقني الله وإياك أن الإنسان مركب من شيئين : كثيف ترابي ظلماني وهو الجسد ، ولطيف روحاني نوراني وهو الروح ، فالجسد موات كثيف مظلم ، فإذا اتصل به الروح . . صار حياً لطيفاً نورانياً ، وظهرت آثار النور في الحواس الخمس ، والروح أيضاً

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٨٥) ، وانظر « بهجة النفوس » (٢/ ١٤٤٤ ـ ١٤٤٥) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٥) ، وابن حبان (٥٠) ، والنسائي (٣/ ٢١٥) ، وغيرهم .

جاهلة ، فإذا اتصل بها العقل . . صارت مشرقة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ .

وغذاء الجسد هـٰذه الأغذية التي هي الطعام والشراب ؛ لأنها الموافقة له ، وغذاء الروح ذكر الله تعالىٰ ومعرفته ؛ لأنها من العالم العلوي المتغذين بذكر الله سبحانه وتعالىٰ ، فإذا استولت الشهوة الجسدية . . حجبت روحه وصارت حواسه كثيفة ، وإذا تغذىٰ بكثرة الأذكار والأفكار والمجاهدة بالصيام والجوع والوقوف بين يدي الله تعالىٰ . . قويت الروح وصار العمل لها ، فصارت حواسه تخرق الأشياء الكثيفة ، وتنظر الأشياء البعيدة والأرواح الملكية ، واتصف بصفات الملكية ، ولهـٰذا إذا فارقت الجسد بالموت ، واستمدت من عالم القدس والطهارة . . قويت وكملت وصار العمل لها ، ونظرت الملكوت ، وصارت مع عالم الغيب ، ومرت على الصراط كالبرق ، مع أنه أدق من الشعر وأحد من السيف .

قال الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه : (إذا استأنست الروح بمعرفة الله ومحبته ، وقل انغماسها في هـٰذا البدن . . أشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية المقدسة ، وفاضت عليها من تلك الأنوار ، فقويت على التصرف في هـٰذا العالم مثل قوة الأرواح .

ومذهبنا : أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ، فمنها القوية والضعيفة ، ومنها النورانية والكدرة ، والأرواح العالية كذلك ، ألا ترىٰ كيف قال الله في حق جبريل عليه السلام : ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

وقال في آخرين من الملائكة : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ .

فكذا ههنا ، فإذا اتفق في نفس أنها قوية قدسية العنصر ، مشرقة الجوهر علوية الطبيعة ، ثم انضاف إليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غيرة عالم الفساد . . أشرقت وتلألأت ، وقويت على التصرف في عالم الكون بإعانة نور معرفة الحضرة الصمدية ، وبقوة أضواء حضرة الجلال والعزة ، ومن بلغ إلى المقام الذي يقول الله تعالىٰ فيه : « صرت سمعه وبصره »[1] وصار نور جلال الله تعالىٰ سمعاً له . . سمع القريب والبعيد ، و[إذا] صار ذلك النور بصراً له . . أبصر القريب والبعيد ، و[إذا] صار ذلك النور يداً له . . قدر على التصرف في الصعب والسهل .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ٢٤٦) ، وغيرهم .

وقد ورد عن علي رضي الله عنه أنه قال : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ، ولـٰكن بقوة ربانية .

فلا جرم حصل له من القدرة ما قدر به علىٰ ما لم يُقْدر عليه) اهـ[1]

فإذا تقرر ذلك مع ما قرره جماعة من العلماء نفعنا الله بهم من أنه حي بجسده على الدوام علىٰ ما كان عليه في الدنيا . . ظهر لك عدم استحالة رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة ، وإنما ينكر ذلك من لا يعرف هـٰذا البيان ولا راضَ نفسه في هـٰذا الميدان ، ثم وراء ذلك بحوث يكِلُّ عنها اللسان ، ويتحير فيها الجنان ، ولا يحققها إلا أهل العرفان .

وإذا رئي صلى الله عليه وسلم في مكان . . هل هـٰذا المرئي هو جسده الشريف المدفون في المدينة حتىٰ أن الزائر له في تلك الساعة يكون زائراً للقبر لا له صلى الله عليه وسلم ، أو يقال إن هـٰذا المرئي هو مثال الجسد الشريف ؟

قال الإمام حجة الإسلام : (ليس معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « فقد رآني » أنه رأىٰ جسمي وبدني ، وإنما المراد أنه رأىٰ مثالاً صار ذلك المثال آلة يتأدىٰ بها المعنى الذي في نفسي إليه .

وكذلك قوله : « فسيراني في اليقظة » ليس المراد به يرىٰ جسمي وبدني ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفىٰ ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق) اهـ

وقال الإمام القرطبي : (قول من قال : إن من رآه في النوم رأىٰ حقيقته كمن رآه في اليقظة . . يدرك فساده بأوائل العقول ، ويلزم عليه ألاّ يراه أحد إلا علىٰ صورته التي مات عليها ، وألاّ يراه راء ثان في آنٍ واحد في مكان آخر ، وأن يحيا الآن ، ويخرج من قبره ، ويمشي في الأسواق ، ويخاطب الناس ويخاطبونه ، ويلزم من ذلك خلو قبره عن جسده ، فلا يبقىٰ فيه شيء فيزار مجرد القبر ، ويسلم علىٰ غائب ؛ لأنه جائز أن يرىٰ في الليل والنهار مع اتصال الأوقات .

وهـٰذه جهالات لا يلتزمها من ليس له أدنىٰ مسكة من عقل ، بل الصحيح في تأويل هـٰذا الحديث : أن رؤيته في كل حال ليست باطلة ولا أضغاثاً ، بل هي حق في نفسها .

---

(١) تفسير الرازي (٢١/ ٩١) .

ولو رئي في غير صورته . . فإن ذلك ليس من الشيطان ، بل هو من قبل الله تعالىٰ .

قال : وهـٰذا قول القاضي أبي بكر بن الطيب وغيره ، ويؤيده قوله : « فقد رأى الحق») اهـ[1]

أقول : قد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن ملك الموت يقبض الأرواح ، وقد يقبض أرواحاً في وقت واحد في أماكن متعددة متباعدة ، وهـٰذا يعلمه كل أحد علماً يقينياً ، فلا ينكره الإمام القرطبي ولا غيره ، فيجب علىٰ كل أحد أن يصدق بما أخبر به صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الصادق المصدوق ، ولا ينطق عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحىٰ ، ويسكت عن التفصيل والكيفية .

الفائدة الثانية :

هل يجوز أن يتوسل إلى الله تعالىٰ بأحد من خلقه غير النبي صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب : أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام قال : (جاء في بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم بعض الناس دعاء فقال في أوله : « اللهم إني أقسمت عليك بنبيك نبي الرحمة » فإن صح هـٰذا . . فينبغي أن يكون مقصوراً على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سيد ولد آدم ، وألا يقسم على الله تعالىٰ بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء ؛ لأنهم ليسوا في درجته ، وأن يكون هـٰذا مما خص به تنبيهاً علىٰ علو درجته ومرتبته) اهـ

وقال الشيخ تقي الدين السبكي : (يجوز ويحسن التوسل بمن له نسبة من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما استسقىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه فقال : اللهم ؛ كنا إذا قحطنا . . توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فاسقنا[2] .

وروي أن عمر رضي الله عنه لما فرغ من دعائه . . قال العباس : اللهم ؛ إنه لم ينزل من السماء بلاء إلا بذنب ، ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة . وذكر دعاء فما تم كلامه . . حتى ارتجت السماء بمثل الجبال[3] .

---

(١) المفهم (٦/ ٢٢ـ ٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٠) .

(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٣٥٩) .

واستسقىٰ حمزة بن القاسم الهاشمي فقال : اللهم ؛ إنا من ولد ذلك الرجل الذي استسقىٰ بشيبته عمر بن الخطاب فسقوا . فما زال يتوسل بهـٰذه الوسيلة . . حتىٰ سقوا .

قال : وكذلك يجوز التوسل بسائر الصالحين ، وهـٰذا شيء لا ينكره مسلم ، بل ولا كل متدين بملة من الملل .

قال : ولا يقال : التجوه والاستغاثة فيهما إيهام أن المتجوه به والمستغاث به أعلىٰ من المتجوه عليه والمستغاث عليه ؛ لأن التجوه من الجاه والوجاهة ، ومعناه : علو القدر والمنزلة ، وقد يتوسل بذي الجاه إلىٰ من هو أعلىٰ جاهاً منه .

والاستغاثة : طلب الغوث من غيره ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلىٰ منه ، فالتوسل والتشفع والتجوه والاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبسائر الأنبياء والصالحين ليس لها معنىً في قلوب المسلمين غير ذلك ، [و] لا يقصد بها أحد منهم سواه ، فمن لم ينشرح صدره لذلك . . فليبك علىٰ نفسه ، نسأل الله تعالى العافية .

ولو سلم أن المستغاث به يستدعي النصر على المستغاث منه . . فالعبد يستغيث علىٰ نفسه وهواه والشيطان وغير ذلك مما هو قاطع له عن الله تعالىٰ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الأنبياء والصالحين متوسلاً بهم إلى الله تعالىٰ ؛ ليغيثه علىٰ من استغاث منه من النفس وغيرها ، والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالىٰ ، والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغيث) اهـ[١]

* * *

(١) انظر « شفاء السقام » (ص ١٧١ ـ ١٧٣) .

الفصل الثاني

في الأحاديث الواردة في التوبة

الحديث الأول : عن الأغر المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ؛ توبوا إلى الله ، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة » رواه مسلم[١] .

الحديث الثاني : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فإن أصبح ذهباً . . اتبعناك ، فدعا ربه ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : إن شئت . . أصبح الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم . . عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت . . فتحت لهم باب التوبة والرحمة ، فقال : « بل باب التوبة والرحمة » رواه الهيثمي عن الطبراني ، قال : ورجاله رجال الصحيح[٢] .

الحديث الثالث : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا . . لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » رواه مسلم[٣] .

الحديث الرابع : عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليبسط يده بالليل ؛ ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ؛ ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم[٤] .

الحديث الخامس : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب . . تاب الله عليه » متفق عليه[٥] .

---

(١) مسلم (٢٧٠٢) .
(٢) مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٩) ، والمعجم الكبير (١٢/ ١١٨) .
(٣) مسلم (٢٧٤٩) .
(٤) مسلم (٢٧٥٩) .
(٥) البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

الحديث السادس : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان [علىٰ] راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك . . إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم ؛ أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » رواه مسلم(١) .

الحديث السابع : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها » أخرجه مسلم والترمذي(٢) .

الحديث الثامن : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » أخرجه الترمذي وابن ماجه والدارمي(٣) .

الحديث التاسع : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أخرجه الترمذي وابن ماجه(٤) .

الحديث العاشر : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل علىٰ راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مئة .

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل علىٰ رجل عالم ، فقال : إنه قتل مئة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟! انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا ؛ فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلىٰ أرضك ؛ فإنها أرض سوء ، فانطلق حتىٰ إذا نَصَف الطريق . . أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب : فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب ، إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلىٰ

---

(١) مسلم (٢٧٤٧) .
(٢) مسلم (٢٦٧٥/ ١) كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها ، والترمذي (٣٥٣٨) .
(٣) الترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) ، وسنن الدارمي (٢٧٦٩) .
(٤) الترمذي (٣٥٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٣) .

أيتهما كان أدنىٰ فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » .

قال قتادة : قال الحسن : ذكر لنا أنه لما أتاه الموت . . نأىٰ بصدره .

وفي رواية : « فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ هـٰذه أن تباعدي ، وإلىٰ هـٰذه أن تقربي » أخرجه مسلم[(١)] .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ : (قوله : « نصف » هو بتخفيف الصاد ؛ أي : بلغ نصفها ، وقوله : « نأىٰ » أي : نهض)[(٢)] .

وقال البيهقي : (قوله : « نأىٰ بصدره » يحتمل أن يكون المراد : تباعد عن معاصيه وندم عليها) اهـ[(٣)]

وقال الإمام النووي : (قال العلماء : في هـٰذا الحديث استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب فيها الذنوب والأخدان المساعدين له علىٰ ذلك ، فيقاطعهم ما داموا علىٰ حالهم ، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير ، والصلاح ، والعلماء ، والمتعبدين ، والورعين ، ومن يقتدىٰ به وينتفع بصحبته ، وتتأكد بذلك توبته) اهـ[(٤)]

الحديث الحادي عشر : عن زر بن حبيش قال : حدثنا صفوان بن عسال ـ بالعين المهملة وتشديد السين المهملة ـ المرادي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « باب من قبل المغرب مسيرة عرضه ـ أو قال ـ : يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة ، خلقه الله يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً للتوبة ، لا يغلق حتىٰ تطلع الشمس منه » أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح [(٥)].

الحديث الثاني عشر : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها . . تاب الله عليه » رواه مسلم[(٦)] .

---

(١) مسلم (٢٧٦٦/ ٤٦) و (٢٧٦٦/ ٤٧) .

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٨٤) .

(٣) شعب الإيمان (٩/ ٢٨٥) .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٨٣) .

(٥) الترمذي (٣٥٣٥) .

(٦) مسلم (٢٧٠٣) .

قال الإمام النووي : (قال العلماء : هـٰذا حدٌّ لقبول التوبة[1] ، وقد جاء في الحديث : أن للتوبة باباً مفتوحاً فلا تزال مقبولة حتىٰ يغلق ، فإذا طلعت الشمس من مغربها . . أغلق وامتنعت التوبة علىٰ من لم يكن تاب قبل ذلك ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ ومعنىٰ : « تاب الله عليه » قَبِل توبته ورضيها ، وللتوبة شروط أُخر ، منها : أن يتوب قبل الغرغرة ، كما جاء في « الصحيح » فأما في حال الغرغرة وهي حالة النزع . . فلا تقبل توبة ولا غيرها) اهـ[2]

وقوله : وهو معنىٰ قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ أي : أن ذلك البعض هو طلوع الشمس من مغربها ، وهو قول قتادة وابن مسعود .

وقال أبو هريرة : مع الدجال ودابة الأرض .

قال معاذ : أول الآيات الدخان ، ثم الدجال ، ثم يأجوج ومأجوج ، ثم الدابة ، ثم الطلوع .

وقال ابن عباس : إذا طلعت الشمس من المغرب . . غلق باب التوبة .

ومقتضىٰ هـٰذا الإطلاق ، بل صريح الحديث : أنه إذا تاب في اليوم التالي ليوم طلوعها من المغرب . . لا تقبل توبته ، وقد يقال : قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ فمفهومه : أنه ينفع بعد ذلك .

وهـٰذا ما رواه الإمام ابن النحوي عن عمران بن حصين أنه قال : إنما لم يقبل الله التوبة وقت الطلوع ؛ لأنه تكون صبيحة يهلك فيها كثير من الناس ، فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك . . لم تقبل توبته ، ومن تاب بعد ذلك . . قبلت توبته . قال : ذكره أبو الليث السمرقندي في « تفسيره »[3] .

وقال القاضي عياض : (الحكمة في ذلك : أن أول ابتداء قيام الساعة يتغير العالم العلوي ، فإذا شوهد ذلك . . حصل الإيمان الضروري بالمعاينة ، وارتفع الإيمان بالغيب ، فهو كالإيمان عند الغرغرة هو لا ينفع ، فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله) .

---

(١) في النسخ : (هـٰذا الحديث لقبول التوبة) ، والمثبت من « شرح صحيح مسلم » .

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٢٥) .

(٣) تفسير السمرقندي (١/ ٥١٥) .

وقال القرطبي في « التذكرة » : (فعلىٰ هـٰذا : فتوبة من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ، فلو امتدت أيام الدنيا بعد ذلك إلىٰ أن ينسىٰ هـٰذا الأمر أو ينقطع تواتره ويصير الخبر عنه آحاداً . . فإن أسلم حينئذ أو تاب . . قبل منه)[1] .

قال البيهقي : (إن كان في علم الله تعالىٰ أن طلوع الشمس سابق . . احتمل أن يكون المراد نفي النفع لنفس الذين رأوا ذلك ، فإن انقرضوا أو تطاول الزمان وعاد بعضهم إلى الكفر . . عاد تكليف الإيمان بالغيب ، وكذا في قصة الدجال لا ينفع إيمان من آمن بعيسىٰ عند مشاهدة الدجال ، وينفعه بعد انقراضه .

وإن كان في علم الله تعالىٰ أن طلوع الشمس بعد نزول عيسىٰ . . احتمل أن يكون المراد بالآيات في حديث عبد الله بن عمرو الآتي ذكره أخرىٰ غير الدجال ونزول عيسىٰ) اهـ

ويؤيد ما ذكر من كون طلوع الشمس سابقاً ما رواه الإمام مسلم في « صحيحه » من طرق عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحىٰ ، وأيهما كانت قبل صاحبتها . . فالأخرىٰ علىٰ إثرها قريباً »[2] .

وإذا كان أول الآيات طلوع الشمس وخروج الدابة . . فمعلوم أن الدجال بعدهما ، وأن عيسىٰ عليه السلام بعده ، وأن الدين يظهر في زمنه ، ويزول الشرك ، ولا يبقىٰ كافر ، فيكون الإيمان والتوبة مقبولين .

وقال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (الصحيح المعتمد : أن طلوع الشمس من مغربها بعد نزول عيسىٰ ، وأن التوبة لا تقبل بعد ذلك ؛ ففي « صحيح مسلم » من رواية محمد بن سيرين عن أبي هريرة رفعه : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها . . تاب الله عليه »[3] فمفهومه : أن من تاب بعد ذلك . . لم تقبل .

ولأبي داوود والنسائي من حديث معاوية رفعه : « لا تزال تقبل التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها »[4] وسنده جيد ، وللطبراني عن عبد الله بن سلام نحوه .

---

(١) التذكرة (٢/ ٦٧٠ ـ ٦٧١) .
(٢) مسلم (٢٧٤١) .
(٣) مسلم (٢٧٠٣) .
(٤) أبو داوود (٢٤٧٩) ، والسنن الكبرىٰ (٨٦٥٨) .

وأخرج أحمد من طريق مالك بن يخامر ـ بضم التحتانية بعدها معجمة وبكسر الميم ـ عن معاوية وعن عبد الرحمـٰن بن عوف وعبد الله بن عمرو رفعوه : « لا تزال التوبة مقبولة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت . . طبع علىٰ كل قلب بما فيه ، وكفي الناس العمل »[1] وكذا أخرجه الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً .

وعن عبد الله بن عمرو قال : لا يلبثون بعد خروج يأجوج ومأجوج إلا قليلاً حتىٰ تطلع الشمس من مغربها ، فيناديهم مناد : يا أيها الذين آمنوا ؛ قد قبل منكم ، ويا أيها الذين كفروا ؛ قد أغلق عليكم باب التوبة ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف .

وأخرج عبد بن حميد والطبري بسند صحيح من طريق عامر الشعبي عن عائشة : إذا خرجت أول الآيات . . طرحت الأقلام ، وطويت الصحف ، وخلصت الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال . وهو وإن كان موقوفاً . . فحكمه الرفع) .

قال بعد إيراده لجميع ما ذكر : (وهـٰذه آثار يشد بعضها بعضاً ، متفقة علىٰ أن الشمس إذا طلعت من المغرب . . أغلق باب التوبة ولم يفتح بعد ذلك ، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع ، بل يمتد إلىٰ يوم القيامة)[2] .

وقال أبو عبد الله الحليمي في « منهاجه » : (أول الآيات ظهوراً الدجال ، ثم نزول عيسىٰ عليه السلام ، ثم خروج يأجوج ومأجوج ، ويبين ذلك أن الكفار لا يفنون في وقت عيسىٰ عليه السلام ؛ لأن منهم من يسلم ومنهم من يقتل ، وتضع الحرب أوزارها ، فيستغنىٰ عن القتال على الدين . أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربها . . لم ينفع اليهود إيمانهم أيام عيسىٰ عليه السلام ، ولو لم ينفعهم . . لما صار الدين واحداً بإسلام من لم يسلم منهم .

وأما الآيتان الباقيتان : فالذي يشبه أن عيسىٰ صلوات الله عليه إذا قبضه الله تعالىٰ ، وخلت الأرض منه ، وتطاولت الأيام علىٰ ذلك . . أخذ الناس في الرجوع إلىٰ عادتهم ،

---

(١) مسند أحمد (١/ ١٩٢) .
(٢) انظر « فتح الباري » (١١/ ٣٥٥) .
(٣) عند النسائي في « الكبرىٰ » (٨٦٥٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ١٨٠) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٥٣) وغيرهم .

وأحدثوا الأحداث من الكفر والفسوق كما أحدثوه بعد كل قائم نصبه الله تعالىٰ حجة عليهم ثم قبضه ، فيخرج الله تعالىٰ دابة الأرض ، فتميز المؤمن من الكافر ؛ ليرتدع بذلك الكفار عن كفرهم ، والفساق عن فسقهم ، فينزعوا عما هم فيه من الفسوق والعصيان ، ولا يتجاوز الأمر في ذلك الوقت هـٰذا الحد ، وتغيب الدابة عنهم ، ويمهلون ويصيرون إلىٰ طغيانهم إذ طلعت الشمس من مغربها ، ولم يقبل بعد ذلك لكافر ولا فاسق توبة ، وأزيل الخطاب بها والتكليف عنهم ، ثم كان قيام الساعة علىٰ إثر ذلك قريباً ؛ لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

فإذا قطع التعبد عنهم . . لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زماناً طويلاً ، إلا أنه لا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله تعالىٰ) اهـ[1]

فإن قيل : فإذا صحت الأحاديث أن أول الآيات الدجال . . فما الموافقة بينها وبين حديث عبد الله بن عمرو ؟

قلت : قال الطيبي : أجيب بأن الآيات إما أمارات دالة علىٰ قرب قيام الساعة ، وإما دالة علىٰ وجود قيام الساعة وحصولها ، ومن الأول : الدخان والدجال ونحوهما ، ومن الثاني : ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها ، والرجفة ، وبس الجبال ، وخروج النار ، وطردها الناس إلى المحشر .

وإنما سمي أولاً ؛ لأنه مبتدأ القسم الثاني ، ويؤيده حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها »[2] حيث جعل طلوع الشمس من مغربها كأنه يقدم قيام الساعة .

وينصره أيضاً : ما رواه البيهقي عن الحليمي وذكر كلامه المتقدم .

فإن قيل : ما السر في كون هـٰذا الباب من قبل المغرب ؟

أقول : اعلم أنه ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم إلا وله بابان : باب يصعد فيه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا

---

(١) انظر « المنهاج » (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٥) ، ومسلم (١٥٧) .

مات . . بكيا عليه ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ »[1] أي : لم تبك عليهم مصاعد أعمالهم من السماء ، ولا مواضع سجودهم من الأرض ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن التوبة لها باب واحد لجميع الخلق ، تصعد فيه توبتهم ، وأنه واسع فهو مفتوح لا يغلق بموت من مات .

وأما كونه من جهة المغرب . . ففيه إشارة إلىٰ غروب الذنوب وأفولها وعدم طلوعها ، وهـٰذا تمثيل وتقريب للأفهام ، وإقامة للمحسوس مقام المعنىٰ ؛ أي : أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يخص أحداً بقبول توبته دون غيره ، وأن ثوابه لكل تائب كغيره من التائبين ، وأن جميع الخلق في ذلك سواء ، فهو واسع المغفرة . هـٰذا ما ظهر لي ، والله أعلم .

الحديث الثالث عشر : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن إذا أذنب . . كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإذا تاب واستغفر . . صقل قلبه ، وإن زاد . . زادت حتىٰ تعلو قلبه ، فذلكم الران الذي ذكر الله تعالىٰ : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : هـٰذا حديث حسن صحيح[2] .

الحديث الرابع عشر : عن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها » رواه أحمد وأبو داوود والدارمي[3] .

الحديث الخامس عشر : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب عز وجل : وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » رواه أحمد[4] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالىٰ يقول : إذا تاب عبدي إلي . . أنسيت

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤١٣٣) .

(٢) مسند أحمد (٢/ ٢٩٧) ، والترمذي (٣٣٣٤) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) .

(٣) مسند أحمد (٤/ ٩٩) ، وأبو داوود (٢٤٧٩) ، وسنن الدارمي (٢٥٥٥) .

(٤) مسند أحمد (٣/ ٢٩) .

جوارحه عمله ، وأنسيته البقاع ، وأنسيته حافظته حتىٰ لا يشهدوا عليه »[1] .

الحديث السادس عشر : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن ماجه والبيهقي[2] .

الحديث السابع عشر : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الندم توبة » رواه البيهقي[3] .

الحديث الثامن عشر : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيضاً قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنباً ثم ندم .. فهو كفارته » رواه البيهقي[4] .

وروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه[5] .

الحديث التاسع عشر : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الموت غنيمة ، والمعصية مصيبة ، والفقر راحة ، والغنىٰ عقوبة ، والعقل هدية من الله ، والجهل ضلالة ، والظلم ندامة ، والطاعة قرة العين ، والبكاء من خشية الله نجاة من النار ، والضحك هلاك البدن ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه البيهقي ، ثم قال : (تفرد به النهرواني وهو مجهول ، وقد سمعته من وجه آخر عن روح ، وليس بمحفوظ)[6] .

وروى الهيثمي قوله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » عن الطبراني وقال : رجاله رجال الصحيح[7] .

الحديث العشرون : عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه أن رجلاً أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أحدنا يذنب ، فقال : « يكتب عليه » قال : ثم

---

(١) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٤٤٦٢) .
(٢) ابن ماجه (٤٢٥٠) ، والسنن الكبرىٰ (١٠/ ١٥٤) .
(٣) السنن الكبرىٰ (١٠/ ١٥٤) .
(٤) شعب الإيمان (٦٦٣٣) .
(٥) شعب الإيمان (٦٦٣٨) .
(٦) شعب الإيمان (٦٦٤٠) .
(٧) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٣) ، والمعجم الكبير (١٠/ ١٥٠) .

يستغفر منه ويتوب ، قال : « يغفر له ويتاب عليه » قال : فيعود فيذنب ، قال : « يكتب عليه » قال : ثم يستغفر منه ويتوب ، قال : « يغفر له ويتاب عليه » قال : فيعود فيذنب ، قال : « يكتب عليه » قال : ثم يستغفر منه ويتوب ، قال : « يغفر له ويتاب عليه ، ولا يمل الله حتىٰ تملوا » رواه البيهقي[1] .

الحديث الحادي والعشرون : عن عبد الله بن محمد بن جابر بن عبد الله عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : واذنوباه ، واذنوباه ، فقال هـٰذا القول مرتين أو ثلاثاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : اللهم ؛ مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجىٰ عندي من عملي » فقالها ثلاثاً ، ثم قال : « عد » فعاد ثم قال : « عد » فعاد ، قال : « قم ، فقد غفر الله لك » .

قال أبو عبد الله : رواته كلهم مدنيون لا يعرف واحد منهم بجرح . رواه البيهقي[2] .

الحديث الثاني والعشرون : عن عبد الرحمـٰن بن البيلماني عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « والذي نفسي بيده ما من إنسان يتوب قبل أن يموت بيوم . . إلا قبل الله توبته » قال : فأخبرت بذلك رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أأنت سمعت ذلك منه ؟ قلت : نعم ، قال : فاشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من إنسان يتوب قبل أن يموت بنصف يوم . . إلا قبل الله توبته » فأخبرت بذلك رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أأنت سمعت ذلك منه ؟ قلت : نعم ، قال : فاشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من إنسان يتوب قبل أن يموت بضحوة . . إلا قبل الله توبته » فأخبرت بذلك رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أأنت سمعت ذلك منه ؟ قلت : نعم ، قال : فاشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من إنسان يموت قبل أن يغرغر بنفسه في شدقه . . إلا قبل الله توبته » رواه البيهقي[3] .

الحديث الثالث والعشرون : عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه

---

(١) شعب الإيمان (٦٦٩٥) .
(٢) شعب الإيمان (٦٧٢٤) .
(٣) شعب الإيمان (٦٦٦٧) .

وسلم أتي بأسير ، فقال : اللهم ؛ إني أتوب إليك ولا أتوب إلىٰ محمد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عرف الحق لأهله » رواه الهيثمي عن أحمد والطبراني ، وقال : (وفيه محمد بن شعيب ، وثقه أحمد ، وبقية رجاله رجال الصحيح)[1] .

الحديث الرابع والعشرون : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يسبق الدائب المجتهد . . فليكف عن الذنوب » رواه الهيثمي عن أبي يعلىٰ ، قال : (وفيه يوسف بن ميمون ، وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور ، وبقية رجاله رجال الصحيح)[2] .

الحديث الخامس والعشرون : عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن واه راقع ، فسعيد من هلك علىٰ رقعة » رواه البيهقي ، ورواه الهيثمي عن الطبراني والبزار ، قال : (وقال الطبراني : معنىٰ واه ؛ أي : مذنب ، وراقع ، يعني : تائباً مستغفراً)[3] .

الحديث السادس والعشرون : عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خياركم كل مفتن تواب » .

وفي رواية : « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » رواه البيهقي[4] .

الحديث السابع والعشرون : عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن للمؤمن ذنباً قد اعتاده الفينة بعد الفينة ، أو ذنباً ليس بتاركه حتىٰ يموت أو تقوم الساعة ، إن المؤمن خلق مذنباً خطاء نساء ، إذا ذكر . . ذكر » رواه البيهقي ، ثم قال : (قوله : « الفينة بعد الفينة » أي : الحين بعد الحين ثم يتوب)[5] .

الحديث الثامن والعشرون : عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء جُبيب بن الحارث إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إني رجل مقراف الذنوب ، قال : « فتب إلى الله يا جُبيب » قال : يا رسول الله ؛ إني أتوب ثم أعود ، ثم أتوب ثم أعود ،

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٢) ، ومسند أحمد (٣/ ٤٣٥) ، والمعجم الكبير (١/ ٢٨٦) .
(٢) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٣) ، ومسند أبي يعلىٰ (٤٩٥٠) .
(٣) شعب الإيمان (٦٧٢١) ، مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٤) ، والمعجم الأوسط (١٨٨٨) .
(٤) شعب الإيمان (٦٧١٩) و(٦٧٢٠) .
(٥) شعب الإيمان (٦٧٢٢) .

قال : « فكلما أذنبت . . فتب » قال : يا رسول الله ؛ إذاً تكثر ذنوبي ، قال : « عفو الله أكثر من ذنوبك يا جُبيب بن الحارث » رواه البيهقي ، ورواه الهيثمي عن الطبراني(١) .

الحديث التاسع والعشرون : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ؛ إني أذنبت ، فقال : « استغفر ربك » قال : فأستغفر ثم أعود ، قال : « فإذا عدت . . فاستغفر ربك » ثلاث مرات أو أربعاً ، فقال : « استغفر ربك حتىٰ يكون الشيطان هو المحسور » رواه البيهقي(٢) .

الحديث الثلاثون : عن علي رضي الله عنه قال : ما حدثني أحد بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلا استحلفته عليه إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ فإنه لا يكذب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أذنب عبد ذنباً فذكره ، فتوضأ فصلىٰ ركعتين ، ثم استغفر الله عز وجل من ذلك الذنب . . إلا غفره الله له » رواه البيهقي(٣) .

الحديث الحادي والثلاثون : عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل شيء يتكلم به ابن آدم فإنه مكتوب عليه ، فإذا أخطأ خطيئة وأحب أن يتوب إلى الله عز وجل . . فليأت بقعة رفيعة ، وليمد يديه إلى الله عز وجل يقول : إني أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبداً ، فإنه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك » رواه البيهقي(٤) .

الحديث الثاني والثلاثون : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للجنة سبعة أبواب مغلقة ، وباب مفتوح للتوبة حتىٰ تطلع الشمس من نحوه » رواه الهيثمي عن أبي يعلىٰ والطبراني ، قال : (وإسناده جيد)(٥) .

الحديث الثالث والثلاثون : عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما عرج بإبراهيم . . رأىٰ رجلاً يفجر بامرأة ، فدعا عليه فأهلك ، ثم رأىٰ رجلاً علىٰ

---

(١) شعب الإيمان (٦٦٨٩) ، ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٣) ، والمعجم الأوسط (٤٨٥١) ، ووقع في « المجمع » و« الأوسط » أن الصحابي حبيب ، بالحاء المهملة ، وصوابه : جُبيب ، بالجيم المعجمة مصغراً ، كما ذكره الحافظ ابن حجر في « الإصابة » (١/ ٢٢٩) .

(٢) شعب الإيمان (٦٦٨٨) .

(٣) شعب الإيمان (٦٦٧٧) .

(٤) شعب الإيمان (٦٦٧٨) .

(٥) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠١) ، ومسند أبي يعلىٰ (٥٠١٢) ، والمعجم الكبير (١٠/ ٢٠٦) .

معصية ، فدعا عليه ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : إنه عبدي ، وإن قَصْرَهُ مني خصال ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، وإما أن يستغفرني فاغفر له ، وإما أن يخرج من صلبه من يعبدني »[(١)] .

قوله : « قصره » أي : حبسه وكفايته وغايته ، يقال : قصرك أن تفعل كذا ، وقصارك وقصارك ، وهو من معنى الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية . . حبستك . قاله ابن الأثير[(٢)] .

الحديث الرابع والثلاثون : عن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : كم للمؤمن من ستر ؟ قال : « هي أكثر من أن تحصىٰ ، ولـٰكن المؤمن إذا عمل خطيئة . . هتك منها ستراً ، فإذا تاب . . رجع إليه ذلك الستر وتسعة معه ، وإذا لم يتب . . هتك ستراً واحداً واحداً ، حتىٰ إذا لم يبق منها شيء . . قال الله تعالىٰ لمن شاء من ملائكته : إن بني آدم يُعَيِّرون ولا يغفرون فحفوه بأجنحتكم ، فيفعلون به ذلك ، فإن تاب . . رجعت إليه الأستار كلها ، وإذا لم يتب . . عجبت منه الملائكة ، فيقول لهم الله : أسلموه ، فيسلمونه حتىٰ لا يستر منه عورة » رواه البيهقي[(٣)] .

وعن أبي إدريس الخولاني رفعه : لا يهتك الله عز وجل عبداً وفيه مثقال حبة من خير . رواه البيهقي أيضاً[(٤)] .

الحديث الخامس والثلاثون : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول علىٰ منبره : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ـ يعني الآذان ـ ويل للمصرين الذين يصرون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون »[(٥)] .

الحديث السادس والثلاثون : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالىٰ : يا بن آدم ؛ إنك ما دعوتني ورجوتني . . غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي ، ابن آدم ؛ لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني . . غفرت لك

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٧٤٧١) .
(٢) النهاية (٤/ ٦٩) .
(٣) شعب الإيمان (٦٨٢٢) .
(٤) شعب الإيمان (٦٨٢٥) .
(٥) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٨٠) ، وأحمد (٢/ ١٦٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٤٤) .

ولا أبالي ، ابن آدم ؛ إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً . لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذي[١] .

الحديث السابع والثلاثون : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » رواه البخاري[٢] .

الحديث الثامن والثلاثون : عن الأغر المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان علىٰ قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة » رواه مسلم[٣] .

الحديث التاسع والثلاثون : عن أبي طويل شطب الممدود أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها فلم يترك منها شيئاً ، وهو مع ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها ، فهل لذلك من توبة ؟ قال : « فهل أسلمت ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، قال : « تفعل الخيرات وتترك السيئات ، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن » قال : وغدراتي وفجراتي ؟ قال : « نعم » قال : الله أكبر ، فما زال يكبر حتىٰ توارىٰ . رواه الهيثمي عن الطبراني والبزار ، قال : (ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد أبي بشيط ، وهو ثقة)[٤] .

(الحاجة) : الذي يقطع على الحاج إذا توجهوا .

و(الداجة) : الذي يقطع عليهم إذا رجعوا .

الحديث الأربعون : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن الله تبارك وتعالىٰ أنه قال : « يا عبادي ؛ إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي ؛ كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي ؛ كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي ؛ كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي ؛ إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر

---

(١) الترمذي (٣٥٤٠) .
(٢) البخاري (٦٣٠٧) .
(٣) مسلم (٢٧٠٢) .
(٤) مجمع الزوائد (١/ ٣٦) ، والمعجم الكبير (٧/ ٣١٤) .

الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي ؛ إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم . . ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم . . ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته . . ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي ؛ إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً . . فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك . . فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم(١) .

الحديث الحادي والأربعون : عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم ؛ أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ـ قال ـ : من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي . . فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح . . فهو من أهل الجنة » رواه البخاري(٢) .

الحديث الثاني والأربعون : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يتنزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » متفق عليه(٣) .

وفي رواية لمسلم : « ثم يبسط يديه يقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم حتىٰ ينفجر الفجر »(٤) .

قال الطيبي نقلاً عن القاضي ناصر الدين : (لما ثبت بالقواطع العقلية والنقلية من أنه تبارك وتعالىٰ منزه عن الجسمية والتحيز والحلول . . امتنع عليه النزول علىٰ معنى الانتقال من

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) .
(٢) البخاري (٦٣٠٦) .
(٣) البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) .
(٤) مسلم (٧٥٨/ ١٧١) .

موضع أعلىٰ إلىٰ ما هو أخفض منه ، بل يعني علىٰ ما ذكره أهل الحق دنو رحمته ، ومزيد لطفه على العباد ، وإجابة دعوتهم ، وقبول معذرتهم ، كما هو ديدن الملوك الكرماء والسادة الرحماء إذا نزلوا بقرب قوم محتاجين ملهوفين فقراء مستضعفين .

وقد قيل : يهبط من السماء العليا إلى السماء الدنيا ؛ أي : ينتقل من صفات الجلال التي تقتضي الأنفة من الأرذال ، وعدم المبالاة ، وقهر العدا ، والانتقام من العصاة إلىٰ مقتضىٰ صفات الإكرام المقتضية للرأفة والرحمة ، وقبول المعذرة ، والتلطف بالمحتاج ، واستعراض الحوائج ، والمساهلة والتخفيف في الأوامر والنواهي ، والإغضاء عما يبدو من العاصي) اهـ

وقال الإمام محيي الدين يحيىٰ بن زكريا الحوراني رحمه الله تعالىٰ[1] : (إذا كان الغالب علي العبد تردده في حجاب غفلته ، واهتمامه في تحصيل شهوته ، واتباعه لهواه في أمر دنياه ، وإعراضه عن الفكر في أمر عقباه . . فقد نبهه مولاه لأمرين إن حصلا له أو أحدهما . . فقد فاز وحسن مثواه .

أحدهما : مراعاة استيقاظه من نومه في نصف الليل الآخر أو ثلثه ، يقول الله تعالىٰ : « هل من سائل فأعطيه ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له » الحديث .

وذلك وقت إقبال الرب علىٰ عبده بمواهبه السنية ، ونفحات أسراره لمحبيه وأوليائه .

والثاني : مراعاة صلاته بالإقبال عليها في مناجاة ربه ، فلن يزال الله مقبلاً على العبد ما كان العبد مقبلاً علىٰ صلاته ، فإذا التفت . . أعرض عنه ربه ، والالتفات بالقلب أشد من الالتفات بالوجه) اهـ

الحديث الثالث والأربعون : عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ؛ فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك . . أهلكتهم بالأهواء وهم يحسبون أنهم مهتدون »[2] .

الحديث الرابع والأربعون : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن كنا لنعد لرسول الله

---

(١) كذا في النسخ ، والصواب : (يحيىٰ بن شرف أبو زكريا . . .) .
(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٦) .

صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول : « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور » مئة مرة . رواه أحمد والترمذي وأبو داوود[١] .

الحديث الخامس والأربعون : عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدثني أبي عن جدي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه . . غفر له وإن كان فر من الزحف » رواه الترمذي[٢] .

قال أبو نعيم الأصفهاني : (هـٰذا يدل علىٰ أن بعض الكبائر تغفر ببعض العمل الصالح ، وضابطه : الذنوب التي لا توجب علىٰ مرتكبها حكماً في نفس ولا مال .

ووجه الدلالة منه : أنه مثل بالفرار من الزحف ، وهو لا يوجب علىٰ مرتكبه حكماً في نفس ولا مال)[٣] .

الحديث السادس والأربعون : عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صاحب اليمين أمين علىٰ صاحب الشمال ، فإذا عمل العبد حسنة . . أثبتها ، وإذا عمل سيئة . . قال له صاحب اليمين : امكث ست ساعات ، فإن استغفر . . لم تكتب عليه ، وإلا . . أثبت عليه » رواه الهيثمي عن الطبراني ، قال : (ورجاله وثقوا) ورواه البيهقي[٤] .

الحديث السابع والأربعون : عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » رواه الترمذي وأبو داوود[٥] .

الحديث الثامن والأربعون : عن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن تسره صحيفته . . فليكثر فيها من الاستغفار » رواه الهيثمي عن الطبراني ، قال : (ورجاله ثقات)[٦] .

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٢١) ، والترمذي (٣٤٣٤) ، وأبو داوود (١٥١٦) .
(٢) الترمذي (٣٥٧٧) .
(٣) نقله الحافظ في « الفتح » (١١/ ٩٨) .
(٤) مجمع الزوائد (١٠/ ٢١١) ، والمعجم الكبير (٨/ ١٩١) ، وشعب الإيمان (٦٦٤٨) .
(٥) الترمذي (٣٥٥٩) ، وأبو داوود (١٥١٤) .
(٦) مجمع الزوائد (١٠/ ٢١١) ، والمعجم الأوسط (٨٤٣) .

الحديث التاسع والأربعون : عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من حافظين يرفعان إلى الله في يوم فيرىٰ تبارك وتعالىٰ في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً . . إلا قال الله تبارك وتعالىٰ : غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » رواه الهيثمي عن البزار ، قال : (وفيه تمام بن نجيح ، وثقه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح)[1] .

ورواه البيهقي ولفظه : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظ من ليل أو نهار فيجد الله في أول الصحيفة وفي آخرها [خيراً] . . إلا قال الله للملائكة : أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة »[2] .

الحديث الخمسون : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم علىٰ دائكم ودوائكم ؛ داؤكم الذنوب ودواؤكم الاستغفار »[3] .

الحديث الحادي والخمسون : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : « أذنب عبد ذنباً فقال : اللهم ؛ اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالىٰ : أذنب عبدي ذنباً علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب ؛ اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالىٰ : عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب ؛ اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالىٰ : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت ؛ فقد غفرت لك » رواه مسلم[4] .

وفي رواية البخاري : « إن عبداً أصاب ذنباً ـ وربما قال ـ : أذنب ذنباً ، فقال : رب ؛ أذنبت ـ وربما قال ـ : أصبت ذنباً فاغفر لي ، فقال ربه : أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ـ أو أذنب ـ ذنباً ، فقال : رب ؛ أذنبت ـ أو أصبت ـ آخر فاغفره لي ، فقال ربه : أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ـ أو أذنب ـ ذنباً ، فقال :

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/ ٢١١) .

(٢) شعب الإيمان (٦٦٥٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٤٦) .

(٤) مسلم (٢٧٥٨) .

رب ؛ أصبت ـ أو قال ـ : أذنبت آخر فاغفر لي ، فقال : أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي »[1] .

ففي رواية البخاري ذكر مغفرة الذنب في كل مرة ، وليس ذلك في رواية مسلم ، وفي رواية مسلم : « اعمل ما شئت ؛ فقد غفرت لك » وليس ذلك في رواية البخاري .

قال الإمام النووي : (قوله : « اعمل ما شئت ؛ فقد غفرت لك » أي : ما دمت تذنب ثم تتوب . . غفرت لك ، وفيه دلالة ظاهرة علىٰ أنه لو تكرر الذنب مئة ، أو ألف مرة ، أو أكثر ، وتاب في كل مرة . . قبلت توبته ، وسقطت ذنوبه ، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها . . صحت توبته) اهـ[2]

الحديث الثاني والخمسون : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لزم الاستغفار . . جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه[3] .

اعلم أن من شرط الاستغفار : أن يقلع المستغفر عن الذنب ، وإلا . . فالاستغفار باللسان مع التلبس بالذنب كالتلاعب .

قال الشيخ تقي الدين السبكي : (الاستغفار : طلب إما باللسان أو بالقلب أو بهما .

فالأول فيه نفع ؛ لأنه خير من السكوت ، ويتعود قول الخير ، لـٰكن فيه نقص الغفلة .

والثاني والثالث نافعان ، لـٰكنهما لا يسقطان الذنب حتىٰ توجد التوبة ، فإن الاستغفار غير التوبة ؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة ، والعاصي المصر يطلب المغفرة) اهـ[4]

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي : (الاستغفار بالقلب وإن خلا عن حل عقدة الإصرار . . ليس يخلو من فائدة أصلاً ، فلا ينبغي أن نظن أن وجوده كعدمه ، فقد عرف أن قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ صدق ، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر في الرجحان ، ولو خلت الشعيرة الأولىٰ

---

(١) البخاري (٧٥٠٧) .
(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٧/ ٧٥) .
(٣) مسند أحمد (١/ ٢٤٨) ، وأبو داوود (١٥١٨) ، وابن ماجه (٣٨١٩) .
(٤) نقله الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٤٧٢) عن السبكي في « الحلبيات » .

عن أثر . . لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات ، وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخيرات إلىٰ أن يثقل فيشيل كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعة فلا تأتيها ، وذرات المعاصي فلا تتقيها ، فإذاً التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً .

بل أقول : الاستغفار باللسان أيضاً حسنة ؛ إذ حركة اللسان به عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، وإنما يكون نقصاً بالإضافة إلىٰ عمل القلب .

وقول رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار . . لا تذم حركة اللسان من أنه حسنة ، وإنما تذم غفلة القلب ، فهو يحتاج للاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكت عن الاستغفار باللسان . . احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد) اهـ[1]

وورد في فضل الاستغفار والحث عليه آيات كثيرة وأحاديث كثيرة .

قال الإمام الرازي : (اعلم أن الله تعالىٰ وصف نفسه بكونه غافراً وغفوراً وغفاراً ، وبأن له غفراناً ومغفرة ، وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر .

أما وصف نفسه بأنه غافر . . فقوله تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ .

وأما كونه غفوراً . . فقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ .

وأما كونه غفاراً . . فقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ .

وأما الغفران . . فقوله : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ .

وأما المغفرة . . فقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ .

وأما صيغة الماضي . . فقوله في داوود : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ .

وأما صيغة المستقبل . . فقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ .

وأما لفظ الأمر . . فقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ .

واعلم أن الأنبياء كلهم طلبوا المغفرة .

---

(١) الإحياء (٤/ ٤٨ ـ ٤٩) .

أما آدم : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ .

وأما نوح : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي ﴾ .

وأما إبراهيم : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وطلبها لأبيه : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ .

وأما يوسف . . فقال في إخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

وأما موسىٰ . . ففي قصة القبطي : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ . وقوله : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ .

وأما داوود : ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ وأما سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ وأما عيسىٰ : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ .

وأما الأمة : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾)[1] .

وقال ـ أعني الإمام الرازي ـ : (ويتفرع علىٰ ذلك استدلال أصحابنا في إثبات العفو ، وتقريره : أن الذنب إما أن يكون صغيراً ، أو كبيراً ، بعد التوبة أو قبلها ، والقسمان الأولان يقبح من الله عذاب أصحابهما ، وترك القبيح لا يسمىٰ غفراناً ، فتعين أن تحقيق الغفران في حق من استجمع أموراً أربعة : التوبة ، والإيمان ، والعمل الصالح ، والاهتداء ، ثم [من] أذنب بعد ذلك . . كان تائباً ومؤمناً وآتياً بالعمل الصالح ومهتدياً ، ومع ذلك يكون مذنباً ، وحينئذ يستقيم كلامنا ، وهـٰهنا نكتة ، وهي : أن العبد له أسماء ثلاثة : ظالم ، وظلوم ، وظلام إذا كثر ذلك منه ، ولله تعالىٰ في مقابلة ذلك ثلاثة أسماء ، فكأنه تعالىٰ قال : إن كنت ظالماً . . فأنا غافر ، وإن كنت ظلوماً . . فأنا غفور ، وإن كنت ظلاماً . . فأنا غفار) اهـ[2]

وللاستغفار فوائد كثيرة .

منها : محو الذنوب ، وستر العيوب ، وإدرار الرزق ، والعصمة في المال ، وبلوغ الآمال ، وقرب المنزلة من الديان .

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/ ٩٦ ـ ٩٧) .

(٢) انظر « تفسير الرازي » (٢٢/ ٩٧) .

وروي أن رجلاً شكا إلى الحسن البصري الجدب ، فقال : استغفر الله ، وشكا إليه آخر الفقر ، فقال : استغفر الله ، وشكا إليه آخر جفاف بستانه ، فقال : استغفر الله ، وشكا إليه آخر عدم الولد ، فقال : استغفر الله ، ثم تلا عليهم قوله تعالىٰ : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾[1] . . . إلخ .

وفيها : حث على الاستغفار ، وإشارة إلىٰ وقوع المغفرة لمن استغفر ، وإلىٰ ذلك أشار الشاعر بقوله : [من البسيط]

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من جود كفيك ما علمتني الطلبا

وروى الشيخ عز الدين الفاروثي أن الحافظ إسماعيل بن الفضل الأصبهاني ذكر في « تفسيره » أن أعرابياً تعرض للمنصور يستجديه ، فقال : لست أعطيك مالاً ، ولٰكني أذكر لك حديثاً ، أخبرني به أبي عن أبيه عن جده ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من استغفر الله سنة في كل يوم ألف مرة . . لم تنقض السنة حتىٰ يستغني » ففعل الأعرابي ذلك ، ففي آخر السنة وقع غيث كثير فيه برد ، فنزل في كنيسة فانخسف مقابلها من الأرض ، فانحسرت عن جرة فيها ستة وثلاثون ألف درهم ، فرفع أمره إلى المنصور وكان يأخذ من الدفائن الخمس ، فأطلق الأعرابي .

واعلم أن نبي الله نوحاً استغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ، وكان والداه مؤمنين ، وكذلك النبي إبراهيم عليه السلام أيضاً استغفر للمؤمنين .

قال العلماء نفعنا الله بهم : وذلك عام لجميع المؤمنين والمؤمنات في كل أمة ، وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن ملائكته الذين هم يحملون العرش وهم سادة الملائكة أنهم يستغفرون للمؤمنين .

قال أبو حيان : (وذلك يدل علىٰ شرف المؤمنين ، حيث جعل استغفار الملائكة معطوفاً علىٰ إيمانهم وعلىٰ تنزيههم لله تعالىٰ) .

وقال الإمام القشيري : (الملائكة مأمورون بالتسبيح لله ، ثم بالاستغفار للعاصين ؛ لأن الاستغفار للمذنب ، والتوبة إنما تحصل من المذنب) .

---

(١) ذكره ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٩٨) .

قال : (ولئن سلط عليك أراذل من خلقه وهم الشياطين . . فلقد قيض لشفاعتك أفاضل من خلفهم من الملائكة المقربين) اهـ

فإن قلت : قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا ﴾ أي : يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ فأخبر تعالىٰ أن استغفارهم للتائبين ، وذلك لا يدل على استغفارهم للمؤمنين المذنبين .

فالجواب : أن الإمام فخر الدين الرازي قال : (قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ عام يدخل فيه العاصي والمطيع ، وقوله بعد ذلك : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ لا يقتضي تخصيص ذلك العام ؛ لما ثبت في أصول الفقه : أن اللفظ العام إذا ذكر بعده بعض أقسامه . . فإنه لا يوجب تخصيص ذلك العام بذلك الخاص) اهـ[1]

ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ من عميم فضله وطَوْله وكرمه أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ .

قال الإمام الواحدي : (إنما أمره بالاستغفار مع أنه مغفور له ؛ لتستن به أمته في الاستغفار ، وأكرم أمته حين أمره صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم) اهـ[2]

وقال الإمام الرازي رحمه الله تعالىٰ في استدلاله علىٰ ثبوت شفاعته صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر : (اعلم أن الله تعالىٰ أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وقد بينا أن صاحب الكبيرة مؤمن ، وإذا كان كذلك . . ثبت أنه صلى الله عليه وسلم استغفر لهم ، فثبت أن الله تعالىٰ يغفر لهم ، وإلا . . كان الله تعالىٰ قد أمره بالدعاء ؛ ليرد دعاءه ، فيصير ذلك محض التحقير والإيذاء ، وهو غير لائق بالله تعالىٰ ولا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فدل علىٰ أنه تعالىٰ أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بالاستغفار للعصاة ، وأنه يستجيب دعاءه ، ولا معنىً للشفاعة إلا هٰذا) اهـ[3]

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (٣/ ٦٢) .
(٢) انظر « الوسيط » (٤/ ١٢٥) .
(٣) تفسير الرازي (٣/ ٦١) .

ثم نذكر أيضاً فائدة من كلامه وإن لم تكن من باب الاستغفار ، وذلك أنه قال : (قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ فأمر الله تعالى الكل بأنه إذا جاءهم أحد بتحية أن يقابلوها بأحسن منها أو يردوها ، وأمرنا سبحانه بتحية محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ والصلاة من الله تعالىٰ رحمة ، ولا شك أن هـٰذا تحية ، فلما طلبنا الرحمة من الله تعالىٰ لمحمد صلى الله عليه وسلم . . وجب بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أن يفعل محمد صلى الله عليه وسلم مثلها ، وهو أن يطلب لكل المسلمين الرحمة من الله تعالىٰ ، وهـٰذا هو معنى الشفاعة ، وهو عليه السلام غير مردود الدعاء ، فوجب أن يقبل الله شفاعته في الكل) اهـ[١]

اعلم يا أخي ـ وفقني الله تعالىٰ وإياك ـ أن المعاصي تطمس نور القلب الحاصل بالإيمان فيه ، وتسود القلب وتقسيه ، وتمنع العاصي من ذكر مولاه وتنسيه ، فيكون إذاً قرين الشيطان ، ويحصل علىٰ قلبه الران ، فيبعد من رحمة الله الرحمن ، ويخاف من ذلك سوء العاقبة ، فيمنع عند الموت من الإيمان ، ولما ورد أن بريد الكفر العصيان ، ولا يدخل في هـٰذه الشفاعة المقررة بالبرهان ، ولا في استغفار الملائكة لأهل الإيمان . . فالله الله يا إخوان ، بادروا بالتوبة قبل الفوات وعدم الإمكان .

فنسأل الله الكريم المنان أن يحفظ علينا الإيمان ، وأن يجلي من قلوبنا صدأ الران ، وأن يوفقنا لاتباع نبينا محمد المبعوث من عدنان ، وألا يخيب رجاءنا ، فهو ذو الرحمة والغفران ، وقد قال تعالىٰ : (أنا عند ظن عبدي بي)[٢] فنحن نظن به الجميل والإحسان .

* * *

(١) تفسير الرازي (٣/ ٦١) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

فَصْلٌ

في الآثار الواردة في الحث على التوبة

عن النعمان بن بشير قال : سمعت عمر رضي الله عنه يقول : ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ قال : هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ، فلا يريد أن يعمل به ولا يعود[1] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : التوبة النصوح : أن يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود إليه[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ قال : الذي يلم الذنب ثم يدعه ، ألم تسمع إلىٰ قول الشاعر : [من الرجز]

إن تغفـر اللهـم تغفـر جمـاً وأي عبـد لـك مـا ألمـا ؟![3]

وعن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ قال : كل من عصىٰ ربه فهو جاهل[4] .

وقال الضحاك : قوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ كل توبة قبل الموت فهي قريب[5] .

وعن ثابت : بلغنا أن إبليس قال : يا رب ؛ خلقت آدم وجعلت بيني وبينه عداوة فسلطني علىٰ ذريته ، قال : قيل له : صدورهم مساكن لك ، قال : رب ؛ زدني ، قال : لا يولد لآدم ولد إلا ولد لك عشرة ، قال : رب ؛ زدني ، قال : تجري منهم مجرى الدم ، قال : رب ؛ زدني ، قال : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ .

قال : فشكا آدم إبليس إلىٰ ربه ، فقال : يا رب ؛ إنك خلقت إبليس وجعلت بيني وبينه عداوة وبغضاً وسلطته علي وأنا لا أطيقه إلا بك ، قال : قيل له : لا يولد لك ولد إلا وكلت

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٣٤) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٣٥) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٥٦) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٧١) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٧٢) .

به ملكين يحفظانه من قرناء السوء ، قال : رب ؛ زدني ، قال : الحسنة بعشر أمثالها ، قال : رب ؛ زدني ، قال : لا أحجب عن أحد من ولدك التوبة ما لم يغرغر[1] .

فائدة ليست مما أنا فيه ، ولكني ذكرتها استطراداً ؛ ليستفيدها من لم يكن وقف عليها :

قال الإمام صاحب الحقائق والدقائق ، المستنبط للمعنى البديع الذي هو للشرع موافق ، فخر الدين الرازي : (في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ قولان :

الأول : قول الجبائي وجمهور المعتزلة القائلين بالوعيد : المراد بالمتقين الذين اتقوا جميع المعاصي ، قالوا : لأنه اسم مدح ، فلا يتناول إلا من يكون كذلك .

والقول الثاني : وهو قول جمهور الصحابة والتابعين ، وهو القول المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المراد الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه وتعالىٰ والكفر به) .

قال : (وأقول : هـٰذا القول هو الصحيح ؛ لأن المتقي هو الآتي بالتقوىٰ مرة واحدة ، كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة ، والقاتل هو الآتي بالقتل مرة ، وكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضارباً وقاتلاً كونه آتياً بجميع أنواع الضرب والقتل . . فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوىٰ ؛ لأن الآتي بفرد من أفراد التقوىٰ يكون آتياً بالتقوىٰ ، فثبت أن الآتي بفرد من أفراد التقوىٰ يصدق عليه كونه متقياً ، فإذا ثبت ذلك . . فنقول : ظاهر قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يقتضي حصول ذلك لكل من اتقىٰ عن شيء واحد ، إلا أن الأمة مجمعة علىٰ أن التقوىٰ عن الكفر شرط في حصول هـٰذا الحكم ، ولأن هـٰذه الآية وردت عقب قول [الله علىٰ لسان] إبليس : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وعقب قوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ .

ولأجل هـٰذه الدلائل اعتبرنا الإيمان في هـٰذا الحكم ، فوجب ألا نزيد فيه قيداً آخر ؛ لأن تخصيص العام لما كان خلاف الظاهر . . فكلما كان التخصيص أقل . . كان أوفق لمقتضى الأصل والظاهر ، فثبت أن قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يتناول جميع القائلين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله قولاً واعتقاداً ، سواء كانوا من أهل الطاعة ، أو من أهل المعصية ، وهـٰذا تقرير بين وكلام ظاهر) اهـ[2]

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٦٩) .

(٢) انظر « تفسير الرازي » (١٩/ ١٩١ ـ ١٩٢) .

ثم نرجع إلىٰ ما نحن بصدده فنقول :

روي عن النعمان بن بشير في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : إذا أذنب أحدكم . . فلا يلقين بيده إلى التهلكة ، ولا يقولن : لا توبة لي ، ولـٰكن ليستغفر الله ، وليتب إليه ، فإن الله غفور رحيم[1] .

وعن البراء رضي الله عنه وقال له رجل : يا أبا عمارة ؛ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ أهو الرجل يلقى العدو فيقاتل حتىٰ يقتل ؟ قال : لا ، ولـٰكن هو الرجل يذنب الذنب فيقول : لا يغفره الله لي[2] .

وفي رواية عنه : ويقول : لا توبة لي[3] .

وعن سعيد بن المسيب في قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ قال : هو الذي يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب[4] .

وعن سلمة بن نبيط عن عبيد بن أبي الجعد عن كعب قال : إن لله تعالىٰ لداراً من درة ، أو لؤلؤة فوقها لؤلؤة ، فيها سبعون ألف قصر ، في كل قصر سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت ، لا ينزلها إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد ، أو إمام عادل ، أو رجل محكم في نفسه .

قال سلمة : فقلت لعبيد : ما الرجل المحكم في نفسه ؟ فقال : الرجل يطلب الحرام من المال والنساء ثم يتركه مخافة الله ، فذلك المحكم في نفسه[5] .

وعن مغيث بن سُمي قال : كان رجل فيمن كان قبلكم يعمل بالمعاصي ، فادكر يوماً فقال : اللهم ؛ غفرانك غفرانك ، فغفر له[6] .

وعن محمد بن النضر قال : قرأت في بعض الكتب : يقول الله تعالىٰ : (ابن آدم ؛ لو

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٤٥) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٩١) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٩٢) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٦٩٣) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٠٥) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٠٨) .

يعلم الناس منك ما أعلم . . لنبذوك ، ولـٰكني سأغفر لك ما لم تشرك بي)[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كل ذنب أصر عليه العبد كبير ، وليس بكبير ما تاب منه العبد[2] .

وعن كعب قال : إن العبد ليذنب الذنب الصغير فيحقره ولا يندم عليه ولا يستغفر منه ، فيعظم عند الله حتىٰ يكون مثل الطَّوْد[3] ، ويعمل الذنب العظيم فيندم عليه ويستغفر منه فيصغر عند الله تعالىٰ حتىٰ يغفر له[4] .

وقال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك كذا يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك كذا يصغر عند الله[5] .

وقال ابن السماك : أصبحت الخليقة علىٰ ثلاثة أصناف : صنف تائب من الذنب ، موطن نفسه علىٰ هجران ذنبه ، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيئه ، هـٰذا المبرر ، وصنف يذنب ثم يندم ، ويذنب ويحزن ، ويذنب ويبكي ، هـٰذا يرجىٰ له ويخاف عليه ، وصنف يذنب ولا يندم ، ويذنب ولا يحزن ، ويذنب ولا يبكي ، فهـٰذا الخائن الحائد عن طريق الجنة إلى النار[6] .

وعن كعب قال : أصاب رجل من بني إسرائيل ذنباً فحزن عليه ، وجعل يذهب ويجيء ويقول : بم أرضي ربي ؟ بم أرضي ربي ؟ فكُتِب صدِّيقاً[7] .

وعنه أيضاً قال : انطلق رجلان من بني إسرائيل إلىٰ مسجد من مساجدهم ، فدخل أحدهما وجلس الآخر خارجاً من المسجد وجعل يقول : ليس مثلي يدخل بيت الله عز وجل وقد عصيته ، ليس مثلي يدخل بيت الله عز وجل وقد عصيته ، فكُتِب صدِّيقاً[8] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٢٦) .
(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٤٨) .
(٣) **الطَّوْد** : الجبل العظيم .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٥٠) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٥١) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٥٥) .
(٧) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٦١) .
(٨) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٦٢) .

وقال سعيد بن المسيب : الناس يعملون أعمالهم من تحت كنف الله ، فإذا أراد الله بعبد فضيحة . . أخرجه من تحت كنفه فبدت عورته[1] .

وذكر في « عجائب المخلوقات » عن جعفر الصادق أنه قال : ما من مؤمن . . إلا وله مثال تحت العرش ، فإذا اشتغل بالركوع والسجود . . فعل مثاله مثل ذلك ، فعند ذلك تراه الملائكة ، فيصلون عليه ويستغفرون له ، وإذا اشتغل العبد بمعصية . . أرخى الله تعالىٰ علىٰ مثاله الستر ؛ لئلا تطلع الملائكة عليه ، وهـٰذا تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : « يا من أظهر الجميل وستر القبيح »[2] .

وقال إبراهيم بن أدهم : إن للذنوب ضعفاً في القوة ، وظلمة في القلب ، وإن للحسنات قوة في البدن ، ونوراً في القلب[3] .

وقال أبو حفص : المعاصي بريد الكفر كما أن الحمىٰ بريد الموت[4] .

وقال عبيد الله بن شميط : ما دام قلب العبد مصراً علىٰ ذنب واحد . . فعمله معلق في الهواء ، فإن تاب من ذلك الذنب وإلا . . بقي عمله كذلك[5] .

وقال جعفر بن محمد : من أخرجه الله تعالىٰ من ذل المعصية إلىٰ عز التقوىٰ . . أغناه الله بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة ، وآنسه بلا أنيس ، ومن خاف الله . . خاف منه كل شيء ، ومن لم يخف الله . . أخافه الله من كل شيء[6] .

وقال لقمان لابنه : يا بني ؛ لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة[7] .

قال بعضهم : [من الخفيف]

اغتنم في الفراغ فضل ركوع ... فعسىٰ أن يكون موتك بغتهْ

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٢٣) .
(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٤٤) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٢٧) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٣١) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٤٢) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٤٩) .
(٧) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٠٢) .

كـم صحيـح تـراه مـن غيـر سقـم ذهبـت نفسـه العـزيـزة فلتـهْ[1]

وقال إبراهيم بن أدهم : إن قلب المؤمن أبيض نقي مجلي مثل المرآة ، فلا يأتيه الشيطان من ناحية من النواحي بشيء من المعاصي . . إلا نظر إليه كما ينظر إلىٰ وجهه في المرآة ، فإذا أذنب ذنباً . . نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب من ذنبه . . محيت النكتة من قلبه وانجلىٰ ، وإن لم يتب وتتابعت الذنوب ذنباً بعد ذنب . . نكت في قلبه نكتة نكتة حتىٰ يسود القلب ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

قال : الذنب بعد الذنب حتىٰ يسود القلب ، فما أبطأ ما تنجع في هـٰذا المواعظ ! فإن تاب إلى الله تعالىٰ . . قبله وانجلىٰ عن قلبه كجلي المرآة[2] .

وقال إبراهيم أيضاً : إنك إن أدمت النظر في مرآة التوبة . . بان لك قبيح شَيْن المعصية[3] .

وقال الفضيل : قال الله تعالىٰ : (بشر المذنبين أنهم إن تابوا . . قبلت منهم توبتهم ، وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي . . عذبتهم) .

وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله تعالىٰ أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولـٰكن أصبحوا تائبين ، وأمسوا تائبين[4] .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه . . محيت عنه في أم الكتاب .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال تائباً نادماً حتىٰ يدخل الجنة ، فيقول إبليس : ليتني لم أوقعه في الذنب .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اجلسوا إلى التوابين ؛ فإنهم أرق أفئدة .

---

(١) ذكرهما الحافظ ابن حجر رحمه الله في « الفتح » (١/ ٤٨١) من شعر الإمام البخاري ، وعزاهما للحاكم في « تاريخه » .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨١٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٥٦) .

(٤) أخرجه عبد الله بن المبارك في « الزهد » (٣٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٦٥) .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل ، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين . . سقط عنه أسرع من طرفة عين[1] .

وقال بعضهم : أنا من أن أُحْرَم التوبةَ أَخْوَفُ من أن أُحْرَم المغفرة .

أي : أن المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة .

* * *

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٠١) بنحوه وقال : (رواه الطبراني ورجاله ثقات) .

فَصْلٌ

في التوبة وشروطها

التوبة في لسان العرب : الرجوع ، يقال : تاب وثاب بالمثناة والمثلثة والهمز والمد إذا رجع ، فإذا أضيفت إلى العبد . . فهي رجوع عما كان مذموماً بالشرع إلىٰ ما هو محمود في الشرع ، وإذا أضيفت إلى الله تعالىٰ . . فالمراد رجوع نعمه وآلائه علىٰ عبده .

ولما كانت المعصية متكررة من العباد . . عدل من فاعل إلىٰ فعَّال ، فسمىٰ نفسه تواباً ؛ ليقابل الخطأ الكبير بالتوبة الواسعة .

قال بعضهم : (وكانت التوبة في بني إسرائيل بقتل النفس ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ .

وتوبة هـٰذه الأمة أشد ، وهي إفناء نفوسهم عن مرادها مع بقاء الهياكل ، ومثَّله بعضهم بمن أراد كسر لوزة في قارورة ، وذلك مع عسره يسير علىٰ من يسره الله تعالىٰ عليه) اهـ[1]

قال الإمام النووي رحمه الله في « شرح مسلم » : (للتوبة ثلاثة شروط : الإقلاع ، والندم علىٰ فعل تلك المعصية ، والعزم علىٰ ألا يعود إليها أبداً .

فإن كانت المعصية حق آدمي . . فلها ركن رابع ، وهو التحلل من صاحب ذلك الحق)[2] .

أي : إذا قدر ، وإلا . . فيكفي العزم علىٰ أدائه عند قدرته عليه .

قال إمام الحرمين : (إذا ندم ولم يرد المظلمة . . فقد صحت توبته ، وما تعلق برد المظلمة حق آخر وجب عليه ، فإذا لم يفعل . . لم يبطل ما أتىٰ به من حقيقة التوبة) اهـ

قال الإمام النووي : (وأصلها الندم ، وهو ركنها الأعظم ، واتفقوا علىٰ أن التوبة من

---

(١) ذكر القشيري في « لطائف الإشارات » (١/ ٩٢) كلاماً قريباً من هـٰذا .

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٥٩) .

جميع المعاصي واجبة ، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها ، سواء كانت المعصية كبيرة أو صغيرة .

والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل، ولا يجب على الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً عند أهل السنة، لـٰكنه سبحانه وتعالىٰ يقبلها كرماً منه تعالىٰ وتفضلاً ، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع خلافاً لهم) اهـ[١]

وما ذكره ـ نفعنا الله تعالىٰ به ـ من أن شروط التوبة هي الثلاثة المذكورة فقط. . هو الصحيح .

ومنهم من اشترط مع ذلك الاستغفار ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ .

ومنهم من اشترط الاعتراف ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب. . تاب الله عليه »[٢] وهـٰذا الذي ذكره هو ما قاله الفقهاء .

وقال أهل الأصول : إنما الشرط الندم فقط ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » ويتحقق الندم عند أهل الأصول بالشروط التي ذكرها النووي . كذا قاله الشيخ تاج الدين في « جمع الجوامع » .

وهـٰذا إذا ندم لله تعالىٰ ، أما إذا ندم لا لله تعالىٰ كما لو ندم علىٰ شرب الخمر ؛ لكونها تضره في بدنه. . فليس ذلك بتوبة ، هـٰكذا استدرك هـٰذا الشرط بعض الفقهاء ، ولا يحتاج إليه .

قال الإمام النووي : (وإذا تاب من ذنب ثم ذكره. . هل يجب عليه تجديد الندم ؟ قال ابن الباقلاني[٣] : يجب ، وقال إمام الحرمين : لا يجب ، وإذا تاب ثم عاود ذلك الذنب. . كتب عليه الذنب الثاني ولم تبطل توبته . هـٰذا مذهب أهل السنة ، وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصراً علىٰ ذنب آخر) اهـ[٤]

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

(٣) في « شرح صحيح مسلم » : (ابن الأنباري) ، ولعل الصواب ما أثبت ؛ إذ هو الموجود في النسختين ، وفي « الروضة » (١١/ ٢٥٠) .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٥٩ـ ٦٠) .

هـٰذا قول الفقهاء .

وقالت الصوفية : لا تكون توبة السالك مفتاحاً للمقامات حتىٰ يتوب عن جميع الذنوب ؛ لأن كدورة بعض القلب واسوداده بالذنب يمنع من السير إلى الله تعالىٰ .

أقول : لا مخالفة بين الفقهاء والصوفية ؛ لأن الفقهاء نظروا إلىٰ سقوط ذلك الذنب بالتوبة منه ، فإنه يسقط عنه ويبقى الذنب الآخر ، والصوفية نظروا إلىٰ تنقيته وتصفيته وتأهله للوقوف بين يدي الله تعالىٰ ، ولا شك أنه ليس أهلاً لذلك ، والفقهاء لا يخالفون في هـٰذا ، مثال ذلك : ما إذا كان في الثوب نجاسات متفرقة فظهر بعضها ، فإن الفريقين يحكمان بصحة تطهير ذلك البعض ، ويحكمان بأنه لا تصح الصلاة فيه حتىٰ يطهر من جميع النجاسات ، وهـٰذا ظاهر .

وما ذكره الفقهاء ـ نفعنا الله تعالىٰ بهم ـ من وجوب التوبة عن الصغائر . . هو الصحيح ، وتوقف الإمام تقي الدين السبكي في وجوب التوبة عنها عيناً ، فقال : (يحتمل ألاَّ تجب التوبة منها عيناً ، بل إما بالتوبة وإما بالإتيان بشيء من المكفرات ، أو تجب ولـٰكن لا تجب على الفور حتىٰ يمضي ما يكفرها أو تركه .

ويحتمل أن يقال : تجب التوبة منها كما تجب من الكبائر ، وهو الذي قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري) اهـ

وقال ولده تاج الدين : (الذي أراه وجوب التوبة عيناً على الفور من كل ذنب .

نعم ؛ لو فرض عدم التوبة عن الصغيرة ثم جاءت المكفرات . . كفرت الصغيرتين ، وهما تلك الصغيرة وعدم التوبة) اهـ[1] .

وأجمع علماء أهل السنة ـ نفعنا الله تعالىٰ بهم ـ أن الكبيرة لا تسقط إلا بالتوبة ، وأنها لا تسلب الإيمان .

وإذا لم يتب صاحب الكبيرة . . فهو تحت خطر المشيئة ، وإذا عوقب بها . . فلا يخلد في النار .

فإن قيل : لم قلتم : إن الكبيرة لا تسقط إلا بالتوبة وقد ورد في أحاديث كثيرة عنه

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٧/ ٩٨) فقد نقل كلام والده ثم قال : (وهـٰذا علىٰ حسنه غير مسلم عندي ، بل الذي أراه . . .) إلخ .

صلى الله عليه وسلم مغفرة ما تقدم من الذنب بفعل الصالحات ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا توضأ وسمىٰ علىٰ وضوئه . . خرجت خطاياه »[1] .

و« من قام رمضان إيماناً واحتساباً . . غفر له ما تقدم من ذنبه »[2] .

وأن « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما »[3] .

و« رمضان إلىٰ رمضان كفارة لما بينهما »[4] .

و« من حج ولم يفسق ولم يرفث . . رجع كيوم ولدته أمه » ؟![5]

قيل : هٰذه أحاديث مطلقة ، وقد ورد : « ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها . . إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤتِ كبيرة »[6] فحمل المطلق على المقيد .

قال القاضي عياض : (هٰذا هو مذهب أهل السنة ، وهو أن الكبائر إنما تكفرها التوبة ، أو رحمة الله وفضله) اهـ[7]

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن علي القلعي : (ما ورد من الأخبار الصحيحة في مغفرة ما تقدم من الذنب . . لفظ عام يجوز تخصيصه بالخبر والقياس .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه مخصوص بالصغائر دون الكبائر ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلىٰ رمضان . . كفارات لما بينهما ما لم تغش الكبائر »[8] .

فإذا كانت هٰذه العبادات التي هي أركان الإسلام وأفضل الطاعات وأعظم القربات اشترط في تكفيرها اجتناب الكبائر . . فكيف بما دونها ؟! فيحمل المطلق في تلك الأحاديث علىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥) بنحوه .
(٢) أخرجه البخاري (٣٧) ، ومسلم (٧٥٩) .
(٣) أخرجه أحمد(٢/ ٥٠٦) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٣٨) .
(٥) أخرجه البخاري (١٥٢١) ، ومسلم (١٣٥٠) .
(٦) أخرجه مسلم (٢٢٨) .
(٧) نقله الإمام النووي عن القاضي في « شرح صحيح مسلم » (٣/ ١١٢) .
(٨) أخرجه مسلم (٢٣٣) ، والترمذي (٢١٤) .

هـٰذا الحديث المقيد ، والقياس أيضاً يخص ذلك ، فأي نظر يقتضي أن من قال كلمتين من الدعاء ، أو أتىٰ بعبادة يسيرة لا كلفة عليه فيها ولا مشقة ، مع اجترائه على الكبائر ، وانتهاكه للمحارم ، واستخفافه بأوامر الله تعالىٰ ونواهيه ، وعظم جرأته على الله تعالىٰ في ذلك ، مع ما ورد في كل واحد منها من تغليظ الوعيد . . يكفر ذلك جميعه ؟!

بل لو قيل ذلك وحمل منه هـٰذه الأحاديث الواردة فيه علىٰ ظاهرها وعمومها . . لأدىٰ إلىٰ إبطال آيات الوعيد الواردة في ذلك مع كثرتها وصحتها وتواترها واستقامتها ، بل الواجب في ذلك أن يجمع بين الأخبار مهما أمكن الجمع ، ولا يرد بعضها ببعض ، فتبقىٰ أخبار الوعيد علىٰ ما هي عليه في الكبائر ، فلا يكفرها إلا التوبة ، ويحمل التكفير على الصغائر بدليل ما قدمنا من الحديث ، وبدليل ما روي أنه لما أصيب مدعم غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم غرب فمات . . قال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلا ، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً »[1] .

فإذا لم تكفر الشهادة مع عظم قدرها وعلو خطرها هـٰذه المعصية ، مع حقارتها ونزارة قدرها . . فكيف يطمع في تكفير ما هو مثلها وأعظم منها من الكبائر العظام ، والجرائم الجسام بعمل يسير لا كلفة فيه ، ولا نسبة له إلى الشهادة ، مع ما ورد في فضله ؟!) اهـ .

فتقرر أن الكبيرة لا تسقط إلا بالتوبة ، وأن الصغيرة تسقط بالتوبة وبفعل الحسنات .

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي : (وقد تصير الصغيرة كبيرة بأسباب :

منها : الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها غيرها لو تصور ذلك . . كان العفو عنها أرجىٰ من صغيرة يواظَب عليها ، ومثال ذلك : قطرات من الماء تقع على الحجر علىٰ توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة . . لم يؤثر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « خير الأعمال أدومها وإن قل »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٤) ، ومسلم (١١٥) ، والذي في النسخ : (أنها يوم بدر) ولعل الصواب ما أثبت : من أنها يوم خيبر ، كما في « الصحيحين » وغيرهما .

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٦٢) ، ومسلم (٧٨٢/ ٢١٨) .

ومنها : أن يستصغر الذنب ؛ فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه.. صغر عند الله ، وكلما استصغره.. كبر عند الله تعالىٰ ، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن ؛ لعلمه بجلال الله تعالىٰ ، فإذا نظر إلىٰ عظم من عصىٰ به.. رأى الصغير كبيراً .

ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات[1] ؛ إذ كانت معرفة الصحابة رضي الله عنهم بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالنسبة إلىٰ جلال الله تعالىٰ كبائر ، وبهـٰذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامي في الأمور ما لا يتجاوز في أمثالها عن العارف ؛ لأن الذنب والمخالفة يعظم بمعرفة قدر المخالف .

ومنها : السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، فكلما غلبت حلاوة صغيرة عند العبد.. كبرت ، حتىٰ إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ، كما يقول : أما تراني كيف مزقت عرضه ؟! ويقول المناظر : أما تراني كيف فضحته ، وكيف ذكرت مساوئه حتىٰ أخجلته ؟! ويقول المعامل في التجارة : أما رأيتني كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته ؟!

وهـٰذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر ، فإن الذنوب مهلكات .

ومنها : أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ، ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ، ويظن أن تمكينه من المعاصي عناية من الله تعالىٰ به ، فيكون ذلك سبباً لأمنه من مكر الله تعالىٰ وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

ومنها : أن يأتي بالذنب ، ويظهره بعد إتيانه بذكره أو يأتيه في مشهد غيره ، فإن ذلك منه جناية علىٰ ستر الله الذي أسدله عليه ، وتحريك لرغبة البشر ممن أسمعه ذنبه أو أشهده [فعله] .

وفي الخبر : « كل أمتي معافىً إلا المجاهرين ، يبيت أحدهم علىٰ ذنب قد ستره الله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٢) عن أنس رضي الله عنه .

عليه ، فيصبح يكشف ستر الله ويتحدث بذنبه »[1] وهٰذا لأن من صفات الله تعالىٰ ونعمه أن يظهر الجميل ، ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهٰذه النعمة .

ومنها : أن يكون المذنب عالماً يقتدىٰ به ، فإذا فعله بحيث يرىٰ ذلك منه . . كبر ذنبه ، كلبس العالم الإبريسم ، وأخذه مال الشبهة ، وإطلاق اللسان في الأعراض ، وتعديه باللسان في المناظرة ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة ، فهٰذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقىٰ شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة ، فطوبىٰ لمن إذا مات . . ماتت معه ذنوبه .

وفي الخبر : « من سن سنة سيئة . . فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء »[2] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق .

وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها .

وفي الإسرائيليات : أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل في الإصلاح دهراً ، فأوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبيهم : قل له : إن ذنبك لو كان بيني وبينك . . لغفرته لك ، ولٰكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار ؟!

فبهٰذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، فعليهم وظيفتان : ترك الذنب ، وإخفاؤه .

وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب . . فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا)[3] .

ثم قال رضي الله عنه : (وقد علمت أن شروط التوبة : الندم ، وترك المعصية ، والعزم علىٰ ألا يفعلها ، فعلامة الندم : رقة القلب ، وغزارة الدمع ، وتمكن مرارة الذنب في قلبه بدلاً عن حلاوتها ، فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة .

وفي الإسرائيليات : أن الله سبحانه وتعالىٰ قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) ، وابن خزيمة (٢٤٧٧) ، وابن ماجه (٢٠٣) ، وغيرهم .

(٣) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٢ ـ ٣٣) .

أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال : وعزتي لو شفع فيه أهل السماوات والأرض . . ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه .

وترك المعصية هو ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي ، وهو تدارك ما فرط ، وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت ، فيعقد مع الله تعالىٰ عقداً مؤكداً ، ويعاهده بعهد وثيق ألا يعود إلىٰ تلك الذنوب ولا إلىٰ أمثالها .

ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوت حلال ، فإن رأس المعاصي أكل الحرام ، فكيف يكون تائباً بالإصرار عليه ؟!

ومن مهمات التائب إن لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل ، وما يحرم عليه حتىٰ يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر العزلة . . لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، والتوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة .

أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر . . فممكن ؛ لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله تعالىٰ ، وأجلب لسخطه ومقته ، والصغائر أقرب إلىٰ تطرق العفو عنها ، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه .

وقد كثر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوماً ، فلا تستدعي التوبة العصمة .

وأما التوبة عن بعض الكبائر دون بعض . . فهو أيضاً ممكن ؛ لاعتقاده أن بعض الكبائر أعظم عند الله ، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم للعباد ؛ لعلمه أن ديوان العباد لا يترك ، وما بينه وبين الله تعالىٰ يتسارع العفو إليه .

وكذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً .

وأما التوبة عن صغيرة أو صغائر وهو مصر علىٰ كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلىٰ غير المحرم وهو مصر علىٰ شرب الخمر فهٰذا أيضاً ممكن ، ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن . . إلا وهو خائف من معاصيه ، ونادم علىٰ فعله ندماً إما ضعيفاً ،

وإما قوياً ، ولـٰكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوىٰ من ألم قلبه في الخوف منها ، فيكون الندم موجوداً ، ولـٰكن لا يكون مليئاً بتحريك العزم ولا قوياً عليه .

ولو لم يتصور هـٰذا . . لما تصور من الفاسق أن يصلي ويصوم ، ولقيل له : إن كانت صلاتك لغير الله . . فلا تصح ، وإن كانت لله . . فاترك الفسق لله ، فإن أمْرَ اللهِ فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالىٰ ما لم تتقرب بترك الفسق ، وهـٰذا محال ، بل يقول : لله علي أمران ، ولي على المخالفة فيهما عقوبتان ، وأنا مليء في أحدهما بقهر الشيطان ، عاجز عنه في الآخر ، فأنا أقهره عما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني ما عجزت عنه بفرط شهوتي ، فكيف لا يتصور هـٰذا وهو حال كل مسلم ؟! إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ، ولا سبب إلا هـٰذا .

وإذا فُهِمَ هـٰذا . . فُهِم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » ولم يشرط الندم علىٰ كل ذنب ، وقال صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها .

وبهـٰذه المعاني سقط قول القائل : إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكن ؛ لأنها متماثلة في حق الشهوة ، وفي حق التعرض لسخط الله تعالىٰ .

ولا بد أن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه إما في شدة المعصية ، وإما في غلبة الشهوة .

وإذا حصل هـٰذا التفاوت . . فندمه علىٰ ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لا يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله تعالىٰ في جميع الأوامر والنواهي)[1] .

وقال الحليمي كما قال الغزالي بصحة التوبة من كبيرة دون أخرىٰ من غير جنسها ، ومقتضاه عدم الصحة إذا كانت من جنسها ، وبه صرح الأستاذ أبو بكر ، لـٰكن قال الأستاذ أبو إسحاق : يصح لو تاب من الزنا بامرأة مع الإقامة على الزنا بمثلها .

قال ابن القشيري : وأباه الأصحاب .

وقال الإمام الغزالي رضي الله عنه : (فإذا تاب . . فقد يستقيم على التوبة إلىٰ آخر عمره ،

---

(١) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٤ ـ ٤٠) .

فيتدارك ما فرط في أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلىٰ ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات ، فهٰذا هو الاستقامة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات ، المستبدل بالسيئات حسنات ، واسم هٰذه التوبة : التوبة النصوح ، واسم هٰذه النفس : النفس المطمئنة التي ترجع إلىٰ ربها راضية مرضية .

وقد يسلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات ، وترك الكبائر والفواحش كلها ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وصمد ، بل يبتلىٰ بها في مجاري أحواله من غير تقدم عزم على الإقدام عليها ، ولٰكنه كلما أقدم عليها . . لام نفسه ، وندم وتأسف ، وجدد عزمه علىٰ أن يتشمر في الاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها ، وهٰذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، وهٰذه رتبة عالية وإن كانت ناقصة عن الطبقة الأولىٰ ، وهي أغلب أحوال التائبين ؛ لأن الشر معجون بطينة الآدمي لا ينفك عنه ، وإنما غاية سعته أن يغلب خيره شره حتىٰ يثقل ميزانه ، وترجح كفة الحسنات .

وأما خلو كفة السيئات . . ففي غاية البعد ، وهٰؤلاء لهم حسن الوعد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ فأثنىٰ عليهم مع ظلمهم أنفسهم ، وإلىٰ مثل هٰذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « خياركم كل مفتن تواب » .

وفي خبر آخر : « المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً »[1] .

وفي الخبر : « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة »[2] أي : الحين .

فكل ذلك أدلة قاطعة علىٰ أن هٰذا القدر لا ينقص التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين .

وقد يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب ، فيقدم عليها عن قصد وصدق شهوة ؛ لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هٰذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، ويود لو أقدره الله علىٰ قمعها ، وكفاه شرها ، هٰذا أمنيته في حال قضاء

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٠٨٠) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٣٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٢٢) .

الشهوة ، وعند الفراغ يندم ويقول : ليتني لم أفعل ، وسأتوب ، لـٰكنه يسوف بالتوبة مرة بعد أخرىٰ ، ويوماً بعد يوم ، فهـٰذه النفس هي المسوِّلة ، وصاحبها مِنَ الذين قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ فأمره مرجو ، فعسىٰ أن يتوب الله عليه ، وعاقبته مخطرة ، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ومن عليه بالتوبة . . التحق بالسابقين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته . . فيخشىٰ أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل .

ومهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة . . كان هـٰذا من علامات الخذلان .

فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة ، وكل نفس فهو خاتمة ما قبله ؛ إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع في المحذور ، ودامت الحسرات حتىٰ لا ينفع التحسر .

وقد يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف علىٰ فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهوته ، فهـٰذا من جملة المصرين ، وهـٰذه النفس غير النفس الأمارة ، وهـٰذا يخاف عليه سوء الخاتمة ، فإن ختم له بالسوء . . شقي شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنىٰ حتىٰ مات على التوحيد . . فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه)[1] .

قال رضي الله عنه : (وإذا استجمعت التوبة شرائطها . . فهي مقبولة ، وإذا فهمت معنى القبول . . لم تشك في أن كل قلب سليم مقبول عند الله ؛ لأن القلب خلق خلقاً سليماً في الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمها ، ونار الندم تحرق تلك الغبرة ، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، وكما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، فمن يتوهم أن التوبة تصح

---

(١) انظر « الإحياء » (٤/ ٤٣ ـ ٤٥) .

ولا تقبل.. فهو كمن يتوهم أن الشمس تطلع ولا يزول الظلام ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن... » الحديث .

والفرح وراء القبول ، فهـٰذا دليل على القبول وزيادة .

فإن قيل : أفنقول ما قاله المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله.. فأقول : لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله : إن الثوب إذا غسل بالصابون.. وجب زوال الوسخ ، وإن العطشان إذا شرب الماء.. وجب زوال العطش ، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة من الإيجاب على الله تعالىٰ ، بل أقول : خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الله الماء مزيلاً للعطش ، والقدرة متسعة لخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالىٰ ، ولـٰكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة) اهـ[1]

قال الإمام القشيري رحمه الله تعالىٰ : (قال أبو بكر الواسطي : التوبة النصوح لا تبقي علىٰ صاحبها أثر المعصية لا سراً ولا جهراً ، ومن كانت توبته نصوحاً.. لا يبالي كيف أمسىٰ وأصبح) .

ثم قال ـ أعني الإمام القشيري ـ : (اعلم أن الله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

ومن قارف الزلة.. فهو من خطئه علىٰ يقين ، فإذا تاب.. فإنه من القبول علىٰ شك ، لا سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقاً لمحبة الحق ، وإلىٰ أن يبلغ العاصي محلاً يجد في أوصافه أمارة محبة الله إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذاً على العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب منه التوبة.. دوام الانكسار ، وملازمة التنصل والاستغفار ، كما قالوا : استشعار الوجل إلى الأجل .

وقال عز من قائل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

---

(١) انظر « الإحياء » (٤/١٣ـ١٥) .

وكان من سنته صلى الله عليه وسلم دوام الاستغفار .

وقال يحيىٰ بن معاذ : زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها) اهـ[1]

وقال أبو الحسين النوري : (التوبة أن يتوب من كل شيء سوى الله تعالىٰ) .

وقال أيضاً : (رياء العارفين إخلاص المريدين ؛ لأن الذي يتقرب به إلى الله تعالىٰ في وقت قصده وابتدائه من القربات والطاعات لمَّا تمكن وتحقق ، وشملته أنوار الهداية ، وأثنته العناية ، وحوته الرعاية ، وشاهد ما شاهد بقلبه من عظمة سيده ، والتفكر في صنع صانعه ، وقديم إحسانه . . تاب عن الملاحظة والالتفات والسكون إلىٰ ما كان من طاعته وأعماله وقرباته في حين إرادته وبداياته .

فشتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب عن الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات) اهـ

ويقال : من رجع عن المخالفات خوفاً من عذاب الله . . فهو تائب ، ومن رجع حياء من الله . . فهو منيب ، ومن رجع تعظيماً لله . . فهو أواب ، وهو معنىٰ قول عمر رضي الله عنه : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله . . لم يعصه[2] ؛ يعني : أنه يترك المعاصي تعظيماً لجلال الله ، ولو لم يتوعد الله تعالىٰ عليها بعقوبة .

❊ ❊ ❊

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٨٠ ـ ٨١) .

(٢) انظر « المقاصد الحسنة » (ص ٤٤٩) .

فَصْلٌ

في حكايات من حكايات التائبين

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين. . . حتىٰ عد سبع مرات ، ولـٰكني سمعته أكثر من ذلك ، قال : « كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً علىٰ أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته. . أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ، أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولـٰكن هـٰذا عمل ما عملته قط ، وإنما حملتني عليه الحاجة ، قال : فتعملين هـٰذا ولم تفعليه قط فاذهبي فهو لك ، ثم قال : والله لا أعصي الله أبداً ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوب علىٰ بابه : قد غفر الله للكفل » رواه البيهقي والترمذي[1] .

وعن مصعب بن عثمان قال : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً ، فدخلت عليه امرأة فسامته نفسه فامتنع وغلبها ، فقالت : إذاً أفضحك ، فخرج إلىٰ خارج وتركها ـ يعني : في منزله ـ وهرب منها .

قال سليمان : فرأيت فيما بعد يوسفَ عليه السلام فيما يرى النائم ، فكأني أقول له : أنت يوسف ؟ قال : نعم ، أنا يوسف الذي هَمَمْتُ ، وأنت سليمان الذي لم تهم . رواه البيهقي[2] .

وعن إبراهيم بن شيبان قال : كان عندنا شاب عبد الله عشرين سنة ، فأتاه الشيطان فقال له : يا هـٰذا ؛ أعجلت في التوبة والعبادة وتركت الدنيا ، فلو رجعت. . فإن التوبة بين يديك ، قال : فرجع إلىٰ ما كان عليه من لذات الدنيا ، قال : فكان يوماً في منزله قاعداً في خلوة ، فذكر أيامه مع الله فحزن عليها ، فقال : ترىٰ إذا رجعت يقبلني ؟! فنودي :

---

(١) شعب الإيمان (٦٧٠٧) ، والترمذي (٢٤٩٦) .

(٢) شعب الإيمان (٦٧٠٩) .

يا هـٰذا ؛ عبدتنا فشكرناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، ولئن رجعت إلينا . . قبلناك . رواه البيهقي[1] .

وعن بكر بن عبد الله المزني أن قصاباً ولع بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها إلىٰ حاجة لهم في قرية أخرىٰ ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل ، لأنا أشد حباً لك منك لي ، ولـٰكني أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟! فرجع تائباً ، فأصابه العطش حتىٰ كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل ، فسأله قال : ما لك ؟ قال : العطش ، قال : تعال حتىٰ ندعو حتىٰ تظلنا سحابة حتىٰ ندخل القرية ، قال : ما لي من عمل فأدعو ، قال : فأنا أدعو وأمن أنت ، قال : فدعا الرسول وأمن هو ، فأظلتهم سحابة حتى انتهوا إلى القرية ، فأخذ القصاب إلىٰ مكانه فمالت السحابة عليه ورجع الرسول ، فقال له : زعمت أن ليس لك عمل وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت ، فأظلتنا سحابة ثم تبعتك ، لتخبرنِّي ما أمرك ، فأخبره ، فقال الرسول : التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه[2] .

كان الفضيل بن عياض رحمه الله شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينا هو يرتقي الجدران إليها . . إذ سمع تالياً يتلو : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فلما سمعها . . قال : بلىٰ يا رب قد آن ، ورجع فآواه الليل إلىٰ خربة ، وإذا فيها سابلة ، فقال بعضهم : نرتحل ، وقال بعضهم : حتىٰ نصبح ؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، ففكرت فقلت : أنا أسعىٰ بالليل في المعاصي ، وقوم من المسلمين هـٰهنا يخافونني ، ما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم ؛ إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام[3] .

سئل ابن المبارك عن أول زهده فقال : إني كنت يوماً في بستان وأنا شاب مع جماعة من أترابي ، وذلك في وقت الفواكه ، فأكلنا وشربنا ، وكنت مولعاً بضرب العود ، فقمت في بعض الليالي وإذا غصن يتحرك عند رأسي ، فأخذت العود لأضرب به فإذا العود ينطق وهو يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فضربت بالعود الأرض فكسرته ،

---

(١) شعب الإيمان (٦٧٢٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٦٣) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٩٣٥) .

وصرفت ما عندي من جميع الأمور التي كنت عليها مما يشغل عن الله عز وجل ، وجاء التوفيق من الله تعالىٰ ، وكان ما سهل لنا من الخير بفضله ورحمته[1] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان في بني إسرائيل رجل عابد ، وكان معتزلاً في كهف له ، قال : وكان بنو إسرائيل قد أعجبوا بعبادته ، فبينا هم عند نبيهم عليه السلام . . إذ ذكروه فأثنوا عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنه لكما تقولون لولا أنه تارك لشيء من السنة ، قال : فنقل ذلك إلى العابد ، قال : ففكر العابد فقال : علام أدئب نفسي وأتعبها وأصوم النهار وأقوم الليل وأنا تارك لشيء من السنة ؟! قال : فهبط من مكانه ، قال : وأتى النبي صلى الله علىٰ نبينا وعليه وسلم والناس عنده ، فسلم عليه ، ورد عليه النبي والنبي لا يعرفه بوجهه ويعرفه باسمه ، فقال : يا نبي الله ؛ إنه بلغني أني ذكرت عندك بخير ، فقلت : إنه لكما تقولون لولا أنه تارك لشيء من السنة ، فإن كنت تاركاً . . فعلام أدئب نفسي وأصوم النهار وأقوم الليل ؟!

قال له النبي عليه السلام : أنت فلان ؟ قال : نعم ، قال : ما هو بشيء أحدثته في الإسلام إلا أنك لا تَزَوج ، فقال له العابد : وما هو إلا هـٰذا ؟ قال : نعم .

قال : فكأن العابد استخف بذلك ، فلما رأى النبي عليه السلام ذلك . . قال : أرأيت لو فعل الناس ما فعلت ، من أين كان يكون هـٰذا النسل ؟! من كان ينفي العدو عن ذراري المسلمين ؟! من كان يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ؟!

قال : فعرف العابد ، قال : فقال : يا نبي الله ، هو كما قلت ، ما بي أن أكون أحرمه ، ولـٰكني أخبرك عني ، أنا رجل فقير ، وأنا كَلٌّ على الناس وهم يطعمونني ويكسونني ليس لي مال ، فأنا أكره أن أتزوج امرأة مسلمة أعضلها وليس عندي ما أنفق عليها ، وأما الأغنياء . . فلا يزوجونني ، قال : فقال عليه السلام : فأنا أزوجك ابنتي ، قال : وتفعل ؟ قال : نعم ، قال : قد قبلت ، قال : فزوجه ابنته ، قال : ودخل بها فولدت له غلاماً .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فوالله ما ولد في بني إسرائيل مولود كانوا أشد فرحاً به منهم بذلك الغلام ، قالوا : ابن عابدنا وابن نبينا ، إنا نرجو أن يبلغ الله به ما بلغ برجل منا ،

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٩٣٦) .

قال : فلما بلغ الغلام . . انقطع إلىٰ عبدة الأوثان ، قال : فتبعه فِئام منهم كثير[1] ، قال : فلما رأىٰ كثرتهم . . قال لهم : إني أراكم كثيراً ، وإن هـٰؤلاء القوم غالبون لكم ، فبم ذاك ؟! قالوا : نخبرك لهم رأس وليس لنا رأس ، قال : ومن رأسهم ؟ قالوا : جدك ، وليس لنا رأس مثله ، قال : فأنا رأسكم ، قالوا : تفعل ؟ قال : نعم .

قال : فخرج وخرج معه خلق كثير ، قال : فأرسل إليه جده وأبوه ؛ أن : اتق الله ، خرجت علينا بعبدة الأوثان ، وتركت الإسلام ، وأخذت في دين غيره ، فأبىٰ .

فخرج النبي عليه السلام وخرج معه أبوه ، فدعوه فأبىٰ ، فاقتتلوا حتىٰ حجز بينهم الليل ، ثم اقتتلوا اليوم الثاني حتىٰ حجز بينهم الليل ، فقتل النبي وقتل أبوه ، وانهزم المسلمون ، وضبط الأرض ، واستوسق له الناس ، قال : فجعلت نفسه لا تدعه حتىٰ يتبع المسلمين ويقتلهم في الجبال .

قال : فلما رأى المسلمون ذلك . . اجتمعوا فقالوا : قد خلينا له عن الملك وهو يتبعنا ويقتلنا ، وانهزمنا عن نبينا وعابدنا حتىٰ قتلا ، وليس يدعنا أو يقتلنا ، تعالوا فنتوب إلى الله توبة نصوحاً ، فنقتل ونحن تائبون ، فتابوا إلى الله ، وولوا رجلاً منهم أمرهم ، فخرجوا إليه فاقتتلوا أول يوم حتىٰ حجز بينهم الليل ، ثم غدوا واقتتلوا حتىٰ حجز بينهم الليل ، وكثر القتل بينهم ، وغدوا اليوم الثالث فاقتتلوا ، فلما علم الله منهم الصدق وأنهم قد تابوا . . تاب الله عليهم ، وأقبلت الريح لهم ، فقال لهم صاحبهم : إني لأرجو أن يكون الله قد تاب علينا وقبل منا ، إني أرى الريح قد أقبلت معنا ، فإن نصرنا الله . . فإن استطعتم أن تأخذوه سلماً فلا تقتلوه .

قال : فأنزل الله عز وجل النصر عليهم من آخر النهار ، فهزموهم وأخذوه أسيراً ، ومكن الله المسلمين في الأرض ، وظهر الإسلام .

قال : فجمع رأس المسلمين خيار المسلمين فقال : ما ترون في هـٰذا ، بدل دينه ، ودخل مع عبدة الأوثان في دينهم ، وقتل نبينا جده ، وقتل أباه ؟ فقائل يقول : أحرقه بالنار حتىٰ يموت فيذهب ، وقائل يقول : قطعه ، قال : فقال : إنه يموت فيذهب ، قالوا : فأنت أعلم ، اصنع به ما شئت ، قال : فإني أرىٰ أن أصلبه حياً ثم أدعه حتىٰ يموت .

---

(١) الفِئام : الجماعات من الناس .

قالوا : افعل ، قال : ففعل ذلك ؛ صلبه حياً وجعل عليه الحرس ولم يقتله ، وجعلوا لا يطعمونه ولا يسقونه ، فمكث أول يوم والثاني واليوم الثالث ، فلما كان في جوف الليل . . أُجهد الرجل ، فعمد إلىٰ أوثانه التي كان يعبد من دون الله ، فجعل يدعو صنماً صنماً منها ، فإذا رآه لا يجيب . . تركه ودعا آخر حتىٰ دعاها كلها فلم تجبه .

قال : وجهد ، فقال : اللهم ؛ إني قد جهدت ، وقد دعوت الآلهة التي كنت أدعو من دونك فلم تجبني ، ولو كان عندها خير . . لأجابتني ، وأنا تائب إليك ربَّ جدي وأبي ، فخلصني مما أنا فيه ، فإني قد تبت إليك وأنا من المسلمين ، فتحلل عنه عقده ، فإذا هو بالأرض ، فأخذ فأتي به صاحبهم ، فقال : ما ترون فيه ؟ فقالوا : وما نرىٰ فيه ، الله يخلي عنه ، وتسألنا ما نرىٰ فيه ؟! قال : صدقتم ، قال : فخلوا عنه .

قال ابن عباس : فوالله ما كان في بني إسرائيل بعدُ رجلٌ خيراً منه[١] .

وعن بكر بن عبد الله المزني أن ملكاً من الملوك كان متمرداً علىٰ ربه عز وجل ، فغزاه المسلمون فأخذوه سلماً ، فقالوا : بأية قتلة نقتله ؟ فأجمع رأيهم علىٰ أن يتخذوا قمقماً عظيماً ويجعلوه فيه ، ويحشوا النار تحته ، ولا يقتلوه ؛ ليذيقوه طعم العذاب ، ففعلوا ذلك ، فجعلوا يحشون تحته النار ، فجعل يدعو آلهته واحداً واحداً : يا فلان ؛ ألم أكن أعبدك ، وأصلي لك ، وأمسح وجهك ، وأفعل بك وأفعل ، فأنقذني مما أنا فيه ، فلما رآهم لا يغنون عنه شيئاً . . رفع رأسه إلى السماء فقال : لا إله إلا الله ، فدعا الله عز وجل مخلصاً فقال : لا إله إلا الله .

فصب الله مثعباً من السماء فأطفأ تلك النار[٢] ، وجاءت ريح فاحتملت القمقم ، فجعل يدور بين السماء والأرض وهو يقول : لا إله إلا الله ، فقذفه الله إلىٰ قوم لا يعبدون الله ولا يعرفون الله وهو يقول : لا إله إلا الله ، فأخرجوه وقالوا : ويحك ما لك ؟ فقال : أنا ملك بني فلان ، كان من أمري ، وكان من أمري ، فآمنوا[٣] .

روىٰ هـٰذه الحكايات من أول الفصل إلىٰ هنا الإمام البيهقي .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧١٠) .

(٢) المثعب : مسيل الماء .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧١١) .

قال ذو النون المصري : بينا أنا أطوف بالبيت . . إذ رأيت شاباً عليه جبة صوف وهو يتبختر ويقول : إلهي ؛ هـٰذه خطرة من افتخر بغيرك ، وتعزز بسواك ، فكيف تكون خطرة من ليس له محبوب سواك ؟! فقلت له : يا حبيبي ؛ ما الخبر ؟ [قال] فقال : يا عم ؛ انظر إلىٰ ذلك الشاب يتبختر عجباً ؛ لأنه عبد أمير مكة .

قال ذو النون : فتقدمت فإذا شاب يسحب إزاره على الأرض عجباً ، قلت له : يا فتىٰ ؛ أنت تتبختر لأنك عبد أمير مكة ، وهـٰذا الفقير خلفك عبد ملك السماوات والأرض ، تأخر حتىٰ يتقدم ؛ فهو أحق بالخطرة منك ، فرأيت الشاب قد تأخر وقال للفقير : تقدم ؛ فأنت والله أحق مني ، طوبىٰ لمن كان مثلك ، ثم قضىٰ طوافه ومضىٰ منكسر الرأس وقد عملت فيه الكلمات .

فرجع إلىٰ سيده واشترىٰ نفسه منه وتصدق بكل ما يملكه ، ولبس جبة صوف وأقبل إلى البيت في اليوم الثاني ، فلقيني فقال : يا شيخ ؛ أترى الله يقبلني بعد تلك الذنوب العظام .

فقلت : يا حبيبي ؛ أبشر ، فإنك حبيب الله ، أما علمت أنه يدعو المدبرين عنه فكيف المقبلين عليه ؟! فأخلص النية فإنه يقبلك علىٰ ما كان منك ، فقال : يا عم ؛ طيبت قلبي بعد أن كاد يصدع ، فجزاك الله من واعظ خيراً ، ثم مضىٰ ، فلما كان في اليوم السابع . . أتاني الشاب فقال لي : يا شيخ ؛ أحسن الله عزاءك في الشاب التائب ، فإنه قد مات ، فقلت : ألا تُرينيه ، فأُتي بي إليه فوجدته مسجىً ووجهه كدارة القمر ، فسألت عن حاله ، فقيل لي : إنه دخل هـٰذا المكان وغل يده إلىٰ عنقه ، ولزم المحراب يبكي علىٰ نفسه ، فلما كان اليوم . . وجدناه ميتاً .

قال ذو النون : فشهدت جنازته ، فلم يبق بمكة إلا قليل حتىٰ حضروا جنازته ، فرأيته تلك الليلة في المنام وهو يتبختر ويقول : شتان ما بين الخطرتين ، فقلت : حبيبي ؛ ما فعل الله بك ؟ فقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ .

ذكر ذلك صاحب كتاب « طهارة القلوب »[1] .

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي في كتابه « كتاب التوابين » : قال صالح بن عمر : حدثني أبي قال : كان بالمدينة امرأة متعبدة ولها ولد يلهو ، وهو ملهي

(١) طهارة القلوب (ص١٢٨ ـ ١٢٩) .

أهل المدينة ، وكانت تعظه أمه وتقول : يا بني ؛ اذكر مصارع الغافلين قبلك ، وعواقب البطالين قبلك ، اذكر نزول الموت ، فيقول إذا ألحت عليه : [من السريع]

كفـي عـن التعـذيـل واللـوم	واستيقظـي مـن سنـة النـوم
إنـي وإن تـابعـت فـي لـذتـي	قلبـي وعـاصيتـك فـي لـومـي
أرجـو مـنِ أفضـالـه تـوبـة	تنقـل مـن قـوم إلـىٰ قـوم

فلم يزل كذلك حتىٰ قدم أبو عامر البناني واعظ أهل الحجاز في رمضان ، وسأله إخوانه أن يجلس لهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم وجلس ليلة الجمعة بعد انقضاء التراويح ، واجتمع الناس ، وجاء الفتىٰ ، فلم يزل أبو عامر يعظ وينذر ويبشر إلىٰ أن ماتت القلوب فرقاً ، واشتاقت إلى الجنة ، فوقعت الموعظة في قلب الغلام ، فتغير لونه ، ثم نهض إلىٰ أمه فبكىٰ عندها طويلاً ثم قال : [من السريع]

زممـت للتـوبـة أجمـالـي	ورحـت قـد طـاوعـت عـذالـي
وأُبـت والتـوبـة قـد فتحـت	مـن كـل عضـو لـيَ أقفـالـي
لمـا حـدى الحـادي بقلبـي إلـى	ربـي تعـالـىٰ فـك أغـلالـي
أجبتـه لبيـك مـن مـوقـظ	نبـه بـالتـذكـار أغفـالـي
يـا أم هـل يقبلنـي سيـدي	علـى الـذي قـد كـان مـن حـالـي
واسـوءتـا إن ردنـي خـائبـاً	ربـي ولـم يـرض بـإقبـالـي

ثم شمر في العبادة وجد ، وكان لا يفطر إلا بعد التراويح ، ولا ينام إلا بعد طلوع الشمس ، فقربت إليه أمه ليلة إفطاره فامتنع وقال : أجد ألم الحمىٰ ، فأظن أن الأجل قد أزف ، ثم فزع إلىٰ محرابه ولسانه لا يفتر من الذكر ، فبقي أربعة أيام علىٰ تلك الحال ، ثم استقبل القبلة يوماً وقال : إلهي ؛ عصيتك قوياً ، وأطعتك ضعيفاً ، وأسخطتك جلداً ، وخدمتك نحيفاً ، فليت شعري هل قبلتني ؟!

ثم سقط مغشياً عليه ، فانشج وجهه ، فقامت إليه أمه فقالت : يا ثمرة فؤادي ، وقرة عيني ؛ رد جوابي ، فأفاق فقال : يا أماه ؛ هـٰذا اليوم الذي كنت تحذريني ، وهـٰذا الوقت الذي كنت تخوفيني ، فيا أسفاً على الأيام الخوالي! يا أماه ؛ إني خائف علىٰ نفسي أن يطول في النار حبسي ، بالله عليك يا أماه ؛ قومي فضعي رجلك علىٰ خدي حتىٰ أذوق طعم الذل

لعله يرحمني ، ففعلت وهو يقول : هٰذا جزاء من أساء ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ .

قالت أمه : فرأيته في المنام ليلة الجمعة وكأنه القمر ، فقلت : يا ولدي ؛ ما فعل الله بك ؟ قال : خيراً ؛ رفع درجتي ، قلت : فما كنت تقول قبل موتك ؟ قال : هتف بي هاتف : أجب الرحمن ، فأجبت ، قلت : فما فعل أبو عامر ؟ فقال : هيهات! أين نحن من أبي عامر ؟! ثم قال : [من السريع]

حل أبو عامر في قبة ... وطدها ذو العرش للناس
بين جوار كالدمىٰ خردٍ ... يسقينه بالكأس والطاس
يقلن بالترخيم خذها فقد ... هنيتها يا واعظ الناس[1]

وحكاياتهم رضي الله عنهم كثيرة ، ولنقتصر علىٰ هٰذه النبذة اليسيرة ، فهي بالنسبة إلىٰ هٰذا الكتاب كثيرة ، والمقصود من إيراد أخبارهم ، التشويق والترغيب إلىٰ أحوالهم ، والاقتداء بآثارهم .

وفقنا الله تعالىٰ لذلك ، وجنبنا المهالك ، وهدانا لأحسن المسالك ، بحرمة نبيه محمد أفضل كل ناسك .

* * *

(١) كتاب التوابين (ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦) .

فَصْلٌ

فيما ورد في سعة رحمة الله تعالىٰ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق . . كتب كتاباً فهو عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

وفي رواية : « غلبت غضبي » متفق عليه(١) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش علىٰ ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة » متفق عليه(٢) .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة . . ما طمع بجنته ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة . . ما قنط من جنته » متفق عليه(٣) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تَحَلَّبَ ثَدْيُها ، إذا وجدت صبياً في السبي . . أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم : « أترون هـٰذه طارحة ولدها في النار ؟! » فقلنا : لا ، وهي تقدر علىٰ ألا تطرحه ، فقال : « لله أرحم بعباده من هـٰذه بولدها » متفق عليه(٤) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله

---

(١) البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) .
(٢) البخاري (٦٠٠٠) ، ومسلم (٢٧٥٢/ ١٩) .
(٣) البخاري (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٥) .
(٤) البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

كتب الحسنات والسيئات ، فمن هم بحسنة فلم يعملها . . كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها . . كتبها الله عنده عشر حسنات إلىٰ سبع مئة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها . . كتبها الله له عنده حسنة ، فإن هم بها فعملها . . كتبها الله له سيئة واحدة » متفق عليه[1] .

وعن عامر الرام قال : بينا نحن عند النبي صلى الله عليه وسلم . . إذ أقبل رجل عليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه ، فقال : يا رسول الله ؛ مررت بغَيْضة شجر فسمعت بها أصوات أفراخ طائر ، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي ، فجاءت أمهن فاستدارت علىٰ رأسي ، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن ، فلففتهن بكسائي ، فهن أولاء معي ، قال : « ضعهن » فوضعهن ، وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتعجبون لرَحْم أم الأفراخ فراخها ؟! فوالذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها ، ارجع بهن حتىٰ تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن » فرجع بهن . رواه أبو داوود[2] .

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد ليلتمس مرضاة الله فلا يزال بذلك ، فيقول الله عز وجل لجبريل : إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ، ألا وإن رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله علىٰ فلان ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولهم حتىٰ يقولها أهل السماوات السبع ، ثم تهبط له إلى الأرض » رواه أحمد[3] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته ، فمر بقوم فقال : « من القوم ؟ » قالوا : نحن المسلمون ، وامرأة تحصب بقدرها ومعها ابن لها ، فإذا ارتفع وهج . . تنحت به ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : أنت رسول الله ؟ قال : « نعم » قالت : بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين ؟! قال : « بلىٰ » قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟! قال : « بلىٰ » قالت : إن الأم لا تلقي ولدها في النار ، فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ، ثم رفع رأسه إليها فقال : « إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد ، الذي يتمرد

---

(١) البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

(٢) أبو داوود (٣٠٨٩) .

(٣) مسند أحمد (٥/ ٢٧٩) .

علىٰ الله ، وأبىٰ أن يقول : لا إله إلا الله » رواه أحمد ، قال الهيثمي : (ورجاله رجال الصحيح غير ميمون بن عجلان ، وهو ثقة)[1] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه[2] .

قال الطيبي : (قوله : « وثلاث حثيات » يحتمل فيها النصب عطفاً علىٰ قوله : « سبعين ألفاً » والرفع عطفاً علىٰ قوله : « سبعون ألفاً » والرفع أظهر في المبالغة في الكثرة ، وإلا . . فلا كف ثم ولا حثي ، جل الله عن ذلك وعز .

والحثية : ما يحثيه الإنسان بيديه من ماء أو تراب ، وتستعمل فيما يعطيه المعطي بكفيه دفعة واحدة ، وقد جيء به هـٰهنا علىٰ وجه التمثيل ، وأريد به الدفعات ؛ أي : يعطيني بعد ذلك العدد المنصوص عليه ما يخفىٰ علىٰ[3] العادين حصره وتعداده ، فإن عطاءه الذي لا يضبطه الحساب أوفىٰ وأربىٰ من النوع الذي يدخله الحساب) اهـ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول : أبشروا معشر المسلمين ؛ فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين : هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : لم ؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك ، فيقول : قد أوجبت لكم مغفرتي »[5] .

---

(١) انظر « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٠٥) فحكمُ الهيثمي رحمه الله تعالىٰ هـٰذا إنما هو عن حديث ثوبان رضي الله عنه المذكور قبل هـٰذا الحديث ، وليس عن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ثم إن الحديث عند ابن ماجه (٤٢٩٧) ، وقد ذكره الضياء المقدسي في « فضائل الأعمال » (٧٧٨) في آخر الكتاب وعزاه لابن ماجه فقط ، وكذا فعل السيوطي في « الجامع الصغير » كما في هامش « فيض القدير » (٢/ ٢٧٣) ، ولم يَعْزُهُ أحد للإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ . فليتنبه .

(٢) مسند أحمد (٥/ ٢٦٨) ، والترمذي (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٦) .

(٣) في (أ) : (عن) .

(٤) أخرجه الدارقطني في « رؤية الله » (٤٩) .

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠١٧)، وغيرهم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً واحداً وخافني في مقام »[1] .

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « من زادت حسناته علىٰ سيئاته يوم القيامة . . فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئاته يوم القيامة . . فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ، وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوثق نفسه ، وأثقل ظهره »[2] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لقي الله لا يعدل به شيئاً في الدنيا ، ثم كان عليه مثل الجبال من الذنوب . . غفر الله له » رواه البيهقي في « كتاب البعث والنشور » .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يستخلص رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل منها مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هٰذا شيئاً ، أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلىٰ إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة بيضاء فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يا رب ؛ وما هٰذه البطاقة مع هٰذه السجلات ؟! فيقول : إنك لا تظلم .

قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء » رواه الترمذي وابن ماجه[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد في العبادة ، والآخر مذنب ، فجعل صاحبه يقول له يقول : أقصر عما أنت فيه ، فيقول المذنب : خلني وربي ، حتىٰ وجده يوماً علىٰ ذنب استعظمه ، فقال : أقصر ، فقال : خلني وربي ، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيباً ؟! فقال : والله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٩٤) .

(٢) اخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/ ٤١٣) ، وعزاه الحافظ ابن حجر رحمه الله في « الفتح » (١١/ ٤٠٢) لابن أبي حاتم والحاكم .

(٣) الترمذي (٢٦٣٩) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) .

لا يغفر الله لك أبداً ، أو لا يدخلك الجنة ، فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر علىٰ عبدي رحمتي ؟! فقال : لا يارب ، قال : اذهبوا به إلى النار » رواه أحمد[1] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس . . إذ رأيناه ضحك حتىٰ بدت نواجذه ، فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين ، فقال أحدهما : يا رب ؛ خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله تعالىٰ : أعط أخاك مظلمته ، فقال : يا رب ؛ لم يبق من حسناتي شيء ، فقال الله تعالىٰ للطالب : كيف يفعل ولم يبق من حسناته شيء ؟! قال : يا رب يتحمل من أوزاري » وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : « إن ذلك يوم عظيم يحتاج الناس إلىٰ أن يحمل من أوزارهم ، قال : فقال الله تعالىٰ للطالب : ارفع رأسك ، فرفع رأسه فقال : يا رب ؛ أرىٰ مدائن من فضة مرتفعة ، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ ، ولا تكون إلا لنبي أو صديق أو شهيد ، فقال : لمن هـٰذا يا رب ؟ قال : لمن أعطاني ثمنه ، قال : ومن يملك ذلك يا رب ؟ قال : أنت تملكه ، قال : بم يا رب ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : يا رب ؛ فإني قد عفوت عنه ، فقال الله : خذ بيد أخيك فادخلا الجنة » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ؛ فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالىٰ : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه . . ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ . . ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً . . تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً . . تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي . . أتيته هرولة »[3] .

قوله : « أنا عند ظن عبدي بي » قال الكرماني : (فيه إشارة إلىٰ ترجيح جانب الرجاء على الخوف)[4] .

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٢٣) .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥)

(٤) شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١٨) .

وهٰذا ـ كما قال أهل التحقيق ـ : مقيد بالمحتضر ، وأما قبل ذلك . . ففي الأولىٰ أقوال : ثالثها الاعتدال ، ويؤيد ذلك حديث : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالىٰ »[1] .

وقال ابن أبي جمرة : (المراد بالظن هنا : العلم) وهو كقوله تعالىٰ ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ .

وقال القرطبي : معناه : ظن عبدي في الإجابة عند الدعاء ، وظن القبول عند التوبة ، وظن المغفرة عند الاستغفار ، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها ؛ تمسكاً بصادق وعده ، ويؤيده الحديث الآخر : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة »[2] .

قال : وكذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقناً بأن الله يقبله ويغفر له ؛ لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ، فإن اعتقد أو ظن أن الله تعالىٰ لا يقبلها ، أو أنها لا تنفعه . . فهٰذا هو اليأس من رحمة الله ، وهو من الكبائر ، ومن مات علىٰ ذلك . . وُكِلَ إلىٰ ما ظن .

قال : وأما ظن المغفرة مع الإصرار . . فذاك محض الجهل والغرور[3] .

وعن ثابت البناني قال : كان شاب به رهق ، وكانت أمه تعظه تقول : يا بني ؛ إن لك يوماً فاذكر يومك ، إن لك يوماً فاذكر يومك .

فلما نزل به أمر الله أكبَّتْ عليه أمه فجعلت تقول : يا بني ؛ قد كنت أحذرك مصرعك هٰذا وأقول لك : إن لك يوماً فاذكر يومك ، فقال : يا أماه ؛ إن لي رباً كثير المعروف ، وإني لأرجو ألا يعدمني اليوم بعض معروف ربي أن يغفر لي .

قال ثابت : فرحمه الله بحسن ظنه بربه في حالته تلك[4] .

وعن أبي غالب قال : كنت أختلف إلى الشام في تجارة ، وعظم ما كنت أختلف من أجل أبي أمامة ، فإذا فيها رجل من قيس من خيار الناس ، فكنت أنزل معه ، ومعنا ابن أخ له

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) ، وأبو داوود (٣١١٣) ، وابن ماجه (٤١٦٧) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) .

(٣) انظر « المفهم » (٧/ ٥ ـ ٦) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧١٢)

مخالف لأمره ، ينهاه ويضربه فلا يطيعه ، فمرض الفتىٰ ، فبعث إلىٰ عمه فأبىٰ أن يأتيه ، فأتيته أنا به حتىٰ أدخلته عليه ، فأقبل يشتمه ويقول : أي عدو الله الخبيث ؛ ألم تفعل كذا ؟! قال : أفرغت أي عم ؟ قال : نعم ، قال : أرأيت لو أن الله دفعني إلىٰ والدتي ما كانت صانعة بي ؟ قال : إذاً كانت والله تدخلك الجنة ، قال : فوالله لله أرحم بي من والدتي ، فقبض الفتىٰ ، فخرج عليه عبد الملك بن مروان ، فدخلت القبة مع عمه فخطوا له خطاً ولم يلحدوه ، قال : فقلنا باللبن فسويناه ، فسقطت منه لبنة ، فوثب عمه فتأخر ، قلت : ما شأنك ؟ قال : ملىء قبره نوراً ، وفسح له مد البصر(١) .

وعن محمد بن أبان عن حميد قال : كان لي ابن أخت مرهقاً ، فمرض فأرسلت إلي أمه ، فأتيتها فإذا هي عند رأسه تبكي ، فقال : يا خال ؛ ما يبكيها ؟ فقلت : ما تعلم منك ، قال : أليس أنها ترحمني ؟! قلت : بلىٰ ، قال : فإن الله أرحم بي منها ، فلما مات . . أنزلته القبر مع غيري ، فذهبت أسوي لبنة فاطلعت في اللحد فإذا هو فسح له في قبره مد بصري ، فقلت لصاحبي : رأيت ما رأيت ؟ قال : نعم ، فليهنك ذاك ، قال : فظننت أنه بالكلمة التي قالها .

لما احتضر النضر بن عبد الله بن حازم . . قيل له : أبشر ، فقال : والله ما أبالي أمت أم ذُهِب بي إلى الأبلة ، والله ما أخرج من سلطان ربي إلىٰ غيره ، ولا نقلني ربي من حال قط إلىٰ حال . . إلا كان ما نقلني إليه خيراً لي مما نقلني عنه(٢) .

وعن إدريس بن عبد الله المروزي قال : مرض أعرابي فقيل له : إنك تموت ، فقال : أين يُذْهَب بي ؟ قال : إلى الله ، قال : فما كراهتي أن أذهب إلىٰ من لا أرى الخير إلا منه ؟!(٣)

روي عن الفقيه الدراج أنه بمدينة فارس قال : كان يحضر مجلس والدي شاب حسن الهيئة والفهم ، عنده أدب ، إلا أنه كان تعتريه بطالة الشباب ، ففقد من المجلس أياماً ، فأصبح الفقيه يسأل أصحابه عنه وعن سبب تأخره علىٰ غير عادته في السؤال عنه ، فلم يجد عندهم خبراً ، فقالوا له : ما سبب سؤالك عنه ؟

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧١٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧١٦) . والأبلة : بلدة علىٰ شاطىء دجلة .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧١٧) .

قال : إني رأيته البارحة في النوم وعليه بزة حسنة ، وقد تزايد حسنه وبهاؤه ، فسلم علي فأخذت أعاتبه في تأخره عن المجلس واشتغاله بالبطالة ، فقال لي : يا سيدي ؛ ما علمت أني مت ، قال : فقلت له : وما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ببيتين قلتهما عند وفاتي ، هما مكتوبان في الحائط عند رأسي في الموضع الذي توفيت فيه .

ثم قال الشيخ لمن حضر من الطلبة : سيروا بنا إلىٰ منزله ، فإن كان مريضاً . . عدناه ، وإن كان ميتاً . . ترحمنا عليه ، فإن هـٰذه بشرىٰ في حقه .

قال : فوصلنا إلىٰ منزله فقرعنا الباب فخرجت إلينا أخت له لم يكن له من الأهل سواها ، فسألناها عنه فقالت : إن له أياماً مريضاً ، وكنت أبيت معه في منزله لأتكلف من خدمته في الليل ما يعجز عنه ، فلما كان البارحة . . أقسم علي لترجعي إلىٰ بيتك وتنامي فيه ، فإني أجد الليلة في نفسي راحة ، فقمت وتركته ، فلما أصبحت . . انتظرت أن يدعوني أو يستيقظ من نومه ، فلم يستيقظ ، فقلت : لعله وجد راحة ، فتركته وهو إلى الآن لم يستيقظ من نومه ، فقلنا لها : ادخلي عليه وأيقظيه وعرفيه بمكاننا ؛ فإنا جئنا عائدين له .

فدخلت ثم رجعت من فورها باكية وقالت : يا سيدي ؛ وجدته قد مات ، قال : فدخلنا عليه فوجدناه مستلقياً مستقبل القبلة ميتاً ، فترحمنا عليه ودعونا له ، وأخذنا في تجهيزه ، ثم تذكرت البيتين اللذين عرفني أنهما سبب المغفرة ، فنظرت إلى الحائط الذي بإزائه فوجدت مكتوباً عليه : [من السريع]

قالت لي النفس أتاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم
وما ادخرت الزاد قلت اقصري لا يحمل الزاد لدار الكريم

قال المزني رحمه الله : دخلت على الشافعي رضي الله عنه وهو عليل ، فقلت : كيف أصبحت يا أستاذ ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء فعالي ملاقياً ، وعلى الله وارداً ، وبكأس المنية شارباً ، فوالله ما أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم بكىٰ وأنشأ يقول : [من الطويل]

إليك إلـٰه الخلق أرفع رغبتي وإن كنتُ يا ذا المن والجود مجرما
ولما قسىٰ قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما

تعــاظمنــي ذنبــي فلمــا قــرنتــه بعفــوك ربــي كــان عفــوك أعظمــا
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجــود وتعفــو منــة وتكــرمــا
ولــولاك لــم يغــوىٰ بــإبليــس عــابـد فكيــف وقــد أغــوىٰ صفيــك آدمــا
فــإن تعـف عنـي تعـف عــن متمـرد ظلــوم غشــوم مــا يــزايــل مــأثمــا
وإن تنتقــم منــي فلســت بــآيــس ولــو أدخلـت نفسي بجـرمـي جهنمـا
فجـرمـي عظيـم مـن قـديـم وحـادث وعفوك يا ذا العرش ما زال أجسما[1]

* * *

(١) أخرجه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ٣٣١) مع نقص في بعض الآيات

خَاتِـمَة

في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

نختم بها الكتاب ؛ لأنها العبادة المقبولة من المطيع والعاصي ، فلعل الله الكريم ببركات هـٰذا النبي العظيم يقبل مني هـٰذا العمل ، ويغفر لي ما فيه من خطأ وزلل ، فهو صلى الله عليه وسلم صاحب الشفاعة العظمىٰ ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو الشاهد لمن آمن به واهتدىٰ ، وعلىٰ من جحد واعتدىٰ ، والبشير بالثواب لمن أطاع مولاه ، والنذير بالعقاب لمن آثر هواه ، والداعي إلى الله بإذن الله ، إظهاراً للحجة ، والسراج المنير لمن آمن به واستضاء بنوره فأبصر المحجة .

ولم يزل نوره صلى الله عليه وسلم من زمن آدم عليه السلام مشهور الصورة ، منشور الذكر حتىٰ عرفه آدم فتوسل به ، في بعض دَرْسه عِلْمُ إدريس ، في ضمن وَجْده حزنُ يعقوب ، في سر جِدِّه صبرُ أيوب ، في طي خوفه بكاءُ داوود ، بعضُ غَناء نفسه يزيد علىٰ ملك سليمان ، عبر خلال خلة الخليل ، ونال تكليم موسىٰ ، وزاد رفعة عند الملك الأعلىٰ ، فكان برهانه أوضح وأجلىٰ .

فهو واسطة العقد ، وزينة الدهر ، يزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر ، والبحر على القطر ، فهو صدرهم وبدرهم ، قطب فلكهم ، عين كتيبتهم ، واسطة قلادتهم ، نقش فصهم ، بيت قصيدتهم ، نقطة دائرتهم ، شمس ضحاهم ، هلال ليلهم ، تَحَرَّكُ لتعظيمه السواكن ، حن إليه الجذع ، وسبح في كفه الحصىٰ ، وتزلزل الجبل ، وتكلم الذئب والجمل .

نظر المشركون إلىٰ صورته دون معناه فقالوا : لولا نزل هـٰذا القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم سواه ، يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر ، يا أطيب ثمار ﴿ كُن﴾ يا محمولاً عنه فعل ﴿ قُمْ﴾ أنت إمام أهل الأرض ، فاصعد إلى الملكوت الأعلىٰ ؛ لتكون إمام أهل السماء ،

يا لها من ليلة فَلَّ فيها عز وجل الجلَّ ، فيها علت آية الأرض علىٰ آيات السماء ، فأقبلت رؤوس الملائكة يحيون الرأس الأكبر .

فنوره أنور ، وبرهانه أزهر ، وسره أطهر ، وفضله أظهر ، وقدره أعلىٰ ، وذكره أحلىٰ ، وصورته أجمل ، ودينه أكمل ، ولسانه أفصح ، ودعاؤه أنجح ، وعلمه أرفع ، ونداؤه أسمع ، حوائجه أقضىٰ ، وشفاعته أمضىٰ .

نصره مؤيد ، واسمه محمد ، جسمه أعبد ، ورسمه أوجد ، واسمه أحمد ، فهو حبيب المولىٰ ، وهو بالمؤمنين أولىٰ .

أفضل الخلائق ، والداعي إلىٰ أرشد الطرائق ، والمرشد إلىٰ نهج الحقائق ، النبي الأمي ، الحاشر ، العاقب ، الماحي ، المقفي ، نبي التوبة ، نبي الرحمة ، نبي الملاحم .

الشاهد البشير النذير ، الأمين الخاتم المصطفىٰ ، الذي أنزل عليه القرآن ، ودعا إلىٰ خير الأديان .

أول شافع وأول مشفع ، المبعوث بالحنيفية السمحة ، الذي دنا فتدلىٰ ، فكان قاب قوسين أو أدنىٰ .

انشق له القمر ، وكلمه الحجر ، وأطاعه الشجر ، وسبح الحصىٰ في كفه ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وحن الجذع إليه ، وسلم البعير عليه .

فهو أعلى العالمين قدراً ، وأنفذهم نهياً وأمراً ، الذي فتح الله به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، بعدما أعمتها الضلالة دهراً .

والذي إذا كرعت العلماء من مناهل علمه . . قالوا : إنا وجدناه لبحراً ، وإن شرعت الحكماء في التقاط كلامه . . علموا أنه الذي يقذف دراً ، أرسله الله إلىٰ قوم بدلوا نعمة الله كفراً ، فوصل لهم القول لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ، ودعاهم إلى الله سراً وجهراً ، وصبر علىٰ أذاهم ومع ذلك يرحمهم ويقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »[1] كأنه يقيم لهم عذراً ، يصفح عن مسيئهم ويجزي بالحسنة عشراً ، ومن صلىٰ عليه واحدة . . صلى الله عليه عشراً .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .

أفصح من نطق بالضاد ، وأسمح من روّىٰ كل صادٍ ، كان نبياً وإن آدم لمنجدل في طينته ، وختمت محامد إبراهيم بـ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

وكان ذلك رفعة لأبوته ، ولو كان موسىٰ حياً لما وسعه إلا اتباع ملته ، وإذا نزل عيسىٰ . . فلا يحكم إلا بشريعته .

جبينه الأزهر ، ووجهه الأنور ، وحوضه الكوثر .

فهو أمين الله المأمون ، وخازن علمه المخزون ، حبيب الله وخليله ، وأمينه علىٰ وحيه ورسوله .

أكرم الخلق علىٰ ربه ، الموعود بالنصر لحزبه ، لولاه . . ما خلقت شمس ولا قمر ، ولا كان للدنيا عين ولا أثر ، من نسي الصلاة عليه خَطِىءَ طريقَ الجنة ، ومن سلم عليه . . سلم الله عليه ومن صلىٰ عليه واحدة صلى الله عليه عشراً .

صلى الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته ، كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وما دار فلك ، وسبح ملك ، وذرَّ شارق وغرب ، وغرد حمام وأطرب ، وما دامت الدنيا والآخرة ، وألبسه من تعظيمه حلله الفاخرة ، وآتاه الوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، وبعثه مقاماً محموداً ، وأهدىٰ إليه في كل وقت منا سلاماً جديداً .

اعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أفضل الأعمال بإجماع أهل العلم ، وبها ينال المرء الفوز في الحال والمآل .

قال ذلك شيخنا السخاوي نقلاً عن الشيخ أبي عبد الله ابن النعمان(١) .

وفيها من الثواب ما لم يكن في غيرها من أعمال الطاعات ، من ذلك صلاة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ من صلىٰ عليه ، وجزاؤه بالواحدة عشراً ، وتكفير الخطايا ، وتزكية الأعمال ، ورفع الدرجات ، ومغفرة الذنوب ، واستغفارها لقائلها ، وكتابة قيراط مثل أحد من الأجر ، والكيل بالمكيال الأوفىٰ ، وكفاية أمر الدنيا والآخرة لمن جعل صلاته كلها عليه ، ومحو الخطايا ، وفضلها علىٰ عتق الرقاب ، والنجاة بها من الأهوال ، وشهادة الرسول بها ،

---

(١) القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع (ص٦٩) .

ووجوب الشفاعة ، ورضا الله ورحمته ، والأمان من سخطه ، والدخول تحت ظل العرش ، ورجحان الميزان ، وورود الحوض ، والأمان من العطش ، والعتق من النار ، والجواز على الصراط ، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت ، وكثرة الأزواج في الجنة ، ورجحانها علىٰ أكثر من عشرين غزوة ، وقيامها مقام الصدقة للمعسر ، وهي زكاة وطهارة ، وتنمي المال ، وتقضىٰ بها مئة من الحوائج ، بل أكثر ، وهي عبادة ، وأحب الأعمال إلى الله تعالىٰ ، وزين المجالس ، وتنفي الفقر وضيق العيش ، ويلتمس بها الخير ، وفاعلها أولى الناس به صلى الله عليه وسلم ، وينتفع هو وولده وولد ولده بها ، ومن أهديت في صحيفته بثوابها ، وتقرب إلى الله وإلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهي نور ، وتنصر على الأعداء ، وتطهر القلب من النفاق ، وتوجب محبة الناس ، ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وتمنع من اغتياب صاحبها ، وأفضل الأعمال ، وأكثرها نفعاً في الدين والدنيا ، وغير ذلك من الثواب والفضائل العظيمة ، والمناقب الكريمة ، والفوائد الجمة العميمة .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن تاركها ينسىٰ طريق الجنة[١] ، وأنه الشقي[٢] ، ويدخل النار[٣] ، ووصفه صلى الله عليه وسلم بالجفاء[٤] ، وأنه أبخل الناس[٥] ، وأن من لم يصل عليه . . لا دين له ، ودعا عليه بالإبعاد[٦] ، نعوذ بالله من الوبال ، ومن السعي في طريق الضلال ، ونسأله التوفيق في جميع الأحوال ، من الأفعال والأقوال ، وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه خير صحب وآل ، ما ترددت الأيام والليال ، وما هب النسيم في الأطلال ، بعدد قطر الأمطار ، وورق الأشجار ، وموج البحار ، ورمل القفار ، وبعدد ما أظلم عليه الليل وأضاء عليه النهار ، وبعدد النجوم على الفلك الدوار .

واختلف العلماء ـ نفعنا الله تعالىٰ بهم ـ في وجوب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٠٨) ، وإسماعيل الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٤٢) ، وابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٨٣) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٨١) .

(٣) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٦٨٣١) .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » (٣١٢١) .

(٥) أخرجه الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٣٧) ، وابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٢٩) .

(٦) أخرجه ابن حبان (٩٠٧) .

فقال ابن جرير الطبري وغيره : إنها من المستحبات ، وادعى الطبري الإجماع علىٰ ذلك .

قال شيخنا شمس الدين السخاوي : (ولم يُصِبْ في ذلك ، لٰكن هٰذه عادته)[1] .

وقال الحافظ ابن عبد البر : إن العلماء أجمعوا علىٰ أنها فرض على العبد المسلم في الجملة .

وقال بذلك القاضي أبو محمد ابن نصر .

فقيل : تجب في العمرة مرة في صلاة أو في غيرها ، وهو محكي عن أبي حنيفة ، ونقل أيضاً عن مالك والثوري والأوزاعي .

قال عياض وابن عبد البر : هو قول جمهور الأمة ، وقال به ابن حزم .

وقال القرطبي المفسر : (لا خلاف في وجوبها في العمر مرة ، وأنها واجبة في كل حين وجوبَ السنن المؤكدة) .

وسبقه إلىٰ ذلك ابن عطية فقال : (إنها واجبة) .

ثم قال : (لا يسع تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه)[2] .

وقيل : تجب في القعود في آخر الصلاة بين التشهد وسلام التحلل . قاله الشافعي ومن تبعه .

وقيل : في التشهد ، وهو قول الشعبي وإسحاق بن راهويه .

وقيل : تجب في الصلاة من غير تعيين لمحل ، نقل ذلك عن أبي جعفر الباقر .

وقيل : يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد . قاله أبو بكر بن بكير من المالكية .

وعن بعضهم قال[3] : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض إسلامي جملي غير مقيد بعدد ولا وقت معين .

---

(١) انظر « القول البديع » (ص٥٩) فالعبارة غير مثبتة في نص الكتاب ، ولٰكن ذكرها محققه شيخنا الشيخ محمد عوَّامة في الحاشية ، وبيَّن أنها موجودة في نسخة واحدة من بين خمس نسخ ، مع العلم أن هٰذه النسخة بخط المصنف ، وهي الأقدم بين أخواتها ، وقد علل لذلك الشيخ عوَّامة بقوله : وكأنه عدل عنها بعدُ .

(٢) انظر « تفسير القرطبي » (١٤/ ٢٣٢ـ٢٣٣) ، و« المحرر الوجيز » (٤/ ٣٩٨) .

(٣) أي : بعض المالكية ، كما ذكر السخاوي في « القول البديع » (ص٦٩) .

وقيل : في كل مجلس مرة ، ولو تكرر ذكره مراراً . حكاه الزمخشري[1] ، وبه قال الأوزاعي ، وحكاه الترمذي عن بعض أهل العلم .

وقيل : في كل دعاء .

وقيل : كلما ذكر . قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية ، والحليمي والشيخ أبو حامد الإسفراييني وجماعة من الشافعية[2] .

وقال ابن العربي من المالكية : إنه الأحوط ، وبه قال أبو اليمن ابن عساكر ، وقال : (أقول ـ والله يقول الحق ـ : الذي ينتهي إليه علمي ونتعقَّله من مفهوم النصوص : أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واجبة على المكلف إذا سمع ذكره كلما ذكر ، لا كما قال من ادعىٰ : أن محمل الآية على الندب ، ولا كمن زعم أنها تجب في العمرة مرة ، وإن كان قد فرع ذلك عن أصل قرره الأئمة في الأمر المطلق ، فإن ما نحن فيه يتأكد وجوب تكراره بنصوص أخر ، منها : دعاؤه بالإبعاد علىٰ تارك الصلاة عليه عند ذكره تعظيماً لقدره صلى الله عليه وسلم ، وتفخيماً لأمره ، وبُعْد العبد عن ربه وحَجْبُه أقصىٰ رتب الانتقام ، ولذلك قدمه على العذاب للاحتفال بأمره والاهتمام ، فقال تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

ويؤكد ذلك : أن تارك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم قد نظم في سلك عقوق الأبوين ، والمستحل لانتهاك حرمة شهر رمضان الذي صومه وتعظيمه فرض عين ، وفي ذلك من تأكد الأدلة علىٰ ما قلته لمن أنعم النظر قرة عين) اهـ[3]

قال الحليمي : (وإذا قلنا بوجوب الصلاة عليه كلما ذكر . . فإن اتحد المجلس وكان مجلس علم ورواية سنن . . احتمل أن يقال : الغافل عن الصلاة عليه كلما جرىٰ ذكره إذا ختم بها المجلس . . أجزأه ، وإن لم يكن المجلس كذلك . . فلا أرخص له في ترك ذلك ؛ إذ ليس ذكره بأقل من حق العاطس) .

قال : (ومن ترك الصلاة عليه عند ذكره ، ثم صلىٰ عليه في المستقبل بعد التوبة . .

---

(١) الكشاف (٣/ ٥٦٧) .

(٢) انظر « المنهاج في شعب الإيمان » (٢/ ١٣١) .

(٣) نقله السخاوي في « القول البديع » (ص٧٢ـ٧٣) عن أبي اليمن ابن عساكر .

رجونا أن يكفر عنه ، ولا يطلق عليه اسم القضاء) اهـ[1]

وقد اختلف القائلون بالوجوب كلما ذكر ؛ هل هو على العين فيجب علىٰ كل فرد فرد ، أو الكفاية فإذا فعل ذلك البعض . . سقط عن الباقين ؟

الأكثرون على الأول ، ومن القائلين بالثاني أبو الليث السمرقندي من الحنفية .

وقد أنشد الشهاب ابن أبي حجلة : [من الكامل]

صلوا عليه كلما صليتُمُ ... لتروا به يوم النجاة نجاحا
صلوا عليه كل ليلة جمعة ... صلوا عليه عشية وصباحا
صلوا عليه كلما ذكر اسمه ... في كل حين غدوة ورواحا
فعلى الصحيح صلاتكم فرض إذا ... ذكر اسمه وسمعتموه صراحا
صلىٰ عليه الله ما شب الدجا ... وبدا مشيب الصبح فيه ولاحا

وقال الشيخ تاج الدين السبكي في أرجوزة له :

فصلِّ كل لحظة عليهِ ... تَنْجُ به فالأمر في يديهِ[2]
ولا تظن أيُّهٰذا المذنب ... أن سواه للنجاة سبب
واسمع هديتَ صاحبَ الزلات ... إن هي إلا سبب النجاة
وأنت يا مهموم إن أردتا ... أنك تكفىٰ ما أهم بَتَّا
فاجعل له دعائك الجميعا ... وثق بما قلتُ وكن سميعا
وفي حديث آخرٍ من جعلا ... كل صلاته عليه سئلا
قال إذاً يغفر كل ذنبكْ ... فأَبْشِر بهٰذا كله من ربكْ
واستعمل اللسان في الصلاة ... فإنها من أقرب الطاعات
ومن يصلِّ مرة على النبي ... صلىٰ عليه الله عشراً فاعجب
أنت المصلي والمصلي مرَّةْ ... وربنا الذي أقام أمْرَه
هو المصلي العشرَ هٰذا فضل ... ليس له في القربات مثل
من أجله قال النبي فلْيُقِلْ ... أو يكثرِ الصلاةَ فأكثِرها وقِلْ

---

(١) انظر « المنهاج » (٢/١٤٧ـ١٤٩) .

(٢) في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » : (تُمْحَقْ خطاياك علىٰ يديه) .

فضيلــة يمحــىٰ بهــا ذنــب الــذي	أصبح وهْـو بـالمعـاصي قـد غـذي
اتفــق النــاس علــى الفــرضيــهْ	وإنمــا الخــلاف فــي الكيفيــهْ[1]
فقــال قــوم مــرة فــي العُمْــر	وهْــو ضعيــف عنــد أهــل السَّبْــر
وقــال آخــرون كلمــا ذكــر	واعتصمــوا بمــا أتــاهــم مِــنْ خَبَــر
وهْــو الــذي ينصــره ابــن السبكــي	نــاظمهــا مــا عنــده مــن شــكِّ
فمــن أخــل بــالصــلاة إن ذكــر	يــرغــم أنفــه كــذا جــاء الخبــر
وهــو مشيــر للــوجــوب فــامتثــل	ولا تكــن ممــن عصــىٰ أمــر الــرسُــل
وفــي حــديــث أنــه البخيــل	والبخـــل أدْوَا الــدَّا وذا دليــلُ
وفــي حــديــث عُــدَّ فــي الحســان	أخطــا طــريــقَ جنــة الــرحمــن
مــن نســي الصــلاة يعنــي أهمــلا	حتــىٰ غــدت كمثــل منســيٍّ خــلا
أوْ لا فمــا النسيــان ممــا كلفــا	بــل هــو مــرفــوع بنــص المصطفــىٰ[2]

فإذا قلنا بأن الصلاة عليه تجب . . فهل يجب عليه صلى الله عليه وسلم أن يصلي علىٰ نفسه ؟

قال شيخنا شمس الدين السخاوي عن بعض شروح « الهداية » : (إنه لا يجب ، وعندنا أنها واجبة عليه في الصلاة ، والله الموفق) اهـ[3]

أقول : القاعدة الأصولية : أن الله سبحانه وتعالىٰ إذا خاطب هـٰذه الأمة بخطاب عام مطلق غير مقيد كقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وما أشبه ذلك . . نظر فيه ، فإن دل دليل علىٰ دخول النبي صلى الله عليه وسلم فيه كقوله تعالىٰ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . . دخل صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وإن دل علىٰ أنه غير داخل فيه . . حمل علىٰ ذلك ، وإن لم يدل علىٰ شيء من ذلك دليل . . دخل فيه عندنا ، وبه قال كافة أهل العلم ؛ لأن صلاح هـٰذا الخطاب له كصلاحه لكل واحد من الأمة ، فكما دخلت أمته فيه . . دخل هو فيه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) في « الطبقات » : (الكمِّيَّهْ) .

(٢) انظر « الطبقات » (١/ ١٨١ـ١٨٢) .

(٣) القول البديع (ص٨٢) .

فإذا عرفت ذلك . . فالمقصود بالأمر بالصلاة عليه : إظهار شرفه ، والتنويه باسمه ، وعظم قدره عند الله تعالىٰ ، وبهـٰذا المعنىٰ يعلم عدم دخوله في هـٰذا الخطاب ، فلا يجب عليه أن يصلي علىٰ نفسه ، والله أعلم .

واختلف في معنى الصلاة عليه ، فعن أبي العالية أن معناها : ثناؤه عليه عند ملائكته ، وصلاة الملائكة عليه : الدعاء له[١] .

قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : (هـٰذا أولى الأقوال)[٢] .

وعند ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : صلاة الله تعالىٰ مغفرته ، وصلاة الملائكة الاستغفار .

وعن ابن عباس : صلاة الملائكة الدعاء بالبركة[٣] .

وعن سفيان الثوري : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار[٤] .

وعن الضحاك : صلاة الله رحمته ـ وفي رواية عنه : مغفرته ـ وصلاة الملائكة الدعاء ، وكأنه يريد بالدعاء المغفرة ونحوها[٥] .

وجوز الحليمي أن تكون الصلاة بمعنى السلام عليه ، قال الشيخ شهاب الدين ابن حجر : وفيه نظر[٦] .

وقيل : صلاة الله تعالىٰ علىٰ خلقه تكون خاصة وتكون عامة ، فصلاته علىٰ أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم ، وصلاته علىٰ غيرهم الرحمة ، فهي التي وسعت كل شيء .

وقال بكر القشيري : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الله تشريف وزيادة مكرمة وعلىٰ من دونه رحمة[٧] .

---

(١) علقه البخاري في (تفسير القرآن ، باب قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾) ، وأخرجه الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٩٥) .

(٢) انظر : « فتح الباري » (١١/١٥٦) .

(٣) علقه البخاري في (تفسير القرآن ، باب قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾) .

(٤) أخرجه الترمذي (٤٨٥) .

(٥) أخرجه الجهضمي في « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٩٦ـ٩٧) .

(٦) انظر « المنهاج » (٢/١٣٤) ، و« الفتح » (١١/١٥٦) .

(٧) نقله عنه القاضي عياض في « الشفا » (ص٥٤٤) .

وبهـٰذا التقرير يظهر الفرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين سائر المؤمنين حيث قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ .

وقال قبل ذلك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ومعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أرفع مما يليق بغيره .

والإجماع منعقد علىٰ أن في الآية من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم والتنويه ما ليس في غيرها .

وقال الحليمي : (معنىٰ قولنا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد عظم محمداً ، والمراد : تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره ، وإظهار دينه ، وإبقاء شريعته ، وفي الآخرة بإجزال مثوبته ، وتشفيعه في أمته ، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود)[١] .

وقال الحليمي أيضاً : (والمقصود بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم التقرب إلى الله تعالىٰ بامتثال أمره وقضاء حق النبي صلى الله عليه وسلم علينا)[٢] .

وتبعه علىٰ ذلك ابن عبد السلام فقال : (ليست صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم شفاعة له ، فإن مثلنا لا يشفع لمثله ، ولـٰكن الله لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا . . أرشدنا إلى الصلاة عليه)[٣] .

وقال ابن العربي : (فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه ؛ لدلالة ذلك علىٰ نصوح العقيدة ، وخلوص النية ، وإظهار المحبة ، والمداومة على الطاعة ، والاحترام للواسطة الكريمة)[٤] .

صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وسلم .

ثم إن الله تعالىٰ أخبر عباده بمنزلة نبيه صلى الله عليه وسلم عنده في الملأ الأعلىٰ بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة يصلون عليه ، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة عليه والتسليم ، والآية بصيغة المضارعة الدالة على الدوام والاستمرار ؛ ليدل علىٰ أنه سبحانه

---

(١) انظر « المنهاج » (٢/ ١٣٣ـ١٣٤) .
(٢) انظر « المنهاج » (٢/ ١٣٤) .
(٣) انظر « القواعد الكبرىٰ » (٢/ ٢٩٠) .
(٤) نقله عنه السخاوي في « القول البديع » (ص٨٣) .

وتعالىٰ وجميع ملائكته يصلون علىٰ نبينا صلى الله عليه وسلم دائماً أبداً .

وغاية مطلوب الأولين والآخرين صلاة واحدة من الله تعالىٰ ، وأنىٰ لهم بذلك ؟! بل لو قيل للعاقل : أيما أحب إليك ، أن تكون أعمال جميع الخلائق في صحيفتك ، أو صلاة من الله تعالىٰ عليك ؟

لما اختار غير الصلاة من الله تعالىٰ ، فما ظنك بمن يصلي عليه ربنا سبحانه وتعالىٰ وجميع ملائكته على الدوام والاستمرار ؟! فكيف يحسن بالمؤمن ألا يكثر من الصلاة عليه ، أو يغفل عن ذلك ؟! قاله الفاكهاني .

وقال أيضاً : (إنه ليس في القرآن ولا في غيره ـ فيما علم ـ صلاة من الله تعالىٰ علىٰ غير نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهي خصوصية اختصه بها دون سائر الأنبياء) اهـ[1]

قال الإمام سهل بن محمد بن سليمان : (هٰذا التشريف الذي شرف الله تعالىٰ به محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ الآية أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة له بالسجود ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالىٰ مع الملائكة في ذلك التشريف .

وقد أخبر الله عن نفسه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عن الملائكة بالصلاة عليه ، فتشريف يصدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة من غير أن يكون الله تعالىٰ معهم) اهـ[2]

وعبر فيها بالله دون غيره من أسمائه ؛ إما لأنه الاسم الأعظم ولم يتسم به أحد غير الله تعالىٰ ، وإما لغير ذلك ، وعبر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل : علىٰ محمد ، كما وقع لغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم كقوله : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ و﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا ﴾ و﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾ لما في ذلك من الفخامة والكرامة التي اختص بها عن سائر الأنبياء ؛ إشعاراً بعلو المقدار ، وإعلاماً بالتفضيل علىٰ سائر الرسل الأخيار .

وكل موضع سماه باسمه إنما هو لمصلحة تقتضي ذلك ، فافهمه .

وتعبيره بقوله : ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ولم يقل : والملائكة ؛ لعدم الفرق بين الصيغتين ، فإن

---

(١) انظر « القول البديع » (ص٨٥ـ٨٦) .

(٢) نقله السخاوي في « القول البديع » (ص٨٦ـ٨٧) .

كلا منهما يفيد العموم ، والأولىٰ تعرفت بالإضافة التي جاءت للتشريف والتعظيم ، والملائكة لا يحصي عددها إلا الله تعالىٰ ؛ لأن منهم الملائكة المقربين ، وحملة العرش ، وسكان سبع سماوات ، وخزنة الجنة والنار ، والحفظة على الأعمال وعلىٰ بني آدم ، والموكلين بالبحار والجبال والسحاب والأمطار ، والأرحام والنطف والتصوير ، وخلق الأرواح في الأجساد ، وخلق النبات وتصريف الرياح ، وجري الأفلاك والنجوم ، وإبلاغ صلواتنا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتابة الناس يوم الجمعة ، والتأمين علىٰ قراءة المصلين ، وقول : ربنا ولك الحمد ، والداعين لمنتظر الصلاة ، واللاعنين من هجرت فراش زوجها . . . إلىٰ غير ذلك مما وردت به الأحاديث الصحيحة .

وليس في العالم العلوي والعالم السفلي مكان إلا وهو معمور بالملائكة .

وقد ثبت في « المستدرك » للحاكم من حديث عبد الله بن عمرو : إن الله جزأ الخلق عشرة أجزاء ، فجعل الملائكة تسعة وسائر الخلق جزءاً[(١)] .

ومعلوم أن الجميع يصلون علىٰ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنص القرآن حيث كانوا ، وأين كانوا ، وهـٰذا مما خصه الله تعالىٰ به دون سائر الأنبياء والمرسلين . قال ذلك جميعه شيخنا شمس الدين السخاوي[(٢)] .

قال : وذكر شيخنا عن أبي ذر أن الأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كان في السنة الثانية من الهجرة ، وقيل : في ليلة الإسراء[(٣)] .

وقال ابن أبي الصيف اليمني : قيل : إن شعبان شهر الصلاة علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم نزلت فيه .

وعن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا علي صلى الله عليكم »[(٤)] .

---

(١) المستدرك (٤/ ٤٩٠) .

(٢) انظر « القول البديع » (ص٩٠ـ٩٦) .

(٣) قوله : (شيخنا) يعني : الحافظ ابن حجر رحمه الله في « الفتح » (٨/ ٥٣٤) ، وأبو ذر هو الهروي كما بينه السخاوي في « القول البديع » (ص٩٩) ، وانظر ترجمة أبي ذر الهروي في « سير أعلام النبلاء » (١٧/ ٥٥٤) .

(٤) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٣١٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا علي ؛ فإن صلاتكم علي زكاة لكم »[1] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما رفعه : « صلوا علي ؛ فإنها لكم أضعاف مضاعفة »[2] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « أكثروا من الصلاة علي ؛ لأن أول ما تسألون في القبر عني » .

وعن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ آل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد ، كما باركت علىٰ آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » رواه مسلم[3] .

قوله : « علمتم » يروىٰ بفتح العين وتخفيف اللام ، وبضم العين وتشديد اللام[4] .

وعن رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : اللهم ؛ صل علىٰ محمد ، وأنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة . . وجبت له شفاعتي » رواه البزار وأحمد ابن حنبل والطبراني وابن بشكوال ، وبعض أسانيدهم حسن[5] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال : جزى الله عنا محمداً صلى الله عليه وسلم بما هو أهله . . أتعب سبعين ملكاً ألف صباح » رواه أبو نعيم[6] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢/ ٣٩٩) .
(٢) قال السخاوي في « القول البديع » (ص١٠٠) : (ذكره الديلمي بلا إسناد تبعاً لأبيه) .
(٣) مسلم (٤٠٥) .
(٤) انظر « القول البديع » (ص٩٩ـ١٠١) .
(٥) مسند البزار (٢٣١٥) ، ومسند أحمد (٤/ ١٠٨) ، والمعجم الكبير (٥/ ٢٥) ، والقربة (١١٩) .
(٦) حلية الأولياء (٣/ ٢٠٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفىٰ إذا صلىٰ علينا أهل البيت . . فليقل : اللهم ؛ صل علىٰ محمد النبي الأمي ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته ، وأهل بيته ، كما صليت علىٰ إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد » أخرجه أبو داوود في « سننه »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلىٰ علي واحدة . . صلى الله عليه عشراً » رواه مسلم وأبو داوود والترمذي ـ وقال : حسن صحيح ـ وابن حبان والنسائي(٢) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صلىٰ علي . . كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه بها عشر سيئات ، ورفعه بها عشر درجات ، وكُنّ له عِدل عشر رقاب »(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ علي صلاة واحدة . . صلى الله عليه عشراً ، ومن صلىٰ علي عشراً . . صلى الله عليه مئة ، ومن صلىٰ علي مئة . . صلى الله عليه ألفاً ، ومن صلىٰ علي ألفاً . . زاحمت كتفه كتفي علىٰ باب الجنة » .

وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه [عن أبيه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ علي صلاة . . صلى الله عليه عشراً ، فأكثروا أو أقلوا » وفي بعض الروايات : « فليقل عبد من ذلك أو ليكثر »(٤) .

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله ملكاً أعطاه أسماع الخلائق ، فهو قائم علىٰ قبري إذا مت ، فليس واحد يصلي علي صلاة . . إلا قال : يا محمد ؛ صلىٰ عليك فلان بن فلان ، قال : فيصلي الرب تبارك وتعالىٰ علىٰ ذلك الرجل بكل واحدة عشراً »(٥) .

---

(١) أبو داوود (٩٨٢) .

(٢) مسلم (٤٠٨) ، وأبو داوود (١٥٣٠) ، والترمذي (٤٨٥) ، وابن حبان (٩٠٤) ، والنسائي (٣/ ٥٠) .

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٥٢) .

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٣٧) .

(٥) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٢/ ٧٦٢) .

فائدتان

إحداهما :

قال القاضي أبو بكر ابن العربي : (قد قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ فما فائدة هـٰذا الحديث ؟

قلنا : أعظم فائدة ، وذلك أن القرآن اقتضىٰ أن من جاء بحسنة . . تُضاعف عشراً ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حسنة ، فمقتضى القرآن أن يعطىٰ عشر درجات في الجنة ، فأخبر الله تعالىٰ أنه يصلي علىٰ من صلىٰ علىٰ رسوله عشراً ، وذكر الله للعبد أعظم من الحسنة مضاعفةً) .

قال : (وتحقيق ذلك : أن الله تعالىٰ لم يجعل جزاء ذكره إلا ذكره ، كذلك جعل جزاء ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم ذكره ؛ يعني : كما تقدم) .

قال السخاوي : (قال الفاكهاني : وهـٰذه نكتة حسنة أجاد فيها وأفاد) اهـ[1]

الثانية :

قال الإمام مصطفى التركماني : (إن قيل : ما الحكمة في أن الله تعالىٰ أمرنا أن نصلي عليه ونحن نقول : اللهم ؛ صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد ، فنسأل الله تعالىٰ أن يصلي عليه ولا نصلي عليه نحن بأنفسنا ؛ يعني : بأن يقول العبد في الصلاة : أصلي علىٰ محمد .

قلت : لأنه صلى الله عليه وسلم طاهر لا عيب فيه ، ونحن فينا المعائب والنقائص ، فكيف يثني مَنْ فيه معائب علىٰ طاهر ؟! فنسأل الله تعالىٰ أن يصلي عليه ؛ لتكون الصلاة من رب طاهر علىٰ نبي طاهر) اهـ[2]

وقال أبو اليمن ابن عساكر : (لما أمر الله سبحانه بالصلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لم نبلغ معرفة فضيلة الصلاة عليه ، ولم ندرك حقيقة مراد الله عز وجل فيه ، فأحلنا ذلك إلى الله سبحانه وتعالىٰ فقلنا : اللهم ؛ صل أنت علىٰ رسولك ؛ لأنك أعلم بما يليق

---

(١) القول البديع (ص٢٨٥ـ٢٨٦) .

(٢) انظر « القول البديع » (ص١٥٤ـ١٥٥) .

به ، وأعرف بما أردته له صلى الله عليه وسلم) اهـ[1]

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل ـ وفي رواية : ثلثا الليل ـ . قام فقال : « يا أيها الناس ؛ اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » .

قال أبي بن كعب : فقلت : يا رسول الله ؛ إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت . . فهو خير لك » قلت : فالنصف ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت . . فهو خير لك » قال : قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت . . فهو خير لك » قلت : أجعل لك صلاتي كلها ، قال : « إذاً تكفىٰ همك ، ويغفر ذنبك » رواه أحمد والترمذي ، وقال : حسن صحيح[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ارتقى المنبر فأمن ثلاث مرات ثم قال : « تدرون لم أمنت ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « جاءني جبريل فقال : إنه من ذكرت عنده فلم يصل عليك . . دخل النار ، فأبعده الله وأسحقه ، فقلت : آمين ، ومن أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرهما . . دخل النار ، فأبعده الله وأسحقه ، فقلت : آمين ، ومن أدرك رمضان فلم يغفر له . . دخل النار ، فأبعده الله وأسحقه ، فقلت : آمين » رواه الطبراني[3] .

وعند الترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » وصححه الحاكم[4] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذكرت عنده فلم يصل . . فقد شقي »[5] .

---

(١) القول البديع (ص١٥٥) .
(٢) مسند أحمد (٥/١٣٦) ، والترمذي (٢٤٥٧) .
(٣) ذكره الهيثمي في « المجمع » (١٠/١٦٨) وعزاه للطبراني .
(٤) الترمذي (٣٥٤٥) ، ومسند أحمد (٢/٢٥٤) ، وانظر « المستدرك » (١/٥٤٩) .
(٥) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٨٨٣) .

وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذكرت عنده فخطىء الصلاة علي . . خطىء طريق الجنة »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نسي الصلاة علي . . خطىء طريق الجنة »[2] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من ذكرت بين يديه ولم يصل علي صلاة تامة . . فليس مني ولا أنا منه ـ ثم قال ـ : اللهم ؛ صل من وصلني ، واقطع من لم يصلني »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم : « البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي »[4] .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي »[5] .

وعن عبد الله بن جراد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ذكرت عنده فلم يصل علي . . دخل النار »[6] .

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بأبخل الناس ؟! » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « من ذكرت عنده فلم يصل علي »[7] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالىٰ فيه ، ولم يصلوا علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم . . إلا كان عليهم من الله

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/١٢٨) .
(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/١٣٩) .
(٣) ذكره السخاوي في « القول البديع » (ص٣٠٠) وقال : (ولم أقف علىٰ سنده) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٤٦٤) .
(٥) أخرجه ابن حبان (٩٠٩) ، والحاكم (١/٥٤٩) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٨٠٤٦) ، وأحمد (١/٢٠١) ، وغيرهم .
(٦) ذكره الديلمي في « الفردوس » (١٦٣٥) .
(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » (٢٩) .

تِرة يوم القيامة ، فإن شاء . . عذبهم ، وإن شاء . . غفر لهم »[1] .

و(الترة) ـ بكسر التاء المثناة فوق ، وتخفيف الراء المفتوحة ـ : الحسرة ، وقيل : النار ، وقيل : الذنب .

وقال ابن الأثير : النقص ، وقيل : التبعة[2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا ، ومن صلىٰ علي في يوم الجمعة أو ليلة الجمعة مئة مرة . . قضى الله له مئة حاجة ، سبعين من حوائج الآخرة ، وثلاثين من حوائج الدنيا ، ثم يوكل الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا ، يخبرني بمن صلىٰ علي باسمه ونسبه إلىٰ عشيرته ، فأثبته عندي في صحيفة بيضاء »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ علي في كتاب . . لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب »[4] .

وذكر الحافظ أبو نعيم في « الحلية » عن كعب قال : (أوحى الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام : لولا من يحمدني . . ما أنزلت من السماء قطرة ، ولا أنبت من الأرضين حبة) .

وذكر أشياء كثيرة إلىٰ أن قال : (يا موسىٰ ؛ أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلىٰ لسانك ، ومن وساوس قلبك إلىٰ قلبك ، ومن روحك إلىٰ بدنك ، ومن نور بصرك إلىٰ عينك ؟ قال : نعم يا رب ، قال : فأكثر الصلاة علىٰ محمد ، صلى الله عليه وسلم)[5] .

وروى الإمام القشيري في « الرسالة » بسنده إلىٰ سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أوحى الله إلىٰ موسىٰ عليه السلام : إني جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتىٰ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٤٩٦) .
(٢) النهاية (١/١٨٩) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٣٧٧٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/٣٠١) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٦) ، وابن بشكوال في « القربة » (٤٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/٨١) ، وغيرهم .
(٥) حلية الأولياء (٦/٣٢) .

سمعت كلامي ، وعشرة آلاف لسان حتىٰ أجبتني ، وأحب ما تكون إلي وأقربه إذا أكثرت الصلاة على النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم) .

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته أفضل الصلاة والسلام ، مدى الليالي والأيام ، والشهور والأعوام ، بعدد أنفس جميع خلقك من الملائكة والبهائم والأنام .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة . . يجيء أصحاب الحديث ومعهم المحابر ، فيقول الله تعالىٰ لهم : أنتم أصحاب الحديث ؟ طالما كنتم تكتبون الصلاة علىٰ نبيي ، انطلقوا إلى الجنة »[1] .

وعن سفيان الثوري قال : لو لم يكن لصاحب الحديث فائدة إلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . . فإنه يصلىٰ عليه ما دام في ذلك الكتاب صلى الله عليه وسلم[2] .

وعن سفيان بن عيينة قال : كان لي أخ مؤاخ في الله ، فمات ، فرأيته في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : بماذا ؟ قال : كنت أكتب الحديث ، فإذا جاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم . . كتبت : صلى الله عليه وسلم أبتغي بذلك الثواب ، فغفر لي بذلك[3] .

وعن جعفر الزعفراني قال : سمعت خالي الحسن بن محمد يقول : رأيت أحمد ابن حنبل في النوم ، فقال لي : يا أبا علي ؛ لو رأيت صلاتنا على النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب كيف تزهر في أيدينا[4] .

وعن أبي سليمان محمد بن الحسين الحراني قال : قال رجل ـ يقال له : الفضل ، وكان كثير الصوم والصلاة ـ : كنت أكتب الحديث ولا أصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأيته في المنام ، فقال لي : إذا كتبت أو ذكرت اسمي . . لم لا تصلي علي ؟ ثم رأيته

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ١٨٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٣٣٨) ، وابن بشكوال في « القربة » (٤٣) ، لـٰكن حكم الخطيب عليه بالوضع .

(٢) أخرجه ابن بشكوال في « القربة » (٤٨) .

(٣) أخرجه الخطيب في « الجامع » (٥٦٥) .

(٤) أخرجه ابن بشكوال في « القربة » (٦٨) .

صلى الله عليه وسلم مرة فقال لي : بلغتني صلاتك علي ، فإذا صليت علي أو ذكرت . . فقل : صلى الله عليه وسلم[1] .

وعنه أيضاً قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال لي : يا أبا سليمان ؛ إذا ذكرتني في الحديث وصليت علي . . ألا تقول : وسلم ، وهي أربعة أحرف ، بكل حرف عشر حسنات ، تترك أربعين حسنة ؟

وعن جعفر بن محمد قال : رأيت أبا زرعة في المنام وهو في السماء يصلي بالملائكة ، فقلت له : بم نلت هـٰذا ؟ فقال : كتبت بيدي ألف ألف حديث ، إذا ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم . . أصلي عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من صلىٰ علي مرة . . صلى الله عليه عشراً »[2] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنهم جاؤوا برجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فشهدوا عليه أنه سرق ، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع ، فقال : اللهم ؛ صل علىٰ محمد حتىٰ لا يبقىٰ من صلاتك شيء ، وسلم علىٰ محمد حتىٰ لا يبقىٰ من سلامك شيء ، وبارك علىٰ محمد حتىٰ لا يبقىٰ من بركاتك شيء ، فتكلم الجمل المسروق ، فقال : يا محمد ؛ إنه بريء من سرقتي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من يأتيني بالرجل ؟ » فابتدره سبعون من أهل المسجد ، فجاؤوا به ، فقال : « يا هـٰذا ؛ ما قلت آنفاً وأنت مدبر ؟ » فأخبره بما قال ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لذلك نظرت إلى الملائكة محدقين بسكك المدينة حتىٰ كادوا يحولون بيني وبينك » ثم قال : « لتردن علي الحوض ووجهك أضوأ من القمر ليلة البدر »[3] .

وفي رواية : قيل له : بم نجوت ؟ قال : بصلاتي علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم في كل يوم مئة مرة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « نجوت من عذاب الدنيا والآخرة » .

---

(١) أخرجه ابن بشكوال في « القربة » (٦٥) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/٣٨) ، والرائي عنده هو حفص بن عبد الله ، وقد ذكره السخاوي في « القول البديع » (ص٤٦٥) وعزاه لابن عساكر ، ولـٰكن الرائي عنده هو جعفر بن عبد الله . فليتنبه .

(٣) أخرجه الطبراني في « الدعاء » (١٠٥٥) ، وقال السخاوي في « القول البديع » (ص٤٤٧) : (أخرجه الديلمي ، ولا يصح) .

حكى الشيخ أبو حفص عمر بن الحسن السمرقندي فيما روىٰ عن بعض أستاذيه عن أبيه ، قال : سمعت رجلاً في الحرم وهو كثير الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث كان من الحرم والبيت وعرفة ومنىٰ ، فقلت له : أيها الرجل ؛ إن لكل مقام مقالاً ، فما بالك لا تشتغل بالدعاء ولا بالتطوع بالصلاة سوىٰ أنك تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ؟! فقال : إني خرجت من خراسان حاجاً إلىٰ هـٰذا البيت ، وكان والدي معي ، فلما بلغنا الكوفة . . اعتل والدي ، وقويت به العلة فمات ، فلما مات . . غطيت وجهه بإزار ثم غبت عنه ساعة ، وجئت إليه فكشفت عن وجهه لأراه ، فإذا صورته كصورة الحمار ، فحين رأيت ذلك . . عظم عندي ، وتشوشت بسببه ، وحزنت حزناً شديداً ، وقلت في نفسي : كيف أظهر للناس هـٰذا الحال الذي صار والدي فيه ؟! وقعدت عنده مهموماً ، فأخذتني سنة من النوم فنمت ، فرأيت في منامي كأن رجلاً دخل علينا ، وجاء إلىٰ عند والدي ، وكشف عن وجهه فنظر إليه ثم غطاه ، ثم قال لي : ما هـٰذا الغم العظيم الذي أنت فيه ؟! فقلت : وكيف لا أغتم وقد صار والدي بهـٰذه المحنة ؟! فقال : أبشر ؛ فإن الله عز وجل قد أزال عن والدك هـٰذه المحنة .

قال : ثم كشفت الغطاء عن وجهه فإذا هو كالقمر الطالع ، فقلت للرجل : بالله من أنت فقد كان قدومك مباركاً ؟! فقال : أنا المصطفىٰ ، فلما قال ذلك . . فرحت فرحاً عظيماً ، وأخذت بطرف ردائه فلففته علىٰ يدي وقلت له : بحق الله يا سيدي يا رسول الله إلا أخبرتني بالقصة ، فقال : إن والدك أكل الربا ، وإن من حكم الله عز وجل أن من أكل الربا أن يحول الله صورته عند الموت كصورة حمار ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، ولـٰكن كان من عادة والدك أن يصلي علي في كل ليلة قبل أن يضطجع علىٰ فراشه مئة مرة ، فلما عرضت له المحنة من أكل الربا . . جاءني الملك الذي يعرض علي أعمال أمتي فأخبرني بحالة والدك ، فسألت الله فشفعني فيه .

قال : فاستيقظت فكشفت عن وجهه فإذا هو كالقمر ليلة البدر ، فحمدت الله تعالىٰ وشكرته وجهزت والدي ودفنته ، وجلست عند قبره ساعة ، فبينا أنا بين النائم واليقظان . . إذ بهاتف يقول لي : أتعرف هـٰذه العناية التي حفت والدك ما كان سببها ؟ قال : قلت : لا ، قال : كان سببها الصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآليت علىٰ نفسي أني

لا أترك الصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ أي حال كنت ، وفي أي مكان كنت .

وروي أن امرأة جاءت إلى الحسن البصري فقالت له : يا شيخ ؛ توفيت لي بنية وأريد أن أراها في المنام ، فقال لها الحسن : صلي أربع ركعات واقرئي في كل ركعة (فاتحة الكتاب) مرة ، و(سورة ألهاكم) مرة ، وذلك بعد العشاء الأخيرة ، ثم اضطجعي وصلي على النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ تنامي ، ففعلت ذلك فرأتها في النوم وهي في العقوبة والعذاب ، وعليها لباس القطران ، ويداها مغلولتان ، ورجلاها مسلسلتان بسلاسل من النار ، فلما انتبهت . . جاءت إلى الحسن فأخبرته بالقصة ، فقال لها : تصدقي عنها بصدقة لعل الله يعفو عنها .

ونام الحسن تلك الليلة ، فرأىٰ كأنه في روضة من رياض الجنة ، ورأىٰ سريراً منصوباً وعليه جارية حسناء جميلة ، وعلىٰ رأسها تاج من النور ، فقالت : يا حسن ؛ أتعرفني ؟ فقال : لا ، فقالت : أنا ابنة تلك المرأة التي أمرتها بالصلاة علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال لها الحسن : إن أمك وصفت حالك بغير هـٰذه الرؤيا! فقالت له : هو كما قالت ، قال : فبماذا بلغت هـٰذه المنزلة ؟ قالت : كنا سبعين ألف نفس في العقوبة والعذاب كما وصفت لك والدتي ، فعبر رجل من الصالحين علىٰ قبورنا ، وصلىٰ على النبي صلى الله عليه وسلم وجعل ثوابها لنا ، فقبلها الله عز وجل منه وأعتقنا كلنا من تلك العقوبة وذلك العذاب ببركة الرجل الصالح ، وبلغ نصيبي ما قد رأيته وشاهدته .

ثم إنه ورد في كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم روايات كثيرة ، منها ما هو مروي عنه صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما هو مروي عن الصحابة وعن التابعين وعن غيرهم من علماء المسلمين ، ولا شك أن السر فيما ورد عنه .

فمن ذلك : ما رواه أبو مسعود الأنصاري البدري قال : أقبل رجل حتىٰ جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ أما السلام عليكم . . فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا صلى الله عليك ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أحببنا أن الرجل لم يسأله ، فقال : « إذا أنتم صليتم . . فقولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد النبي الأمي ، وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم ، وعلىٰ آل

إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد النبي الأمي ، وعلىٰ آل محمد ، كما باركت علىٰ إبراهيم ، وعلىٰ آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد .

قال الشيخ شمس الدين السخاوي : (رواه أبو داوود وأحمد وابن حبان في « صحيحه » والدارقطني والبيهقي وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم)[١] .

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله ؛ كيف نصلي عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم ؛ صل علىٰ محمد ، وعلىٰ أزواجه وذريته ، كما صليت علىٰ إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت علىٰ إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد » متفق عليه[٢] .

قال الشيخ شمس الدين السخاوي : (وأخرجه مالك وأحمد وأبو داوود والنسائي وابن ماجه وغيرهم ، لـٰكن عند أحمد وأبي داوود : « وعلىٰ آل إبراهيم » في الموضعين ، وعند ابن ماجه : « كما باركت علىٰ آل إبراهيم في العالمين »)[٣] .

وروى البخاري في « الأدب المفرد » وأبو جعفر الطبري في « تهذيبه » والعقيلي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من قال : اللهم ؛ صل علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم ، وآل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد ، كما باركت علىٰ إبراهيم ، وآل إبراهيم ، وترحم علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد ، كما ترحمت علىٰ إبراهيم ، وآل إبراهيم . . شهدْتُ له يوم القيامة بالشهادة ، وشفعت له »[٤] وهو حديث حسن ورجاله رجال الصحيح . كذا قاله السخاوي رحمه الله[٥] .

وعن علي رضي الله عنه أنه كان يقول : إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا ؛ صلوا عليه وسلموا تسليماً ، لبيك اللهم ربي وسعديك ، صلوات الله البر الرحيم ،

---

(١) القول البديع (ص١٠١) ، وأبو داوود (٩٧٩) ، ومسند أحمد (٤/ ١١٩) ، وصحيح ابن حبان (١٩٥٨) ، وسنن الدارقطني (١/ ٣٥٤) ، والسنن الكبرىٰ (٢/ ١٤٦) ، والترمذي (٣٢٢٠) ، وصحيح ابن خزيمة (٧١١) ، والمستدرك (١/ ٢٦٨) .
(٢) البخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٤٠٧) .
(٣) القول البديع (ص١٠٥) ، وموطأ مالك (١/ ١٦٥) ، ومسند أحمد (٥/ ٣٧٤) ، وأبو داوود (٩٧٩) ، والنسائي (٣/ ٤٩) ، وابن ماجه (٩٠٥) .
(٤) الأدب المفرد (٦٤١) .
(٥) انظر « القول البديع » (ص١١٢) .

والملائكة المقربين ، والنبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين علىٰ محمد بن عبد الله ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الشاهد البشير ، الداعي إليك بإذنك ، السراج المنير ، وعليه السلام[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأله : كيف الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : اللهم ؛ اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك علىٰ سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، عبدك ورسولك إمام الخير ، وقائد الخير ، اللهم ؛ ابعثه يوم القيامة مقاماً محموداً يغبطه الأولون والآخرون ، وصل علىٰ محمد ، وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم ، وآل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد[2] .

وعن الحسن البصري أنه كان إذا صلىٰ على النبي صلى الله عليه وسلم . . يقول : اللهم ؛ اجعل صلواتك وبركاتك علىٰ أحمد ، كما جعلتها علىٰ إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد . رواه النميري[3] .

وفي لفظ له من وجه آخر : علىٰ محمد ، وزاد : السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته ، ومغفرته ورضوانه ، اللهم ؛ اجعل محمداً من أكرم عبادك عليك ، ومن أرفعهم عندك درجة ، وأعظمهم خطراً ، وأمكنهم عندك شفاعة ، اللهم ؛ أتبعه من أمته وذريته ما تقر به عينه ، واجزه عنا خير ما جزيت نبياً عن أمته ، واجز الأنبياء كلهم خيراً ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وعنه أيضاً أنه قال : من أراد أن يشرب بالكأس الأوفىٰ من حوض المصطفىٰ . . فليقل : اللهم ؛ صل علىٰ محمد ، وعلىٰ آله وأصحابه ، وأولاده وأزواجه ، وذريته وأهل بيته ، وأصهاره وأنصاره ، وأشياعه ومحبيه وأمته ، وعلينا معهم أجمعين ، يا أرحم الراحمين .

ويروىٰ عن زين العابدين علي بن الحسين أنه كان إذا صلىٰ علىٰ جده صلى الله عليه وسلم . . يقول والناس يسمعونه : اللهم ؛ صل علىٰ محمد في الأولين ، وصل علىٰ محمد

---

(١) ذكره القاضي عياض في « الشفا » (ص٥٦٢ـ٥٦٣) ، وقال السخاوي في « القول البديع » (ص١٢١) : (لم أقف علىٰ أصله) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٠٦) .

(٣) ذكره السخاوي في « القول البديع » (ص١٢٢) وعزاه للنميري أيضاً .

في الآخرين ، وصل علىٰ محمد إلىٰ يوم الدين ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد شاباً فتياً ، وصل علىٰ محمد كهلاً رضياً ، وصل علىٰ محمد رسولاً نبياً ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد حتىٰ يرضىٰ ، وصل علىٰ محمد بعد الرضا ، وصل علىٰ محمد أبداً أبداً ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد كما أمرت بالصلاة عليه ، وصل علىٰ محمد كما تحب أن يصلىٰ عليه ، وصل علىٰ محمد كما أردت أن يصلىٰ عليه ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد عدد خلقك ، وصل علىٰ محمد رضا نفسك ، وصل علىٰ محمد زنة عرشك ، وصل علىٰ محمد مداد كلماتك التي لا تنفد .

اللهم ؛ وأعط محمداً الوسيلة ، والفضل والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، اللهم ؛ أعطه برهانه ، وأفلج حجته[١] ، وأبلغه مأموله في أهل بيته وأمته .

اللهم ؛ اجعل صلاتك وبركاتك ورأفتك ورحمتك علىٰ محمد حبيبك وصفيك ، وعلىٰ أهل بيته الطيبين الطاهرين ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد أفضل ما صليت علىٰ أحد من خلقك ، وبارك علىٰ محمد مثل ذلك ، وارحم محمداً مثل ذلك ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد في الليل إذا يغشىٰ ، وصل علىٰ محمد في النهار إذا تجلىٰ ، وصل علىٰ محمد في الآخرة والأولىٰ ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد الصلاة التامة ، وبارك علىٰ محمد البركة التامة ، وسلم علىٰ محمد السلام التام ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد إمام الخير ، وقائد الخير ، ورسول الرحمة ، اللهم ؛ صل علىٰ محمد أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

اللهم ؛ صل علىٰ محمد النبي الأمي ، العربي القرشي ، الهاشمي الأبطحي ، التهامي المكي ، صاحب التاج والهراوة ، والجهاد والمغنم ، صاحب الخير والمَيْر[٢] ، صاحب السرايا والعطايا ، والآيات المعجزات ، والعلامات الباهرات ، والمقام المشهود ، والحوض المورود ، والشفاعة والسجود للرب المحمود .

اللهم ؛ صل علىٰ محمد بعدد من صلىٰ عليه ، وعدد من لم يصل عليه[٣] .

وعن بعض الفضلاء أنه كان يقول : اللهم ؛ اجعل أفضل صلواتك أبداً أبداً ، وأنمىٰ

---

(١) أي : أظهر حجته .

(٢) المَيْر : جلب القوت والطعام .

(٣) انظر « القول البديع » (ص١٢٧ ـ ١٢٩) ، وقد بين أنه لم يقف علىٰ سنده .

بركاتك سرمداً ، وأزكىٰ تحياتك فضلاً وعدداً ، علىٰ أشرف الخلائق الإنسانية ، ومجمع الدقائق الإيمانية ، وطور التجليات الإحسانية ، وواسطة عقد المتقين ، ومقدم جيش المرسلين ، وقائد ركب الأنبياء المكرمين ، حامل لواء العز الأعلىٰ ، ومالك أزمة المجد الأسنىٰ ، ترجمان لسان القدم ، ومعدن العلم والحلم والحكم ، مظهر سر الجود الجزئي والكلي ، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي ، وروح جسد الكونين ، وسر حياة الدارين ، المتخلق بأعلىٰ رتب العبودية ، والمتحقق بأسرار المقامات الاصطفائية ، الخليل الأعظم ، وحبيبك الأكرم ، ونبيك المعظم ، ورسولك الكريم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، سيدنا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا محمد النبي الأمي ، والرسول العربي .

اللهم صل عليه ، وعلىٰ آله وأصحابه ، وأزواجه وذريته ، وأهل بيته وسلم .

وهـٰذا آخر ما يسر الله سبحانه وتعالىٰ جمعه ، وأردت كتبه ووضعه .

اللهم ؛ أخلص فيه النية ، وصحح به القصد الجميل ، وبلغ فيه الأمنية ، وارحم من علمنا ، ولا تخيب رجاءنا فيك ومعتقدنا ، وافعل بنا ما أنت له أهل ، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا ، ولا إلىٰ معرفتنا ؛ إنك علىٰ كل شيء قدير .

وأقول ـ كما قال الإمام الغزالي في آخر « الإحياء » ـ : نستغفر الله من كل ما زل به القدم ، وطغىٰ به القلم في كتابنا هـٰذا ، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا ، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدنا به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلىٰ تصنع وتكلف تزيناً للناس في كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه واستفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع في كتابنا هـٰذا أو كتبه أو سمعه أن يكرم بالمغفرة والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً ؛ فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود علىٰ أصناف الخلق فائض ، ونحن خلق من خلق الله ولا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه[١] .

---

(١) انظر « الإحياء » (٤/ ٥٤٤) .

وأقول : اللهم ؛ جللنا بسترك ، واعف عنا بكرمك ، وعاملنا بلطفك ، واغفر لنا ذنوبنا ، واغفر لمشايخنا ووالدينا ولجميع المسلمين .

اللهم ؛ إن كنا مقصرين في حفظ حقك والوفاء بعهدك . . فأنت تعلم صدقنا في رجاء رِفْدك ، وخالص ودك ، يا من ظهرت معرفته للقلوب فلا يخفىٰ وجوده ، وعم جميع الخلائق كرمه وجوده ، يا أول فلا بداية لأزليته ، ويا آخر فلا نهاية لأبديته ، يا ظاهر بما أبدع من أفعاله ، ويا باطن فالعقول عاجزة عن وصف كماله ، يا قدوس فلا شبيه له ، يا واحد فلا شريك له ، خلقتنا مسلمين فسلمنا من عذابك ، وجعلتنا مؤمنين فآمنا من عقابك ، أعطيتنا الإيمان قبل السؤال وهو أفضل ما تعطيه من النوال ، والكريم لا يرجع في هبته ، والغني لا يعود في عطيته .

اللهم ؛ اجعل الإيمان هادماً للسيئات ، كما جعلت الكفر هادماً للحسنات .

اللهم ؛ إن عصيناك . . فنحن نحبك ، وإن أطعنا إبليس . . فنحن نبغضه ، فاغفر معصيتنا لك بحبنا فيك ، وتجاوز عن طاعتنا له ببغضنا فيه .

إلهي ؛ ببابك أنخنا ، ولمعروفك تعرضنا ، وبكرمك تعلقنا ، وبتقصيرنا اعترفنا ، وأنت أكرم مسؤول ، وأعظم مأمول .

ببـابـك ربـي قـد أنخـت ركـائبـي ... ومـا لـي مـن أرجـوه يـا خيـر واهـب
فإن جدت بالفضل الذي أنت أهله ... فيـا نُجْـح آمـالـي ونيـل مطـالبـي
وإن أبعـدتنـي عـن حمـاك خطيئتـي ... فيـا خيبـة المسعـىٰ وضيعـة جـانبـي
ولكننـي أرجـوك فـي كـل حـالـة ... وليس الذي يرجو حباك بخائب(1)

وقال أيضاً : [من الوافر]

أيـا مـن لا يَخِيـب لـديـه راجـي ... ولـم يُبْـرِمـه إلْحـاح المُنـاجـي
ويـا ثقتـي علـىٰ سـرفـي وجـرمـي ... وإيثـاري التمـادي فـي اللجـاج
أقلنـي عثـرتـي واغفـر ذنـوبـي ... وهب لي منك عفواً واقض حاجي
وقـد أحسنـت ظنـي فيـك ربـي ... فهـأنـا للـرضـا والعفـو راجـي

---

(1) الأبيات من الطويل .

فمـا لـي غيـر إقـراري بجـرمـي | وعفـوك حجتـي يـوم احتجـاجـي
وحبـي سيـدَ الكـونيـن حسبـي | ولسـت لغيـره فـي الخلـق راجـي
فصـل عليـه ألفـاً بعـد ألـف | صـلاة بعضهـا مـلء الفجـاج[1]

* * *

(١) جاء في آخر النسخة (أ) : (تم الكتاب بحمد الله وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين ، وكان الفراغ من نساخته يوم الإثنين ، الحادي والعشرين من شهر القعدة الحرام ، أحد شهور سنة ست وستين وألف من الهجرة النبوية ، علىٰ صاحبها الصلاة والسلام ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم) .

وجاء في هامشها : (وصل علىٰ سيدنا ومولانا محمد وآله وأصحابه ، وذرياته وأنصاره ، وأحبائه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين ، صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ، عدد ما في علم الله ، صلاة دائمة بدوام ملك الله .

اللهم ؛ شفعنا بجاههم وبحبهم آمين لكاتبه وقارئه ومحبه ، واحشرنا تحت لوائهم آمين) .

وجاء في آخر النسخة (ب) : (وصلى الله علىٰ سيدنا محمد النبي الأمي ، الطاهر الزكي ، وعلىٰ آله وأصحابه ، وأزواجه وذريته وأهل بيته وسلم ، كلما ذكره الذاكرون ، وكلما سها عن ذكره الغافلون ، والحمد لله رب العالمين ، آمين يا رب العالمين .

تم الكتاب بعون الملك الوهاب ، وسيدنا محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، رضي الله عنهم أجمعين ، آمين يا رب العالمين) .



فِهرِسُ الأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ القَوليَّةِ والفِعلِيَّةِ



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

مُحتَوى الكِتاب

* * *